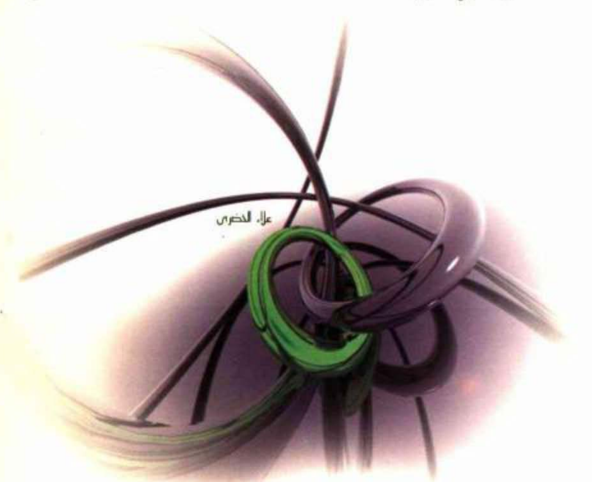


منهج الدعوة في واقعنا المعاصر





الأستاذ الدكتور عبد الحميد هنداوي



الأستاذ الدكتور عبد الحميد هنداوي
الأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة



اسم الكتاب : منهج الدعوة في واقعنا المعاصر
اسم المؤلف : د. عبد الحميد هنداوي

رقم الإيداع : ٥٧٦٢ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولي : ISBN : 977 - 344 - 140 - 7

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار الآفاق العربية
نشر - توزيع - طباعة
٥٥ ش محمود طلعت - من ش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٢٦١٧٣٣٩ - تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
e-mail: darulafk@yahoo.com



تمهيد

١-بين التطور والتطوير

٢- التفريق بين المقاصد والمناهج والوسائل

٣- التطوير بين المقاصد والمناهج

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهـده الله فلا مضل له ، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢]

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

[الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمدﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد، ففي خضم هذا التطور والتغير الهائل الشامل لجميع مظاهر الحياة، كان لابد لنا من وقفة لنتساءل: هل يحتاج المسلمون والدعاة أن يعاودوا النظر في مناهج الدعوة وأساليبها في واقعنا المعاصر بحيث تتواكب مع طبيعة هذا العصر ومقتضياته؟

وإذا كان التطور والتطوير أمرًا لابد منه؛ فما حدود هذا التطوير وما ضوابطه ووسائله...؟

إن هذا البحث يناقش موضوعًا في غاية الأهمية، ألا وهو منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، وهذا يقتضي تأصيل قضية التطور في المنهج والوسائل الدعوية عبر العصور، والوقوف على مدى التغير الحادث في واقعنا المعاصر مما يقتضي ضرورة تطوير المنهج الدعوي والوسائل الدعوية بما يناسب حال المدعوين في العصر الحاضر.

التطور سنة الله في خلقه:

ومن المعلوم أن التطور هو سنة الله في خلقه، فهو قانون من قوانين الخلق الثابتة في مظاهره المختلفة، فالنطفة تنتقل في الرحم من طور إلى طور حتى يخرج الطفل إلى الوجود، ثم يمر بأطوار الخلق إلى أن يصير شيخًا فانيا، وكذلك حضارات الأمم وقوتها وعلومها وثقافاتها تبدأ يسيرة هينة ثم تتدرج حتى تبلغ الغاية، ثم تعود أدراجها إلى الضعف تارة أخرى وهكذا نجد التطور سنة ثابتة في كل مظاهر الكون وهذه الحقيقة أوضح من أن نطيل في البرهنة عليها.

وإذا كان التطور أمرًا ثابتًا في الخلق وفي جميع مظاهر الحياة في الكون، ويشمل جميع مظاهر النشاط الإنساني، كان لابد أن يقع التطور في منهج الدعوة تبعًا لذلك.

فالتطور واقع في أفكار الناس ومذاهبهم وأعرافهم وتقاليدهم، وفي مختلف نظم حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والدينية والفكرية وغير ذلك وإذا كان هذا أمرًا واقعًا لا جدال فيه، فإن التطور واقع لا محالة في تشكيل هذا الإنسان المعاصر في مختلف النواحي السابقة.

وإذا كانت أصول الدعوة ترجع إلى الرسالة المبلغة وهي الإسلام والداعي وهو الرسول ﷺ، والمدعو وهم الذين توجه إليهم الدعوة، وطريقة الدعوة ووسائل التبليغ[1]... إذا كانت أصول الدعوة ترجع إلى هذه الأمور فإن أحد هذه الأصول بلاشك هو الاهتمام بدراسة حال المدعوين ومعرفة تشكيلهم الفكري والثقافي والسياسي والاجتماعي...إلخ.

وهذا يقتضي ضرورة الوقوف على التطور الذي حدث في حياة الإنسان في واقعنا المعاصر حتى يمكن مخاطبته بلسان هذا الواقع، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[2]، وذلك أن معنى اللسان يمكن أن يتسع ليشمل ثقافة

---

(١) انظر: مقدمة كتاب أصول الدعوة للدكتور/ عبدالكريم زيدان- دار الوفاء- المنصورة- ١٤٠٨ هـ-١٩٨٧م.

(٢) إبراهيم:٤.

العصر والبيئة التي تتجه الدعوة إليها.

وهـــذا المعـــنى قد ألمح إليه كثيرًا بعض المعاصرين من أفاضل الدعاة، وأحب أن أزيد عليه، أو أضيف إليه تأييدًا وتأكيدًا له أن اللسان هنا يراد به لغة القوم الذين تتوجه الدعوة إليهم، وذلك باتفاق المفسرين فيما وقفت عليه من كتب التفسير[1].

فأقـــول إذا كـــان اللسان هنا إنما يراد به اللغة باتفاق فلاشك أن لغة الأقوام إنما تتأثر بمعطـــيات العصر وظروفه وأحداثه وفيما يحدث فيه من تقدم علمي وفكري ومادي وهذا شـــيء ملاحـــظ لا مرية فيه حيث يغلب على لسان الناس في المجتمعات والمدن العمرانية المـــتقدمة أو الـــتي قطعت شوطًا في مضمار الحضارة –يغلب على لسانهم وكلامهم ذكر أسمـــاء المخترعات والتقنيات الحديثة بما يؤدي إلى قدر كبير من الصعوبة في الفهم للغتهم ممـــن يـــتعامل معهـــم من أهل القرى والنجوع والكفور ومن لم تصل إلى أيديهم تلك المخترعات والتقنيات.

ولـــو أن إنـــسانًا بعث من القرن الماضي لاستحال التخاطب والتواصل بينه وبـــين قـــومـــه مـــن أبنائه وأحفاده ممن دخل لغتهم وكلامهم العديد من المصطلحات الخاصة بأحـــداث هـــذا القـــرن وتطـــوراته السياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية والفكرية والاجتماعية...إلخ.

يستحيل إذًا أن تتطور الحياة بكل أبعادها ويتطور لسان الناس فكريا وثقافيا وحضاريا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا...إلخ.

ولا يـــتطور لسان الداعي ولغته بما يناســـب هذا التطور إلا إذا كان هذا الداعي من قـــرن غـــير هذا القرن، ومن عصر غير هذا العـــصر، ومن بيئة غير هذه البيئة، فما دام الداعـــي واحـــدًا من عناصر هذه البيئة فمن الضروري أن يكون متأثرًا بتلك العوامل التي تأثـــرت بهـــا تلـــك البيـــئة، وأن يخاطـــب الـــناس بلسان قومه فكريا وثقافيا وسياسيا واجتماعيا...إلخ.

---

(١) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن كثير- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة- (٥٢٣/٢).

فلا يخاطبهم بلسان آخر غير لسانهم لا يعرفونه، لسان مضت عليه قرون عديدة تؤدي إلى انقطــاع التواصل بينه وبين قومه، فلا يفهمه ولا يتواصل معه إلا من علك لغة القرون الأولى بقوة لحييه، وقليل ما هم.

إذًا فــتطور منهج الدعوة وتطوير وسائلها أمر بدهي يتفق مع تطور البشر في مختلف مناحي حياتهم وتكوينهم الفكري والثقافي والاجتماعي...إلخ.

كــان من البديهي أن أبدأ حديثي ببيان المقصود بالتطور في مناهج الدعوة ووسائلها، ولكــني بدأت بالتدليل على ضرورة التطور، وذلك لعلمي أن ثمة طائفة من الناس لا تقبل هذه الكلمة، ولا تريد أن يطرق آذانها حديث عنها، فهي ترفض التطوير، وتجحد التطور أيــا كــان لا تعترف به ولا تقرّه، ومن ثم فهي ليست بحاجة إلى سماع تفسير له ولا بيان للمقــصود مــنه؛ لأنه مرفوض لديها برمته أيًا كان نوعه، وأيًا ما كان المراد منه، فلذلك رأيــت أن أبــدأ بهذه العجالة السريعة التي تقرر ضرورة التطور وإن كنت أعلم أن هذه العجالــة لا تشفي أمثال هؤلاء فأنا أعرض لهم هنا لمحة سريعة وطرفًا يسيرًا من مقتضيات التطويــر في مــنهج الدعوة مع إحالتهم إلى فصول هذه الرسالة ومباحثها التي توصل لهذا الأمــر وتــبين وقوعه فعلاً عبر العصور، وترصد المسيرة المباركة لأهل السنة والجماعة في مــنهج دعــوتهم إلى الله تعالى وكيف كان هذا المنهج يتوافق مع العصر الذي يعيشه ومع حال المدعوين في ذلك العصر.

المقصود بدراسة التطور:

ولعــلّ بعــض هؤلاء الرافضين للتطوير والتطور يكون قد لانت عريكته فيبدأ فيسأل علــى ســبيل المصادرة فيقول: فما مقصودك بهذا التطور وهذا التطوير في مناهج الدعوة ووسائلها وما مرادك منه؟

فأقــول لــه: إن الــتطــور في مناهج الدعوة ووسائلها أمر واقع لا محالة، والمقصود بدراسة هذا التطور هو الرصد التاريخي لمســيرة الدعوة في عصورها المختلفة وبيان كيفية الدعــوة والمــواجهة في كل عصر من هذه العصــور من اختلاف حال المدعوين في كل

عصر عن العصر الذي يليه فكريا وثقافيا وسياسيا واجتماعيا ودينيا واقتصاديا...إلخ.

وهذا أمر يراد منه تأصيل وقوع هذا التطور، والدلالة على شرعية التطوير وجوازه بل وجوبه وضرورته في مناهج الدعوة ووسائلها.

معنى التطوير والتطور:

والتطوير غير التطور، فالتطور سنة واقعة في الكون.

أما التطوير فهو فعل البشر بتقدير الله تعالى وهو أمر ننشد حدوثه في منهج الدعوة إلى الله تعالى ووسائلها في واقعنا المعاصر. **والمقصود بالتطوير في مناهج الدعوة ووسائلها هو** إحداث نوع من التوافق والتكيف بين طريقة الدعوة ووسائل عرضها وبين ما حدث في حياة الأمم والشعوب من متغيرات شملت جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والعلمية والدينية وغيرها.

وهذا يعني أن التطوير هنا يقتصر فيه على مناهج الدعوة ووسائلها دون المساس بمقاصدها الأساسية وأصولها وحقيقتها وركنها الأصيل، مما سوف يكشف عنه البحث في صفحاته القادمة.

١- التفريق بين المقاصد والمناهج والوسائل

المقصود بمنهج الدعوة ووسائلها:

المنهج والمنهاج في اللغة يراد به الطريق الواضح البين[1]، والمقصود بمنهج الدعوة إذاً طريقها الواضح البين الذي لا يلتبس على السالك فيه.

فالمنهج والمنهاج إذاً يراد به الطريق، والمقصود هنا بالمناهج الدعوية بيان طرق الدعوة ومعالمها التي رسمها الكتاب الكريم، وبينت أصولها السنة النبوية، وبها اهتدى الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما الوسيلة في اللغة فالمراد بها ما يقرب إلى المراد ويوصل إليه، يقال: "وسلت إلى ربي وسيلة : أي عملت عملاً أتقرب به إليه"[2]، ومن ثم فالمقصود بالوسائل الدعوية ما يبلغ الداعي ويوصله إلى تحقيق مقصود الدعوة وغايتها.

والوسائل والمناهج كلاهما يوصل إلى تحقيق مقاصد الدعوة وغايتها غير أن المنهج يختص ببيان طرق الدعوة ومسالكها وكيفية تبليغها، أما الوسيلة فتختص بالأداة التي تتخذ لتبليغ الدعوة وتوصيلها للناس.

ومدار الوسائل كلها قديمها وحديثها على أمرين اثنين تتفرع منهما سائر الوسائل القديمة والحديثة، وهذان الأمران هما:

---

(١) قال صاحب العين: "نهج: طريق نهج: واسع واضح وطرق نهجة. ونهج الأمر وأنهج – لغتان- أي: وضح. ومنهج الطريق: وضحه. والمنهاج: الطريق الواضح. قال:

وأن أفوز بنور أستضيء به ... أمضي على سنة منه ومنهاج"

[الخليل بن أحمد: العين- تحقيق: د/ عبدالحميد هنداوي- دار الكتب العلمية- بيروت- (٤/٢٧٠-٢٧١)].

(٢) قال صاحب العين: "وسل: وسلت إلى ربي وسيلة، أي: عملت عملاً أتقرب به إليه، وتوسلت إلى فلان بكتاب أو قرابة، أي: تقربت به إليه، قال لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... بلى كل ذي لب إلى الله واسل"

[السابق- (٤/٣٧٠-٣٧١)].

١-المخاطبة.

٢-المكاتبة.

فالمخاطبة تشمل جميع صور الخطاب الدعوي في القرون الماضية كما تشمل جميع وسائل الدعوة الخطابية الحديثة؛ مثل: الإذاعة والتلفاز والهاتف وأشرطة الكاسيت والفيديو والأقراص الممغنطة (CD)، والأقمار الصناعية وشبكة الإنترنت وغير ذلك مما تكون الوسيلة الدعوية فيه هي الخطاب الموجه إلى المدعو أيًا كان نوع هذا الخطاب.

أما المكاتبة فتشمل جميع وسائل الدعوة الكتابية القديمة؛ مثل: الكتب والرسائل، أو الحديثة مثل: الصحف والمجلات والفاكس والبريد الإلكتروني عبر شبكة الإنترنت ونحو ذلك.

أما المنهج الدعوي: فالمقصود به طريقة التبليغ من حيث الاعتماد على الحكمة أو الموعظة الحسنة أو المجادلة أو المحاجة والمناظرة، أو من حيث الاعتماد على التأثير الوجداني بالترغيب أو الترهيب أو الإقناع العقلي بالدعوة إلى التفكير والتأمل واستخدام الأقيسة المنطقية الفطرية والأدلة العقلية الضرورية.

أو من حيث اختيار طريق الدعوة الجماعية أو الفردية، أو اختيار الجهرية أو السرية.

أو من حيث الاعتماد على طريقة التقرير والسرد، أو التصوير البياني، أو الأساليب البلاغية أو استخدام التمثيل أو القص، مع رعاية المحاكاة أو التماثل أو التقارب اللغوي والفكري بين الداعي والمدعو ما أمكن.

أو من حيث الإجمال أو التفصيل في عرض مقاصد الدعوة ومفاهيمها وحقائقها بحسب الأشخاص والأحوال والظروف والبيئات.

كما يدخل في منهج الدعوة كذلك اختيار الوسيلة أو الآلية أو الأداة المناسبة لتبليغ الدعوة، كاختيار وسيلة خطابية أو كتابية، وتحديد نوع الوسيلة الخطابية أو الكتابية، فلا شك أن ذلك كله يعد من منهج الدعوة أي من طريقها، ومن ثم يمكن أن تعد

الوســائل بذلك جزءًا من المنهج من هذه الجهة، أي: من جهة اختيار الداعي لبعض هذه الوسائل دون بعض، وكيفية إعماله لهذه الوسائل، أو الترتيب بينها[1].

كــذلك يمكــن النظر إلى منهج الدعوة من حيث طرق الدعوة ومسالكها المختلفــة علــى أنهــا وسائل توصل إلى غايات الدعوة ومقاصدها، ومن ثم يمكن أن تسمى هــذه الطــرق كلــها وسائل متنوعة؛ فبعض هذه الوسائل يرجع إلى اختيار آلية الدعــوة أي وســيلة التبلــيغ، وبعــضها يرجع إلى اختيار وسيلة التأثير من حيث التأثير الوجداني أو الإقــنــاع العقلــي، أو السرية والجهرية، أو الإجمال والتفصيل أو نحو ذلك باعتبار هذه كلــها وسائل لتبليغ الدعوة، ولا مشاحة في الاصطلاح، ومن ثم يقع التسامح في تسمية الوســائل والمــناهج لما بينهما من التداخل، وذلك لأن الوسيلة جزء من المنهج، والمنهج يــضــم عددًا من الوسائل، وإذا كانت المناهج والوسائل كلاهما ينحو نحو تحقيق مقاصد الدعــوة وغاياتهــا، فمن الضروري أن نتعرض كذلك لبيان مقاصد الدعوة التي تتجــه المــناهج والوسائل لتحقيقها، وحتى لا يلتبس الأمر على الناظر في هذه الدعوة إلى التطور فيحــسب أن المقــصود هــو تحقــيق التطور في مقاصد الدعوة ذاتها وأصولها وأركانها وحقيقــتها، فأردنــا أن نــبين له في هذه المبادئ أن المقصود بالتطوير إنما هو في المناهج والوســائل فقــط أي: طرق العرض والأدوات المستخدمة لعرض الدعــوة وبيانها لا في حقــيقة الدعوة ذاتها. ولذلك فسوف نناقش الآن مسألة مهمة، وهي هل يدخل التطــور في مقاصد الدعوة ذاتها؟

وإذا كــنا قد صادرنا بالإجابة بالنفي في هذا الأمر فإن في الأمر تفصيلاً يتعلق بمنهجية عرض تلك المقاصد، ولذلك عقدت المبحث التالي.

---

(١) وهــذا مــا سوف يعتمده البحث في خطة دراسته؛ حيث يجمع بين المنهج والوسائل في دراسة واحدة.

٢- التطوير بين المقاصد والمناهج

مقاصد الدعوة:

مقاصد الدعوة هي الغايات والأهداف التي تتجه إليها الدعوة الإسلامية، فهي الأمور التي يدعا إليها الناس، وهي الرسالة التي يبلغها الدعاة لهم، وهي حقائق هذا الدين وركائزه وأركانه وأسسه.

وهذه المقاصد هي الغايات التي أرسل الله تعالى لها الرسل، وأنزل لأجلها الكتب، وأمر بدعوة الناس إليها، وخلقهم لأجل العمل لها، وهي الغاية التي عبر الله تعالى عنها حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وهذه المقاصد أمور واحدة لا تختلف أو لا ينبغي أن تختلف من دعوة إلى دعوة، ولا من رسول إلى رسول، ولا من أمة إلى أمّة.

وإنما يقع الاختلاف أو التغير والتطور في طريقة عرضها.

فالدعوات ينبغي أن تكون شاملة للدين كله، ومن ثم لا يتصور وقوع اختلاف بين الدعوات في حقائقها ومقاصدها، ولكن إذا نظرنا إلى تلك الدعوات من حيث ما يقع فيها من إجمال لبعض الأمور وتفصيل لبعضها بحسب حاجة الأقوام واختلاف ظروفهم وأحوالهم، فإنه يمكن أن يتصور الاختلاف والتغير والتطور في عرض المقاصد من هذه الجهة أي من حيث ما يقع في الدعوة إليها من الإجمال والتفصيل، وإن كان ثمة وجوه اختلاف كثيرة تكون بين الدعوات باختلاف الزمان والمكان، وإنما نظرنا الآن من جهة ما يدعا إليه من المقاصد وهل يدخلها ذلك الاختلاف والتفاوت ومن ثم يلحقها التغير والتطور أم لا؟

١-مقاصد الدعوة ومناهجها بين الثبات والتطور:

إن المتتبع لدعوة الرسل الكرام في القرآن الكريم، ودعوة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه في القرآن الكريم والسنة المطهرة يلاحظ ثبات "الأساس الذي قامت عليه

---

(١) الذاريات:٥٦.

دعـــوة كل منهم، وهو الدعوة إلى توحيــد الله وعبادته، وأن ما كان بينهم من اختلاف إنمــا هو في طريقة عرض الدعوة، وطـــريقة إقامة الحجة على صحتها بالأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة بالأسلوب الذي يتلاءم مع قوم كل منهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُــولٍ إِلا بِلِســَانِ قَــوْمِهِ لِيُبَــيِّنَ لَهُمْ﴾[1] وكيفية الحوار الذي دار بين كل رسول وقومه"[2].

فالمــتأمل في كتاب الله تعالى يلاحظ أن مقاصد الدعوة إلى الله تعالى واحدة لا تختلف مــن رسول إلى رسول ولا من نبي، إلى نبي أما منهج الدعوة فقد كان متنوعًا في أسلوبه وطـــريقته ووسائله حسب حال كل جماعة وأمّة من هذه الأمم، الذين بعثت إليهم رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا.

وسوف نبين الأدلة على ذلك بشيء من التفصيل:

مقاصد الدعوة إلى الله تعالى وثباتها عند جميع الرسل:

إن المـــستقرئ لكـــتاب الله تعالى يلاحـــظ أن دعوة الرسل جميعًا قد اجتمعت على مقـــصد واحد، ألا وهو تعبيد النـــاس لرب العالمـــين وإفراده بالعبودية، هذا هو المقصد الأساســـي الـــذي جاءت به دعوة كل رسول إلى قومه؛ حيـــث نجد أن جميع الرسل قد دعـــوا قـــومهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وقد اتحدت دعوتـــهم في ذلك حتى عبر عنها القـــرآن الكـــريم بجملة واحدة لا تكاد تـــختلف في التعبير عن دعوة الرسل جميعًا على اخـــتلاف ألـــسنتهم، وهي قوله تعالى على ألسنة الرسل: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[3].

فنوح -عليه السلام- يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

---

(١) إبراهيم:٤.

(٢) د/عـــبدالوهاب عبدالعاطي عبدالله: مناهج أولي العزم من الرسل في تبليغ الدعوة على ضوء ما جاء في القرآن الكريم- دار الطباعة المحمدية بالأزهر- ط١ (١٤١٢هـ-١٩٩١م)- (ص٤-٥).

(٣) الأعراف:٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود:٥٠، ٦١، ٨٤، المؤمنون:٢٣، ٣٢.

وهود -عليه السلام- يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

وصالح -عليه السلام- يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

وشعيب -عليه السلام- يقول لقومه:﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

وإبراهيم عليه السلام يقول لقومه:﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

ومحمد ﷺ يقول لقومه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

وقد عبر القرآن الكريم كذلك عن اتحاد هذه الدعوة في هذا المقصد بعبارات مختلفة كلها تعبر عن معنى واحد، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[4].

وهذا المقصد الأساسي يتفرع عنه مقاصد أخر كلها تبع له ومحققة لمقصوده وغايته ومؤازرة له، وليست مخالفة ولا مضادة؛ فمن هذه المقاصد:

١-دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده:

الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده تتضمن بلاشك الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى أولاً ومعرفته بأسمائه وصفاته الحسنى، وهذا يقتضي استكمال جميع أركان الإيمان، فتتضمن الدعوة إلى الإيمان: الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

---

(١) العنكبوت:١٦.

(٢) البقرة:٢١.

(٣) النحل:٣٦.

(٤) الأنبياء:٢٥.

ومن ثم تكررت الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشـره في كـتاب الله تعالى على ألسنة الرسل، وفي سنة النبي ﷺ كما في حديث جبريل وغيره من الأحاديث[1].

قـال تعالى: ﴿الـم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنـزِلَ مِـنْ قَـبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنـزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[4].

وقـال تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[5].

كما تكررت الآيات الداعية إلى توحيد الله تعالى في كثير من المواضع:

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾[6].

---

(١) حديث جبريل، أخرجه البخاري في "الإيمان"، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان- (٥٠)، ومسلم في "الإيمان"، باب: بين الإيمان والإسلام والإحسان-(٨) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- وأخرجه مسلم في الموضع السابق- (٨) من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه.

(٢) البقرة:١-٥.

(٣) النساء:١٣٦.

(٤) الحديد:٧.

(٥) التوبة:١٨.

(٦) النساء:٣٦.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[2].

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ...﴾[3].

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4].

والآيات في هذا المعنى كثيرة أكثر من أن تحصى.

٢-حث الناس على الاتباع وطاعة الرسل:

وذلك أن طاعة الرسل هي السبيل الوحيد إلى عبادة الخالق كما يحب ويرضى.

ومن ثم تتضافر الآيات على الأمر بطاعة الرسل واتباع المرسلين:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[5].

﴿يأيها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾[6].

﴿يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[7].

---

(١) آل عمران:٦٤.

(٢) النحل:٥١.

(٣) الإسراء:٢٣.

(٤) لقمان:١٣.

(٥) آل عمران:١٣٢.

(٦) النساء:٥٩.

(٧) الأنفال:٢٤.

وصاحب (يس) يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[1].

ومن ذلك قوله تعالى على ألسنة العديد من الرسل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2].

وهذه الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، وطاعة رسله هي مضمون دعوة الإسلام؛ لأن النبي ﷺ حينما سئل عن الإسلام في حديث جبريل المشهور[3] عرفه بما يتضمن الإتيان بتوحيد الله تعالى وعبادته -وهو مقتضى شهادة التوحيد- والإتيان ببقية الأركان العملية المتضمنة لطاعة الرسول في مباني الإسلام وأركانه، كما أن الشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ تقتضي تصديقه في كل ما أخبر به وطاعته في كل ما أمر به، إذ إن هذا هو مقتضى الشهادة له بأنه رسول من عند الله.

وإذا كانت الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته بطاعة رسوله هي مضمون حقيقة الإسلام ومقتضى الدخول فيه، فإن جميع الرسل بلا استثناء قد دعوا أقوامهم إلى الإسلام لله تعالى؛ إذ إن حقيقة الإسلام هي الانقياد والاستسلام لله رب العالمين وإخلاص العبادة له، وهذا إنما يقتضي توحيده بالعبادة وطاعة رسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا.

والآيات مستفيضة في الدلالة على أن الدعوة إلى الإسلام هي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم أبي البشر إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[5].

---

(١) يس: ٢٠-٢١.

(٢) آل عمران: ٥٠، الشعراء: ١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩، الزخرف: ٦٣.

(٣) تقدم تخريجه قريبًا.

(٤) آل عمران: ١٩.

(٥) آل عمران: ٥٨.

وقـــال تعـــالى على لسان إبراهيم -عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

ويقـــول عن إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- في دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2].

وقـــال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْـــدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[4].

وقـــال تعـــالى علـــى لـــسان الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[5].

٣-تزكية الأنفس:

جعل الله تعالى تزكية الأنفـــس من صميم دعوة الرسل ومن مقاصدها العظام، فقال تعـــالى: ﴿كَمَـــا أَرْسَـــلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُـــمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِـــتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِـــنِينَ إِذْ بَعَـــثَ فِـــيهِمْ رَسُـــولا مِنْ أَنْفُسِـــهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِـــتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَـــثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

---

(١) البقرة:١٣١.

(٢) البقرة:١٢٨.

(٣) البقرة:١٣٢.

(٤) البقرة:١٣٣.

(٥) آل عمران:٥٤.

(٦) آل عمران:١٦٤.

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].

ومن ثم يتضح بلاشك أن من المقاصد المهمة للدعوة التي تحقق مقصدها الأساسي وهو تعبيد الناس لرب العالمين: تزكية النفوس وتطهيرها من أدران الشرك والإلحاد، ومن بدع الاعتقادات والعبادات ومن رديء الأخلاق، وذميم الخصال، وتحليتها بما فيه صحة القلوب وسلامتها من صحة الاعتقاد، وصحيح الإيمان والتوحيد، وصحة النسك والعبادة وسلامتها، وجميل الأخلاق والخصال وحسن الفعال الذي ترجع غايته إلى إصلاح العلاقة مع الله، وإصلاح العلاقة مع الناس.

ومن الجدير بالذكر أن ننبه إلى أن تزكية النفوس وتطهيرها وإصلاحها وتنمية جوانب الخير فيها، كل ذلك يرادف مفهوم الإحسان الذي هو الدرجة العليا من درجات الدين، كما جاء في حديث جبريل.

ومن ثم فإن الدعوة تكون إلى هذه المراتب الثلاثة:

١-الإسلام.

٢-الإيمان.

٣-الإحسان.

فالدعوة إلى الإسلام دعوة إلى التوحيد، وإلى طاعة الرسل بالالتزام العملي بأركان الإسلام وواجباته.

والدعوة إلى الإيمان دعوة إلى حقائق الدين وأصوله وأركانه وتثبيتها في القلب، وذلك بالالتزام العملي بأحكام هذا الدين؛ لأن الإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

والدعوة إلى الإحسان دعوة إلى تزكية النفس وتطهيرها وتحليتها بالفضائل والكمالات[2].

---

(١) الجمعة:٢.

(٢) هذا هو ما يقتضيه معنى التزكية لغة وشرعًا، ولنا عود لتجلية حقيقة التزكية وكيفية ممارستها في الحديث عن معالم المنهج الدعوي في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومما يجدر التنبيه إليه أن هذه المنازل والمراتب ليست مراحل منفصلة يستقل بعضها عن بعض كما يتصور البعض، أو يدعى إليها واحدًا واحدًا بل الحقيقة أنها أقرب إلى التداخل والتكامل، وأن الداعي يدعو إليها جميعًا، وإن كانت حكمة الدعوة تقتضي التركيز على إحدى هذه المراحل أو المنازل في وقت معين أو لشخص معين.

فبالنسبة للمبتدئ مثلا يركز الداعي على تثبيته في درجة الإسلام بتعريفه حقيقة التوحيد ودعوته إلى الالتزام بمبادئ الإسلام وأركانه.

وإن كان ذلك لا يمنع من تعريفه بما يجب عليه من حقائق الإيمان، وما ينبغي له من تزكية نفسه وتطهيرها وإصلاحها، غير أنه في هذه المرحلة أحوج إلى تعلم الإسلام والتركيز في دعوته على هذه الدرجة بالذات، وهكذا.

هذه هي أهم مقاصد الدعوة الأساسية التي دعا إليها الرسل، وهذه المقاصد أمور ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان؛ لأنها تمثل صلب هذا الدين وأساسه ولُبَّ حقيقته فلا يقع فيها شيء من الاختلاف، وإنما قد يقع الاختلاف في عرض تفاصيل تلك المقاصد.

وذلك لأن الدعوة إلى عبادة الله تعالى إنما هي دعوة إلى التزام شرائعه، وهذه الشرائع معلوم أنها تتغير وتختلف من شريعة لأخرى ومن رسول لآخر بحسب اختلاف الأقوام والزمان والمكان.

وحتى في الشريعة الواحدة فإن الأمر الواحد قد يختلف حكمه بحسب ما يعرض له من الظروف والملابسات؛ فالنكاح مثلا قد يكون مباحًا لشخص تتوفر فيه شروط إباحته وتنتفي موانعها، وقد يكون حرامًا على شخص آخر لا تتوفر فيه تلك الشروط أو تمنعه منه بعض الموانع، وقد يكون واجبًا في حق شخص يخشى على نفسه العنت والوقوع في الحرام، مستحبا لمن هو دونه، مكروهًا لمن يظن منه الوقوع في الجور ونحوه.. وهكذا.

والمقصود هنا هو بيان تفاوت الشرائع بحسب اختلاف الأحوال والأقوام والبيئات والأزمان، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يلزم أن تختلف الدعوة إلى تفصيل تلك المقاصد عبر العصور المختلفة بحسب حاجة الأقوام إلى تفصيل تلك الأحكام، ومن ثم يدخل

التطوير في تفصيل تلك المقاصد لا في المقاصد نفسها على الإجمال.

ويكـــون ذلـــك الاختلاف والتطوير إنما هو اختلاف في منهج الدعوة لا في الدعوة نفـــسها، بمعنى أنه اختلاف في طريقة العرض، وليس اختلافًا في جوهر الدعوة وحقيقتها وأصولها ومقاصدها.

والدليل على ذلك واضح من بيان القرآن الكريم منهج الرسل في دعوة أقوامهم، حيث نلاحظ أن الرسل جميعًا قد اتفقوا في الدعوة إلى المقاصد الأساسية؛ حيث دعوا جميعًا إلى عـــبادة الله تعـــالى وحده وتقواه وطاعة رسله، ثم اختلفت دعوتهم بعد ذلك إلى الشرائع والأحكام التي هي تفصيل الدعوة الإجمالية بعبادة الله تعالى.

والـــسبب في ذلـــك يرجع إلى اختلاف البيئات، فلكل بيئة ظروفها من حيث طبيعة هؤلاء الأقوام وما تفشى فيهم من الأمراض والفواحش، وما دخلهم في عبادتهم من البدع والمنكرات.

فهـــؤلاء قـــوم يعبدون التماثيل المنحوتة من الأحجار ويصورونها على صورة الرجال الصالحين.

وهؤلاء قوم يعبدون الملائكة ويصورون صورًا مزعومة لهم يدعونها من دون الله تعالى.

وهؤلاء قوم يعبدون الكواكب والنجوم.

وهؤلاء قوم يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله.

وهؤلاء يطوفون بالبيت عراة.

وهؤلاء يجعلون صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية.

وهؤلاء يستحلون التعامل بالربا.

وهؤلاء يستحلون تطفيف الكيل والميزان.

وهؤلاء يستحلون أكل أموال الناس بالباطل.

وهؤلاء يستحلون اللواط وإتيان الرجال شهوة من دون النساء.

وهؤلاء يستحلون الخمر والمعازف والقينات.

وقد جاء القرآن بكل ذلك:

فقال عن قوم هود:﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[1].

وقال عن قوم صالح:﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2].

وقال عن قوم لوط:﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[3].

وقال عن قوم شعيب:﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4].

وقال عن قوم إبراهيم:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾[5].

---

(١) الأعراف: ٧٠-٧١.

(٢) الأعراف: ٧٤-٧٧.

(٣) الأعراف: ٨٠-٨١.

(٤) الأعراف: ٨٤-٨٥.

(٥) الأنبياء: ٥١-٥٥.

ومن ثم تبين أن مقاصد الدعوة التي يدعو إليها الرسل وأتباع الرسل جميعًا هي واحدة متفقة لا تختلف من زمان لآخر أو من مكان لآخر أو ينبغي أن تكون كذلك لا تختلف.

أما تفصيل تلك المقاصد من جهة ما يدعا إليه من الشرائع والأحكام على التفصيل والتفريع فهذا هو ما يقع فيه الاختلاف بحسب الأحوال.

ولما كان ذلك راجعًا إلى نظر الداعي واجتهاده من وجهة نظره فيما يحتاج إليه المدعوون فيجمل في أمر ويفصل في آخر، وذلك بحسب ما تدعو إليه مصلحتهم الأخروية والدنيوية، وبحسب ظروفهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، وبحسب ما هم واقعون فيه من البدع والمخالفات والمنكرات في العقائد والعبادات والأخلاق والآداب والمعاملات؛ لذا فسوف نقوم برصد سير الدعوة وتطورها في العصور المختلفة لنقف على ما حدث من تطور في منهجها ووسائلها عبر تلك العصور وما تعرضت له مقاصد الدعوة من الإجمال والتفصيل لبعض مقاصدها بحسب اختلاف الظروف والبيئات.

الفصل الأول

الرصد التاريخي لمنهج الدعوة وتطوره عبر العصور

لا شـــك أن منهج الدعوة إلى الله تعالى يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال، فلكل زمان ملامحه، ولكل مكان خصائصه، ولكل مجتمع سماته وطبائعه.

وبتعـــبير آخـــر يـــتغير مـــنهج الدعـــوة ويتطور بحسب مقتضيات العصر وأحوال المجتمعات.

فإذا تتبعنا تاريخ الإسلام منذ بعثة النبي ﷺ إلى عصرنا هذا، واستقرأنا واقع المجتمعات والعـــصور الإســـلامية طيلة أربعة عشر قرنًا من الزمان، لوجدنا هذا الاختلاف الدعوي واضحًا تمامًا.

وهذا يقتضي أن نلقي نظرة سريعة على الظروف المحيطة بكل عصر من عصور الدعوة الإسلامية لنرى إلى أي حد تأثرت الدعوة الإسلامية في هذا العصر بتلك الظروف المحيطة به.

الظروف المحيطة بالدعوة في عصر النبوة:

حالة العرب قبل ظهور الإسلام:

إذا أردنـــا أن نرســـم صـــورة لأحوال المجتمع العربي قبل ظهور الإسلام ومجيء الدعوة الإسلامية، نقول إن الصورة العامة لهذا المجتمع كانت قاتمة الملامح على جميع المستويات:

أما الحالة السياسية للعرب، فكانت كالآتي:

- لم يكـــن للعرب حكومة أو قضاء يحتكمون إليه، أو "بوليس" يقر الأمن والنظام، أو جيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية.

- لم يكـــن لديهم وحدة سياسية، حيث كانت جمهرتهم بدو رحالة متفرقين في مختلف الأصقاع، متعادين متناحرين لم تضمهم وحدة شاملة، ولا ملك قوي.

-كـــذلك كثـــرت النزاعـــات بين القبائل العربية في الجاهلية بسبب الاختلاف على الـــسيادة أو التسابق على موارد الماء ومنابت الكلأ، فوقعت بينهم حروب كثيرة أريقت فيها الدماء من أشهرها حرب البسوس، وداحس والغبراء، وحروب الفجار.

-كمـــا كـــان الناس بين سادة وعبيد، أو حكام ومحكومين، فالسادة لهم كل الغنم، والعبـــيد علـــيهم كـــل الغرم، وهم في عمايتهم يتخبطون، والظلم ينحط عليهم من كل

جانب، وما في استطاعتهم التذمر والشكوى، بل هم يسامون الخيف والجور والعذاب ألوانًا ساكتين.

وأما الحالة الاجتماعية فكانت في الحضيض من الضعف والعماية، فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصلة، والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانًا، والعلاقة بين الأمّة واهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجل اهتمامها امتلاء الخزائن من رعيتها أو جر الحروب على مناوئيها.

وتكشف لنا السيدة عائشة –رضي الله عنها- صورة من صور هذا الفساد الاجتماعي فتقول: "إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها، ثم ينكحها. ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته –إذا طهرت من طمثها-: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح يسمى: نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، وهو ابن يا فلان، فتسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها. ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات يكن علمًا لمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث الله محمدًا ﷺ هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح أهل الإسلام اليوم"[1].

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٢٣ هـ-٢٠٠٢، ص(٣٨-٣٩). والحديث أخرجه البخاري في "النكاح"، باب: من قال لا نكاح إلا بولي- (٥١٢٧).

كمـــا توضح لنا سورة الأنعام والنحل والإسراء والتكوير صورًا من وأد البنات خشية العار والإنفاق:

قـــال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـــانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾[4].

وأمـــا الحالـــة الاقتـــصادية فتبعت الحالة الاجتماعية، فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تسير إلا إذا سار الأمن والسلام، وكان ذلـــك مفقـــودًا في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم. وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهـــل اليمن والحيرة ومشارف الشام؛ هذا بالإضافة إلى أن الفقر والجوع والعري كان عامًّا في المجتمع.

وأمـــا الحالـــة الدينية فكانت أسوأ حالاً؛ حيـــث كان الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهـــر من مظاهر ديـــن أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم -عليه السلام، من هذه الأصنام: اللات، والعزى، ومنـــاة، وسواع، وكانت لهم تقاليد ومراسم

---

(١) الأنعام: ١٥١.

(٢) النحل: ٥٨.

(٣) الإسراء: ٣١.

(٤) التكوير: ٨.

في عبادة الأصنام منها:

-العكوف عليها والالتجاء إليها، والاستعانة بها عند الشدائد.

-الحج والطواف حولها.

-تقديم القرابين إليها والذبح والنحر لها وبأسمائها.

ولقد حفظت لنا سورة الأنعام والمائدة صورًا من هذا الشرك حيث يقول تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3].

بالإضافة إلى ذلك كانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين كما استطاعت الديانات اليهودية والمسيحية أن تجد لها سبيلاً إلى ربوع العرب بعدما حرّفت تعاليمها وشوهت معالمها.

---

(١) الأنعام: ١٣٦-١٣٨.

(٢) المائدة: ١٠٣.

(٣) يونس: ١٨.

وأمـا الأخـلاق عـند العرب فقد تعارفوا واشتهروا بالكرم والوفاء بالعهد، والعزة والشجاعة والغيرة والحلم والأناة وغيرها من الفضائل المحمودة التي أقرها الإسلام.

وأما الحالة العقلية أو الفكرية فقد نبغ العرب في اللغة والشعر والمثل والقصص برغم كونهم أميين لا يعرفون الكتابة.

وتبوأ الشعر المكانة العظمى بين هذه الفنون حتى قيل "الشعر ديوان العرب"؛ أي يعد الـشعر سـجلاً سـجلت فيه أخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم وعقليتهم وأيامهم وحروبهم واشتهرت القصائد العربية القديمة والتي من بينها المعلقات والمفضليات وغيرها، وهي المثل الأعلى الخالد للشعر العربي في جميع العصور.

وعُـدَّ الشعراء من أرقى الطبقات عقلاً وأبضعهم فكرًا، ولا أدل على ذلك من قصة إسلام الشاعر العربي الفضيل الدوسي.

مناسبة منهج الدعوة في عصر النبوة لظروف عصره:

هذه إطلالة سريعة على صورة المجتمع العربي قبل الإسلام وأحواله المختلفة التي ينتظر من الدعوة الناشئة أن تعالج أوضاعه المختلفة بحكمة وأناة واضعة في اعتبارها طبائع الناس وعاداتهم.

وهـذا مـا حدث بالفعل، **ففي العهد المكي** ركز الرسول الكريم ﷺ على الإصلاح الـديني المتمـثل في بناء العقيدة الإسلامية في النفوس ونبذ عبادة الأصنام، وتخويف الناس بيوم القيامة، وترهيبهم بما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب.

وتنزل الوحي في مكة بالسور والآيات بالسـور والآيات لبيان أصول العقيدة ومعانيها مـثل الإيمان بالله ووحدانيته في الربوبية والألوهية والإيمان بالبعث والحساب، ومآل الناس إلى الجـنة والـنار، وضرورة الإيمان بالرسول واتباعه ووصف آثار الله تعالى في الكون، والتدبر والاعتبار في أحوال الأمم الغابرة.

ودعـا ﷺ كذلك إلى مكارم الأخلاق وإنصاف النساء والعبيد، والمساواة بين الفقير والغني.

كمـا اتبع الرسـول ﷺ في تبليغ دعوته منهج السرية أولاً -نحو ثلاث سنوات- ثم

منهج الجهر بالدعوة بعد ما رأى النواة قد تصلبت، واكتمل بناؤها، وأصبحت مهيأة لتحمل أعباء الدعوة للإسلام في الأرض وعبء المواجهة الكبرى مع أعداء الدين.

كما ركز النبي ﷺ في هذه المرحلة على تربية أصحابه وتقويمهم وفق المنهج القرآني لتزكية الأنفس عن طريق تلاوة القرآن والقيام به ومجاهدة النفس في الله تعالى.

كما اختار النبي ﷺ سياسة الصبر والعفو والصفح مع أعداء الدعوة في هذه المرحلة، ولم ينشغل بشيء سوى تبليغ الدعوة وبيان مقاصدها وتربية أصحابه.

حتى إذا دخل المسلمون مرحلة جديدة -وهي مرحلة بناء الدولة في المدينة وإقامة المجتمع الإسلامي- رأى الرسول ﷺ ضرورة استكمال نواحي الإصلاح، وتفصيل ما أجمل في العهد المكي من أمور العبادة ومبادئ الأخلاق.

فنزل الوحي بالتشريعات والأحكام التي تضبط حياة المسلمين وتنظم علاقات الأفراد فيما بينهم وعلاقتهم بالدولة، فتأصلت أحكام العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، كما تأصلت قواعد ومبادئ الإسلام العامة والشورى والمساواة والعدل وغيرها.

لقد اشتملت آيات القرآن الكريم على الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والأدبي.

كما حرص الرسول ﷺ على الإصلاح السياسي، فجمع قبائل العرب تحت لوائه، وألف بين قلوبهم وقضى على العصبية الجاهلية، فزالت الحزازات القديمة والثارات التي بين القبائل، فخضعوا لحكم النبي ﷺ وأوامر القرآن، وقامت في بلاد العرب حكومة مركزية محترمة عزيزة الجناب، مخوفة الجانب...

وأخيرًا اهتم النبي ﷺ بالسياسة الخارجية للدولة، فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان برسالته مثل هرقل إمبراطور الروم، وكسرى ملك الفرس، والمقوقس عظيم مصر وغيرهم[١].

---

(١) انظر الحديث بالتفصيل عن منهج الدعوة في الفصل الثاني الخاص بمعالم المنهج الدعوي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

الدعوة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين:

وبانقضاء العهد النبوي الكريم، وقيام الخلافة الإسلامية الراشدة، تبدأ الدعوة الإسلامية في طور جديد، حيث يعمل الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان –رضي الله عنهم أجمعين– على نشر الإسلام في ربوع فارس والعراق والشام وفلسطين ومصر والتوسع في الفتوحات الإسلامية.

وحين ظهرت مشكلة الردة في عهد أبي بكر الصديق –ﷺ– تصدى لها الخليفة ومن ورائه جموع المسلمين لمحاربتها واستئصال شأفتها حتى تعود الكلمة العليا للإسلام وذلك بعدما كانوا يبدأون المرتدين بالدعوة إلى الرجوع إلى تعاليم الإسلام الحنيف، وعدم الخروج على كلمة المسلمين، وشق عصا الطاعة.

وهنا نجد أن الدعوة الإسلامية قد اتخذت سياسة الحزم تجاه هؤلاء المرتدين والمعاندين، وقد تجلى هذا المنهج الدعوي الواضح في موقف أبي بكر الصديق الذي عرف عنه اللين والرحمة، فتحول في مواجهة هذه الفتنة إلى الحزم والشدة، وهذه هي حكمة الدعوة التي تقتضي تغير المنهج وتطوره بحسب الظروف والأحوال المحيطة بها.

حتى إذا بلغ الإسلام أشده، ودخل الناس من كل حدب وصوب في الإسلام، أطلت فتن هوجاء وريح عاتية عصفت بالمسلمين أو كادت وشغلت المسلمين في أنفسهم.

بدأت هذه الفتن باغتيال خليفة المسلمين عثمان –ﷺ– ثم تطورت إلى انقسام حاد في صفوف المسلمين إبان خلافة علي بن أبي طالب –ﷺ–، قسم يدعون إلى علي بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام، وقسم يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان، وقسم ثالث قد اعتزل الفتنة وأبى أن يخوض في دماء المسلمين.

وهكذا انقسمت الدعوة بين هؤلاء جميعًا، وذهب كل فريق يدعو إلى الحق الذي يراه، فدعا الإمام علي لمبايعته جموع الصحابة وعلى رأسهم عبدالله بن عباس، وعمار ابن ياسر، وأبو موسى الأشعري...

ودعا معاوية أهل الشام إلى الثأر من قتلة عثمان أولاً، وانضم إليه رهط من الصحابة من بينهم السيدة عائشة وطلحة والزبير وكثير من المسلمين.

كــذلك اعتــزل بعض الصحابة الفتنة ورأوا أن يجنبوا أنفسهم شرور الفتنة ومن بين هؤلاء سعد بن أبي وقاص وابن عمر –رضي الله عنهما–.

صــحيح أن الأمــور قــد تطورت بين الصحابة إلى تصادم كبير في موقعتي "الجمل" و"صفين" إلا أن ذلك لا يقدح في سيرتهم أو تاريخهم بحال من الأحوال، لأنهم جميعًا كانوا مجتهدين في معرفة الحق والوصول إليه مأجورين في ذلك إن شاء الله تعالى، وإن كان فيهم بلاشــك المصيب والمخطئ، ومن عبر عن موقف الدعوة الراشد حينما تعم الفتن، وتدلهم الأمــور، وتلتــبس علــى المــرء فلا يسعه في ذلك الحين إلا اعتزال الفتن ومسالمة جميع المسلمين، وكف الأذى عنهم.

ولم يمــض وقت طويل حتى ظهرت فتنة أخرى حيث انشقت الخوارج والشيعة عن صــفوف المــسلمين وابتدعت أقوالاً غريبة وآراء شاذة في حق إخوانهم؛ فالخوارج قالت بــتكفير مرتكبي الكبائر من المسلمين والعصاة، ونادوا بتكفير علي وعثمان ومعاوية وأبي موسى وعمرو بن العاص ورأوا وجوب الثورة على الإمام الجائر بزعمهم...

والشيعة غالوا في حب علي وآل البيت، وادعوا أن عليًّا هو الإمام الذي عينه الرسول ﷺ بنفسه ونص على تعيينه في مواقف كثيرة.

ولم يجــد علــي بــن أبي طالــب –ﷺ– إزاء هــذا الوضــع إلا أن يواجه هؤلاء ويــسلك معهــم طــريق المــوعظة أولاً وإلا فالقتال هو الوسيلة الناجحة في رد هؤلاء عن غيِّهم وباطلهم.

وبالفعل أمر الإمام علي ابن عباس أن يجادل الخوارج ويناظرهم حتى عاد الكثير منهم إلى صفوف المسلمين.

أخــرج عبدالــرزاق في مصنفه أن عبدالله بن عباس ﷺ قال: لما اعتزلت الحروراء فكانــوا في دار على حدتهم فقلت لعلي: يا أمير المؤمنين، أبرد عن الصلاة لعلي آتي هؤلاء القــوم فــأكلمهم. قال: إني أتخوفهم عليك. قلت: كلا إن شاء الله تعالى. قال: فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية. قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة.

قـــال: فـــدخلت علـــى قوم لم أر قوما قط أشد اجتهادا منهم، أيديهم كأنها ثفن الإبل ووجـــوههم معلمة من آثار السجود. قال: فدخلت، فقالوا: مرحبا بك يا بن عباس، ما جاء بك؟ قلت: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ عليهم نزل الوحي وهم أعلم بـــتأويله فقـــال بعضهم: لا تحدثوه. وقال بعضهم: والله لنحدثنه. قال: قلت: أخبروني ما تـــنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله ﷺ معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثا. قال: قلت: وما هن؟ قالوا أولهن أنه حكم الرجال في دين الله وقد قال الله: ﴿إن الحكم إلا لله﴾[1]. قال: قلت: وماذا قالوا؟ وقاتل و لم يسب و لم يغنم؛ لئن كانوا كفارا لقد حلت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم. قال: قلت: وماذا قالوا؟ محا نفسه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. قال: قلت: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم من سنة نبيه ﷺ ما لا تنكـــرون أترجعون؟ قالوا: نعم. قال: قلت: أما قولكم حكم الرجال في دين الله فإن الله تعالى يقول: ﴿يَاأَيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَـــدْلٍ مِنْكُمْ﴾[2]، وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِـــهِ وَحَكَمًـــا مِـــنْ أَهْلِهَا﴾[3] أنشدكم الله أَحُكْمُ الرجال في حقن دمائهم وأنفسـهم وإصـــلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟ قالوا: اللهم بل في حقن دمائهم وإصـــلاح ذات بينهم. قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم. قال: وأما قولكم: إنه قاتـــل و لم يسب و لم يغنم أتسبون أمكم عائشة أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ فقـــد كفـــرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام إن الله يقـــول: ﴿النَّبِـــيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[4] فأنتم مترددون بين

---

(١) الأنعام:٥٧.

(٢) المائدة:٩٥.

(٣) النساء:٣٥.

(٤) الأحزاب:٦.

ضلالتين فاختاروا أيتهما شئتم أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم. قال: وأما قولكم: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابا فقال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبدالله. فقال: والله إني لرسول الله حقا وإن كذبتموني، اكتب يا علي: محمد بن عبدالله فرسول الله ﷺ كان أفضل من علي رضي الله عنه أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم. فرجع منهم عشرون ألفا وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا"[1].

وهنا ظهرت حكمة ابن عباس -رضي الله عنه- ممثلا صورة من صور المنهج الدعوي في هذا العصر في دعوة الفرق المارقة حيث جادلهم بالسنن الثابتة لديهم التي لا يخالفون في ثبوتها ولا في دلالتها وترك جدالهم بالقرآن لما فيه من وجوه احتمال مع أخذهم بالمتشابه منهم ووقوعهم فيه.

كما نرى كيف اعتمد في مجادلتهم على بديهات العقول وثوابته، وألزمهم بالتناقض في مذهبهم، ودعاهم إلى الرجوع إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن حتى رجع كثير منهم إلى الحق والصواب، ولعل هذا الأثر يلقي بعض الضوء على منهج الإمام علي وابن عباس -رضي الله عنهم جميعًا- في الدعوة إلى الحق في هذه المرحلة.

ثم رأى الإمام ضرورة قتال بقيتهم بعد ذلك ممن لم يقبلوا الهدى و لم تنفع معهم الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة مستندًا إلى نصوص محكمة وقاطعة في وجوب قتال الخوارج، وبالفعل سجلت معركة النهروان انتصارًا حاسمًا للإمام علي -رضي الله عنه- على الخوارج.

كما واجه الشيعة الغالية الذين ادعوا ألوهية علي -رضي الله عنه- فأمر بإحراق قوم منهم في حفرتين، ونفى عبدالله بن سبأ إلى سباط المدائن.

---

(١) عبدالرزاق الصنعاني: المصنف- المكتب الإسلامي بيروت- الطبعة الثانية- (١٤٠٣)- (١٠/١٦٠).

وهكـــذا يأخذ عليّ على عاتقه مواجهة هؤلاء وأولئك وتسخير وسائل الدعوة كافة للقضاء عليهم.

الدعوة الإسلامية في عصر بني أمية:

وبمــضي عهـــد الخلفاء الراشدين بموت الإمام علي بن أبي طالب على هذا النحو، ثم يتبعه عهد جديد مليء بالخلافات والصراعات السياسية والفكرية، هو عهد الخلافة الأموية الـــتي عاشـــت نحـــو تسعين عامًا، شهد المسلمون خلالها حروبًا وثورات عدة، وأفكارًا ومـــذاهب مختلفة اتخذت من الخلاف السياسي وجهة لها ثم انغمست في مباحث العقيدة وتحولت إلى مذاهب عقدية بمرور الأيام وجدير بنا أن نستعرض واقع المجتمع الإسلامي في العهد الأموي الذي يكشف لنا موقف الدعوة من هذه الأحداث.

أمـــا الـــنظام السياسي فقد شهد تحولاً خطيرًا عما كان عليه عهد الخلفاء الراشدين، حـــيث تحول نظام الخلافة الذي يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين، إلى نظام ملكي يقـــوم على أساس التوريث، ويستند إلى السياسة أولاً، وإلى الدين ثانيًا. كما استحدثت الدولـــة الأمـــوية تقالـــيد عديدة في الحكم وكذلك في الشارات، وهي العلامات المميزة لأصـــحاب الـــسلطان، فبنى خلفاء بني أمية القصور، واتخذوا الأسرة والكراسي للجلوس عليها، وجعلوا الحراس تمشي بين أيديهم، وأوجدوا الشرطة لحراستهم... إلخ.

وأما النظام الاجتماعي فقد تغيرت الحياة الاجتماعية عما ألفه المسلمون وغيرهم من الأمم واتساع الدولة الإسلامية، ونزوح الكثير من أهل الأديان الأخرى إلى الإسلام.

ومـــن صـــور ذلك، كثرة اللهو والترف لاسيما في حياة الخلفاء، والتفنن والمبالغة في أمور المعاش من مأكل ومشرب وملبس ونحوها، وظهور مجالس الغناء والطرب التي يحييها المغنون والقيان.. إلخ.

أمـــا الحـــياة الفكرية في خلافة بني أمية فقد تطورت تطورًا سريعًا نتيجة للانحرافات السياسية والاحتكاك بطلائع الثقافات الأجنبية كاليونانية والهندية والفارسية وغيرها.

فتأصـــلت نـــزعة التكفير لدى الخوارج، لاسيما تجاه خلفـــاء بني أميـــة، لما كانوا

يعتقدونه فيهم من العبث بأموال المسلمين، واتخاذ القصور والحراس والحجاب وما إلى ذلك من مظاهر الملك التي اتخذوها عن البلاط البيزنطي، فضلاً عن عدم شرعية الخلافة الأموية.

كما أذكت حادثة استشهاد الحسين -ﷺ- نفوس الشيعة، فامتزج التشيع بدمائهم، وتغلغل في أعماق قلوبهم وأصبحت عقيدة راسخة في نفوسهم، وأصبح تكفير معاوية ويزيد إضافة على الخلفاء الراشدين أصلاً كبيرًا عند أهل التشيع. بل إن الشيعة أنفسهم قد أثر فيهم مصرع الحسين، وانقسموا على أنفسهم إلى عدة فرق.

كما أفرزت الصراعات السياسية في الخلافة الأموية والثقافات الأجنبية أفكارًا ناشئة تمثلت في فكر الجبرية والقدرية والمرجئة والمعتزلة، حيث خاضت كل فرقة في الخلاف السياسي بادئ الأمر، ثم خاضت في أمور العقيدة وأحدثت في الإسلام محدثات عدة أخرجتها من إطار أهل السنة والجماعة، فخاضت الجبرية في القدر بزعامة الجهم بن صفوان، ونفت الصفات الإلهية، وقالوا أن الإنسان مجبور في أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وأن الأفعال تصدر عنه كما ينبت الزرع ويحيا النبات وتمطر السماء وتجري الأنهار.

وكرد فعل لهذه المغالاة في مسألة القدر، ظهرت فرقة أخرى هي القدرية تزعم أن كل فعل للإنسان إنما هو بإرادته المستقلة عن إرادة الله تعالى، وتزعم هذه الفرقة: معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، والجعد بن درهم.

وحين شاع الحديث عن مرتكب الكبيرة ومآله في الآخرة ظهرت فرقة المرجئة، فقالوا بإرجاء أمر صاحب الكبيرة إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، كما قالوا بانفصال الإيمان عن العمل، وزعموا أن الإيمان اعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأوثان، وقالوا عبارتهم المشهورة: "لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع مع الكفر طاعة".

كما ظهرت المعتزلة الذين قالوا بأن مرتكب الكبيرة لا يسمى مؤمنًا ولا كافرًا، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين...

هذه صورة موجزة وإطلالة سريعة على واقع المسلمين خلال الخلافة الأموية.

وهنا يأتي السؤال: كيف واجهت الدعوة هذا الواقع؟

كيف عالجت من أوضاعه وانحرافاته؟

ومن خلال استقرائنا لهذه الفترة من التاريخ الإسلامي نستطيع أن نقول إن الدعوة في هذا العصر قد اتخذت أشكالاً وصورًا عدة تكاد تتفق جميعها مع مبادئ الإسلام وقواعده ومنهجه في الإصلاح.

من هذه الصور:

١-تنازل الإمام الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- سنة ٤١هـ حقنًا لدماء الأمة، وإيثارًا لوحدة المسلمين والحيلولة دون تفرقهم شيعًا وأحزابًا، وقد مدحه الرسول ﷺ على صنيعه هذا، فقال: "أيها الناس: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[(١)].

٢-الثورات السياسية التي قام بها بعض أبناء الصحابة كثورة الإمام الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير في خلافة يزيد بن معاوية.

وهذه الثورات تعد اجتهادًا شرعيًا من قبل أصحابها، حيث رأوا أن غياب الشورى، وقيام نظام التوريث، وعدم تولية أمر الأمة للأصلح دافعٌ للتغيير والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣-الحملات الفكرية التي قام بها الأئمة والفقهاء للرد على انحرافات الفرق والمذاهب حيث اشتد نكير السلف لأفكار الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية والجبرية والمعتزلة، وحذروا من التلقي عنهم ومن مجالستهم فكان الواحد منهم كالأجرب لا يجالسه إلا أمثاله، فناقش عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله- غيلان الدمشقي وكتب إليه كتابًا يدعوه فيه إلى التمسك بالعدل، كما ناقش الإمام الأوزاعي غيلان حتى غلبه، وأمر

---

(١) أخرجه البخاري في "المناقب"، باب: علامات النبوة في الإسلام- (٣٦٢٩)، وفي غير موضع من صحيحه.

الخليفة هشام بن عبدالملك بقتل الجعد بن درهم لقوله بخلق القرآن، كما أمر بضرب عنق غيلان.

كما كان للأئمة والفقهاء أمثال الحسن البصري وسعيد بن جبير والشعبي، وابن سيرين ومكحول وزيد بن أسلم وغيرهم جهودٌ كبيرة في صد هذه الأفكار والحيلولة بينها وبين الانتشار بين المسلمين.

ونلاحظ على منهج الدعوة في هذا العصر أن أئمة أهل السنة من أمثال من ذكرنا قد قابلوا شطط العقل بصحيح النقل، وقابلوا اختلاف أهل الضلال والزيغ واضطرابهم بثبات أهل الحق واستقامة منهجهم، كما اعتمدوا في مواجهة تلك الفتن منهج الصرامة والحزم وتحذير الناس وتنفيرهم من البدع وأهلها.

الدعوة الإسلامية في العصر العباسي:

أما واقع الدولة العباسية، فلم يختلف كثيرًا عما رأيناه في الدولة الأموية من ناحية التسلط السياسي وتوريث الملك، والاعتناء بالمظاهر والماديات، إلا أن ما يميزه هو الانفتاح الثقافي على الثقافات اليونانية والفارسية خاصة أيام المأمون والمعتصم والواثق. هذا الانفتاح الذي فتح الباب على مصراعيه للأفكار الضالة والعقائد المنحرفة أن تجد لها مكانًا بين المسلمين فتطورت مبادئ الشيعة واختلطت بالعقائد المنحرفة من زرادشتية وبرهمية ومانوية وثنوية ومزدكية ويهودية ونصرانية وغيرها، وانقسمت إلى فرق متعددة لا يمت أكثرها إلى الإسلام بصلة كما تأثر علم الكلام إثر انتعاش الترجمة اليونانية من الفارسية بالمنطق اليوناني والتبست موضوعاته بمسائل الفلسفة بحيث لم يعد يتميز علم الكلام عن الفلسفة، وجعلت المعتزلة العقل هو المعتمد الأساسي في المعرفة وأولوا العقائد الإسلامية بما يتفق مع عقولهم، ونشأت الصوفية كرد فعل لإقبال الناس على الدنيا وعكوفهم على الملذات حيث عكفت طائفة من المسلمين على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها أمثال الكرخي والحافي والمحاسبي والجنيد، ثم تطورت الصوفية إلى مذهب فلسفي اختلط بنظريات هندية حلولية وإشراقية ويونانية منحرفة أدت إلى القول بالحلول عند الحلاج، ووحدة الوجود عند ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين، والفلسفة الإشراقية

عند السهروردي، كما عظمت الشطحات الصوفية وأقوالها البدعية مثل الوجود والذوق والكشف والسماع.

كما افتتنت طائفة أخرى بالفلسفة اليونانية وخاصة آراء أرسطو وأفلاطون فأنشأوا فلسفة إسلامية على غرارها وحاولوا التوفيق بين الأفكار اليونانية المشائية وتحكيماتها العقلية المجردة وبين عقيدتهم الإسلامية، فلم تخلو فلسفتهم من الإلحاد حيث قالوا بقدم العالم وأنكروا علم الله بالجزئيات وأنكروا البعث والحشر.. إلخ.

وهكذا تطورت الفرق وتشعبت وتوسعت مقالاتها وكثر أتباعها، واختلطت بعقائد أهل الافتراق والأهواء من اليهودية والنصرانية والصابئة والمجوسية والهندية واليونانية.

كما ظهرت فرق الباطنية وطلائعها الأولى الخبيثة وتمكنت من بعض البلاد الإسلامية كالخرمية والقرامطة والعبيدية والإسماعيلية، وصارت لها دويلات أشادت البدع والكفريات ونشرت القبوريات والشركيات، وقمعت السنة في البلاد التي سيطر عليها هؤلاء الطغاة.

وظهرت فرق كلامية أخرى حاولت التقريب بين مناهج السلف ومناهج أهل الكلام كالأشاعرة والماتريدية ونجحت في بعض مواقفها إلا أنها مع الزمن مالت إلى أصول الجهمية والفلاسفة والصوفية.

هذا هو الواقع الفكري إبان الخلافة العباسية والتي استمرت زهاء ثمانية قرون.

موقف الدعوة من الفرق المبتدعة في العصر العباسي:

لقد نجحت الدعوة في التصدي لهذه الانحرافات على مدى هذه القرون؛ فقد تصدى أهل السنة من أصحاب الحديث كالإمام البخاري ومسلم وابن حنبل وأبو داود وابن خزيمة وابن بطة واللالكائي وغيرهم لعلماء الكلام الذين خاضوا في صفات الله تعالى والإيمان بالقدر، وتميز الإمام أحمد بن حنبل في محنة خلق القرآن بموقفه الحازم الصامد، كما تصدى أهل الفقه كالإمام مالك وأبو حنيفة والشافعي للمعتزلة وردوا عليهم شططهم ونشروا السنة وأقاموا الحجة.

وتصدى أهل الكلام كالإمام الغزالي والأشعري والباقلاني لشطحات المعتزلة والصوفية

والفلاسفة وأظهروا عوار أفكارهم.

نلاحظ على منهج الدعوة في هذه الفترة العصيبة أن أئمة أهل السنة قد عملوا على التنفير من أهل الكلام والجدل واشتد نكير الأئمة عليهم في ذلك، ونهوا الناس على الخوض في البدع واتباع الشهوات والتمسك بالسنن والآثار وصحيح النقل لمواجهة زيغ العقل، ويعد هذا موقفًا ثابتًا لأهل السنة في جميع العصور.

وفي القرون السادس والسابع والثامن قيض الله تعالى ابن تيمية والشاطبي وابن القيم وابن خلدون وابن رشد، للتصدي لجحافل البدع وعساكر الضلالة من أهل الكلام والفلاسفة والباطنية والصوفية واليهود والنصارى والصابئة.

الدعوة الإسلامية في الخلافة العثمانية:

وتمضي الخلافة العباسية على هذا الحال، ثم يكتب الله التمكين لآل عثمان زمنًا طويلاً، وتنهض الدولة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية في كافة المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والإعلامية وغيرها ثم يعتريها داء الأمم، ويتبدل حالها، فينتشر الظلم في ربوعها، وينحرف مفهوم الولاء والبراء عن ولاة أمورها، وتتمكن الصوفية المنحرفة من أفكارها وعقائدها، وتنتشر مظاهر الشرك والبدع والخرافات في أنحائها، ويسود الاختلاف والفرقة بين زعمائها وسلاطينها، وينغمس ملوكها في الترف والشهوات، وتغلق باب الاجتهاد، وتسود العصبية المذهبية، وينحصر مفهوم الصلاة في الشعائر التعبدية فقط، وتنشط الفرق المنحرفة كالشيعة الاثنى عشرية والدروز والنصيرية والإسماعيلية والقاديانية والبهائية في الترويج لأفكارها.

" لم تكن هذه الأدواء مقتصرة على تركيا وحدها، بل كان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصابًا بالجدب العلمي وشبه شلل فكري، قد أخذه الإعياء والفتور، واستولى عليه النعاس، ولعل القرن العاشر هو أشد قرون الخمود والتقليد والمحاكاة وذلك في العلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم.. إلخ.

أما العالم الغربي؛ فقد استيقظ من هجعته الطويلة، وهب من مرقده مجنونًا، يتدارك

زمـــان الغفلـــة، والجهل، ويعدو إلى غايته، بل يطير إليها بكل جناح، فانفتح له فتوحات جديـــدة في كل علم وفن، وسخر قوى الطبيعة، ووقف على أسرار الكون وكشف عن بحار وقارات كانت مجهولة، ونبغ في فترة قصيرة رجال ومبتكرون أمثال:

كوبرنيكس، وبرنو، وغليليو، وكبلر، ونيوتن، وفاسكودجاما، وبحلن وغيرهم..

وأمـــام هـــذا الواقـــع المريـــر الـــذي يعيشه العالم الإسلامي كان لابد للدعـــوات الإصـــلاحيـــة أن تظهر بقوة، وتوقظ العالم الإسلامي من سباته، وتأخذ بيده إلى النهضة والتقدم من جديد.

وبالفعـــل ظهـــرت الدعوة الوهابية[1] في قلب الجزيرة العربية، وأخذ الشيخ محمد بن عـــبدالوهاب علـــى عاتقـــه محاربة الاستبداد والجمود والتقليد في مختلف ميادين السياسة والاجتماع والدين، وأعلن عن مبادئه التي تمثلت في:

١-تنقية العقيدة الإسلامية من مفاهيم الجبرية والاتحاد والحلول ووحدة الوجود.

٢-تنقـــية الفكر الإسلامي من مفهوم التقليد والجمود، وفتح باب الاجتهاد والتماس الحلول لمختلف قضايا المجتمع من المصادر الأصلية وهي القرآن والسنة والإجماع.

٣-التوسل والاستغاثة والشفاعة لا تكون بغير الله.

٤-ضـــرورة استئناف العرب لدورهم في عمل لواء الدعوة إلى الإسلام وقيادة حركة اليقظة وتصحيح المفاهيم.

ولا تـــزال هذه الدعوة المباركة ممتدة في الواقع المعاصر في صورة الاتجاه السلفي الذي يعد امتدادًا لهذه الدعوة المباركة.

وظهـــر الألوسي في العراق داعيًا إلى تجديد دعوة التوحيد وتصحيح المفاهيم في مجال

---

(١) ســـيأتي الحديث عن هذه الدعوة وغيرها من الدعوات التي ظهرت في العصر الحديث بالتفصيل باعتبارها إفرازات للواقع تأثرت بالعوامل الخارجية والداخلية التي أثرت في مسيرة الدعوة وأدت إلى تطـــورها في العـــصر الحديث، انظر ذلك تفصيلاً في الفصل الثالث بعنوان: التطوير في منهج الدعوة ووسائلها في الواقع المعاصر.

الفقه والتصوف والعقائد[1]، كما ظهر في صنعاء الإمام الشوكاني داعيًا إلى الاجتهاد وترك التقليد، والتعصب المذهبي، والرجوع إلى الكتاب والسنة.

كما ظهرت الدعوة إلى التصوف السني من خلال السنوسي والمهدي، واستهدفت تحرير التصوف من قيود الجبرية.."[2].

لم يقتصر الإصلاح على الإصلاح الديني فحسب، بل ظهرت دعوات إصلاحية في ميادين أخرى:

-ففي ميدان الفكر السياسي والاجتماعي ظهر رفاعة الطهطاوي في مصر وخير الدين التونسي في تونس.

-وفي ميدان الوحدة الإسلامية السياسية ظهر جمال الدين الأفغاني.

-في ميدان اللغة العربية ودورها في مقاومة الاستعمار ظهر عبدالرحمن الكواكبي.

-وفي الميدان السياسي الوطني ظهر مصطفى كامل.

-وفي ميدان العلم والحضارة ظهر فريد وجدي.

-وفي ميدان التربية والتعليم ظهر محمد عبده ومدرسة المنار.

وهكذا شقت الدعوة الإسلامية طريقها في مختلف مناحي الحياة على اختلاف في منهج الدعوة وطريقة الإصلاح[3].

وعلى اختلاف أصحاب هذه الدعوات من حيث الاقتراب أو الابتعاد عن منهج الدعوة الراشدة.

ويلاحظ على منهج الدعوة في هذه الفترة أنها قد تنوعت صورها وأشكالها ومجالاتها

---

(١) هذا على الرغم مما في مؤلفاته وتفسيره خاصة من اضطراب وخلط في الاعتقاد بين منهج أهل السنة وغيرهم من أصحاب المناهج الفاسدة؛ حيث يتكرر في تفسيره تعظيم ابن عربي الحلولي والإشادة به مرارًا.

(٢) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- مطابع علي بن علي- الدوحة- الطبعة العاشرة- ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م- (١٦٥-١٦٦).

(٣) انظر أنور الجندي: اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار- دار الاعتصام- القاهرة- (٣٥).

فلم تقتصر على مجال واحد بل شملت جميع مناحي الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية وغير ذلك، مع الميل إلى مخاطبة العقل، والإفادة من معطيات العصر ومواجهة تحدياته.

هذه هي مناهج الدعوة في العصور الإسلامية السابقة بدءا من العهد النبوي، وحتى الخلافة العثمانية.

ولقد تطورت الدعوة أيما تطور بعد سقوط الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤، وتفتت العالم الإسلامي الكبير إلى دول ودويلات، وانتشار الأفكار المنحرفة والمذاهب الوضعية؛ كالماركسية والوجودية، والعلمانية، والصهيونية، والماسونية، بين أبنائه، واستنزاف الموارد الاقتصادية لأراضيه، فظهرت الصحوة الإسلامية من جديد، وتعددت مناهج الدعوة في الإصلاح والتغيير[1]، فظهرت جماعة الإخوان المسلمين بمصر، وهي جماعة إسلامية شمولية -لها إيجابياتها وسلبياتها- تنادي بالعودة إلى الإسلام بشموليته لمناحي الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والتربوية، ثم انتشرت هذه الجماعة في مختلف أقطار العالم الإسلامي والغربي بل والأوروبي والأمريكي.

وظهرت في شبه القارة الهندية جماعتا التبليغ والدعوة والجماعة الإسلامية[2] -بما لهما من المزايا وما عليهما من المآخذ-، حيث تركز الأولى على جانب الموعظة، ونقل المسلم من بيئة الغفلة والمعصية إلى بيئة الطاعة لله ولرسوله ﷺ، ونقل الكافر من بيئة الكفر إلى بيئة الإيمان، والالتزام بأوامر وفرائض الإسلام وسنة الرسول ﷺ، وتعنى الثانية بالإصلاح الشمولي للإسلام على غرار جماعة الإخوان المسلمين.

وكل هذا سنتناوله بالتفصيل في الفصل الثالث.

---

(١) سوف نقف على ذلك تفصيلا في الفصل الثالث بعنوان: (التطوير في منهج الدعوة ووسائلها في الواقع المعاصر).

(٢) سيأتي الحديث عنهما كذلك تفصيلاً في الفصل الثالث من البحث.

خاتمة: استنتاج وتعقيب حول مناهج الدعوة ومقاصدها بين الإجمال والتفصيل:

سبق أن بينا مقاصد الدعوة تتمثل في الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وتقواه، وطاعة رسله، وتزكية النفس وإصلاحها، وقلنا: إن هذه المقاصد ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وإنما يدخل التغير والتطور في وسائل عرض تلك المقاصد، ومن الأمور التي تختلف فيها هذه الوسائل اختلاف العرض بين الإجمال والتفصيل بحسب اختلاف البيئات والعصور.

ونقصد بذلك ما يعرض لمقاصد الدعوة وحقيقتها وموضوعها من الإجمال لبعض موضوعاتها، أو تفصيل الكلام فيه بحسب الحاجة إلى ذلك بسبب ظروف كل عصر ومصر.

وهذا أمر ينبغي النظر إليه بعين الاهتمام ونحن بصدد الحديث عن تطوير منهج الدعوة ووسائلها، وتجديد الخطاب الديني الدعوي الذي سبق أن بينا أن اختلافه ضرورة يقتضيها اختلاف الظروف الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربوية...إلخ في عصر معين عن العصر السابق واللاحق، وفي قطر معين عن غيره من الأقطار.

حيث تبين لنا من خلال ذلك العرض التاريخي لمسيرة الدعوة وتطورها عبر العصور كيف تطورت وتنوعت مناهج الدعوة ووسائلها في عرض مقاصد الدعوة وموضوعاتها بين الإجمال لبعض الموضوعات وتفصيل بعضها الآخر على مدار العصور المختلفة.

فقد رأينا كيف تركزت الدعوة في عصر النبوة حول المقاصد الأساسية للدعوة الإسلامية من الدعوة إلى: توحيد الله تعالى وعبادته وتقواه، وطاعة رسله، وتزكية الأنفس وإصلاحها، في قصد وسماحة وسهولة، دون استخدام الأساليب المنطقية والأدلة الكلامية، ودون تشقيق وتفريع للأمور فيما لا يعود على المسلم بنفع في دينه، ولا تزكية لقلبه.

ثم لم تلبث أن أطلت الفتن برأسها، وعرضت الشبهات للمرتدين ومانعي الزكاة؛ حيث عرضت شبهة أنهم كانوا يؤدون الزكاة للنبي ﷺ وأن النبي ﷺ هو المأمور بأخذ

الـــزكاة منهم والدعاء لهم لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَـــلِّ عَلَـيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. ومن ثم لا يجب عليهم أداؤها لغيره.

وكــان الموقف الدعوي الثابت لأبي بكر الصديق ﷺ ومن معه من المؤمنين هو تجلية هذه الشبهة للناس وردهم إلى الحق طوعًا أو كرهًا.

وعلــى كــل لم يختلف منهج الدعوة في شيء يذكر في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر عمــا كان عليه في عهد النبي ﷺ، سوى ما ذكرنا في عهد أبي بكر، وكذلك ما جنح إليه عمر ﷺ من الأخذ بالشدة والحزم لما وجد في الناس من جنوح إلى الزيغ عن الحق، وميل بعضهم إلى التلاعب بعض الشيء[2].

ومنذ نهاية عهد عثمان ﷺ بدأت الفتن تترى وتتابع، وظهرت البدع وتكلم الناس في الخـــروج والتشيع والإرجاء، فخرجت الخوارج ببدعة التكفير بفهم ظاهري سقيم يأخذ بعـــض نـــصوص الكـــتاب والسنة ويترك بعضها، وبل ويضرب نصوص الكتاب والسنة بعضها ببعض.

وظهـــر التـــشيع لعلـــي وآل البيت –رضي الله عنهم جميعًا– وغالى الناس في محبتهم والانتصار لهم وادعاء أحقيتهم بالخلافة، بل بلغ الأمر بغلاة الشيعة إلى حد ادعاء الألوهية في علي ﷺ.

واختلف الناس إزاء الفتنة التي جرت بين علي ومعاوية ومن بعدهما، فمنهم من انتصر ومــال إلى أحد الفريقين، ومنهم من خرج على كلا الفريقين وكفرهم جميعًا كالخوارج، ومنهم من أرجأ الحكم على الفريقين، ومن ثم ظهرت بوادر الإرجاء.

---

(١) التوبة:١٠٣.

(٢) ذكـــر مـــسلم في صحيحه أن ابن عباس قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم. [أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، (ح١٤٧٢)].

فتكلم الناس في فاعل الكبيرة، منهم من يكفره وهم الخوارج، ومنهم من يرجئ أمره وهم المرجئة، ومنهم من يجعله في منزلة بين المنزلتين وهم المعتزلة.

طريقة الخوارج ومنهج السلف في ردها:

وتمسك الخوارج بظواهر القرآن واضطربوا وهلكوا عند متشابهه، وأنكروا كثيرًا من السنن، وتمكسوا بطائفة من النصوص من المتشابه، وأهملوا المحكم و لم يلتفتوا إليه أو تأولوه على غير وجهه، ولذا اختلفت طريقة السلف في موقفهم ومنهجهم الدعوي إزاء الخوارج فلم يجادلوهم بالقرآن؛ لأنه حمال ذو وجوه والخوارج يسيئون فهمه، ويهلكون في متشابهه، وإنما جادلوهم بالسنن الثابتة لديهم التي يقرون بها، وبما استقر في العقول من البديهيات الفطرية، ويتبين لنا ذلك من خلال مجادلة ابن عباس رضي الله عنه للخوارج ودعوتهم إلى الرجوع إلى قواعد الإسلام الصحيحة وما عليه أهل السنة والجماعة[1].

فنلاحظ كيف عدل عن القرآن الذي يلتبس على الخصم إلى السنة الصريحة الثابتة التي لا اختلاف فيها ولا التباس.

كما نلاحظ كيف استخدم حجج العقول وبديهياته المستقرة فيه كقولهم لهم: "أتسبون أمكم"، كذلك نلاحظ كيف أحسن ترتيب كلامه بطريقة منطقية سليمة تقود فيها المقدمات المسلم بها إلى النتائج الصحيحة؛ حيث يبدأ من مقدمات يسلم بها الخصم لينتهي به إلى النتيجة التي لا يستطيع الفكاك عنها.

كذلك نلاحظ كيف سلك في دعوته سبيل الجدال بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن بلا تسفيه للخصم ولا شطط ولا تجاوز ولا تحقير ولا سخرية، مع أن الخوارج من أرذل خلق الله وأقبحهم ونعتهم النبي ﷺ بأنهم "كلاب أهل النار"[2].

طريقة المعتزلة ومنهج السلف في ردها:

---

(١) سبق عرض مناظرة ابن عباس مع الخوارج فيما سبق.

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٣٥٥/٤)، وابن ماجه في "سننه" (١٧٣) من حديث ابن أبي أوفى رضي الله عنه، وقال البوصيري في "الزوائد" (٢٥/١): "رجاله ثقات إلا أنه منقطع" ولكن صححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (٣٣٤٧).

لم يختـــلف موقف المعتزلة كثيرًا عن موقف الخوارج في التمسك بالمتشابـــه الـــذي يوافــــق أهـــواءهم، وإهمال النصوص المحكمة الواضحة البينة أو تأويلهـــا عـــلى غـــير وجهها.

وزاد المعتزلة على الخوارج بتشقيق المسائل وتفريعها، وكثرة الجدال، والإطالة بالحجج الكلامية والأقيسة المنطقية، والأساليب الخطابية والبرهانية والعقلية.

وقـــادهم هـــذه الطـــريقة إلى اعتبار العقل أصلا يحاكم إليه الشرع والنقل، فما قبلته عقولهم من نصوص الوحي قبلوه، وما أعيا عقولهم رفضوه وتركوه، وليس أدل على ذلك من قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين.

لقـــد قـــادتهم عقولهم المريضة إلى إنكار صفات الله تعالى، فأنكروا الصفات وعطلوا الـــذات بدعـــوى التوحيد، وذلك لشبهة سقيمة سخيفة وهي أنهم إذا أثبتوا الصفات مع الـــذات فإنه يلزم من ذلك تعدد القدماء، وهذا يناقض التوحيد، فتصوروا بعقولهم المريضة ذاتـــا مجردة عن الصفات، فوقعوا بذلك فيما أنكره السلف على الجهمية من قبل وردوه عليهم من جحد الصفات وتعطيلها.

وحـــاول خلفهم من الأشاعرة فيما بعد التوسط في الأمر فلجئوا إلى التأويل، فصرفوا الـــصفات عن حقيقتها إلى معان مجازية لا علم لهم بها، فلم يعد ذلك أن يكون ضربا من التعطيل كذلك.

وخـــاض المعتـــزلة كذلك في أمر القدر فأنكروا خلق الله تعالى لأفعال العباد، وجعلوا العـــبد خالق أفعاله فوقعوا فيما فروا منه من القول بما يناقض التوحيد؛ لأنهم أشركوا العبد مع الرب في صفة من أخص صفاته.

ولا نريد أن نخوض هنا في تفاصيل بدعة المعتزلة وحكاية أصولهم.

وكانت وسيلة المعتزلة لنشر بدعتهم هي إتقان اللغة، والاهتمام بتعلم الفصاحة والبيان والـــبراعة فيهما، فكانوا يدربون الشباب على الخطابة وقوّة التأثير في المخاطبين بمختلف وسائل التأثير والإقناع البيانية والخطابية والبرهانية العقلية وغير ذلك.

ومـــن أجل ذلك تعلموا المنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية وأدلة المناطقة والمتكلمين

وحججهم وبراهينهم.

أما عن منهج السلف في رد هذه البدعة فنلاحظ أنهم قد ردّوا كلام هذه الفرق المبتدعة جميعًا إلى الأصول المحكمة في الكتاب والسنة، وما عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

واضطر السلف إلى الرد على تلك القضايا والمسائل المبتدعة التي ما كانوا يتحدثون فيها من قبل ولا كانوا يشغلون الناس بها، فدخلت هذه القضايا في موضوع الدعوة آنذاك ولم يكتف السلف بالعرض الإجمالي لمقاصد الدعوة بأن يأمروا الناس بتوحيد الله تعالى وعبادته، بل كانوا يبينون لهم حقيقة التوحيد وما يقتضيه من إثبات الصفات لله تعالى بغير نفي ولا تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل...إلخ، ويردون على ما ابتدعته الفرق الضالة في ذلك من القول بنفي الصفات أو تأويلها أو إثبات بعضها ونفي البعض الآخر وغير ذلك، والرد على شبهاتهم في ذلك ردًّا مفصلاً.

غير أننا نلاحظ أن السلف لم يتزلقوا إلى مجاراة هذه الفرق في وسائلهم البعيدة عن روح الشريعة وطبيعة هذا الدين السمحة السهلة، فلم يجاروهم في اللجوء إلى الأدلة المنطقية الأرسطية، ولم يحاكموهم إلى الفلسفة اليونانية ولا إلى الحجج الكلامية، بل كانوا يردون تلك البدع والشبهات بالكتاب والسنة وبدائه العقول.

والذي نريد التأكيد عليه هنا هو اتساع موضوعات الدعوة ومقاصدها في تلك العصور لتشمل الرد على بدع هذه الفرق جميعًا من الجهمية والقدرية والمعتزلة والشيعة والخوارج وغيرهم... فاضطروا لذلك أن يفصلوا الكلام من كثير من القضايا التي لم يكونوا يعرضون إليها فيما قبل.

تطوير موضوعات الدعوة من حيث الإجمال والتفصيل في العصر الحديث والواقع المعاصر:

سنعرض للمؤثرات الخارجية والداخلية التي أثرت على مسيرة الدعوة الإسلامية وطبيعة موضوعاتها ومقاصدها التفصيلية في العصر الحديث، مما يقتضي بالضرورة تطوير الخطاب الديني الدعوي في موضوعاته وتفصيل مقاصده في هذا العصر.

فــإذا كانـــت المقاصد الأساسية للدعوة هي هي لا تتغير بتغير العصور، فلاشك أن تفاصيل تلك المقاصد وموضوعاتها مما تعرض الحاجة لإجمال بعضه وتفصيل بعضه بحسب الحاجـــة لمـــا يجد في الواقع من القضايا، وما يطوى فيه من المباحث والقضايا التي كانت ســـائدة ومسيطرة في عصر من العصور؛ مثل: قضية خلق القرآن التي فرضت نفسها طيلة أو أغلـــب العـــصر العباسي على طوله، وتصدى لها الإمام أحمد ومن تبعه من أهل السنة بالتزام المنهج السلفي القائم على التمسك بالنصوص والذي سبق ذكر بعض ملامحه.

أقول: لما كان النظر فيما يدعا إليه الناس من ذلك من جهة الإجمال والتفصيل، يرجع إلى نظر الداعي واجتهاده في كيفية عرض تلك المقاصد لا جرم كان ذلك أدخل في منهج الدعوة لا في مقاصدها، ومن ثم قُبل فيه الاختلاف والتنوع.

ولذا سوف نعالج هذا الموضوع في الحديث عن منهج الدعوة، فنبين ما حدث فيه من اختلاف وتطور عبر العصور بحسب اختلاف أحوال المدعوين وظروفهم المختلفة.

الفصل الثاني

معالم المنهج الدعوي ووسائله

في القرآن الكريم والسنة النبوية

توطئة

إن المستقرئ للقرآن الكريم يلاحظ أنه قد أولى موضوع الدعوة إلى الله تعالى قدرًا كبيرًا من العناية، ولا جرم فالقرآن كله من أوله إلى آخره دعوة إلى دين الله تعالى، وإلى عبادته وتوحيده.

فالقرآن الكريم هو نفسه حقيقة هذه الدعوة، فهو في ذاته وسيلة وغاية في الوقت نفسه؛ وذلك لأن القرآن الكريم يعبر عن الحقائق الدينية الكبرى التي انشغل الرسول ﷺ حياته بدعوة الناس إليها، كما أنه يعرض سيرة الرسل ومواقفهم مع أقوامهم في عرض تلك الحقائق الثابتة التي تمثل حقيقة التوحيد وحقيقة الإسلام وحقيقة العبادة، وحقيقة الطاعة لله تعالى ورسله –عليهم صلوات الله تعالى وتسليمه– كما أنه يعرض في وضوح تام معالم هذه الدعوة وأركانها، ويصور منهج هذه الدعوة من خلال طريقة القرآن نفسه في عرضها، ومن خلال بيان طريقة الرسل –لاسيما أولي العزم منهم– في بيان حقيقة هذا الدين ودعوة الناس إليه.

كما أنه يبين كذلك منهج ووسائل الدعوة إلى الله تعالى من خلال الطرق والوسائل العديدة المتنوعة التي استخدمها القرآن لعرض دعوته وبيانها.

ويلاحظ على هذه الطرق والوسائل أنها كثيرة ومتنوعة سواء من ناحية آلية هذه الوسيلة أو من ناحية طريقة الداعي التي يختارها لتناسب حال المدعوين.

وقد حفلت سنة النبي ﷺ بتطبيقات واسعة لتلك الوسائل القرآنية مضافًا إليها ما شرعه الرسول ﷺ بأقواله.

وسوف نعرض هنا لمنهج الدعوة ولأهم الوسائل التي استخدمها القرآن واستخدمها النبي ﷺ لبيان دعوته، سواء من حيث آلية الدعوة أو من حيث طريقة الداعي ومنهجه في الدعوة إلى الله تعالى.

يقوم المنهج الدعوي في القرآن والسنة على حسن الإفادة من الوسائل المتاحة للدعوة في كل عصر من العصور وفق معطيات هذا العصر، وما تقتضيه تحدياته وتفرضه ظروفه وقضاياه الراهنة في الوقت نفسه كذلك.

ولعل قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[1] يتسع بشمول منطوقه ومفهومه لإعداد جميع الوسائل المتاحة في عصر من العصور لنشر الدعوة الإسلامية الصحيحة، ونصرتها والدفاع عنها والتمكين لها.

وإذا كنا قد أفضنا القول من قبل في بيان المقصود بكل من المناهج والوسائل، فإننا نستطيع تبعًا لما سبق أن نقول إن المنهج ما هو إلا حسن استخدام الوسائل المتاحة، ولقد سبق أن بينا أن الوسيلة يمكن أن تعد من هذه الزاوية جزءًا من المنهج.

وذكرنا أن خطة البحث ستقوم على الجمع والدمج بين المنهج والوسائل في دراسة واحدة، وذلك لأنه إذا كان منهج الدعوة يقوم على حسن التخطيط لاستثمار الوسائل المتاحة والإفادة منها على أكمل وجه في ضوء معطيات الواقع وتحدياته، فلا حاجة إذًا للفصل بين المنهج والوسائل المستخدمة فيه، لأن هذا الفصل سيكون ضارًا بالدراسة والتناول الصحيح لها، ويكون نوعًا من التشعيب والتشقيق للبحث وفصلاً بين أجزاء الظاهرة الواحدة المتلاحمة وبعد هذه المقدمة الموجزة يمكننا الآن الحديث عن منهج الدعوة ووسائلها باعتبار تركب المنهج من هذه الوسائل.

---

(١) الأنفال: ٦٠.

منهج الدعوة في القرآن والسنة

يقوم هذا المنهج الدعوي في القرآن والسنة على التوجيه نحو الإفادة من كافة الوسائل المتاحة للدعوة الإسلامية والتي تمثل عناصر هذا المنهج ومكوناته ويمكننا أن نقسم هذه الوسائل التي أرشد إليها القرآن الكريم وأرشدت إليها السنة النبوية إلى عدة أنواع حتى يسهل علينا دراستها والنظر في كل نوع منها على حدة.

وهذه الأنواع من الوسائل الدعوية هي:

أولا: الوسائل البشرية:

(إعداد الدعاة)

ثانيًا: الوسائل الآلية الإعلامية:

١-المخاطبة

٢-المكاتبة

ثالثًا: الوسائل التخطيطية:

١-بين السرية والجهرية

٢-بين الفردية والجماعية

٣-بين التدرج والتسرع

رابعًا: وسائل الدعوة من حيث القالب أو الشكل:

١-الموعظة

٢-الخطبة

٣-القصة

٤-التمثيل

٥-المجادلة بالحسنى

٦-المحاجة والمناظرة

٧-الشعر وفنون القول

خامسًا: الوسائل الأسلوبية:

١-التأثير العقلي

٢-التأثير الوجداني

٣-التأثير البياني والفكري والثقافي

سادسًا: الوسائل المادية:

١-القوة الاقتصادية

٢-القوة العسكرية

أولا: الوسائل البشرية:

ويعنى بها الداعي نفسه، فهو أعظم وسيلة للدعوة إلى الله تعالى، لأنه هو الموصل للرسالة، والمؤثر في المدعوين بطريقته الدعوية وصفاته وأخلاقه وحسن سمته وشمائله.

وقد اهتم القرآن الكريم بإعداد الداعي الأول محمد ﷺ اهتمامًا كبيرًا لأنه الأسوة والقدوة للدعاة جميعًا إلى يوم القيامة، ومن خلال الآيات الواردة في خطاب النبي ﷺ باعتباره الداعي الأعظم، ومن خلال الآيات الواردة في خطاب أمته ﷺ لأنهم مكلفون بالسير على طريق دعوته، واقتفاء أثره من خلال تلك الآيات جميعها نستطيع أن نقف صفات الدعاة وشمائلهم وكيفية إعدادهم وتوجيههم للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد اشتملت سورة العلق ومن بعدها سورتا المزمل والمدثر على بيان كثير من هذه الصفات.

ففي سورة العلق نجد أول تكليف للداعي وهو الدعوة إلى القراءة والتلاوة لتزكية النفس وللتعلم، كما نجد فيها كذلك توجيه الداعي إلى التوكل على الله تعالى والإعراض عن المكذبين والمعاندين وترك طاعتهم وموافقتهم والاعتصام باللجوء إلى الله تعالى، والصلاة والتضرع بين يديه ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ وفي سورة المزمل نجد عدة توجيهات للداعي الأول ﷺ وللدعاة إلى الله منها على سبي المثال:

١-الاهتمام بتزكية النفس وإعدادها في مدرسة قيام الليل وتلاوة القرآن وترتيله ﴿يأيها المزمل (١) قم الليل إلا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا (٤) إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (٥) إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا (٦) إن لك في النهار سبحا طويلا﴾[1].

٢-الاهتمام بكثرة الذكر ودوام الاستعانة بالله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾.

٣-الاهتمام بكثرة التبتل والانقطاع إلى الله تعالى بإخلاص العمل له، وعدم التعلق بالحياة الدنيا بشهواتها ورذائلها الدنيئة.

٤-التوكل على الله تعالى في جميع الأمور ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾.

٥-الصبر على الأذى والصفح والإعراض عن المكذبين والمعاندين ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا﴾.

وفي سورة المدثر نجد صفات شبيهة بهذه الصفات وصفات أخر زائدة عليها مثل:

٦-الاجتهاد في النذارة والدعوة إلى الله تعالى: ﴿يأيها المدثر (١) قم فأنذر﴾.

٧-ذكر الله تعالى والتوكل عليه وإكباره وتعظيمه وعدم الخوف ممن سواه ﴿وربك فكبر﴾.

٨-طهارة الظاهر والباطن وحسن السمت والخلق ﴿وثيابك فطهر﴾[2].

٩-ترك المعاصي والآثام وكل ما لا يليق بالداعي بحيث لا يخالف قوله فعله: ﴿والرجز فاهجر﴾[3].

---

(١) المزمل: ١-٧.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير - (٤٤١/٤).

(٣) قال ابن كثير: "أي: اترك المعصية، وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه -أي النبي ﷺ- بشيء من ذلك"[السابق- نفس الصفحة]

١٠-الاستهانة بالجهد، وهضم الذات، والتواضع لله تعالى، بألا يستكثر جهده في الدعوة إليه بل يسعى لبذل المزيد ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾(١).

١١-تكرار الوصية بالصبر لأهميتها بالنسبة للداعي إلى الله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

فهذا مجرد مثال ونموذج لاعتناء القرآن بإعداد الدعاة إلى الله تعالى.

تطبيقات هذا الأمر في السنة النبوية:

امتثل النبي ﷺ تلك الأمور والصفات، وقام بها خير قيام كما حرص أن يأخذ أصحابه بهذا الإعداد الرباني من خلال منهج واضح لتزكية النفس يحسن بنا أن نقف عنده وقفة متأنية لتجليته لأهميته لإعداد الدعاة إلى الله تعالى وقد سجل القرآن شهادته للنبي ﷺ بقيامه بهذه التزكية لنفسه وأصحابه من خلال وسيلة من أعظم وسائل التزكية ألا وهي قيام الليل فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وهناك العديد من وسائل التزكية التي أخذ بها النبي ﷺ نفسه وربى عليها أصحابه سوف نتعرف عليها من خلال عرضنا لمعالم هذا المنهج في القرآن والسنة.

---

(١) قال الحسن البصري: "لا تمنن بعملك على ربك تستكثره"[السابق- نفس الصفحة].

معالم منهج التزكية في القرآن الكريم والسنة النبوية

تعريف التزكية:

التزكية: تخلية وتحلية وتنمية.

فالتزكية: هي تخلي النفس عن الرذائل، والتحلّي بالمكارم والفضائل، وتنمية الخير بشرعيّ الوسائل.

فالتزكية تدور معانيها في اللغة حول ثلاثة معان، هي: التطهير والإصلاح والتنمية.

فتأتي التزكية بمعنى التطهير:

يقال زكيّ ماله أي طهره، وزكيّ نفسه أي طهرها من دنسها ورجسها. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1]، وقال تعالى على لسان موسى لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾[2]، وقال أيضًا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[3].

وتأتي بمعنى الإصلاح:

يقال زكا الرجل أي صلح، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[4].

وتأتي أيضًا بمعنى التنمية والتكثير:

يقال: زكا الزرع إذا كثر ونما وطاب. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[5]، فمن تزكى أي تطهر وأصلح نفسه وأقبل على الصلاة وذكر الله تعالى زاد خيره، وزكت نفسه، ونمت فضائلها وكثرت.

---

(١) الشمس: ٩-١٠.

(٢) النازعات: ١٨.

(٣) التوبة: ١٠٣.

(٤) النور: ٢١.

(٥) الأعلى: ١٤- ١٥.

وبهذه المعاني الثلاثة وردت التزكية الشرعية، فهي تطهير للنفس من أرجاسها وأدناسها ورذائلها، وهي إصلاح للنفس بتعويدها الفضائل وتحليتها بالمكارم.

وهي تنمية لجوانب الخير في النفس البشرية، وتعهدها وتربيتها حتى تصل إلى درجة سامية من درجات الكمال الإنساني وذلك بالوصول إلى درجة العبودية الحقّة لله رب العالمين.

التزكية أولاً:

ينبغي البدء بالتزكية أولاً وقبل كل شيء، فهي بداية الطريق.

فها هو موسى عليه السلام يدعو فرعون إلى طريق الله تعالى فيبدأ الطريق معه من التزكية، وذلك بأمر من الله تعالى حيث يقول لموسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾[1]. التزكية إذًا هي البداية، وهي الخطوة الأولى في الطريق إلى الله تعالى.

وموسى عليه السلام نفسه يعدّه ربه سبحانه وتعالى لحمل هذه الرسالة، فيبدأ في تكليفه بما يزكي نفسه أولاً، ويهيئوها لحمل أعباء وتبعات هذا الأمر العظيم.

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[2].

وهذه الليالي هي التي أمر الله تعالى موسى أن يجتهد فيها في عبادة الله تعالى، وأن يتقرب إليه فيها بالصوم والصلاة ففرض عليه صيامها تطهيرًا لنفسه وتزكية لها قبل لقاء ربه لتلقي ألواح التوراة حتى يكون أهلاً لحمل هذا الأمر العظيم، وحتى يأخذه بقوّة وجدّ، وذلك كما قال تعالى ليحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[3]، وذلك بعد ما أتاه رشده وزكاة نفسه حيث قال عقبها: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

---

(١) النازعات: ١٧–١٩.

(٢) الأعراف: ١٤٢.

(٣) مريم: ١٢.

ولما كان بنو إسرائيل قومًا غلاظًا جفاة قاسية قلوبهم لم يستجيبوا لموسى فيما دعاهم إليه من تزكية نفوسهم وإصلاحها، ولذا لم ينتفعوا بالتوراة ولا بالعلم الذي جاء به موسى إليهم.

بل لم يكن منهم إلا اللجاجة والعناد، والدليل على ذلك أن خيار بني إسرائيل ذهبوا مع موسى عليه السلام في لقائه لربه وسمعوا كلام الحق سبحانه وتعالى لموسى من وراء الجبل، ومع ذلك قالوا له كما يحكي القرآن عنهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[1].

ثم اختلفوا بعد ذلك فيما بينهم بعد ما جاءهم العلم حسدًا وبغيًا من بعضهم على بعض، كما أخبر القرآن الكريم عنهم حيث قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[2].

فرغم أنهم كانوا على علم ومعرفة بالحق الذي أنزله الله تعالى فإنهم اختلفوا فيما بينهم وحاد أكثرهم عن الحق الذي يعرفونه بغيًا وعدوانًا من أجل معاداة طائفة وموالاة أخرى، أو لأجل عَرَض من الحياة الدنيا.

وأكبر دليل على ذلك أنهم عرفوا صفة محمد ﷺ في التوراة وعرفوا أنه النبي الحق المنتظر مجيؤه في آخر الزمان، ومع ذلك لم يؤمنوا به و لم يتبعوه.

محمد ﷺ النموذج الأسمى في تزكية النفس:

وحينما أراد الله تعالى أن يمن على البشرية بالهداية وبإخراجهم من الظلمات إلى النور اطلع إلى أهل الأرض فاصطفى منهم أزكاهم قلبًا وعقلاً ونفسًا[3]، وأوحى إليه ما يزكي به نفسه، فتزداد به نفسه زكاة وطهرًا وقداسة، فأوحى إليه أن يتعبد في غار

---

(١) البقرة: ٥٥.

(٢) الجاثية: ١٧

(٣) وفي الحديث عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم"، والحديث أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

حراء فكان يتعبد فيه الليالي الطويلة ذوات العدد فتقول عائشة -رضي الله عنها: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلى جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو في غار حراء، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق في غار حراء، فقال له الملك: اقرأ! قال: ما أنا بقارئ.

قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ! قلت: ما أنا بقارئ!

قال: فأخذني فغطني الثانية ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [1].

فرجع بها رسول الله ﷺ إلى خديجة ترجف بوادره" [2].

فهذا يدلنا على ضرورة البدء بالتزكية حتى تتأهل النفس لحمل أمانة هذا الدين، وهذا ما بدأ به الله تعالى مع رسوله ﷺ حيث حبّب إليه الخلاء في مبدأ أمره فكان يخلو في غار حراء يتحنث، أي يتعبد وأصل التحنث هو التخلص من الحنث وهو الذنب والإثم، فهي عملية تطهير للنفس بالتوبة والاستغفار وذكر الله تعالى والتفكر في نعمه وآلائه والتوجه إليه بالضراعة والحمد والثناء.. إلخ ما يقرب العبد إلى ربه من صور العبادة وأنواعها.

وكان هذا الأمر ضروريًا قبل تحمل النبي ﷺ أمانة الرسالة؛ وقبل أن يوحى إليه بهذا الوحي المعجز بما يحمله من أعباء وتكاليف ثقيلة حملها النبي ﷺ وتنوء بحملها الجبال.

التزكية أولاً أم التعلم؟

قد يفاضل بعض الناس بين التزكية والتعلم ليجزم بأولوية أحدهما وأحقيته بالتقدم،

---

(١) العلق: ١-٥.

(٢) أخرجه البخاري في "بدء الخلق" (٤)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم في "الإيمان"، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

فـيرى البعض أن التزكية أحق بالتقدم على العلم، ويرى البعض بأن العلم أحق بالتقدم، ولكننا نحب أن نوضح أمرًا مهمًا في هذه النقطة يزيل هذا الإشكال وهو أن نبين أن العلم منه ما هو فرض عين يلزم كل مسلم تعلمه لحاجته إليه في عبادته اليومية أو فيما يخصه هو بعينه من الأمور.

فهـذا لابد له من تعلمه بنفسه وتحصيله له، وهذا مثل تعلم أصول العقيدة الصحيحة التي تجب معرفتها على كل مكلف، ومعرفة أحكام العبادات اللازمة له كالصلاة والصيام والـزكاة والحج ونحو ذلك، ومعرفة أحكام المعاملات الضرورية التي يحتاج إليها ويمارسها في حـياته اليومية، ومعرفة ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من الأخلاق والآداب الإسلامية القويمة.

ومـنه مـا هو فرض كفاية يتعلق بما لا حاجة للمسلم فيه في وقته الحاضر، ولكنه قد يحـتاج إلـيه في مـستقبل حياته أو يحتاج إليه غيره من الناس فيجد جوابه عنده، وذلك كمـسائل المـيراث ودقائق العبادات والمعاملات ومعرفة قواعد العلوم وأصولها كمعرفة أصـول الحـديث وأصول الفقه ونحو ذلك كالتعمق في علوم اللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغـتها فالنوع الأول من العلوم، وهو ما يختص بما هو فرض عين على المكلف هو ما يلـزم المسلم معرفته والعمل به في مرحلة تزكية نفسه وإصلاحها، ومن ثم فهذا القسم من العلـوم لا يـنفك عن عملية التزكية وليس هناك مفاضلة بينه وبين التزكية لأنه جزء من التزكية الشرعية الصحيحة لا تتم إلا به.

وذلـك لأن التـزكية المطلوبة ليست مجهولة الوسائل، وليست متروكة إلى المكلف لـيحدد لنفسه الوسائل التي يقوّم بها نفسه؛ بل إن وسائل هذه التزكية لابد أن تكون هي الوسـائل المشروعة التي بينها الله تعالى في كتابه وأرشدنا إليها النبي ﷺ في سنته؛ وذلك لا يكون إلى بتعلم تلك العلوم التي يمكن أن نسميها بعلوم التزكية فلا يصح للمبتدئ أن يبدأ بدراسـة القـواعد والأصول والمصطلحات ونحو ذلك قبل أن يلم بالعلوم الأساسية التي يستطيع من خلالها أن يمارس التزكية الشرعية الصحيحة لنفسه قبل الخوض قدمًا في طريق العلم الأكاديمي.

الدليل القرآني الواضح على ضرورة التزكية قبل المعرفة الأكاديمية:

هـذا الدلـيل نلمح في تسجيل القرآن الكريم دعاء إبراهيم عليه السلام ببعثة الرسول محمـد ﷺ وبيان مهامه التربوية المنوطة به بقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّـنَا وَابْعَـثْ فِـيهِمْ رَسُـولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

إذا مـا تأملـنا إجابة الله تعالى لهذه الدعوة وجدنا أن الله تعالى قد أنزل إجابته لهذه الدعوة في ثلاثة مواضع من القرآن لا رابع لها، وهذه المواضع هي:

١-قـوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[2].

٢-قـوله تعـالى في سـورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[3].

٣-قـوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[4].

فهـذه ثلاثة مواضع في كتاب الله تعالى لا رابع لها، وقد جاءت كلها على نسق رباني واحد، وهذا النسق هو ترتيب عمل الرسول كالآتي:

١) تلاوة الآيات.

٢) التزكية.

٣) التعليم.

---

(١) البقرة: ١٢٩.

(٢) البقرة: ١٥١، ١٥٢.

(٣) آل عمران: ١٦٤.

(٤) الجمعة: ٢.

وتكـــرار الآيات الثلاثة بهذا النسق والترتيب المتحد يدل على أن إبراهيم الخليل عليه الســـلام قد فاته بعلمه البشري المحدود الترتيب الصحيح للمنهج الدعوي في عمل الرسول الذي دعا ببعثه.

وتـــأتي هـــذه الآية التي تشتمل على دعاء إبراهيم عليه السلام مخالفة في ترتيبها النسق القرآني في الآيات الثلاثة الأخرى التي تحدثت في هذا الصدد بذاته.

فالآيـــات بهـــذا الترتيب السابق كأنها تصحح خطأً في ترتيب إبراهيم للمهام التربوية للرســـولﷺ وكأنها تقرر تقريرًا جازمًا لا شبهة فيه ضرورة الالتزام بهذا الترتيب في منهج الدعوة والتربية.

هـــذا التـــرتيب الذي يعتمد البدء بالتزكية أولاً، ويقدم ذلك على تعلم الأحكام من الكتاب والحكمة.

فعملـــية التعلم والدراسة لابد أن يسبقها عملية إعداد وتأهيل هي عملية التزكية التي تعـــتمد في الفتـــرة الأولى بـــالأخص على تلاوة القرآن والقيام به، وإلزام النفس مدارج الفضيلة والرقي والكمال الإنساني في تحقيق العبودية الحقة لله رب العالمين.

شمولية التزكية:

قلـــنا إن التزكية الشرعية المطلوبة هي تلك التزكية التي تعتمد على العلم الشرعي الصحيح من الكتاب والسنة الصحيحة وما كان عليه السلف الصالح (رضوان الله عليهم).

وهـــذه التزكية لها جانبان: نظري وعملي، وكلا الجانبين متلاحمان لا يتصور انفصالها ولا افتراقها بحال، فلابد من الموالاة بينهما.

والدلـــيل علـــى ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتعلمون عشر آيات من القرآن، فلا يجاوزونها إلى غيرها حتى يتعلموا ما فيها من العمل، ويعملوا بما فيها، فتعلموا بذلك العلم والعمل جميعًا[1].

---

(١) ذكـــره ابـــن كثير في "تفسيره" (١/٤)، والذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٢٧١/٤) من قول أبي عبدالرحمن السلمي.

فالمفتـــرض أن ما يتعلمه المسلم نظريًا من خلال كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ أو كلام أهل العلم الثقات المتبعين هدي النبي ﷺ يسارع إلى تطبيقه وامتثاله أولاً بأول.

الجانب النظري:

فعلى المستوى النظري يتعلم المسلم في هذه المرحلة:

-معرفة الله تعالى بصفاته وأسمائه الحسنى.

-رؤيـــة آثـــار صفات الله تعالى ودلائل قدرته ومظاهر رحمته وآلائه ونعمه في آيات الكون وصفحاته المرئية في كل شيء.

وصدق القائل:

فـيا عجـبًا كـيف يعصى الإله أو كـيف يجحـده الجاحـد
وفي كـل شـيء لـه آيـة تـدل علـى أنـه الـواحد

-معـرفة رسـول الله ﷺ بصفاته وشمائله وأخلاقه ومعجزاته وزهده وصدقه وورعه وحلمه، وجهاده في سبيل نشر دعوته وتحمل الأذى في سبيل نشر هذا الدين العظيم.

ومعرفة أزواجه أمهات المؤمنين وبناته وآل بيته ﷺ.

-معـرفة مـا يجب عليه من توحيد الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وهو ما يـسمى بتوحـيد الربوبية باعتقاد أنه سبحانه هو المنفرد بالخلق والرزق والتدبير والسيادة والملك وغير ذلك من معاني الربوبية.

-معـرفة مـا يجب عليه من توحيد الله تعالى في عبادته فلا يتجه بشيء من العبادة لغير الله تعالى كالدعاء والتضرع والاستغاثة والنذر والذبح والطواف والحلق وغير ذلك من العبادات فلا يصرف شيئًا منها لنبي ولا ولي ولا لأحد إلا الله تعالى. وهذا ما يعرف بتوحيد العبودية.

-معرفة حقيقة الإسلام وما يقتضيه من الانقياد والاستسلام لجميع ما أمر به الله تعالى أو أمـر به رسوله ﷺ، وأداء الفرائض الظاهرة من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك، واجتناب الكبائر والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

-معرفة حقيقة الإيمان وما يقتضيه من الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

-معرفة مهمات الأحكام لما يجب عليه من العبادات كمعرفة أحكام الطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج والنكاح والطلاق والبيع والشراء والربا والرشوة ونحو ذلك مما يبتلى به من الأحكام والتكاليف في حياته اليومية.

-معرفة ما يستقيم به خلقه، ويصلح به دينه، من أعمال القلوب كالصدقة والإخلاص والإنابة والتوبة والتوكل والاستقامة والخشوع والزهد والورع وتقوى الله تعالى ونحو ذلك من الأمور التي تحيا بها القلوب وينصلح حالها مع الله تعالى.

-معرفة الأخلاق الصالحة القويمة التي تستقيم بها معاملاته مع الناس نحو العدل والوفاء والصدق والأمانة والإحسان ونحوها من الصفات القويمة مع اجتناب أضدادها من الرذائل الذميمة كالغدر والخيانة والكذب والغش ونحو ذلك.

-معرفة الآداب الإسلامية التي هي عنوان السلوك الإسلامي ودليل على حسن السمت في الدين والثبات فيه.

وذلك يشمل آداب الطعام والشراب واللباس والنوم والمشي والحديث والاجتماع.. إلخ ذلك.

نموذج قرآني فريد في تزكية النبي ﷺ لأصحابه:

لقد صوّر لنا القرآن الكريم كيف زكّى النبي ﷺ نفسه وأصحابه وربّاهم في مدرسة القرآن على الصلاة وقيام الليل وتلاوة القرآن وسماعه قال تعالى في سورة المزمل: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾[1].

فهذه تزكية الله لنبيه ﷺ وتربيته له حيث أمره بما يزكي به نفسه من صلاة الليل وقيامه وتلاوة القرآن، وأمره أن يقوم في ذلك ما استطاع من الليل نصفه أو أكثر أو أقل.

ثم يصور لنا القرآن الكريم كيف أخذ النبي ﷺ أصحابه بهذا المنهج وكيف ثبت أصحاب النبي ﷺ معه على هذا المنهج سنة كاملة كانت تزكية لهم وتأهيلاً لحمل أمانة

---

(١) المزمل: ١-٤.

الدعوة لهذا الدين العظيم.

قـــال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِـــنَ الْقُـــرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَـــضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الـــزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِـكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

إنهـــا دعـــوة شاملة للتزكية بكافة صورها من قيام الليل وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات والمجاهدة في سبيل الله تعالى كل ذلك طلبًا لزكاة النفس وصلاحها.

استمرارية التزكية:

إذا كنا قد قررنا وجوب البدء بإصلاح النفس وتزكيتها؛ فإن ذلك لا يعني أن التزكية مجـــرد مـــرحلة في بادئ الأمر ثم تنتهي، ولكن المقصود هو إشعال جذوة الحمية الإيمانية، وإذكـــاء نارهـــا، ثم بعـــد ذلك لابد من تعهد تلك النار بتغذيتها بالوقود الصالح حتى لا تنطفـــئ، وحتى لا يتحقق للشخص مَثَل المنافقين الذي ضربه الله لهم حيث قال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(٢).

الإيمـــان شـــجرة تحتاج إلى وقفة لغرسها وتثبيتها، ثم تحتاج بعد ذلك تعهدًا بالرعاية والـــسقاية حـــتى تؤتي أكلها وثمارها كل حين بإذن ربها، وكذلك المؤمن لا يستغني عن الاجـــتهاد في العـــبادات والطاعات التي تزكي نفسه، ولا يستغني عن إنابة وتوبة وتطهير لنفسه وقلبه من الأدناس والأرجاس.

وقـــد أفاض العلماء فيما ينبغي للدعاة أن يتحلوا به في دعوتهم من الصفات، فذكروا

---

(١) المزمل: ٢٠.

(٢) البقرة: ١٨.

من ذلك:

الإخلاص، والاحتساب، والثبات، والصبر، والحكمة، والعلم، وزكاة النفس والاستقامة، وحفظ الأدب، والمروءة وسلامة الظاهر والباطن[1].

وهذه الصفات كلها لا تخرج عما اشتملت عليه مطالع هذه السور الثلاث (العلق- المزمل- المدثر).

وقد سبق بيان ما اشتملت عليه من الصفات.

دعوة وتوصية:

يبقى أن نوجه هنا دعوة إلى الأمة كافة، وتوصية إلى الدول والحكومات الإسلامية أن تعمل على الاهتمام بالدعوة ورعاية الدعاة والاهتمام بكفالتهم إذا كنا صادقين في الادعاء بالحرص على مصلحة هذا الدين والرغبة في إعلاء كلمته وسوف نفرد هذه النقطة بمزيد بحث عند الحديث عن اقتراحات التطوير في واقعنا المعاصر في المبحث الأخير من هذا البحث.

---

(١) انظر على سبيل المثال (رسالة إلى الدعاة) لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين من (ص٣٣- ٥١).

ثانيا: الوسائل الآلية الإعلامية[1]:

لم يشترط القرآن أو النبي ﷺ في تبليغ دعوته آلة بعينها أو وسيلة إعلامية معينة فالوسائل الإعلامية مباحة بشرط خلو تلك الوسائل من المحظورات الشرعية.

فالقرآن يقرر أن النذارة وإقامة الحجة تحصل للمدعوين ببلوغ دعوته دون اعتبار وسيلة إعلامية بعينها فأيما وسيلة حصل بها البلاغ والتبليغ فقد قامت الحجة وتمت النذارة.

ودليل ذلك قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[2].

قال ابن كثير: "أي: وهو نذير لكل من بلغه"[3].

فبينت الآية أن النذارة حاصلة دون اعتبار للوسيلة التي يتم بها الإبلاغ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ على تقدير حذف المفعول، أي: "ومن بلغه"، وذلك لوضوحه من السياق[4].

فاعتبر القرآن بلوغ الدعوة ولم يعتبر وسيلة التبليغ فلم يقل ومن بلغه أو بلغته رسلي أو دعاتي أو غير ذلك، وإنما أطلق التبليغ ووسيلتها.

وفي ذلك إشارة إلى عدم الحجر في استخدام أي وسيلة إعلامية ما لم تتضمن محظوراً من المحظورات الشرعية.

وفي التطبيقات الدعوية في السنة النبوية ما يبين ذلك، فالنبي ﷺ قد استحدث وسيلة

---

(١) هناك وسائل آلية مساعدة مثل: تقديم المساعدات المالية، وإعداد القوة الاقتصادية، والقوة العسكرية، وسيأتي الحديث عنها في منهج الدعوة.

(٢) الأنعام:١٩

(٣) تفسير ابن كثير- (٢/١٢٧).

(٤) وانظر: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي: البحر المحيط- دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد والشيخ علي محمد وآخران- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٣هـ-١٩٩٣م- (٤/٩٦).

إعلامية جديدة[1] لم يكن للناس عهد بها للإعلام بالصلاة، وهي الأذان، ورفض عند ذلك مـــا اقترحه بعض أصحابه من الوسائل التي رغب عنها النبي ﷺ لاشتمالها على محظور من المحظورات مثل مشابهة أهل الكتاب في نسكهم، وذلك فيما اقترح عليه من اتخاذ الضرب بالناقوس وسيلة للإعلام بالصلاة.

أو لاشتمالها على محظور زائد على المشابهة مثل تعظيم معالم الشرك، وذلك فيما اقترح عليه من إشعال النار كما يفعل المجوس الذين يعبدون النار أو يعظمونها[2].

---

(١) ســيأتي الحــديث في الفصل الخاص بتطوير المنهج والوسائل الإعلامية عن مشروعية استحداث الوسائل الدعوية وضوابطه.

(٢) كمــا جاء في بدء الأذان عن ابْنَ عُمَرَ كَانَ يَقُولُ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلاةَ لَيْسَ يُنَادَى لَهَا، فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ بُوقًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ. فَقَالَ عُمَرُ: أَوَلا تَبْعَثُونَ رَجُلا يُنَادِي بِالصَّلاةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا بِلالُ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلاةِ. [أخرجه البخاري في "الأذان"، باب: بدء الأذان (٦٠٤)، ومسلم في "الصلاة"، باب: بدء الأذان (٣٧٧).].

وأخرجه أبو داود وغيره من حديث عَبْدِاللَّهِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاقُوسِ يُعْمَلُ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلنَّاسِ لِجَمْعِ الصَّلاةِ طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلاةِ. قَالَ: أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى. قَالَ: فَقَالَ: تَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ... اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ... أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ أَشْــهَدُ أَنْ لا إِلَــهَ إِلا اللَّهُ... أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ... حَيَّ عَلَى الــصَّلاةِ حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ... حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ... اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ. قَالَ: ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ قَالَ: وَتَقُولُ إِذَا أَقَمْتَ الصَّلاةَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ... أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ... أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ... حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ... حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ... قَدْ قَامَتْ الصَّلاةُ قَدْ قَامَتْ الصَّلاةُ... اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ... لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَــا رَأَيْتُ فَقَالَ: "إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَقُمْ مَعَ بِلالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ"، فَقُمْتُ مَعَ بِلالٍ فَجَعَلْتُ أُلْقِيهِ عَلَيْهِ وَيُؤَذِّنُ بِهِ. قَالَ: فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ وَيَقُولُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ مَا رَأَى.فَقَالَ –

- رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَلِلَّهِ الْحَمْدُ".[أخرجه أحمد في"مسنده"(٤٣/٣)، وأبو داود في "الصلاة" ، باب : كيف الأذان (٤٩٩)، والترمذي في "الصلاة"، باب: ما جاء في بدء الأذان (١٨٩).].

وفي رواية عند أحمد بلفظ: "لَمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَضْرِبَ بِالنَّاقُوسِ يَجْمَعُ لِلصَّلاةِ النَّاسَ -وَهُوَ لَهُ كَارِهٌ لِمُوَافَقَتِهِ النَّصَارَى- طَافَ بِي مِنَ اللَّيْلِ طَائِفٌ وَأَنَا نَائِمٌ، رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ وَفِي يَدِهِ نَاقُوسٌ يَحْمِلُهُ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلاةِ. قَالَ: أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ...." فذكر الحديث.[أخرجه أحمد في "مسنده" (٤٢/٤).].

وعند ابن ماجه بلفظ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ هَمَّ بِالْبُوقِ وَأَمَرَ بِالنَّاقُوسِ فَنُحِتَ، فَأُرِيَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ زَيْدٍ فِي الْمَنَامِ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلا عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ يَحْمِلُ نَاقُوسًا...." فذكر الحديث.[أخرجه ابن ماجه في"الأذان والسنة فيه"، باب: بدء الأذان (٧٠٦)].

وجاء من حديث معاذ بن جبل كما أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٤٦/٥)، وأبو داود في "الصلاة"، باب: كيف الأذان (٥٠٦)، ولفظه " عَنْ مُعَاذٍ أَنَّ الصَّلاةَ أُحِيلَتْ ثَلاثَةَ أَحْوَالٍ، وَأُحِيلَ الصِّيَامُ ثَلاثَةَ أَحْوَالٍ، فَأَمَّا أَحْوَالُ الصَّلاةِ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ يُصَلِّي سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[البقرة:١٤٤]. قَالَ فَوَجَّهَهُ اللَّهُ إِلَى مَكَّةَ. قَالَ: فَهَذَا حَوْلٌ. قَالَ: وَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلاةِ وَيُؤْذِنُ بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى نَقَسُوا أَوْ كَادُوا يَنْقُسُونَ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ زَيْدٍ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، وَلَوْ قُلْتُ: إِنِّي لَمْ أَكُنْ نَائِمًا لَصَدَقْتُ، إِنِّي بَيْنَا أَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إِذْ رَأَيْتُ شَخْصًا عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ... أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ مَثْنَى مَثْنَى حَتَّى فَرَغَ مِنَ الأَذَانِ، ثُمَّ أَمْهَلَ سَاعَةً. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: مِثْلَ الَّذِي قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ يَزِيدُ فِي ذَلِكَ قَدْ قَامَتِ الصَّلاةُ قَدْ قَامَتِ الصَّلاةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَلِّمْهَا بِلالا فَلْيُؤَذِّنْ بِهَا، فَكَانَ بِلالٌ أَوَّلَ مَنْ أَذَّنَ بِهَا. قَالَ: وَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ طَافَ بِي مِثْلُ الَّذِي أَطَافَ بِهِ غَيْرَ أَنَّهُ سَبَقَنِي......" الحديث.

وأخرجه الدارمي في "سننه" (١١٨٧) عن محمد بن إسحاق قَالَ: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَدِمَهَا -يَعْنِي الْمَدِينَةَ- إِنَّمَا يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ بِالصَّلاةِ لِحِينِ مَوَاقِيتِهَا بِغَيْرِ دَعْوَةٍ، فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ بُوقًا كَبُوقِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِهِ لِصَلاتِهِمْ، ثُمَّ كَرِهَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالنَّاقُوسِ فَنُحِتَ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى الصَّلاةِ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ رَأَى عَبْدُاللَّهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ ....." فذكر الحديث. =

وتنقسم وسائل الدعوة في القرآن الكريم والسنة النبوية من حيث آلية الدعوة أو من حيث الوسيلة الإعلامية إلى قسمين:

الأول: المخاطبة.

الثاني: المكاتبة.

١- المخاطبة:

وهي تعتمد على الخطاب المباشر للمدعو، وذلك كما في السياقات الكثيرة المتعددة التي بين الله تعالى لنا فيها كيف خاطب كل رسول قومه ودعاهم إلى الله تعالى بالدعوة المباشرة عن طريق المخاطبة:

نحو: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

-وفي الموطأ عَنْ مَالِكٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ خَشَبَتَيْنِ يُضْرَبُ بِهِمَا لِيَجْتَمِعَ النَّاسُ لِلصَّلاةِ، فَأُرِيَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ ثُمَّ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ خَشَبَتَيْنِ فِي النَّوْمِ فَقَالَ: إِنَّ هَاتَيْنِ لَنَحْوٌ مِمَّا يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقِيلَ: أَلا تُؤَذِّنُونَ لِلصَّلاةِ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالأَذَانِ. [أخرجه مالك في "الموطأ" (١٤٩).].

وقال ابن تيمية: "إنما الغرض هنا أن النبي ﷺ لما كره بوق اليهود المنفوخ بالفم، وناقوس النصارى المضروب باليد علل هذا بأنه من أمر اليهود، وعلل هذا بأنه من أمر النصارى؛ لأن ذكر الوصف عقيب الحكم يدل على أنه علة له، وهذا يقتضي نهيه عن كل ما هو من أمر اليهود والنصارى، هذا مع أن قرن اليهود يقال: إن أصله مأخوذ عن موسى عليه السلام، وأنه كان يضرب بالبوق في عهده، وأما ناقوس النصارى فمبتدع؛ إذ عامة شرائع النصارى أحدثها أحبارهم ورهبانهم، وهو يقتضي كراهية هذا النوع من الأصوات مطلقا في غير الصلاة أيضا؛ لأنه من أمر اليهود والنصارى؛ فإن النصارى يضربون بالنواقيس في أوقات متعددة غير أوقات عباداتهم، وإنما شعار الدين الحنيف الأذان المتضمن للإعلان بذكر الله سبحانه، الذي به تفتح أبواب السماء وتهرب الشياطين وتنزل الرحمة" [أحمد بن عبدالحليم بن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم- تحقيق: د/عبدالحميد هنداوي- المكتبة العصرية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م- (١٦٢-١٦٣).].

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

ونحو: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

ونحو: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[3].

ونحو: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[4].

---

(١) الأعراف: ٥٩-٦٣.

(٢) الأعراف: ٦٥-٦٧.

(٣) الأعراف: ٧٣-٧٩.

(٤) الأعراف: ٨٠-٨٢.

والآيات في هذا النوع كثيرة جدًّا يطول حصرها، وهذه النصوص وغيرها يؤصل لهذه الوسيلة الدعوية بكل صورها القديمة والحديثة مثل الخطبة والمحاضرة والحوار والمناظرة والندوات والمؤتمرات ووسائل الاتصال الحديثة كالإذاعة والتلفاز والهاتف وأشرطة الكاسيت والفيديو والأقراص المضغوطة الـCD والأقمار الصناعية وشبكة الإنترنت وغير ذلك من الوسائل الدعوية المعتمدة على الخطاب الموجه إلى المدعو أيًّا كان نوع هذا الخطاب.

وقد يقوم الداعي بمخاطبة قومه بنفسه أو يرسل إليهم رسلاً يخاطبونهم بدعوته ويبلغونهم إياها بكافة الوسائل الخطابية كذلك فيمكن أن تعد بذلك وسيلة دعوية أخرى من حيث إن الداعي لا يمارس الدعوة فيها بنفسه، بل يعتمد على إرسال رسول أو رسل نائبين عنه في تبليغ تلك الدعوة.

ونستطيع أن نلمح ذلك واضحًا في قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[1].

قال ابن كثير في هذه الآية: "أي: وهو نذير لكل من بلغه"[2].

"فإن فيه دلالة واضحة على أن النذارة بالقرآن مستمرة وحاصلة بكل من يقوم بمهمة البلاغ والتبليغ نائبًا عن الرسول ﷺ، وليسوا إلا الدعاة العاملين حملة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومبلغيها في الآفاق ففي دعوتهم وإبلاغهم الحجة والنذارة لمن بلغته تلك الدعوة وتلك النذارة".

وذلك كما في قصة سورة (يس) في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)

---

(١) الأنعام: ١٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير- (١٢٧/٢).

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[1].

فهـــؤلاء الرسل قد أرسلهم عيسى عليه السلام إلى قرية أنطاكية كما ذكر المفسرون عن قتادة[2].

فعيـــسى عليه السلام لم يذهب إلى أهل هذه القرية بنفسه ولكن جعل وسيلته لدعوة أهـــل هـــذه القـــرية إرســـال هؤلاء الرسل إليهم، وقد أرسل إليهم في بادئ الأمر اثنين فكذبوهما، فعززهم بثالث يقوي شأنهم ويؤازرهم في دعوة أهل هذه القرية وإقناعهم.

وهـــذه الوســـيلة يعـــتمد فيها الرسل كما هو واضح من سياق الآيات على مشافهة المدعوين، ومخاطبتهم خطابًا مباشرًا فكأنها ترجع إلى الوسيلة الأولى.

٢-الوسيلة الثانية من حيث آلية الدعوة، وهي طريقة مستقلة عن الأولى هي: المكاتبة:

وقد استخدمت في عهد النبي ﷺ في صورة إرسال الكتب أو الرسائل الدعوية:

كمـــا اســـتخدمت من قديم كذلك لدى الأنبياء السابقين -عليهم جميعًا صلوات الله تعالى وتسليمه.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره القرآن من قصة سليمان -عليه السلام- مع الهدهد وإرساله إلـــيهم كتاب إلى ملكة سبأ يدعوها فيه هي وقومها إلى الإسلام وكان نص رسالته كما ذكرها القرآن:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[3].

ومـــن ذلك أيضًا ما أرشد إليه القرآن النبي ﷺ في دعوته أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[4].

فقـــد وظفها النبي ﷺ في دعوته للملوك والرؤساء من أهل الكتاب فخاطبهم بها كما

---

(١) يس: ١٣-١٩.

(٢) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن كثير في هذه الآيات.

(٣) النمل: ٣٠-٣١.

(٤) آل عمران: ٦٤.

صح بذلك الحديث عن النبي ﷺ.

فقد روى البخاري: كما في حديث هرقل وفيه "ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ...الحديث[1].

وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بِكِتَابِهِ رَجُلًا وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ فَدَفَعَهُ عَظِيمُ الْبَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ[2].

ثالثًا: الوسائل التخطيطية:

أ) تنوع وسائل الدعوة من حيث السرية والجهرية:

تتنوع وسائل الدعوة في القرآن الكريم من حيث اتخاذ السرية أو الجهرية وسيلة للوصول إلى قلب المدعو، وإيصال دعوة الخير إليه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى استخدام نبي الله نوح –عليه السلام- للوسيلتين كلتيهما في دعوته قومه حيث قال على لسان نوح –عليه السلام-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري في "بدء الوحي" (٧)، ومسلم في "الجهاد والسير"/باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في "العلم"/باب: ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم، (٦٤).

(٣) نوح: ٥-٩.

فنوح –عليه السلام– يقرر أنه قد دعا قومه بالليل والنهار، سرًّا وعلانية، وذكر الليل والـــنهار لأنـــه قد دعاهم سرًّا وجهرًا، فكان الليل أنسب الأوقات لدعوة السر، والنهار أنسب لدعوة الجهر، وقد دعاهم عليه السلام سرًّا وجهرًا على ما تقتضيه الحكمة من ذلك كلـــه فجعل دعوة السرّ حيث يكون ذلك أصلح وأنفع، وجعل دعوة الجهر حيث يكون ذلك أنجح وأنجع.

ولكل واحد من النوعين أحوال يصلح لها دون الآخر، وقد بين القرآن الكريم وبينت السنة النبوية تلك الأحوال.

١– الدعوة السرية:

اعـــتمدت دعـــوة النبي ﷺ على الدعوة السرية في مهدها حيث كان ذلك أحـــدى وآمـــن، فقـــد ظل النبي ﷺ يدعو إلى الله تعالى سرًّا في بادئ الأمر متمثلاً قول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَـــا الْمُدَّثِّـــرُ (١) قُـــمْ فَأَنْـــذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1].

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال: "جاورت بحراء شهرًا فلما قضيت جواري هبطت فلما استبطنت الوادي فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظـــرت أمامـــي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فإذا الملـــك الـــذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجثثتُ منه رعبا حتى هـــويت إلى الأرض فأتيت خديجة فقلت: زملوني، زملوني، دثروني، وصبوا علي ماء باردًا"، قال: "فدثروني وصبوا علي ماء باردًا، فنزلت: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

وفي ذلك يقول صاحب الرحيق المختوم:

"ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

معلـــوم أن مكـــة كانت مركز دين العرب، وكان بها سدنة الكعبة والقـــوام عـــلى

(١) المدثر: ١–٥.

الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسرًا وشدة عما لو كان بعيدًا عنها، فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث، كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تون الدعوة في بدء أمرها سرية، لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم.

الرعيل الأول:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به وآل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه خيرًا ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الله الحق والخير، ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح، فأجابه من هؤلاء – الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره- جَمْعٌ عرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين، وفي مقدمتهم زوجة النبيﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي، وابن عمه علي بن أبي طالب – وكان صبيًّا يعيش في كفالة الرسول ﷺ وصديقه الحميم أبو بكر الصديق. أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة.

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلاً مألفًا محببًا سهلاً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمي، فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام.

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشي، ثم تلاهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح من بني الحارث بن فهر، وأبو سلمة بن عبدالأسد، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبدالله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ابن عبدمناف، وسعيد بن زيد العدوي، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت،وعبدالله بن مسعود الهذلي، وخلق سواهم، وأولئك هم

السابقون الأولون، وهم من جميع بطون قريش، وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرًا. وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر.

قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به.

أسلم هؤلاء سرًّا، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيًّا؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية، وكان الوحي قد تتابع وحمي نزوله بعد نزول أوائل المدثر، وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصية، ذات فواصل رائعة منيعة، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق، تشتمل على تحسين تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا، تصف الجنة والنار كأنهما رأي عين، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك.

وقد ذكر ابن هشام: أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعليًّا يصليان مرة، فكلمهما في ذلك، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات.

وهكذا مرت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، ولم يجهر بها النبي ﷺ في المجامع والنوادي، إلا أنها عرفت لدى قريش، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به الناس، وقد تنكر له بعضهم أحيانًا، واعتدوا على بعض المؤمنين، إلا أنهم لم يهتموا به كثيرًا حيث لم يتعرض رسول الله لدينهم، ولم يتكلم في آلهتهم[1].

ونستطيع أن نذكر بعض أسباب سرية الدعوة في هذه المرحلة من خلال معرفتنا بطبيعة تلك المرحلة وملابساتها، ومن ثم نوجز أهم تلك الأسباب في:

١-الحرص على الدعوة أن توأد في مهدها إذا ما جوهت قريش بها، وإذا ما استشعرت خطرها.

٢-إفساح المجال لبناء الرعيل الأول وتأسيسه في جو آمن، وإن كان الأذى يصل إلى

---

(١) انظر: الرحيق المختوم، ص(٩٣-٩٥).

هــؤلاء الأوائــل ويزداد يومًا بعد يوم كلما ازداد عدد السابقين إلى هذه الدعوة، وكلما أحست قريش بخطرها واتساعها.

٣-الدعــوة الـسرية الهادئــة المفصَّلة أنسب شيء لتلك المرحلة الأولى مرحلة البناء والتأسيس.

٤-الجهر بالدعوة في بادئ الأمر إن لم يؤد إلى القضاء على الدعوة في مهدها فسيؤدي حتمًا إلى التشويش عليها وعلى المبتدئين فيها في بداية عهدهم بها.

لهــذه الأسباب -وغيرها مما يعلمه الله- تكون الدعوة السرية في بادئ الأمر مفيدة في مثل تلك الظروف التي واجهت دعوة النبي ﷺ في قومه.

٢-الدعوة الجهرية:

حفل القرآن الكريم بالعديد من مواقف الدعوة الجهرية للأنبياء مع أقوامهم، وقد سبق أن عرضنا عددًا من أمثلتها عند حديثنا عن المشافهة بالدعوة.

ونحــب أن نعرض هنا لبعض تطبيقات النبي ﷺ لجهرية الدعوة في مرحلة الجهر بها من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أول أمر بإظهار الدعوة والجهر بها:

"لمــا تكــونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون، وتتحمل عبء تبليغ الرســالة وتمكيــنها من مقامها نزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنة الدعوة، ومجابهة الباطل بالحسنى.

وأول مــا نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1]، وقد ورد في ســياق ذكــرت فــيه أولاً قصة موسى عليه السلام، من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إســرائيل، وقــصة نجاتهم من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون معه، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى -عليه السلام، خلال دعوة فرعــون وقومــه إلى الله.

(١) الشعراء:٢١٤.

وكـــأن هذا التفصيل جيء به مع أمر الرسول ﷺ بجهر الدعوة إلى الله؛ ليكون أمامه وأمـــام أصــــحابه مـــثال لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ البداية"(١).

أمثلة من الدعوة الجهرية في حياة النبي ﷺ:

البدء بدعوة الأقربين:

"دعـــا رسول الله ﷺ عشيرته بني هاشم بعد نزول هذه الآية، فجاءوا ومعهم نفر من بني المطلــــب بـــن عبدمناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلاً. فلما أراد أن يتكلم رسول الله ﷺ بادره أبو لهب وقال: هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم، ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعـــرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحدًا جاء على بني أبيه بشر مما جئت به، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس.

ثم دعـــاهم ثانية وقال: "الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له". ثم قال: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هـــو، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا"

فقـــال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقًا لحديثك. وهـــؤلاء بـــنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمـــرت بــــه. فوالله، لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبدالمطلب.

فقـــال أبـــو لهب: هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا(٢).

---

(١) السابق- ص(٩٧).

(٢) الكامل لابن الأثير- (٥٨٤/١، ٥٨٥).

على جبل الصفا:

وبعد تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته وهو يبلغ عن ربه، صعد النبي ﷺ ذات يوم على الصفا، فعلا أعلاها حجرًا، ثم هتف: "يا صباحاه"[1].

وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم.

ثم جعل ينادي بطون قريش، ويدعوهم قبائل قبائل: "يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبدالمطلب".

فلما سمعوا قالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فأسرع الناس إليه، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش.

فلما اجتمعوا قال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي بسَفْح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدقي؟".

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العَدُو فانطلق يَرْبَأ أهله" (أي يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم العدو) "فخشي أن يسبقوه فجعل ينادي: يا صباحاه".

ثم دعاهم إلى الحق، وأنذرهم من عذاب الله، فخص وعم فقال: "يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا.

يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بني قصي، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

يا معشر بني عبدمناف، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا.

---

(١) أخرجه البخاري في "التفسير"- (٤٨٠١)، ومسلم في "الإيمان"- (٢٠٨).

يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بني عبدالمطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم، لا أملك لكم من الله شيئًا.

يا عباس بن عبدالمطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا صفية بنت عبدالمطلب عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا فاطمة بنت محمد رسول الله، سليني ما شئت من مالي، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنك من الله شيئًا.

غير أن لكم رحمًا سأبلُّها ببلالها" أي سأصلها حسب حقها.

ولما تم هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أي ردة فعل، سوى أن أبا لهب واجه النبي ﷺ بالسوء، وقال: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1][2].

كانت هذه الصيحة من النبي ﷺ بمثابة الإعلان عن هذه الدعوة، فبدأ ضعفاء الناس يتسللون إليها، ومنذ ذلك اليوم أعلنت العداوة السافرة بين حزب الموحدين وحزب المشركين، فعملت قريش على مجابهة هذه الدعوة بأساليب شتى، منها:

١-السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب للنبي ﷺ والمؤمنين.

٢-إثارة الشبهات والدعايات الكاذبة.

٣-الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن.

٤-اضطهاد المؤمنين وتعذيبهم.

٥-الاعتداءات على النبي ﷺ.

---

(١) المسد:١.

(٢) الرحيق المختوم- ص(٩٧-٩٩).

٦-مساومة النبي ﷺ على ترك دعوته.

٧-مقاطعتهم للمسلمين ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب[1].

هذه النتائج كانت هي أهم النتائج التي أسفرت عنها الدعوة الجهرية، ولقد أثبتت هذه النتائج الحكمة البالغة في سرية الدعوة ثلاث سنوات قبل الجهر بها في هذا الوقت ولقد كان قرار الجهر بالدعوة حكيمًا، كما كان قرار السرية حكيمًا كذلك، فما كان لهذه الدعوة أن تُعرّف وتنتشر وتكسب الأنصار والأعوان والمؤيدين إلا بالجهر بها في يوم من الأيام.

فحينما بلغ أنصار هذه الدعوة حدًّا يستطيعون الدفع عن دعوتهم والذبّ عنها إذا ما تعرضوا لمواجهة شاملة، وحينما بلغوا حدًّا يصعب معهم استئصال شأفتهم لكثرتهم -نوعًا ما- باعتبار تعدد أحيائهم وبطونهم وأوليائهم، وحينما بلغ الإيمان في قلوب هؤلاء الرعيل الأول نصابه الذي يحتم على أصحابه أن يخرجوا زكاته من الصبر والثبات وتحمل المشاق في سبيل نصرة هذا الدين والحفاظ على هذا الإيمان، حينما حدث ذلك كله كان الجهر بالدعوة قرارًا حكيمًا مناسبًا لظروف الدعوة في ذلك الوقت.

وهكذا تكون السرية والجهرية وسيلتين أمام الدعوة الحكيمة يتخير منهما الداعي ما هو أصلح لدعوته، وقد يمزج بينهما في بعض الأحيان بحسب مصلحة الدعوة، فالانتقال إلى مرحلة الدعوة الجهرية لا يحتم سلوك سبيل الجهر في جميع الظروف والمناسبات والأحوال فقد تنتقل الدعوة إلى المرحلة الجهرية، ولكن يرى الداعي أن من الحكمة أن يحتفظ بسرية الدعوة في بعض أمورها أو أحوالها.

والشاهد على ذلك من سنة النبي ﷺ هو ما كان في المرحلة الجهرية من اتخاذ النبيﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم يجتمع فيها وأصحابه في هذه المرحلة سرًّا بعيدًا عن أعين قريش.

فمع الجهر بالدعوة تأزمت الأمور واشتد الحال بأصحاب النبي ﷺ، وكان لابد من

---

(١) انظر تفصيل الكلام في هذه النقاط في الرحيق المختوم- ص(١٠٠-١٤٠).

اتـــباع سياســـة المدّ والجزر وكانت الحكمة تقتضي مزج الجهرية بالدعوة في هذه المرحلة بشيء من السرية في بعض أمورها.

"وكـــان من مقتضيات هذه الظروف المتأزمة أن يختار رســـول الله ﷺ موقفًا حازمًا يـــنقذ بـــه المسلمين عما دهمهم من البلاء، ويخفف وطأته بقدر المستطـــاع، وقـــد اتخذ رســـــول الله ﷺ خطـــوتين حكيمتين كان لهما أثرهما في تسيير الدعوة وتحقيق الهدف، وهما:

١-اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركزًا للدعوة ومقرًا للتربية.

٢-أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة.

دار الأرقم:

كانـــت هذه الدار في أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها رسول الله ﷺ ليجـــتمع فـــيها بالمسلمين سرًا، فيتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمـــة؛ وليؤدي المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله وهم في أمـــن وســـلام، وليدخل من يدخل في الإسلام ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة.

وممـــا لم يكن يشك فيه أن رسول الله ﷺ لو اجتمع بالمسلمين علنا لحاول المشركون بكـــل ما عندهم من القسوة والغلظة أن يحولوا بينه وبين ما يريد من تزكية نفوسهم ومن تعليمهم الكتاب والحكمة، وربما أفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل قد وقع ذلك فعلاً؛ فقـــد ذكـــر ابن إسحاق أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب، فيصلون فـــيها سرًا، فرآهم نفر من كفار قريش، فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه، وكان أول دم هريق في الإسلام[1].

ومعلـــوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان مـــن الحكمـــة الـــسرية والاخـــتفاء، فكـــان عامة الصحابة يُخفُون إسلامهم وعبادتهم

(١) أبو محمد عبدالملك بن هشام: سيرة النبي ﷺ- النور الإسلامية- عين شمس- (١/٢٤٧).

واجتماعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهراني المشركين، لا يصرفه عن ذلك شيء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرًّا؛ نظرًا لصالحهم وصالح الإسلام[1].

كان الاجتماع في دار الأرقم إذًا نوعًا من السرية التي تقتضيها الحكمة في هذه المرحلة الجهرية، كما كانت الهجرة إلى الحبشة كذلك نوعًا من الاختفاء والسرية بالدعوة حفاظًا على مكاسب الدعوة في هذه المرحلة كذلك.

٢-الهجرة إلى الحبشة:

لما أعلن الرسول الدعوة على جبل الصفا، بدأت قريش تتربص بالرسول وصحبه كما هي حالة الدعوات السابقة من الابتلاء والاختبار، وكانت بداية الاعتداءات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة[2]، وكانت تزداد شيئًا فشيئًا، حتى بلغ الأذى بالمسلمين مداه؛ لذا وجد الرسول ﷺ حفاظًا على ثمرة الدعوة -وهم المؤمنون به- أن يهاجر المسلمون إلى أرض غير تلك الأرض الظالم أهلها، فلم يجد أفضل من أرض الحبشة، تلك الأرض التي بها ملك لا يظلم عنده أحد[3]، وقد تم هذا الأمر في سرية تامة حتى لا تتنبه قريش فتجهض العمل وهو لا يزال في مهده، وقد أدركت قريش ما بيته المسلمون ولكنه قد فات الوقت واستطاع المسلمون أن يفروا بدينهم إلى أرض الحبشة[4].

ب- الدعوة من حيث الفردية والتعددية:

وهذا التقسيم لا علاقة له بالتقسيم السابق لأن دعوة الفرد أو الجماعة قد يكون سرًّا أو جهرًا فليس هناك ارتباط بين الفردية والسرية أو الجماعة والجهرية.

---

(١) الرحيق المختوم- (ص١١٤-١١٥).

(٢) الرحيق المختوم- (١١٥).

(٣) أخرجه أحمد في "المسند" (١/٢٠٣)، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند- (١٧٤٠).

(٤) انظر الرحيق المختوم- (١١٥-١١٦).

وتنقسم الدعوة من حيث الفردية والتعددية إلى:

١- دعوة الفرد. ٢- دعوة الجماعة.

١- دعوة الفرد:

وفـــيها يتم انفراد الداعي بالمدعو سواء لأن ذلك أنسب من ناحية سرية الدعوة، أو لكـــونه أنسب لمراعاة حال المدعو لكونه بحاجة إلى شرح وبسط وإزالة شبه خاصة به فلا ارتباط هنا بين الفردية والسرية، فقد يدعي الفرد وحده في مرحلة الدعوة الجهرية لظروف تخـــصه أو أمور تناسبه كمراعاة حالته الاجتماعية أو السياسية أو غير ذلك من الأمور التي تدخل مراعاتها في حكمة الدعوة.

وغالبًا ما تكون الدعوة الفردية هي الأنسب في البدايات الأولى للدعوة، أو في مرحلة اضطهاد الدعوة وترصدها.

وهـــذا هو ما سلكه النبي ﷺ في دعوته حيث بدأ بدعوة الأفراد فدعا في بادئ الأمر زوجـــته خديجـــة فكانت أول من آمن به من النســاء، ثم دعا عليًّا -رضي الله تعالى عنه- وكان صبيًّا يعيش في كفالته ﷺ، ثم دعا مولاه زيد بن حارثة بن شراحيل، ثم دعا صديقه الحميم أبا بكر الصديق.

فكان هؤلاء أول من دعاهم النبي ﷺ إلى هذا الدين فآمنوا به واتبعوه[1].

٢-دعوة الجماعة:

ونقـــصد بها دعوة الاثنين فما فوقهما، وهذا يرجع إلى تقدير الداعي إلى الله تعالى بحسب مـــا هـــو أصلح للدعوة والمدعوين، ولا يرتبط ذلك بمرحلة السرية أو الجهرية، فهي ترتبط بما يؤدي إليه النظر السديد القائم على دراسة الظروف والأحوال المحيطة بالدعوة.

وســـيرة النبي ﷺ حافلة بهذا النوع من الدعوة، فقد كان ﷺ يتتبع الناس في الأسواق والمنتديات والمحافل والمواسم كموسم الحج والتجارة وغيرها[2].

---

(١) انظر: السابق- ص(٩٣).

(٢) وانظـــر على سبيل المثال مبحث: عرض الإسلام على القبائل والأفراد في الرحيق المختوم (١٥٣) ومـــا بعدها، كما تجده مفصلاً كذلك في حياة الصحابة للكاندهلوي في بدايات الجزء الأول من الكتاب.

رابعًا: وسائل الدعوة من حيث القالب أو الشكل:

تنقسم الدعوة من حيث طبيعة القالب أو الشكل الدعوي إلى:

١-الموعظة.

٢-الخطبة.

٣-القصة.

٤-التمثيل (ضرب الأمثال).

٥-المجادلة بالحسنى.

٦-المحاجة والمناظرة.

٧-الشعر.

١-الموعظة:

كلمة مؤثرة رقيقة تأخذ بمجامع القلوب فتحركها وتوقظها من غفلتها وسباتها لتدرك الغاية التي خلقت لأجلها، فتزعج النفس وتحركها نحو سبيل تحقيق تلك الغاية.

والموعظة كلمات قصيرة هادئة تتسلل إلى النفس برفق وحكمة بحيث تعرف طريقها إلى قلب السامع، فتدخل لكل إنسان من المدخل اللائق به والمحبب إلى نفسه ومن ثم فهي نوعان:

١- عامة. ٢- خاصة.

فالعامة كسائر المواعظ التي في كتاب الله تعالى، وكسائر المواعظ العامة في حديث النبي ﷺ لا يراد منها تذكير شخص بعينه، بل يراد بها تذكر المؤمنين كافة، وقد تكون أكثر اتساعًا بحيث تشمل تذكير الناس جميعًا.

فمن أمثلة المواعظ العامة لتذكير المؤمنين كافة في كتاب الله تعالى: قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ(١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[1].

فهذه الموعظة أمرت المؤمنين بتقوى الله تعالى وذكرتهم بما يجب عليهم من هذا الأصل العظيم، وهو أصل الاجتماع والائتلاف، وحذرتهم عاقبة التفرق والاختلاف، ووعظتهم في ذلك أبلغ موعظة وأحسنها.

وقوله تعالى: ﴿يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

فالآيات هنا تعظ المؤمنين في غفلتهم وتلهيهم عن حقيقة الموت والرجوع إلى الله تعالى وتذكرهم بالأخذ بكتاب الله تعالى والخشوع لأوامره لأن فيه فلاحهم ونجاحهم.

ومن أمثلة الموعظة العامة التي يراد بها تذكير الناس كافة في كتاب الله تعالى، قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يأيها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ

---

(١) آل عمران: ١٠٢-١٠٩.

(٢) الحشر: ١٨-٢١.

كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

فهذه موعظة بليغة جامعة دعت الناس جميعًا إلى عبادة الواحد الأحد، وذكرت من أدلة استحقاقه سبحانه للتوحيد والعبودية، وذكرت الناس بهذا الكتاب الخالد المعجز وتحدتهم أن يأتوا بسورة من مثله، ثم جمعت بين الترهيب والترغيب في بيان عجيب يأخذ بمجامع القلوب، ويستولي عليها، فلا تجد مناصًا من الإقرار بالعبودية والتسليم لمالك الملك والملكوت.

وكذلك من هذا النوع الذي توجه فيه العظة للناس جميعًا قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(٢).

وأسلوب القرآن في هذه الموعظة قريب من أسلوبه في الموعظة السابقة حيث رتب الدعوة إلى العبودية على دلائل الربوبية، فبدأ بالتذكير بنعم الله تعالى على العبيد وتقريرهم بها، ثم ثنى بتخويفهم من الاغترار بالحياة الدنيا وبالأماني الكاذبة التي يمني بها الشيطان

---

(١) البقرة: ٢١-٢٥.

(٢) فاطر: ٣-٨.

أتباعه ثم بين لهم سوء العاقبة في ذلك، وحسن عاقبة المؤمنين على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب.

ونلاحظ أن القرآن قد بدأ في الموعظتين بالترهيب قبل الترغيب نظرًا لأن الخطاب هنا مع عموم الناس الذين يغلب عليهم الإعراض والغفلة مما ينبغي أن يقدم الترهيب في حقهم لإزالة تلك الغفلة، وذلك بخلاف الخطاب مع المؤمنين المنيبين إلى ربهم الذين يحفزهم الترغيب ويأخذ بنواصيهم إلى الخير.

الموعظة الخاصة: من أمثلة الموعظة الخاصة في القرآن الكريم موعظة لقمان لابنه؛ حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[1].

أمثلة الموعظة في دعوة النبي ﷺ:

الموعظة في دعوة النبي ﷺ تختلف باختلاف المخاطبين من حيث العموم والخصوص، ومن حيث الجنس وغير ذلك.

فمن أمثلة الموعظة الموجهة لعموم المسلمين موعظته ﷺ لعامة المسلمين في حجة الوداع.

---

(١) لقمان: ١٣-١٩.

فعن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي، أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحَمِدَ الله وأثنى عليه وذكر ووعظ، فذكر في الحديث قصَّة، فقال: "ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هن عوانٍ عندكم ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، ألا إن لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا، فأما حقكم على نسائكم فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكُم مَنْ تَكْرَهُونَ، ولا يأذَنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تُحسِنُوا إليهن في كِسْوَتِهِنَّ وطَعَامِهِنَّ"(١).

فالنبي ﷺ لم يفوت فرصة اجتماع هذا القدر الكبير من المسلمين في موسم الحج دون أن يعظهم في مهمات أمورهم، وما فيه صلاح البيوت والأسر الذي به صلاح المجتمع، ولما كان ذلك كله متوقفًا على إصلاح شأن النساء والاهتمام بأمورهن فقد اعتنى النبي ﷺ في موعظته بأمر النساء والوصية لهن خيرًا.

ومن أمثلة هذه المواعظ العامة للمسلمين جميعًا كذلك ما رواه العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وَعَظَنَا رسول الله ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب". فقال رجل: إن هذه موعظة مودعٍ فماذا تعهدُ إلينا يا رسول الله؟. قال: "أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبد حبشيٌّ؛ فإنه من يعش منكم ير اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم بسُنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ"(٢).

فهي تتعلق بأمر يهم عموم المسلمين وهو أمر الاعتصام ولزوم الجماعة والسمع والطاعة واجتناب البدع ومحدثات الأمور، وهي أمور يتوقف عليها صلاح الدين والدنيا.

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٦٣)، وابن ماجه- (١٨٥١)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٩٢٦/٤)، وابن ماجه- (٤٣)، والحاكم في "المستدرك"- (٩٦/١)، صححه الشيخ الألباني في "الصحيحة"- (٩٣٧).

ومن أمثلة الموعظة الخاصة التي تخص جنسًا معينًا من المسلمين كجنس النساء مثلاً، ما رواه جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال: شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذان ولا إقامة، ثم قام متوكئًا على بلال، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ الناس، وذكرهم، ثم مضى، حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن، فقال: "تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم"، فقامت امرأة من سطة النساء سفعاء الخدين، فقالت: لم يا رسول الله؟ قال: "لأنكن تكثرن الشكاة، وتكفرن العشير"، قال: فجعلن يتصدقن من حُليهنَّ يُلْقِينَ في ثَوْبِ بلالٍ من أَقْرِطَتِهِنَّ وخَوَاتِمِهِنَّ"[1].

فقد ذكر راوي الحديث أن النبي ﷺ قد وعظ الناس عامة فذكرهم وأوصاهم بتقوى الله تعالى، ثم توجه إلى النساء خاصة فخصهم بموعظة خاصة دون الرجال لما لهن من أمور تخصهن تحتاج إلى مزيد تأكيد وتحذير من التهاون والتفريط فيها ككثرة الشكاية، وكفر العشير فلزم التأكيد على ذلك، والتحذير من الوقوع فيه، والتخويف منه بعذاب جهنم.

٢- الخطبة:

الخطبة من الوسائل الدعوية المؤثرة التي حفلت بها سنة النبي ﷺ حيث إن لها مناسبات تتكرر فيها بصفة دورية كخطبة الجمعة التي تتكرر كل أسبوع أو خطبتي العيدين ويوم عرفة، فضلاً عن المناسبات الخاصة التي تستدعي الخطبة في المحافل والمواسم والمجامع الكبار حيث تتعين هذه الوسيلة في الغالب حيث يكثر عدد الذين يرجى سماعهم للداعي والإقبال على خطبته.

وللخطبة مواصفات وسمات من حيث الإلقاء والأسلوب والأركان والمادة والموضوع.

---

(١) أخرجه البخاري في "الجمعة"، باب: موعظة الإمام النساء يوم الجمعة- (٩٧٨)، ومسلم في "صلاة العيدين" (٨٨٥)، واللفظ له.

فمـــن حيث الإلقاء لابد أن يرفع الخطيب صوته ويشتد وتبدو الحماسة والانفعال عليه حتى يجذب الحاضرين ويؤثر في جمعهم وقد كانت السنة النبوية خير تطبيق لذلك، فعن جابر بـــن عـــبدالله قال: "كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه مُنذر جيش يقول: صبحكم ومسـاكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بـــين إصـــبعيه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة، ثم يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالاً فلأهله ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإليَّ وعليَّ"[1].

ومـــن حـــيث الأســـلوب ينبغي أن يغلب الأسلوب الإنشائي على الأسلوب الخبري التقريـــري، والأسلوب الوجداني القلبي على الأسلوب العقلي التأملي؛ لأنه يلقي كلامًا لا يراجع فيه، ولا يوقفه القارئ لاستفهامه في شيء منه.

ومـــن أمـــثلة ذلك ما نراه في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، حيث كـــثر فيهـــا الأســـاليب الاســـتفهامية الإنشائية التي جاءت لتقرير الناس بعظم حرمة الدماء والأموال بأحسن بيان.

فعـــن أبي بكرة ﷺ أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: "ألا تدرون أي يوم هذا؟". قالـــوا: الله ورسوله أعلم، قال: حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: "أليس بيوم النَّحْرِ؟" قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "أي بلد هذا؟ أليست بالبلدة الحرام؟"، قلنا: بلى يا رسول الله، قـــال: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟"، قلنا: نعم، قال: "اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ يبلغه من هو أوعى له"[2] فكان كذلك).

أمـــا مـــن حيث الأركان فقد اعتنى الفقهاء ببيان أركان الخطبة لاسيما خطبة الجمعة

---

(١) أخرجه مسلم في "الجمعة"، باب: تخفيف الصلاة والخطبة- (٨٦٧).

(٢) أخـــرجه البخاري في "الحج"، باب: الخطبة أيام منى- (١٧٤١)، ومسلم في "القسامة والمحاربة"، باب: تغليظ تحريم الدماء- (١٦٧٩).

وضرورة افتتاحها بالتحميد والتشهيد واشتمالها على القرآن والحديث والدعاء ونحو ذلك مما هو مفصَّل في كتب الفقه[1].

وأما من حيث المادة والموضوع، فتخصص الخطبة للتنبيه على الأمور المهمة والتي يحتاج إليها عموم المسلمين، مع تذكيرهم بتقوى الله تعالى وطاعته والإنابة إليه، ونحو ذلك مما فيه صلاح قلوبهم ونفوسهم وتزكيتها.

فليست الخطبة محلاً لتفصيل المسائل والأحكام الفقهية التي تحتاج إلى دقة الفهم ويلزم فيها السؤال والاستفهام والمراجعة وغير ذلك.

فمن أمثلة ذلك أيضًا غير ما ذكر ما رواه زيد بن أرقم ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ يومًا فينا خطيبًا، بماء يدعى خُمًّا، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى، ووعظ وذكر، ثم قال: "أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر؛ يوشك أن يأتي رسول الله ربي، فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به" فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: "وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي"[2].

٣- القصة:

حفل القرآن الكريم والسنة النبوية بالعديد من القصص الذي اتخذه القرآن واتخذته السنة وسيلة من الوسائل المؤثرة في الدعوة إلى الله تعالى.

وتعد القصة في القرآن والسنة من أنجح الوسائل الدعوية لأسباب عديدة من أهمها:

أ- عنصر الإثارة والتشويق:

كثيرًا ما يستخدم القرآن الكريم بعض الأساليب اللغوية المحدثة للإثارة والتشويق مثل الأسلوب الإنشائي في قوله تعالى:

---

(١) انظر على سبيل المثال الشيخ سابق: فقه السنة- الفتح للإعلام العربي- القاهرة- (١٤١٧هـ- ١٩٩٧م)- (٢٣٤/١-٢٣٧).

(٢) أخرجه مسلم في "فضائل الصحابة"، باب: من فضائل علي بن أبي طالب- (٢٤٠٨).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾(٤).

ب- واقعية القصة مع الحبك وحسن القص والسرد:

وهذا واضح في عموم القصص القرآني والقصص النبوي.

ولا جرم فقد سمّى الله تعالى قصص القرآن الكريم بأحسن القصص فقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(٥).

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

(٢) البقرة: ٢٤٣.

(٣) الفجر: ٦-١٤.

(٤) الفيل: ١-٥.

(٥) يوسف: ٣.

ج- تسلية النفوس، وإذهاب الغموم والهموم:

والدليل على ذلك نزول سورة يوسف عليه السلام في عام الحزن مخففة عن النبي ﷺ بعض أحزانه من جراء فقد عمه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره، وفقد زوجته خديجة التي كانت له خير زوجة وخير سكن، وكانت تواسيه بنفسها ومالها، فضلاً عن حصار المشركين للمسلمين في شعب أبي طالب.

ففي هذا الجو المليئ بالهموم والأحزان نزلت سورة يوسف على النبي ﷺ والمؤمنين تخفف عنهم بعض مصابهم، وتسليهم عما هم فيه من الهموم والأحزان.

د- التركيز في القصة القرآنية والنبوية على أخذ العظة والعبرة:

فالقصة القرآنية والقصة النبوية قصة هادفة تركز على الغرض والحكمة من سياقها وهو استخلاص العظة والعبرة والخروج بالدروس والمواعظ النافعة.

هـ- تجلية الحقائق وتصويرها في نفس السامع:

فأسلوب القص والسرد أفضل من أسلوب النصح والوعظ التقريري، فضلا لما يشتمل عليه من البرهنة على صحة تلك المواعظ من الواقع والنماذج الحية المعاشة.

و- إثارة الخيال وتحريكه:

القصة تتيح للخيال والفكر أن يجول في غياهب الماضي وآفاق الحاضر والمستقبل فيخرج عن ضيق الزمان والمكان إلى عالم رحب فسيح تتصل فيه حدود الزمان والمكان، فيتبصر الإنسان بالماضي ويستشرف المستقبل ويستطيع أن يتنبأ بمعالمه الكبرى من خلال تماثل التجارب، وتماثل السنن الكونية التي أودعها الله تعالى في هذا العالم.

ومن أمثلة القصص القرآني:

-قصة نوح -عليه السلام.

-قصة إبراهيم -عليه السلام.

-قصة موسى الكليم -عليه السلام.

-قصة عيسى -عليه السلام.

-قصة آدم -عليه السلام.

-قصة هود -عليه السلام.

-قصة صالح -عليه السلام.

-قصة لوط -عليه السلام.

-قصة شعيب -عليه السلام.

-قصة يعقوب ويوسف -عليهما السلام.

-قصة أيوب -عليه السلام.

-قصة يونس -عليه السلام.

-قصة داود -عليه السلام.

-قصة سليمان -عليه السلام.

-قصة بقرة بني إسرائيل.

-قصة طالوت.

-قصة ابني آدم.

-قصة أصحاب الكهف.

-قصة صاحب الجنتين.

-قصة الخضر وموسى -عليهما السلام.

-قصة ذي القرنين.

-قصة قارون.

-قصة سبأ.

-قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون.

-قصة مؤمن آل فرعون.

-قصة أصحاب الجنة.

-قصة أصحاب الأخدود.

-قصة الفيل.

ومن أمثلة القصص النبوي:

عـــن نافع عن ابن عمر –رضي الله عنهما– عن النبي ﷺ قال: "خرج ثلاثة يمشون، فأصـــابهم المطـــر، فدخلوا في غارٍ في جبل، فانحطت عليهم صخرة" قال: "فقال بعضهم لـــبعض: ادعوا الله بأفضل عملٍ عملتموه: فقال أحدهم: اللهم إني كان لي أبوان شيخان كـــبيران، فكـــنت أخـــرج فأرعى، ثم أجيء فأحلب، فأجيء بالحلاب، فآتي به أبوي، فيـــشربان، ثم أســـقي الـــصبية وأهلي وامرأتي، فاحتبست ليلةً، فجئت، فإذا هما نائمان، فكـــرهت أن أوقظهما، والصبية يتضاغون عند رجلي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبيهما حتى طلـــع الفجر، اللهم إن كانت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فأفرج عنا فرجة نرى منها السماء". قال: "ففرج عنهم" .

وقـــال الآخـــر: "اللهم إن كنت تعلم أني كنت أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحـــب الرجل النساء، فقالت: لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مئة دينار، فسعيت فيها حتى جمعتها، فلما قعدت بين رجليها؛ قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فأفرج عنها فرجة".

قال: "ففرج عنهم الثلثين".

وقـــال الآخر: "اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيرًا بفرقٍ من ذرةٍ فأعطيته، وأبى ذاك أن يأخـــذ، فعمدت إلى ذلك الفرق، فزرعته حتى اشتريت منه بقرًا وراعيها، ثم جاء، فقال: يا عبدالله! أعطني حقي.

فقلت: انطلق إلى تلك البقر وراعيها؛ فإنها لك. فقال: أتستهزئ بي؟ قال: فقلت: ما اســـتهزئ بـــك، ولكنها لك. اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فأفرج عنها. فكشف لهم"[1].

---

(١) أخـــرجه الـــبخاري في "أحاديث الأنبياء"، باب: حديث الغار– (٣٤٦٥)، وفي غير موضع من صـــحيحه، ومسلم في "الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار"، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة– (٢٧٤٣).

وعــن أبي هريــرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن ثلاثة في بني إسرائيل؛ أبــرص، وأقرع، وأعمى، بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس".

قال: "فمسحه، فذهب عنه، فأعطي لونًا حسنًا، وجلدًا حسنًا، فقال: أيُّ المال أحبُّ إلـيك؟ قـال: الإبل، أو قال: البقر -هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر- فأُعطي ناقة عشراء، فقال: يُبارك لك فيها.

وأتــى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس".

قال: "فمسحه، فذهب، وأُعطي شعرًا حسنًا. قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر. قال: فأعطاه بقرةً حاملاً، وقال: يُبارك لك فيها.

وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: يرد الله بصري، فأبصر به الناس.

قــال: فمسحه، فرد الله إليه بصرة. قال: فأي المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم. فأعطاه شاةً والدًا.

فأنــتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من بقرٍ، ولهذا وادٍ من غنم.

ثم إنــه أتى الأبــرص في صــورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال في ســفري، فــلا بــلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيرًا أتبلغ عليه في سفري.

فقــال لــه: إن الحقوق كثيرةٌ. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: ورثت لكابرٍ عن كابرٍ. فقال: إن كنت كاذبًا؛ فصــيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثلما قال لهذا، فرد عليه مثلما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتــى الأعمى في صورته، فقال: رجلٌ مسكين، وابن سبيل، وتقطعت بي الحبال في

ســـفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري. فقال له: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرًا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهـــدك اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك"[1].

وعـــن أبي هريـــرة عـــن النبي ﷺ قال: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم، وصاحب جريج.

وكان جريج رجلاً عابدًا، فاتخذ صومعة، فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي، فقالت: يا جُريج! فقال: يا رب! أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته، فانصرفت.

فلما كان من الغد؛ أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج! فقال: يا رب! أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته، فانصرفت.

فلما كان من الغد؛ أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج! فقال: أي رب! أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمته حتى ينظر إلى وجوه المومسـات.

فتذاكـــر بـــنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بغيٌّ يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم".

قال: "فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعيًا كان يأوي إلى صومعته، فأمكنتـــه مـــن نفـــسها، فوقـــع علـــيها، فحملت، فلما ولدت؛ قالت: هو من جريـــج. فأتوه، فاســـتـــنزلوه، وهدمـــوا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالـــوا: زنيـــت بهـــذه البغـــي فولدت منك. فقال: أين الصبيُّ؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أصلي. فـــصلى، فلما انصرف، أتى الصبي، فطعن في بطنه، وقال: يا غلام! من أبوك؟ قال: فلان الراعي".

قـــال: "فأقـــبلوا على جريج، يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من

---

(١) أخرجه البخاري في "أحاديث الأنبياء"، باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع- (٣٤٦٤)، ومسلم في "الزهد والرقائق" (٢٩٦٤).

ذهب. قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا.

وبينـــا صبي يرضع من أمه، فمر رجلٌ راكبٌ على دابة فارهة، وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الثدي، وأقبل إليه، فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديه، فجعل يرتضع".

قـــال: فكـــأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصها.

قال: "ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعـــم الوكـــيل. فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع، ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها.

فهناك تراجعا الحديث، فقالت: حلقي؛ مر رجل حسن الهيئة، فقلت: اللهم اجعل ابن مـــثله، فقلـــت: اللـــهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهم اجعلني مثلها.

قـــال: إن ذاك الرجل كان جبارًا، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن، وسرقت، ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها"[1].

وعـــن عـــبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك وكـــان قائد كعب من بنيه حين عمي قال سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قـــصة تبوك قال كعب لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عـــير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ لـــيلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكـــر في الناس منها كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في

---

(١) أخرجه البخاري في "أحاديث الأنبياء"، باب: حديث الغار- (٣٤٦٦)، ومسلم في "البر والصلة"، باب: تقديم بر الوالدين على التطوع- (٢٥٥٠)، واللفظ له.

تلـــك الغـــزاة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة و لم يكـــن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهـــبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كـــتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم يـــترل فيه وحي الله وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رســـول الله ﷺ والمـــسلمون معه فطفقت اغدو لكي أتجهز معهم فأرجع و لم أقض شيئا فأقـــول في نفسي أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والمـــسلمون معـــه و لم أقض من جهازي شيئا فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهـــم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت و لم أقض شيئا ثم غدوت ثم رجعت و لم أقـــض شـــيئا فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلـــت فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء و لم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب فقـــال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفيه فقال معاذ بن جبل بـــئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بـــن مالـــك فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخـــرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله ﷺ قـــد أظـــل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب فأجمعـــت صدقه وأصبح رسول الله ﷺ قادما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فـــيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون لـــه وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكـــل سرائرهم إلى الله فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال تعال فجئت

أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك فقلت بلى إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال رسول الله ﷺ أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو بن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار قال فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام

يسيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك و لم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت إنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلي رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجا فوجا يهنونني بالتوبة يقولون لتهنك توبة الله عليك قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني والله ما قام إلي رجل من

المهاجـــرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسـول اللهﷺ قال رسول اللهﷺ وهـــو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال لا بل من عند الله وكان رسول اللهﷺ إذا سر اســـتنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله قال رسول اللهﷺ أمـــسك علـــيك بعض مالك فهو خير لك قلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت يا رســـول الله إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما لقيت فوالله مـــا أعلـــم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللهﷺ أحـــسن ممـــا أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول اللهﷺ إلى يومي هذا كذبا وإني لأرجـــو أن يحفظـــني الله فيما بقيت وأنزل الله على رسولهﷺ ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِـــرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾ إلى قوله:﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول اللهﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقـــال تـــبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ -إلى قوله- ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال كعب وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل مـــنهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قـــضى الله فـــيه فبذلك قال الله ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[1].

٤ – التمثيل (ضرب الأمثال):

مـــن الوسائل الدعوية المستخدمة بكثرة في القرآن الكريم والـسنة النبوية كذلـــك ما يـــسمى بالتمثـــيل أو ضرب الأمثال، وضرب المثل في القرآن الكريم والسنة النبوية له أثر

(١) أخـــرجه البخاري في "المغازي"، باب: حديث كعب بن مالك (٤٤١٨)؛ ومسلم في "التوبة"، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه- (٢٧٦٩).

كبير في تقريب الأمور المعنوية في صورة حسية يلجأ فيها القرآن إلى التصوير والتشخيص وغيرها من الوسائل الفنية المعينة على تصوير حقيقة المعاني في نفس السامع بحيث يستطيع أن يتمثلها في مخيلته فتقع في نفسه، وتستقر في خاطره، فمن ذلك على سبيل المثال، قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فالمثل المضروب هنا يصور حقيقة التوحيد ويقربها إلى الأذهان بنقلها من حقيقتها المعنوية إلى تلك الصورة الحسية، فشتان بين رجل خالص لرجل يتلقى أمرًا واحدًا ونهيًا واحدًا، ويكون همه إرضاء سيد واحد، وبين عبد يتوزع ولاؤه لسادة مختلفين متشاكسين يأمره أحدهم بأمر ويأمره الآخر بخلافه[2]، فيظل في حيرة وتردد وتمزق نفسي لا يدري ما يصنع ولا من يطيع.

ولاشك أن هذا المثل بهذا التصوير قد قرر حقيقة التوحيد على أحسن تقرير وأبينه.

ومن الأمثلة القرآنية كذلك: قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[3].

قال العوفي عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر. والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا هو المؤمن، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهرًا واضحًا بيّنًا لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[4].

---

(١) الزمر: ٢٩.

(٢) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن كثير في هذه الآية، وتفسير الطبري، والقرطبي.

(٣) النحل: ٧٥.

(٤) تفسير ابن كثير: تفسير سورة النحل آية (٧٥).

ومن الأمثلة القرآنية كذلك:

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2].

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[4].

ومن الأمثلة النبوية التي ضربها النبي ﷺ: قوله ﷺ: عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: "ضرب الله مثلا صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا. وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك! لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب

---

(١) البقرة:٢٦٦.

(٢) النحل:٩٢.

(٣) الأنعام:١٢٥.

(٤) الجمعة:٥.

الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم"[1].

ففي هذا الحديث يبين لنا النبي ﷺ كيف تكون الاستقامة على منهج الله تعالى صراطه المستقيم،كما يحذر المسلمَ من الاعوجاج عن هذا المنهج وهذا الصراط، فلا يميل إلى شيء من الشبهات الزائغة أو الشهوات الجامحة الباطلة، يستقيم على منهج الله تعالى كما هو وصف المؤمنين المفلحين بأنهم "قالوا ربنا الله ثم استقاموا"، وجاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله نصيحة لا يسأل عنها أحدا بعده، فقال له رسول الله ﷺ: "قل: آمنت بالله، ثم استقم"[2].

فالمؤمن الحق، هو الذي يستقيم على منهج الله تعالى ولا يفتح أبواب الشر، ولا يقع في الشبهات كي لا يقع في محارم الله تعالى، فهو سليم القلب نقيُّ الفطرة، مستقيمُ السلوك، متبعٌ لكتاب الله تعالى، مستجيبٌ لداعي الخير في قلبه، منصرفٌ عن شهوات نفسه الردية، وغواية الشيطان ووساوسه.

ومن أمثلة ذلك:

حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان[3] فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٨٣/٤)، والنسائي في "الكبرى" (٣٦١/٦)، والحاكم في "المستدرك" (١٤٤٨)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه" وأقره الذهبي في "التلخيص"، وصححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (٣٨٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في "الإيمان"، باب: جامع أوصاف الإسلام- (٣٨).

(٣) قال العلماء: "أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخالفة نزع ثوبه، أو أشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم، وهو طليعتهم ورقيبهم، قالوا: إنما يفعل ذلك؛ لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظرًا، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو. وقيل: معناه: أنا النذير الذي أدركني جيش العدو، فأخذ ثيابي، فأنا أنذركم عُريانا" [النووي: شرح مسلم- تحقيق: عبدالله أحمد أبي زينة- دار الشعب- القاهرة- (١٤٦/٥).].

مكـــانهم فصـبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به[1] ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق[2].

عـــن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعـــل ينزعهـــن ويغلبـــنه فيقـــتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وهم يقتحمون فيها"[3][4].

عـــن أبي هريـــرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجـــل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[5].

---

(١) قال الطيبي: "شبه ﷺ نفسه بالرجل وإنذاره بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح، وشـــبه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذب الرجل في إنذاره ومن صدقه" [أحمد ابن حجر العســقلاني: فـــتح الـــباري بشرح صحيح البخاري- رقم كتبه: محمد عبدالباقي- دار الريان- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٠٧هـــ-١٩٨٧م- (٣٢٤/١١).].

(٢) أخـــرجه الـــبخاري في "الاعتـــصام بالكتاب والسنة"، باب: الاقتداء بســـنن رســـول الله ﷺ (٧٢٨٣)، وفي غـــير موضـــع من صحيحه، ومسلم في "الفضائل"، باب: شفقته ﷺ على أمته (٢٢٨٣).

(٣) وفي هذا الحديث "شبه النبي ﷺ لهافت أصحاب الشهوات في المعاصي التي تكون سببًا في الوقوع في النار بتهافت الفراش بالوقوع في النار اتباعًا لشهواتها، وشبه ذبه العصاة عن المعاصي بما حذرهم بـــه، وأنـــذرهم بذب صاحب النار الفراش عنها. وقال عياض: شبه تـــساقط أهل المعاصي في نار الآخرة بتـــساقط الفراش في نار الدنيا" [فتح الباري- (٣٢٦/١١).].

(٤) أخـــرجه البخاري في "الرقاق"، باب: الانتهاء عن المعاصي- (٦٤٨٣)، ومسلم في "الفضـائل"، باب: شفقته ﷺ على أمته- (٢٢٨٤).

(٥) أخـــرجه البخاري في "المناقب"، باب: خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٤)، ومـــسلم في "الفضـائل"، باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٩).

وعن جابر بن عبدالله قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلا فقال بعضهم إنه نائم فقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار و لم يأكل من المأدبة فقالوا: أولوها له يفقهها فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: فالدار الجنة ومن عصى محمدًا ﷺ فقد عصى الله ومحمد ﷺ فرق بين الناس(1).

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا و لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به(2).

٥-المجادلة بالحسنى:

والمجادلة بالحسنى يقصد بها محاورة الخصم بما يليق به ويناسبه من الحجج والأدلة مع استخدام كافة الوسائل المناسبة لحال الخصم رجاء إقناعه وهدايته وإزالة ما لديه من شبه الباطل.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(3).

---

(١) أخرجه البخاري في "الاعتصام بالكتاب والسنة"، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري في "العلم"، باب: فضل من علم وعلم (٧٩)، ومسلم في "الفضائل"، باب: بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ (٢٢٨٢).

(٣) النحل: ١٢٥.

وقال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1].

قال ابن كثير: قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، و لم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف.

وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل عن الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف.

قال مجاهد: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم من أداء الجزية[2].

والراجح أن الآية غير منسوخة كما اختار ذلك ابن جرير وهو الصحيح لأنه لا

---

(١) العنكبوت: ٤٦.

(٢) المختصر الصحيح لتفسير القرآن العظيم، اختصار: د.عبدالحميد هنداوي- دار الهدى-القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٢٣هـ-٢٠٠٠م- (٢/٢٤٥).

يبدأ بالقتال قبل الدعوة، وقد تقتضي دعوة المخالف مجادلته بالحسنى لإزالة ما لديه من شبه إن ظهرت أمارات استجابته وميله إلى الحق ورغبته فيه.

وقد ضرب القرآن أروع الأمثلة لهذه المجادلة بالحسنى في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[1].

فقد أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية بدعوة أهل الكتاب لعقيدة التوحيد وعلمه كيف يحسن مجادلتهم بتقرير المبادئ المشتركة بينهم التي تؤسس قاعدة ومنطلقًا لدعوتهم، وذلك في قوله: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾، فقوله: ﴿من كتاب﴾؛ يشمل جنس الكتب السماوية فيبدأ في دعوتهم من منطلق الاتفاق على أن ثمة كتبًا أنزلت من عند الله، وثمة رسلاً أرسلت بها، وهذا بالضرورة يقتضي الإيمان بإله عظيم قد أنزل الكتب وأرسل الرسل وأمر أن يُعبد وتُطاع رسله.

ثم أمره أن يبدأ في مجادلتهم كذلك بتقرير مبدأ العدل والإنصاف للخصم والإقرار بما معه من الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

ثم يؤكد على مسلَّمة ضرورية تكون منطلقًا لدعوة التوحيد، وهي أن الله المعبود بحق ينبغي أن يكون هو الرب الخالق، وإذا كان ربنا وخالقنا هو ربهم وخالقهم فينبغي أن يكون الإله المعبود واحدًا، وهذا ما تقرره الآية في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

فهو يدل على الاشتراك في الربوبية الموجب للاشتراك في العبودية، فالجميع مربوبون لله تعالى مقهورون لعظمته، ومع ذلك فالمؤمنون يقرون بربوبيته وعبوديته اختيارًا، والمشركون واقعون في ربوبيته اضطرارًا منكرون لعبوديته اختيارًا[2]، وقوله تعالى: ﴿لَنَا

(١) الشورى: ١٥.

(٢) قال ابن كثير في تفسير هذه الجملة: "﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: هو المعبود لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارًا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارًا فلله يسجد من في العالمين طوعًا وإجبارًا" [تفسير ابن كثير- (١٠٩/٤)].

﴿أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، يقرر المسئولية الكاملة لكل إنسان عن عمله، مما يجعل هؤلاء المدعوين يقتنعون بأن عاقبة ما هم عليه تعود على أنفسهم لا على غيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]، فيدعوهم ذلك إلى الاهتمام بالأمر، والثقة بمن يدعوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم.

وقوله تعالى: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ أي: لا خصومة. قال مجاهد[2]: وهذا يدل على غاية المسامحة في دعوتهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

وشبيه بهذه الآية وهي أدل على مطلوبنا من ضرورة المجادلة بالحسنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[3].

قال ابن كثير: "يقول تعالى مقررًا تفرده بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضًا، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره.

وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾، هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين: والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد.

---

(١) سبأ: ٢٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير في الآية (١٥) الشورى.

(٣) سبأ: ٢٤-٢٦.

وقال عكرمة، وزياد بن أبي مريم: معناه: إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين.

وقوله: ﴿قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ معناه: التبري منهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا. كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وقال: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾؛ أي: يوم القيامة، يجمع الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية[1].

ومع وضوح تلك المبادئ التي تقررها الآية فنحتاج إلى وقفة عند أسلوب الآية الكريمة في محاورة هؤلاء المشركين ومجادلتهم بالحسنى فهي قد استخدمت عددًا من الأساليب البلاغية الحوارية الجيدة الدالة على حسن مجادلة الخصم منها:

١-الاعتماد على تقرير الخصم ليقر بالحقيقة بنفسه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

٢-رغم وضوح الأمر لدى المؤمنين بما لا شك فيه لديهم بمعرفة المهتدي والضال؛ فإن أسلوب المحاورة مع الخصم يشتمل على كثير من التأدب والتواضع، والإنصاف للخصم فهو يبدأ بمسلمة عقلية بديهية هي: "أنه لابد أن أحدنا مهتد والآخر ضال".

فإذا كان الأمر كذلك فقد وجب تمحيص الأمر، وإذا بدأ الحوار بذلك فهذا غاية التجرد والنزاهة والموضوعية المنشودة في البحث العلمي؛ لأنه يبدأ بفرضية مجردة لا

---

(١) المختصر الصحيح لـ"تفسير القرآن العظيم": (٢/٣٣٧).

تعـــصب فيها ولا تحيز، هذه الفرضية تقول: "إننا نفترض أن واحدًا من الفريقين غير معين مهـــتد، والآخر ضال" ونريد أن نبين بالدليل والبرهان النظري من المهتدي ومن الذي في ضلال مبين.

ولو بدأ الحوار بطريقة "إننا مؤمنون وأنتم كافرون" لانتهى الأمر، ولاحتج المشركون بأنه لا سبيل للجدال والحوار مع قوم يتعصبون لما هم عليه من البداية.

وهـــذا لا يعني أبدًا شك المؤمنين فيما هم عليه، ولكنهم رغم ثقتهم التامة بما هم عليه فإنهم يتنزلون مع الخصم استدراجًا له وتلطفًا به.

ومن بين الأمثلة القرآنية أيضًا على تعليم المؤمنين المجادلة بالتي هي أحسن، قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَـيْئًا وَلا يَـتَّخِذَ بَعْـضُنَا بَعْـضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[1].

قـــال ابـــن كثير: "هذا الخطاب يعم أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، ومن جرى مجـــراهم **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾** والكلمة تطلق على الجملة المفيدة، كما قـــال هاهـــنا، ثم وصفها بقوله: **﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾**؛ أي: عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: **﴿أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾**، لا وثنًا، ولا صليبًا، ولا طاغوتًا، ولا نارًا، ولا شيئًا، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل.

قـــال الله تعـــالى: **﴿وَلَقَـــدْ بَعَثْـــنَا فِـــي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُـــوتَ﴾**، ثم قـــال تعالى: **﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾**. وقال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله. وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض.

﴿فَـــإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة، فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

---

(١) آل عمران: ٦٤.

فانظــر كيف يأمر بدعوتهم بالحسنى بندائهم بأهل الكتاب ترغيبًا لهم لا بالمشركين أو الكافرين وإن كانوا كذلك، ثم يقول لهم تعالوا: تشويقًا وترغيبًا.

ثم يبين لهم أن ما يدعون إليه هو كلمة سواء تسري عليهم وعلى جميع المؤمنين.

وهكــذا نجــد أن القرآن الكريم قد ضرب أروع الأمثلة في المحاورة والمجادلة بالتي هي أحــسن، ويتــضح هــذا بصورة واضحة فيما سجله القرآن الكريم من محاورات الأنبياء والرسل مع أقوامهم.

المجادلة في سنة النبي ﷺ:

وفي ســنة النبي ﷺ العديد من الأمثلة لمجادلة النبي ﷺ قومه بالتي هي أحسن، وتختلف درجة المحاورة والجدال من قوم إلى قوم بحسب درجة ميلهم إلى الحق أو إعراضهم عنه.

فحينما جاء الكافرون يحاورون النبي ﷺ في شأن عبادة آلهتهم ويعرضون عليه أن يعبد إلههــم عامًــا ويعــبدوا إلهــه عامًا جاء الرد الحاسم من النبي ﷺ مسجلاً عليهم كفرهم وضلالهم، ونزل القرآن الكريم يعلم النبي ﷺ كيف يرد ذلك في قوة وحسم[1].

فــنزل قــوله تعــالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِــدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2].

وقــد ســجل القــرآن والسنة كثيرًا من محاورات النبي ﷺ ومجادلاته مع أقوامه من المشركين وأهل الكتاب بما لا نريد الإطالة بذكره.

٦- المحاجة والمناظرة:

المحاجــة أو المناظرة هي مبادلة الخصم الحجة بالحجة فهي مفاعلة من حجَّه يحجه محاجَّة، والمفاعلة تكون من طرفين كالمباراة والمباهاة والمباهلة والملاعنة ونحوها، فهي مبادلة الحجج بين خصمين كل منهما متمسك بما معه منافح عنه، ويحاول إقناع خصمه بما معه.

---

(١) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير الطبري لهذه السورة.

(٢) الكافرون: ١-٦.

وهي بذلك تختلف عن المحاورة والمجادلة لمن يبدي بعض الشبه ويريد جوابًا عنها ابتغاء الهداية وإزالة ما يحيك بصدره مما يلتبس عليه.

فالمجادل أو المحاور يعلن أنه على استعداد بالاستجابة للحق إذا ما أزيل ما يعترض من الشبه.

أمـــا المحاج والمناظر فيزعم أنه على حق يريد أن يناظر عليه خصمه للبرهنة على صحة ما معه وبطلان ما لدى الخصم.

فكأن المحاور أو المجادل يناقش في أمر هو بصدد إثباته، والمحاج أو المناظر يزعم أنه على يقين من أمره غير شاك فيه.

المحاجة والمناظرة في القرآن الكريم:

من أمثلة المحاجة في القرآن الكريم ما حكاه القرآن من محاجة النمروذ لإبراهيم -عليه الـــسلام-، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْـــكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[(١)].

وكذلك محاجة قوم إبراهيم له في قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَـــدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَـــلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَـــزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَـــمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[(٢)].

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

(٢) الأنعام: ٨٠-٨٣

أمثلة من محاجة النبي ﷺ:

من أمثلة محاجة النبي ﷺ ما ذكره القرآن من نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(2).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(3).

والملاحظ في هذه الأمثلة جميعها أن المحاجة كانت من طرفين يتمسكان بما معهما ويدّعي كل واحد من الفريقين أنه على الحق، وأن معه من الأدلة ما يحاجج به وينافح عن

---

(1) البقرة: ١٣٥-١٤٠.

(2) آل عمران: ٢٠.

(3) آل عمران: ٦١.

عقيدته.

فالنمـــروذ يزعم أنه يستحق الألوهية ويبرهن على ذلك بالبراهين الزائفة التي يدلل بها على ادعائه القدرة على الإحياء والإماتة حيث أتى برجلين قد استحقا عنده القتل.

فضرب عنق أحدهما، وعفا عن الآخر ثم زعم أنه بذلك يحيي ويميت.

وإبـــراهيم -عليه السلام- لم يَرُدّ حجته بكونها باطلة و لم يجادل فيها ببيان بطلانها بل تنزل عن ذلك، واستدرج خصمه لحجة لا يستطيع فكاكًا عنها، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِبْـــرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

---

(١) قـــال ابن كثير: "﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾؛ أي: إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلابد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج -وهو النمرود-: ﴿أنا أحيي وأميت﴾.

قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، والسـدي، وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة.

والظاهـــر -والله أعلم- أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم، ولا في معناه؛ لأنه غير مانـــع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسـه هذا المقام؛ عنادًا ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنـــه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾؛ ولهذا قـــال له إبراهيم، لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾؛ أي: إذا كـــنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته -فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما تدعي فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت، أي: أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة. قال الله تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾؛ أي: لا يلهمهم حجة ولا برهانًا، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد" [تفسير ابن كثير- (٣١٤/١)].

٧-الشعر

موقف الإسلام من الشعر وفن القول

لم يقــف الإسلام من الشعر الجيد موقف معارضة أو عداء، فما أكثر الروايات الدالة علــى سمــاع الــنبي ﷺ للشعر، واستحس انه إياه، واغتباطه به، وحثه عليه، كما كان للخطابة في عصر صدر الإسلام – بدءًا من بعثة النبي ﷺ - قيمتها ومكانتها.

عن ابن عمر –رضي الله عنهما – قال: قدم رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: "إن من البيان لسحرًا"[(١)].

وعــن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: **ألا كل شيء ما خلا الله باطل**"[(٢)].

وعن عمرو بن الشريد، عن أبيه ﷺ قال: ردفت رسول الله ﷺ يومًا فقال: "هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء" قلت: نعم. قال: "هيه"، فأنشدته بيتًا، فقال: "هيه"، ثم أنشدته بيتًا، فقال: "هيه"، حتى أنشدته مائة بيت[(٣)].

وعن جندب ﷺ أن النبي ﷺ كان في بعض المشاهد، وقد دميت أصبعه، قال:

هــل أنــت إلا إصــبع دمــيت   وفي ســبيل الله مــا لقــيت[(٤)]

وعــن البراء ﷺ قال: قال النبي ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت: "أهج المشركين، فإن جبريل معــك"[(٥)] وكــان رسول الله ﷺ يقول لحسان: "أجب عني، اللهم أيده بروح

---

(١) أخرجه البخاري في "النكاح"، باب: الخطبة- (٥١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في "المناقب"، باب: أيام الجاهلية (٣٨٤١)، ومسلم في "الشعر" (٢٢٥٦).

(٣) أخرجه مسلم في "الشعر" (٢٢٥٥).

(٤) أخرجه البخاري في "الجهاد والسير"، باب: من ينكب في سبيل الله (٢٨٠٢)، ومسلم في "الجهاد والسير"، باب: ما لقي النبي ﷺ (١٧٩٦).

(٥) أخرجه البخاري في "المغازي"، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب (٤١٢٤)، ومسلم في "فضائل الصحابة"، باب: فضائل حسان بن ثابت ﷺ (٢٤٨٦).

القدس".[1]

وعـــن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله ﷺ قال: "أهجوا قريشًا؛ فإنه أشد عليهم من رشق بالنبل".[2]

وعـــنها – رضـــي الله عنها – قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله".

وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "هجاهم حسان فشُفي واشتفى".[3]

وعن البراء –رضي الله عنه– قال: كان رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه، يقول:

والله لـــولا الله مـــا اهتديـــنا ولا تـــــصدقنا ولا صـــــلينا
فأنـــزلن ســـكينة علـيـــنا وثـــبت الأقـــدام إن لاقيـــنا
إن الألى قـــد بغـــوا عليـــنا إذا أرادوا فتـــنة أبيـــنا

يرفع بها صوته: "أبينا أبينا".[4]

وعن أنس رضي الله عنه قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق وينقلون التراب، وهم يقولون:

---

(١) أخرجه البخاري في "بدء الخلق"، باب: ذكر الملائكة- (٣٢١٢)، ومسلم في: "فضائل الصحابة"، باب: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٤٨٥)، ولفظه عن أبي هريرة، أن عمر مر بحسان وهو ينشد الـــشعر في المسجد فلحظ إليه فقال: قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: "أجب عني اللهم أيده بروح القدوس" قال: اللهم نعم. وهذا لفظ مسلم.

(٢) أخرجه مسلم في "فضائل الصحابة"، باب: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٤٩٠).

(٣) انظر الذي قبله.

(٤) أخرجه البخاري في "الجهاد والسير"، باب: حفر الخندق (٢٨٣٧)، ومسلم في "الجهاد والسير"، باب: غزوة الأحزاب وهي الخندق (١٨٠٣).

على الجهاد ما بقينا أبدا   نحن الذين بايعوا محمدا

يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

فاغفر للأنصار والمهاجرة[1]   اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة

وعن كعب بن مالك ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: "إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل". فقال النبي ﷺ: "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونه به نضح النبل"[2].

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا، يُفاخر عن رسول الله ﷺ، أو يُنافح. ويقول رسول الله ﷺ: "إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ"[3].

وعن أنس ﷺ قال: كان للنبي حاد يقال له: أنجشة، وكان حسن الصوت. فقال له النبي ﷺ: "رويدك يا أنجشة لا تكسر القوارير". قال قتادة: يعني ضعفة النساء[4].

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: ذُكر عند رسول الله ﷺ الشعر فقال رسول الله ﷺ: "هو كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح"[5].

---

(١) أخرجه البخاري في "الجهاد والسير"، باب: البيعة في الحرب أن لا يفروا (٢٩٦١)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم في "الجهاد والسير"، باب: غزوة الأحزاب وهي الخندق (١٨٠٥).

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٣٨٧/٦)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٧٠٧)، والبيهقي في "الكبرى"، (٢٣٩/١٠)، والحديث صححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (١٦٣١)..

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٤٦)، والبغوي في "شرح السنة" (٣٤٠٨)، وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح غريب".

(٤) أخرجه البخاري في "الأدب"، باب: المعاريض مندوحة عن الكذب (٦٢١١)، ومسلم في "الفضائل"، باب: رحمة النبي ﷺ للنساء (٢٣٢٣).

(٥) أخرجه البيهقي في "الكبرى" (٢٣٩/١٠)، والدارقطني في "سننه" (١٥٥/٤)، وأبو يعلى في "مسنده" (٤٧٦٠)، وذكره البيهقي في "المجمع" (١٢٢/٨)، وقال: "رواه أبو يعلى وفيه عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان وثقه دحيم وجماعة وضعفه ابن معين وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح، قال البيهقي: "وصله جماعة والصحيح عنه عن النبي ﷺ مرسل"، وحسن إسناده الشيخ الألباني كما في "الصحيحة" (٤٤٨).

إن الذي يقف على هذه النصوص لا يكاد يشك طرفة عين في أن للشعر وغيره من فنون القـــول منزلـــة كبيرة في الإسلام، وهذا يفسر لنا أن ما ورد من ذم الشعر في بعض النصوص القرآنية أو النبوية ليس ذمًا للشعر على الإطلاق، وإنما هو للقبيح فقط من الشعر.

وهـــذا مـــا نستطيع أن نتبينه من خلال النظر في تلك النصوص التي تحمل ذمًا للشعر والشعراء.

فمن ذلك: قول الله تعالى في آخر سورة الشعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَـــمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ(٢٢٦) إلا الَّذِينَ آمَـــنُوا وَعَمِلُـــوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[١].

وقـــوله تعالى في سورة ق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٢].

وعـــن أبي هريـــرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: "لأن يمتلئ جوف رجل قيحًا حتى يَرِيَهُ[٣] خيرٌ له من أن يمتلئ شعرًا"[٤].

وعن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "الحياءُ والعيُ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق"[٥].

وعن أبي ثعلبة الخشني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا

---

(١) الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧.

(٢) ق: ١٦-١٨.

(٣) يريه: قال الأصمعي يريه من ورى يري: أي يحرقه، أو يصيبه بالرئة.

(٤) أخـــرجه البخاري في "الأدب"، باب: ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر (٦١٥٤)، ومسلم في "الشعر" (٢٢٥٧).

(٥) أخرجه أحمد في "مسنده" (٥/٢٦٩)، والترمذي (٢٠٢٧)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٧٠٦)، والحديث صححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (٣٢٠١).

يــوم القــيامة أحاســنكم أخلاقــا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مساويكم أخلاقًا، الثرثارون، المتشدقون، المتفيقهون"[1].

وروى التــرمذي نحــوه عــن جابــر ﷺ وفي روايته قالوا: يا رسول الله! قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: "المتكبرون"[2].

وعــن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقرة بألسنتها"[3].

وعــن عــبدالله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها"[4].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مررت ليلة أسري بي بقوم تُقْرَضُ شفاههم بمقاريضَ من النار، فقلت: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون"[5].

وعــن أبي هريــرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من تعلم صرف الكلام؛ ليسبي به

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٩٣/٤)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢٥١/٤) من طريق: مكحول عن أبي ثعلبة الخشني، وذكره الهيثمي في "المجمع" (٢١/٨)، وقال: "رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح". وقال الشيخ الألباني في الصحيحة (٧٥١): "الحديث منقطع فإن مكحولاً لم يــسمع من أبي ثعلبة كما في "التهذيب"، لكن هذا الانقطاع ينجبر بمجيء الحديث من طرق أخرى" وانظر حديث جابر في الهامش الذي بعده.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وصححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٧٩١).

(٣) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٧٥/١) وذكره الهيثمي في "المجمع" (١١٦/٨)، وقال: "رواه أحمد والبزار من طرق وفيه راو و لم يسم" والحديث صححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٤١٩)..

(٤) أخــرجه أحمد في "مسنده" (١٦٥/٢)، وأبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣)، وقال: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه". والحديث صححــه الشيــخ الألباني فــي "الصحيحــة" (٨٨٠).

(٥) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٢٠/٣)، وانظر الصحيحة (٢٩١)..

قلوب الرجال أو الناس، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً"[1].

وعن عمرو بن العاص ﷺ أنه قال يومًا، وقام رجل فأكثر القول، فقال عمرو: لو قصد في قوله فكان خيرًا له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لقد رأيت أو أمرت – أن أتجوز في القول، فإن الجواز هو خير"[2].

وعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: ذُكر عند رسول الله ﷺ الشعر فقال رسول الله ﷺ: "هو كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح"[3].

وعن أبي سعيد الخدري –ﷺ– قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد، فقال رسول الله ﷺ: "خذوا الشيطان، أو أمسكوا الشيطان؛ لأن يمتلئ جوف رجل قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا"[4].

التعليق على النصوص الواردة في موقف الإسلام من الشعر:

إن هذه النصوص التي تستحسن الشعر وتمدحه، وتلك التي تستهجنه وتذمه ليس بينها أدنى تعارض على الإطلاق؛ لأن كل طائفة منها موجه إلى نوع معين من الشعر غير النوع الآخر، وهذا ما تصرح به بعض النصوص الواضحة المحكمة التي جمعت بين طرفي القضية، فقد ذكر عند رسول الله ﷺ الشعر، فقال: "هو كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح" هذا

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٦)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤/٢٥٢) من طريق: الضحاك بن شرحبيل عن أبي هريرة ﷺ. وذكره المنذري في "الترغيب والترهيب" (١/٦٧) وقال: يشبه أن يكون فيه انقطاع فإن الضحاك بن شرحبيل ذكره البخاري وابن أبي حاتم و لم يذكروا له رواية عن الصحابة والله أعلم.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٠٨)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤٩٧٥)، قال المناوي في "فيض القدير" (٥/ ٢١٨): "فيه سليمان بن عبدالحميد النهراني قال في "الكاشف": "ضعيف" وفي ذيل الضعفاء: كذبه النسائي وإسماعيل بن عياض ليس بقوي وابنه محمد قال أبو داود ليس بذاك وقال أبو حاتم لم يسمع من أبيه وقد حدث به عنه وضمضم بن زرعة ضعفه أبو حاتم وأبو طية مجهول".

(٣) تقدم تخريجه قريبًا وهو حسن الإسناد كما بيناه هناك.

(٤) أخرجه مسلم في "الشعر" (٢٢٥٩).

هو القول الفصل.

وذلـــك أننا إذا نظرنا في هذه النصوص التي تمثل موقف الإسلام من الشعر ومن القول عمومًا، فإننا نجد أنفسنا أمام طائفتين من النصوص:

الأولى: نــصوص يــستفادُ مــنها إباحة الشعر بل وإستحسانه أو وجوبه في بعــض الأحيـــان.

الثانية: نصوص يفهم منها كراهية الشعر أو حرمته في بعض الأحيان كذلك.

والمنهج الصحيح في التعامل مع النصوص الشرعية هو العمل بها جميعًا ومحاولة التوفيق بينها عندما يبدو هناك تعارض ظاهري مظنون.

ومعـــنى ذلـــك أن نقول: إن هذه النصوص جميعًا لا تعارض بينها فيما تؤدي إليه من أحكام أو نتائج.

فالـــشعر مباح إذا لم يشتمل على إثم كهجاء أعراض المسلمين، أو الغزل الفاحش، أو مـــدح الـــرجل بمـــا لـــيس فيه، أو العصبية الجاهلية والفخر القبلي الجاهلي بالأحساب والأنـــساب، فهذا كله ونحوه حرام، فإذا لم يشتمل الشعر على شيء من ذلك، فهو مباح على أقل تقدير، إن لم يكن مستحسنًا مندوبًا إليه.

فـــإذا كـــان هذا الشعر تأملات في الكون يستدل بها على قدرة الله تعالى ووحدانيته وصـــفاته، أو تعـــبيرًا عـــن القيم والأخلاق الفاضلة ومدح واستحـــسان لها، وذم للقبيح والـــرديء مـــنها، فهـــذا الشعر مستحسن مندوب إليه في الإسلام إن لم يرتق إلى مرتبة الواجب.

فـــإن كـــان دفاعًـــا عن أعراض المسلمين، وانتصارًا للدين وبيانًا للعقيـــدة، ومعالم الإســــــلام وأركانه وقيمه، فهذا لاشك واجب مطلوب فعله من القادر عليه من الأمة، وهو من الواجب الكفائي الذي إن قام به البعض سقط عن الباقين، وإلا أثمت الأمة كلها بتركه.

فهـــذا حكم الأدب الإسلامي الراقي الذي يدافع عن الدين والعقيدة والقيم وحرمات المـــسلمين، حكمـــه أنـــه واجب كفائي، تأثم الأمة بتضييعه، وفاعله مثاب عليـــه أعظم

الصواب؛ لأنه يرفع بذلك الإثم عن الأمة بتصديه لهذا الأمر دونهم وكفاية الأمة في هذا الجانب.

وبناء على ذلك يمكننا أن نفهم آية الشعراء، فهي لا تحمل ذمًا على الإطلاق للشعر والشعراء.

فالشعراء الذين يتبعهم الغاوون، والذين قال فيهم النبي ﷺ: "لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا يريه خير له من أن يمتلئ شعرًا"، والشاعر الذي قال عنه النبيﷺ: "خذوا الشيطان" أو "أمسكوا الشيطان"[1] حينما سمعه ينشدهم. أولئك هم الشعراء الذين يخوضون في الشعر المحرم من هجاء أعراض المسلمين، والفخر بالأحساب والأنساب، والغزل الفاحش، ومدح الرجل بما ليس فيه، ونحو ذلك، فهؤلاء هم الغاوون، وأتباعهم هم الغاوون الضالون كذلك.

فالله سبحانه وتعالى حينما ذم الشعراء لم يجعل هذا الحكم مطلقًا أو مبهمًا غير مفسر ولا معلل، بل أتبعه عقب ذلك بالتحليل والبيان، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾[2].

فكأن هذه هي سمات الشعر المذموم، وسمات الشعراء المذمومين، وهم الذين يخوضون في كل واد وفي كل غرضٍ حلال أو حرام، ويهيمون فيه.

وهمُ الكذبة الفجرةُ الذين يقولون ما لا يفعلون مما لا يعتقدونه، فشعرهم نفاق وتملق وكذب، والقرآن إنما يريد فقط الصدق الاعتقادي لا الصدق الواقعي في الشعر، فهذا أمر آخر، فالمطلوب من الشعر ليس هو الصدق في مطابقة الواقع مطابقة حرفية، وإنما المقصود منه هو الصدق الفني الذي يصدر عن شعور صادق وإحساس حقيقي بما يقول، وذلك لا يكون إلا بصدق الاعتقاد وصحته.

والقرآن حيث يصدر حكمه بذم الشعراء المتصفين بهذه الصفات، فإنه يتبع هذا الذم

---

(١) تقدم تخريجه، وهو في صحيح مسلم.

(٢) الشعراء: ٢٢٥-٢٢٦.

باستثناء طائفة الشعراء المؤمنين الذين آمنوا بالله تعالى، وعملوا الصالحات، فالتزموا بالفرائض، واجتنبوا النواهي والمحارم، وذكروا الله كثيرًا، فلم يغلب عليهم الشعر، ولم يلههم عن ذكر الله وعن الصلاة، وانتصروا بشعرهم فوظفوه لخدمة دينه والدفاع عنه والذب عن حرماته، وبيان العقيدة الصحيحة الناصعة، والقيم والأخلاق الإسلامية الأصيلة.

وهذا واضح في هذا الاستثناء المفصل المبين: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا...﴾[1]. ومن هنا نعلم أن هذه النصوص القرآنية والحديثية ليس بينها ثمة تعارض؛ لأن كل طائفة منها إنما تنزل على نوع من الشعر، وليست مطلقة في جميع أنواعه.

ومن ثم فإن الشعر ترد عليه الأحكام التكليفية الخمسة، فتارة يكون واجبًا، وتارة يكون مستحبًا أو مندوبًا إليه، وتارة يكون مباحًا، وتارة يكون مكروهًا، وأخرى يكون حرامًا. والأساس الجوهري الذي يصنف الشعر على أساسه ويعطي حكمه من حيث الحل والحرمة هو الفكرة التي يشتمل عليها هذا الشعر، ومن ثم ندرك أن الإسلام ينظر إلى الشعر لا باعتباره شكلاً مجردًا، ولكنه يولي اهتمامًا كبيرًا لشقه الثاني، وهو الفكرة التي يحتويها القالب الفني، وعلى أساس هذه الفكرة يصدر شطر الحكم النقدي، أقول: شطر الحكم، ولا أقول: كله؛ لأن الشعر له شقان أو عنصران هما الفكرة والقالب الفني، والإسلام لم يهمل الحكم على الشكل على حساب المضمون، بل أعطى لكل نصيبه من الحكم بميزان عدل لا يبخس الناس شيئًا.

مبادئ الأحكام النقدية الإسلامية:

من خلال تلك النصوص السابق عرضها نستطيع أن نقف على أهم مبادئ الأحكام النقدية الإسلامية.

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.

أولاً: سمو الغاية

صحة الغاية أو المقصد هي الركن الركين، وهي الشرط الأعظم لقبول جميع الأعمال في الإسلام، وهذا المبدأ تقرره نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، أوضحها الحديث المشهور: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى".

فجميع الأعمال (والأقوال كذلك، لأن القول عمل) لا تصح ولا يثاب المرء عليها إلا بالنية الصالحة التي يبتغي بها وجه الله تعالى وعظم أجره وفضله في الدنيا والآخرة.

هذه الغاية هي التي تحدد أغراض الشعر في الإسلام، فلابد أن تكون تلك الأغراض أغراضًا شريفة، ذات هدف نبيل، وغاية عالية، يبتغي بها الأجر من الله تعالى وحده، ويتخذ فيها الشعر سلاحًا يجاهد به في سبيل الله، إن اللسان والسنان قرينان في الإسلام وسلاحان حميمان لا يفترقان، فالشاعر أو الأديب الإسلامي هو وحامل السيف في سبيل الله سواء، كلاهما يجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله.

ويظهر ذلك بوضوح تام في استثنائه تعالى هؤلاء الشعراء المسلمين المجاهدين من جملة الشعراء المذمومين في قوله تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا...﴾[1].

إن الغاية إذًا من الشعر في الإسلام هي الانتصار لهذا الدين وهذا ما يظهر واضحًا في حث النبي ﷺ حسان على هجاء المشركين، وهذه الغاية السامية يمكن أن تتخذ أغراضًا شعرية متنوعة.

فقد يكون مدحًا أو ثناء على الله تعالى، أو مدحًا لرسوله ﷺ أو مدحًا لشريعة الإسلام وتعاليمها الغراء أو مدحًا للخلق القويم، والسلوك النبيل.

- وقد تكون هجاء للشرك والمشركين، وما هم عليه من أحكام وأعراف وتقاليد مخالفة لما جاء به الإسلام.

وقد تكون وصفًا لآيات الله الكونية، ودلائل قدرته الوجودية.

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.

وقد تكون رثاء لعظماء الإسلام وأبطاله المجاهدين في سبيله.

وقد تكون فخرًا بقيم هذا الدين وتعاليمه، وفضل الله -تعالى- على أصحابه وتكريمهم بالقرآن الكريم، والرسول الأمين، والفضل العظيم، والنصر المبين في الدنيا والآخرة.

وهذه الغاية النبيلة -وهي الانتصار لهذا الدين- لا تكاد تضيق عن غرض من الأغراض، إذا ما التزم المبدع بأحكام الإسلام وتعاليمه في فن القول.

وأقصى ما يتصور بعده عن تلك الغاية غرض كغرض الغزل مثلاً، يمكن أن يجد الشاعر الإسلامي له مندوحة فيه في التغزل العفيف بالمرأة المسلمة بما هي عليه من عفة وقيم إسلامية رفيعة.

أما ما كان على سبيل الهُيام البحت وبث الأشواق ومكابدة الحنين، فلا مانع في ذلك كله، بشرط أن لا يتعدى تلك الرفيقة التي يرتبط بها الشاعر بعلاقة الزواج ليس إلا.

ولا يجوز إشاعة شيء من ذلك ولا نشره ولا إطلاع الناس عليه؛ لأنه ضد الغاية التي نيط بها الشعر وسائر فنون القول في الإسلام، وهذا يجرنا إلى الشرط الثاني.

ثانيًا: السلامة من الإثم

إذا كان سمو الغاية وصحتها هو الشرط الأول لقبول الأعمال والأقوال؛ فإن الشرط الثاني هو صحة هذه الأعمال والأقوال وعدم فسادها، والمقصود بالصحة أن تكون هذه الأعمال والأقوال موافقة لأحكام هذا الدين الحنيف.

وفيما يختص بفنون القول في هذا الشرط ترد هذه النصوص الكريمة:

١- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا(٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١.

٢- ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[(١)].

٣- قوله ﷺ: "البذاء والبيان شعبتان من النفاق"[(٢)].

٤- قوله ﷺ: "إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مساوئكم أخلاقًا"[(٣)].

إن الإسلام قد أمر بالقول السديد وهو القول الصائب النافع، الذي يكون إما أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو ذكرًا لله -تعالى؛ وذلك لأن المرء يحاسب على كل لفظ يتلفظ به، فما من كلمة ينطق بها إلا ويتلقفها ملكان حاضران لا يغنيان عنه طرفة عين.

ويحسم النبي ﷺ هذه القضية في وضوح تام، حيث يقول: "كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو ذكر الله تعالى"[(٤)].

ومن ثم لا يذم النبي ﷺ البيان مطلقًا، بل يذمه إذا كان مقترنًا بالبذاء، فيجعلهما حينئذ شعبتين من النفاق.

ومن ثم فالغزل الفاحش، والهجاء الفاحش، والمدح الباطل، والهيام في الوصف بلا طائل ولا غرض صحيح، كل ذلك مما يحاسب المرء عليه، ومن ثم ينبغي عليه أن يتجنبه في كلامه شعرًا كان أو نثرًا، أدبًا كان أو كلامًا ككلام الناس فيما بينهم.

ثالثًا: وضوح الهوية الإسلامية

يظهر ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا...﴾[(٥)].

---

(١) سورة ق: ١٨.

(٢) تقدم تخريجه، وهو حديث صحيح كما في "صحيح الجامع" (٣٢٠١).

(٣) تقدم تخريجه قريبا، وهو صحيح بشواهده كما قال الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٧٥١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤١٢)، وأبو يعلى في "مسنده" (٧١٣٤)، والبخاري في "التاريخ" (٢٦١/١)، قال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد بن خنيس"، قال المنذري في "الترغيب": "رواته ثقات وفي محمد بن يزيد كلام قريب لا يقدح وهو شيخ صالح انتهى".

(٥) الشعراء: ٢٢٧.

فالأديـــب المـــسلم شاعرًا كان أو ناثرًا لابد أن يتميز بهويته الإسلامية الواضحة، فهو مـــؤمن بالله تعالى، ذاكرًا له، منتصرًا لقصده، ولابد أن يظهر ذلك واضحًا في أدبه بحيث يتميز بذلك عن غيره.

فهذا هو النبي ﷺ ينشده كعب لاميته الشهيرة التي مطلعها:

متـــيم إثـــرها لم يفـــد مكـــبول   بانـــت ســـعاد فقلـــبي اليوم متبول

حتى يبلغ قوله:

مهـــند مـــن ســـيوف الهـــند مسلول   إن الرســـول لـــنور يـــتـــضاء بـــه

فينكر عليه النبي ﷺ قوله: "من سيوف الهند"، فيجعلها "من سيوف الله".

إن الـــنبي ﷺ حريص على ألا يتميع الشاعر أو الأديب ولا يذوب في غيره؛ لأن أدبه وشـــعره إنمـــا هو عنوان حضارة هذا الدين ومجده، فلابد أن يحمل هويته الإسلامية ويعبر عنها بكل عز وافتخار.

رابعًا: الصدق في الأداء

المـــراد بالصدق هنا هو صدق الأداء، وصدق الشعور أو هو الصدق الفني، فاشتراط الـــصدق هنا لا يمنع المبالغة الفنية الطريفة التي يؤيد بها الشاعر قضيته، ويخدم بها أغراضه الفنية.

فالصدق هنا إنما هو صدق الإرادة، والشعور، ومن ثم فقد ذم الله تعالى الشعراء الذين ﴿يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾[1].

فهؤلاء إنما يتكلمون بلا تجربة ولا معاناة، ولذلك يأتي شعرهم تكلفًا محضًا مذمومًا.

إن الـــصدق هـــنا يعني أن يكون الشاعر ملتزمًا بالمبادئ التي يدعو إليها، ويكفي في ذلـــك مجرد الالتزام الخلقي الإرادي الداخلي، فمعنى الصدق هنا هو القناعـــة الذاتـــية للـــشاعر أو المـــبدع بمـــا يدعو إليه من مبادئ وقيم، وهذا يرتبط بالشـــرط الأول؛ لأن الشاعـــر أو الأديب إذا لم يكن صاحب غاية سامية فلن يكون صادقًا في قوله، بل يكون

(١) الشعراء: ٢٢٦.

قوله مجرد زخرف يريد أن يصرف به وجوه الناس إليه، وفيه قال رسول الله ﷺ: "من تعلم صـــرف الكـــلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً"[1].

خامسًا: ترك التكلف

تلـــك الـــنقطة الـــسابقة ترتبط بالضرورة بهذه النقطة، فالصدق في التجربة والشعور يـــستدعي بالـــضرورة تـــرك التكلف في الأداء؛ ولأن القول حينئذ سوف ينشأ عن طبع مـــوات، وقـــريحة مـــتقدة، ونفس ثائرة مشتملة، ومن ثم فقد نفى الله تعالى عن نبيه ﷺ التكلف، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2]، وسمع النبي ﷺ رجلاً يتكلم بالسجع ويتكلفه بغير ضرورة فزجره قائلاً: أسجعًا كسجع الكهان؟!

وقـــد ورد فيما سقناه من النصوص كثير من الأحاديث النبوية التي ينهى فيها النبي ﷺ عن الثرثرة والتشدق والتفيهق.

والتـــشدق هو التقعر في الكلام وتكلف السجع والفصاحة فيه[3]، والتفيهق هو ملء الفم بالكلام.

سادسًا: روعة الأداء

يـــشترط بعـــد ذلـــك كلـــه روعة الأداء، وبراعة التصوير، وجمال العرض، وحسن اللفظ...إلخ.

فكـــل ما يساعد على إقناع المتلقي بالفكرة، وعرضها في أحسن صورة فهو مطلوب،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ص: ٨٦.

(٣) قـــال الطيبـــي: "ولا يـــدخل في الذم تحسين ألفاظ الخطب والمواعظ، إذا لم يكن فيها إفراط وإغـــراب؛ لأن المقصود منها تهييج القلوب إلى طاعة الله تعالى، ولحسن اللفظ في هذا أثر ظاهر" [شـــرف الدين الحسين بن عبدالله بن محمد الطيبي: شرح الطيبـــي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشـــف عن حقائق السنن- تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي- مكتبة نزار الباز- مكة المكرمة- الطبعة الأولى- ١٤١٧هـــ-١٩٩٧م- (٣١٠٦/١٠).].

والإسلام يحث عليه، ومن ثم فقد قال النبي ﷺ قولته السائرة المشهورة: "إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرًا" وقد كان الشعراء في زمان النبي ﷺ يلتزمون صون الأصول الفنية التي تواضع عليها العرب في شعرهم، و لم ينكر النبي ﷺ عليهم شيئًا من ذلك، بما في ذلك المقدمة الغزلية التي كانوا يبدأون بها القصائد جلبًا للأسماع وجذبًا للقلوب، ما لم يكن ذلك الغزل فاحشًا، ومادام هذا الغزل، موظفًا للمقصود، فهو وسيلة لا غرو في نفسه، وهو مقيد بكونه من الغزل العفيف المباح لا من الفاحش الصراح، ومن ثم فقد استمع النبي ﷺ قصيدة كعب بن زهير، و لم ينكر على كعب مقدمتها الغزلية التي مطلعها:

متيم إثرها لم يفد مكبولُ   بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ

وكم لحسان بن ثابت ﷺ شاعر الرسول ﷺ من قصائد جرت على هذا النحو، و لم تستنكر عليه، من ذلك قصيدته المشهورة التي مطلعها:

وخيال إذا ما تغور النجومُ   منع النوم بالعشاء الهمومُ
وهن فهو داخل مكتومُ   من حبيب أصاب قلبك من
واهن البطش والعظام سئومُ   يا لقومي هل يقتل المرء مثلي
ويعلوها لجين ولؤلؤ منظومُ   همها العطر والفراش
عليها لأندبتها الكلومُ   لو يدب الحولي من ولد الذر

ومن ثم يتبين أن الإسلام قد قدم أسسا إسلامية نقدية أدبية متكاملة راعي فيها جودة الشكل والمضمون، وارتقى بها بالأدب إلى قمة سامقة جعلت له رسالة خالدة لا تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

خامسًا الوسائل الأسلوبية:

- طريقة الدعوة بين العقلانية والوجدانية:

من وسائل الدعوة الواقعة في إطار منهجها العام اختيار نوع الأسلوب الدعوي من حيث اختيار الخطاب العقلي التأملي أو الخطاب القلبي الوجداني.

القرآن الكريم ينوع خطابه وأسلوبه الدعوي بين الخطاب العقلي تارة وبين الخطاب القلبي الوجداني تارة أخرى وذلك حتى تملك الدعوة كل جوارح المدعو وجوانحه فيمتلئ بها قلبه وعقله فلا يجد مناصًا من اتباعها والتسليم لها.

فضلاً عن أن طباع الناس ونوازعهم تختلف بين من يُعنى بالعقل والمنطق والمحاجة ويهتم بتحرير الأمور تحريرًا عقليًا وضبطها بحجج المنطق وقواعده وبين من يعرض عن جفاف الجدال العقلي ومعاناته ويميل إلى ما ينفتح له قلبه وينشرح له صدره من جميل القول، وسحر البيان، وحلاوة المنطق الأخاذ، وحسن العرض، وجميل الخصال والصفات؛ لذا فقد نوع القرآن في طريقته الدعوية بين كلا النوعين مراعاة لحال الفريقين، ودفعًا للسأم والملل عن السامع، وحرصًا على تعدد وسائل الإقناع للمدعوين حرصًا على هدايتهم واستجابتهم بمختلف السبل.

١- الخطاب العقلي التأملي:

أ- القرآن مليء بالدعوة إلى التأمل والتفكر:

وهذا النوع من الخطاب يدعو إلى التفكر وإعمال العقل للإفادة من معطيات الآيات سواء كانت من نوع الآيات الكونية المقروءة في صفحات الكون المسطور بيد الإبداع والقدرة والحكمة، أو كانت من نوع الآيات القرآنية المتلوة في صفحات الكتاب الكريم الدالة على وحدانية الله تعالى وسائر صفاته وأسمائه الحسنى.

والقــرآن ملــيء بالدعوة إلى التعقل والتفكر[1]، ومليء كذلك بالآيات الداعية إلى التأمل في صفحة الكون والنظر في الآيات الكونية الدالة على قدرة الله تعالى وإبداعه لهذا الكون، قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2].

ويقــول تعــالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

والآيات القرآنية تخاطب العقل تارة بالدعوة إلى النظر والتأمل كما في الآيات السابقة، وتارة بالاستدلال ببديهيات العقول كما يأتي بيانه.

ب- استخدام البديهيات العقلية:

مخاطبة العقل في القرآن كذلك تأتي باستخدام البديهيات العقلية كالمقارنة بين.

القيم الموجبة والقيم السالبة، حيث إن تفضيل القيم الموجبة على السالبة أمر مستقر في بديهيات العقول.

فمـــن ذلك المقارنة بين من يملك ومن لا يملك لبيان أحقية المالك بالألوهية مثل قوله تعــالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا

---

(١) ﴿أَيَــوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[البقرة:٢٦٦].

﴿وَمَــا أَرْسَــلْنَا مِــنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٣-٤٤].

﴿قُــلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[سبأ:٤٦].

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر:٢١].

(٢) يونس: ١٠١.

(٣) الأعراف: ١٨٥.

﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وكالمقارنة بين من يخلق ومن لا يخلق لبيان استحقاق الخالق سبحانه للألوهية وحده كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وكالمقارنة بين من يهدي ومن لا يهدي إلا أن يهدي لبيان استحقاق الهادي سبحانه للألوهية كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[3].

وكالمقارنة بين من يَرْزُق ويُطعِم ومن يُطْعَم ويُرْزَق ولا يُطعِم ولا يَرْزُق، لبيان استحقاق الرازق سبحانه للألوهية وحده، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].

وكالمقارنة بين من له سائر صفات الكمال والجلال ومن ليس له تلك الصفات بل يتصف بعكس ذلك من صفات النقص والعجز، لبيان استحقاقه سبحانه للربوبية والألوهية وحده، وذلك كما في قوله تعالى عن الشركاء: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ﴾[5].

جـ) استخدام الأقيسة المنطقية الفطرية:

المراد بالأقيسة المنطقية الفطرية هي الأقيسة العقلية المستقرة والثابتة في الفطر والنفوس والعقول كترتيب النتائج على المقدمات، والاستدلال بالمعلوم على المجهول اللازم عن ذلك المعلوم، ونحو ذلك من الأقيسة التي لا تحتاج إلى دراسة المنطق ولا علم الكلام والجدل

---

(١) النحل: ٧٥.

(٢) النحل: ١٧.

(٣) يونس: ٣٥.

(٤) الأنعام: ١٤.

(٥) الأعراف: ١٩٥.

بصعوبات تلك العلوم وتعقيداتها التي أدت إلى تعقيد كثير من العلوم، وأدت إلى صد كثير من الناس عن سبيل التعلم، ولا نزال نعاني من آثار اندساسها في مختلف العلوم العربية والإسلامية إلى يومنا هذا.

فاستخدم القرآن الكريم الأقيسة المنطقية والبراهين العقلية دون مغالاة ولا تعقيد.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[١].

وهذا الدليل يسميه البعض بدليل التعارض، أي لو كان في الكون إلهان لتعارضا فإذا تعارضا تساقطا أو غلب أحدهما الآخر فصار له الحكم والغلبة فينتفي بذلك أن يكون للكون إلهان في آن واحد، وهذا المعنى يعبر عنه القرآن الكريم في أيسر عبارة لا تعيى بها العقول، ولا تنفر منها القلوب كما ترى.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ﴾[٢].

وهذا الدليل يعتمد كما ترى على قياس الأولى، وهو أن الذي خلق الشيء وأوجده أول مرة هو قادر على إعادته بقياس الأولى؛ إذ إن الإعادة أهون من البداءة.

وهذا ما يقرره القرآن في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣].

---

(١) الأنبياء: ٢١-٢٢.

(٢) يس: ٧٨-٨١.

(٣) الروم: ٢٧.

٢- الخطاب القلبي الوجداني في القرآن الكريم:

يهـتم القـرآن بمخاطبة القلب والوجدان والشعور كما يهتم بمخاطبة العقل، وهو في مخاطبته القلب والشعور يعتمد على وسيلتين أساسيتين يقرن بينهما في غالب الأحوال، أو يغلب إحداهما على الأخرى بحسب حال المدعوين.

وهاتان الوسيلتان هما: الترغيب والترهيب.

أولاً: الآيات الجامعة بين الترغيب والترهيب:

قـوله تعـالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾[١].

حـيث نلاحـظ أن الآيات قد جمعت بين النذارة والبشارة وقدمت النذارة وكررتها وذلك مناسبة لحال المدعوين المعرضين عن دعوة النبي ﷺ في مكة المعاندين له.

وإن كان الأصل في القرآن تقديم البشارة على النذارة على العموم، ما لم يقصد رعاية حـال خـاص من أحوال المدعوين، والدليل على ذلك كثرة من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[٢].

حيث بدأت الآية في وصف النبي ﷺ بالبشارة قبل وصفه بالنذارة لأن هذا هو الترتيب الطبيعي في الدعوة أن تبدأ بالبشارة قبل النذارة ما لم يقتض الحال غير ذلك.

والدليـل علـى ذلـك أن الله تعالى حينما انتدب موسى لدعوة فرعون أمره بتقديم الترغيب والبشارة واللين قبل النذارة والترهيب فقال له سبحانه: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٣].

---

(١) الكهف: ١-٤.

(٢) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٣) طه: ٤٣-٤٤.

ثانيًا: الآيات التي تغلب البشارة:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2].

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾[3].

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[4].

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[5].

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾[6].

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلا كَبِيرًا﴾[7].

ثالثًا: الآيات التي تغلب النذارة:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[8].

---

(١) الزمر: ١٧.

(٢) فصلت: ٣٠.

(٣) التوبة: ٢١.

(٤) التوبة: ١١١.

(٥) الشورى: ٢٣.

(٦) يونس: ٢.

(٧) الأحزاب: ٤٧.

(٨) النساء: ١٣٨.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1].

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[2].

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[3].

ومن الأمثلة التي اجتمعت فيها طريقتا الخطاب القلبية الوجدانية بنوعيها من حيث الترغيب والترهيب، والعقلية التأملية بأنواعها من حيث التأمل والبديهة والاستدلال سورة نوح عليه السلام في بيان دعوته لقومه، وذلك في قوله عليه السلام:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا﴾.

فنجد أسلوب الترغيب واضحًا فيما وعدهم به إن استغفروا الله تعالى وتابوا إليه من إرسال السماء بالخير العميم مع كثرة أموالهم وأولادهم وتفجير الأنهار والجنات من تحتهم .. إلخ.

ثم لما لم ينجح ذلك الأسلوب معهم لقسوة قلوبهم وإعراضهم نحا نحو زجرهم وتأنيبهم وتقريعهم فسلك مسلكًا حسنًا من مسالك الترهيب حيث قال: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ثم عمد إلى طريقة الخطاب العقلي بدعوتهم إلى النظر والتأمل في مخلوقات الله

---

(١) هود: ٢٥.

(٢) هود: ٦٤.

(٣) هود: ٩٣.

تعالى للاستدلال بها على قدرته ووحدانيته وسائر صفات ربوبيته وألوهيته سبحانه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا...﴾.

وهو في ذلك يجمع بين دعوتهم إلى النظر والتأمل في صفحة الكون والاستدلال ببديهات العقول وأقيستها المستقيمة المتفقة مع الفطرة السليمة.

منهج الدعوة بين العقلانية والوجدانية وتطبيقاته في السنة النبوية:

لقد حرص النبي ﷺ من أول يوم على تنويع خطابه الدعوي بين العقلانية والوجدانية بحسب أحوال المدعوين، وبحسب المواقف والظروف المختلفة.

فحينما قرر ﷺ أن يجهر بالدعوة إلى الله قرر أن يسبق هذا الجهر بتقرير قومه بصدقه وأمانته حتى يجعل ذلك كالمقدمة المنطقية التي تقود العاقل إلى التسليم بالنتيجة التي لا تتخلف؛ فإذاكانت المقدمة (إن محمدًا لا يكذب)، كانت النتيجة هي: (صدق دعواه في رسالته).

ولذلك بدأ ﷺ حينما جمع قومه بقوله: "إن الرائد لا يكذب أهله. أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[1]".

وحينما بين النبي ﷺ أكبر الكبائر منفرًا من الشرك ومحذرًا منه ومعظمًا إياه نجده يعتمد على ما استقر في النفوس من تميز الأشياء واستبانتها بالجمع بين الأمور المتضادة المتقابلة فلذا نجده يبين ذلك بقوله ﷺ: "أن تجعل لله ندًا وهو خلقك" لمن سأله: أي الذنب أعظم؟[2].

---

(١) أخرجه البخاري في "التفسير"، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٤٧٧٠)، ومسلم في "الإيمان"، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في "التوحيد"، باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾(٧٥٢٠)، ومسلم في "الإيمان"، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها (٨٦).

فنجد الأسلوب العقلي المنطقي المعتمد على بديهات العقول وما استقر فيها من قبح التناقض والنفرة منها، واستبانة الفروق بين المتضادات ووضوح الحقائق بذلك، حيث يظهر قبح الشرك واضحًا جليًا حينما يقارن المرء بين اتخاذ إله مع الله ينسب إليه الفضل ويقدم إليه الشكر، ويجحد حق الله سبحانه وهو الخالق الرازق، والآلهة الباطلة لم تخلق و لم ترزق.

كذلك يلجأ النبي ﷺ إلى الأقيسة المنطقية الفطرية المسلمة في العقول، وذلك كما في قصته ﷺ مع الشاب الذي جاء يستأذنه في الزنا فقال له ﷺ: أتحبه لأمك؟ أتحبه لأختك؟ أتحبه لابنتك؟ ... إلخ[1].

ليقرر له بطريق القياس الواضح الجلي أنه كما أنه لا يحب الزنا لأحد من ذويه وخاصته فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا لبناتهم ولا لأخواتهم.. إلخ فكيف يأتي إلى الناس ما يكره لنفسه؟.

وكيف يطلب من النبي ﷺ أن يرخص له في أمر إن رخص فيه فقد فتح عليه من أبواب الأذى والعار أضعاف أضعاف ما يناله من المتعة الحرام، وذلك لأن الناس سيريدون منه القصاص والمماثلة في بناته وأمه وأخواته.. إلخ إن رخص لهم بمثل ما رخص له.

أما اعتماد دعوة النبي ﷺ على المخاطبة الوجدانية وتنويع ذلك بين الترغيب والترهيب فهو أكثر وأشهر من أن يستدل له ولقد صنف عدد من العلماء كتبًا فيما ورد في سنة النبي ﷺ من الترغيب والترهيب[2].

حيث يأتي الترغيب في سنة النبي ﷺ في جميع أبواب الخير والفضائل ويأتي الترهيب

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٥٦/٥)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٣٦٢/٤)، وذكره الهيثمي في "المجمع" (١٢٩/١)، وقال: "رواه أحمد والطبراني في "الكبير" ورجاله رجال الصحيح". وقال الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٣٧٠): "وهذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح".

(٢) انظر على سبيل المثال: الترغيب والترهيب للإمام المنذري.

كذلك في جميع أبواب المكروهات والمحرمات والرذائل.

منهج الدعوة من حيث التأثير البياني والفكري والثقافي:

يعتمد منهج الدعوة في تأثيره البياني على رعاية حال المخاطب ومن ثم فهناك ربط واضح بين منهج الدعوة في تشكيله الخطابي وبين حال المدعوين الذين تتجه هذه الدعوة إليهم.

وقد سبق أن ألقينا الضوء على الواقع العربي الجاهلي قبل مجيء الإسلام الذي توجهت إليه الدعوة الإسلامية في مهدها، هذا الواقع الذي يعم فيه الشرك بالله تعالى في صورة عبادة الأوثان واتخاذ الأنداد من دون الله تعالى والذي يسيطر فيه السادة الأقوياء على العبيد الضعفاء، وتسود فيه كثير من العادات والتقاليد السيئة من شرب الخمر ووأد البنات وقتل النفس التي حرم الله وغير ذلك من المعاصي والفواحش.

لذا ركزت الدعوة في مضمونها ومقاصدها الأساسية في هذا الوقت على الدعوة إلى التوحيد وتقوى الله تعالى واستمر ذلك ثلاث عشر عامًا هي مدة الدعوة المباركة في مكة المكرمة.

ومع استقرار العقيدة في المدينة ودخول الناس في دين الله تعالى أفواجًا انتقل تركيز الدعوة على الأحكام التي هي واجبات الإيمان، كما اتجهت إلى بناء الأخلاق وتنظيم المعاملات، وإرساء الأسس والقوانين المدنية باختلاف أنواعها.

كذلك فقد سبق أن ألقينا الضوء على الناحية العلمية والثقافية والبيئة العربية التي تشكل عقلية العربي الجاهلي في ذلك الوقت ومن ثم رأينا كيف ركّز القرآن الكريم وركزت السنة النبوية على رعاية هذه العقلية العربية الأمية الساذجة فجاءت حجج التوحيد ودلائله مناسبة لهذه العقلية:

١- من حيث الوضوح واليسر وعدم التعقيد.

٢- من حيث استلهام عناصر البيئة العربية.

٣- من حيث إجمال الإشارات العلمية.

٤- من حيث توظيف العلوم الثابتة لدى العرب.

وقد سبق إفاضة الحديث عن الوضوح واليسر في عرض دلائل العقيدة، وذلك عند الحديث عن الدعوة الإسلامية بين العقلانية والوجدانية، في أثناء الحديث عن مظاهر الخطاب العقلي التأملي.

أما بالنسبة لاستلهام عناصر البيئة فنلاحظ أن الصور القرآنية قد رسمت من وحي هذه البيئة، ووظفت فيها عناصرها توظيفًا جيدًا بما يتناسب مع عقلية العربي الذي تربى في هذه البيئة، ونلمح ذلك في نحو قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[٢].

حيث نلمح في هذه الصورة وغيرها كثير في القرآن الكريم عناصر هذه البيئة الصحراوية مثل (السماء – الأرض – الجبال – الشمس – القمر – المطر – النخيل – الإبل ... إلخ).

ولما كانت للإبل أهمية خاصة في حياة العربية لا جرم فقد بدأت بها الآيات في سورة الغاشية.

وحينما تعرض القرآن للإشارات العلمية، فإننا نلاحظ أنه حينما يكون الحديث عن العلوم المعروفة والثابتة لدى العرب مثل الفصاحة والبلاغة والبيان والعلوم الطبيعية الأخرى، والمطر والرياح والجبال ... إلخ، فإننا نجد أن القرآن يتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل يتطابق مع علوم هذا العربي ومعارفه.

---

(١) الغاشية: ١٧-٢٠.

(٢) ق: ٦-١١.

فمن ناحية الفصاحة والبيان فقد بلغ القرآن في ذلك حدّ الإعجاز، ولذلك بلغ النبي ﷺ في فصاحته وبلاغته حدًّا فاق بلغاء العرب جميعًا.

فالقــرآن قــد أعجــز العرب بحلاوة منطقة، وعزوبة ألفاظه، وجمال نظمــه وروعة صـــوره، وجمال جرسه وموسيقاه الأمر الذي جعل مشركي العرب الجاحدين بالقرآن والنــبوة يقرّون بإعجاز هذا الكلام وشدة تأثيره على نفوســهم حتى وصفوه بالسحــر، وقــصة الولــيد بــن المغيرة في ثنائه على القرآن مشهورة في ذلك، وقصة الذيــن كانوا يــســترقون الاســتماع لقــراءة النبي ﷺ سرًّا، ثم يتواعدون على ألا يفعلوا ثم يعودون للاستماع مشهورة كذلك.

والــشاهد أن القــرآن قد بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة رعاية لحال هؤلاء المخاطبين الذين كانــوا على درجة عالية من الفصاحة والبيان، وطلبًا للتأثير في نفوس المخاطبين وقد أكد النبي ﷺ في سنته على أهمية التأثير البياني ورعايته فقال ﷺ: "إن من البيان لسحرًا"[1].

والنبي ﷺ قد بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة، وقد شهد له بذلك كل من سمعه.

ولا شــك أن لفصاحة الكلام وبلاغته وجمال نظمه وروعة تصويره، وعذوبة جرسه وموسيقاه لاشك أن لذلك كله تأثيرًا كبيرًا باستمالة المدعو للسماع، وترغيبه فيه، فلذلك كله بلغ القرآن حد الإعجاز في ذلك وتلته السنة النبوية الشريفة في هذا الأمر.

وأمــا من جهة رعاية القرآن الكريم للعلوم والمعارف الأخرى التي وقف عليها العرب بحكــم بيــئتهم كعلــم النجوم والأمطار والرياح والجبال ونحو ذلك، فقد راعى القرآن الإشارة إلى تلك الأمور بقدر كبير من الوضوح والإفصاح كذلك.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾[3].

---

(١) تقدم تخريجه، وهو صحيح.

(٢) النحل: ١٦.

(٣) فصلت: ١٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[4].

أما حينما يشير القرآن إلى العلوم المجهولة لدى العرب فإنه يجمل الحديث عن هذه الأمور في إشارات مجملة يفقهها من بعدهم ممن تفتح لهم الرؤى في الآفاق وفي أنفسهم، فيحمل القرآن هذه الإشارات حتى لا يصدم عقول العرب الساذجة فيكون ذلك سببًا من أسباب الصد عن الهداية فعلى سبيل المثال حينما يشير القرآن إلى وسائل النقل فإنه يوجز الإشارة إلى وسائل النقل الحديثة على اختلاف أنواعها ولا يصدم عقول العرب بذكر السيارة والقطار والطائرة والصاروخ... وهلم جرًّا، ولكننا نجد هذا الإجمال المعجز للأولين والآخرين في قوله تعالى:﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[5].

ففي قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى كل ما يخلق الله تعالى من وسائل النقل الحديثة دون أن يصدم عقول العرب ومعارفهم المتواضعة والأمثلة كثيرة لا يتسع المقام لبسطها.

---

(١) الصافات: ٦.

(٢) الحجر: ٢٢.

(٣) النور: ٤٣.

(٤) فاطر: ٢٧.

(٥) النحل: ٨.

مظاهر التطبيق في السنة النبوية:

وقد راعت السنة النبوية ذلك كله فالنبي ﷺ كان حريصًا على مخاطبة الناس على قدر عقولهم فكان يراعي عقلية البدوي والحضري والشيخ الفاني والشاب الجلد، والمرأة والصبي وغير ذلك وفي سنته المحفوظة لدينا كثير من التطبيقات فنراه يتسع صدره للأعرابي الذي يبول في المسجد فيقول: "لا تزرموه"(1)، ويتسع صدره للذي يتكلم في الصلاة(2)، ويتسع صدره للذي يأخذ بتلابيبه ويسأله من مال الله(3).

---

(1) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رضي الله عنه- أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لا تُزْرِمُوهُ ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَيْهِ". [أخرجه البخاري في "الأدب"، باب: الرفق في الأمر كله (٦٠٢٥)، ومسلم في "الطهارة"، باب: وجوب غسل البول وغيره من النجاسات (٢٨٥)].

(2) عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ –رضي الله عنه- قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ. فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلا ضَرَبَنِي وَلا شَتَمَنِي قَالَ إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. [أخرجه مسلم في "المساجد ومواضع الصلاة"، باب: تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٧)].

(3) وهو حديث أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه- وفيه: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْلِسُ مَعَنَا فِي الْمَجْلِسِ يُحَدِّثُنَا فَإِذَا قَامَ قُمْنَا قِيَامًا حَتَّى نَرَاهُ قَدْ دَخَلَ بَعْضَ بُيُوتِ أَزْوَاجِهِ فَحَدَّثَنَا يَوْمًا فَقُمْنَا حِينَ قَامَ فَنَظَرْنَا إِلَى أَعْرَابِيٍّ قَدْ أَدْرَكَهُ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ فَحَمَّرَ رَقَبَتَهُ- قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَكَانَ رِدَاءً خَشِنًا- فَالْتَفَتَ فَقَالَ لَهُ الأَعْرَابِيُّ احْمِلْ لِي عَلَى بَعِيرَيَّ هَذَيْنِ فَإِنَّكَ لا تَحْمِلُ لِي مِنْ مَالِكَ وَلا مِنْ مَالِ أَبِيكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لا أَحْمِلُ لَكَ حَتَّى تُقِيدَنِي مِنْ جَبْذَتِكَ الَّتِي جَبَذْتَنِي فَكُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ لَهُ الأَعْرَابِيُّ وَاللَّهِ لا أُقِيدُكَهَا فَذَكَرَ الْحَدِيثَ قَالَ ثُمَّ دَعَا رَجُلا فَقَالَ لَهُ احْمِلْ لَهُ عَلَى بَعِيرَيْهِ هَذَيْنِ عَلَى بَعِيرٍ شَعِيرًا وَعَلَى الآخَرِ تَمْرًا ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ انْصَرِفُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ تَعَالَى". [أخرجه النسائي في "الكبرى" (٢٢٧/٤)، وأبو داود (٤٧٧٥)، والحديث ضعفه الشيخ الألباني في "ضعيف النسائي" (٤٧٧٦)].

ويسر على من لا يستطيع حفظ الدعاء الكثير بكلمات يسيرة، كما قال للرجل الذي قال له إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فسأله عما يقول، فأخبر أنه يسأل الله الجنة، ويعوذ به من النار، فلم يزده النبي ﷺ ما يثقله بل قال له (حولها ندندن)[1].

والأمثلة كثيرة لا تحصى في الاستدلال لمخاطبة النبي ﷺ الناس على قدر عقولهم، وهذا مـا ورثـه أصحابه عنه ﷺ في حكمة الدعوة، فعن علي رضي الله عنه: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتحبون أن يكذب الله ورسوله"[2].

وفي الأثـر كـذلك: "ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"[3].

كـذلك نجـد رعاية القرآن والسنة للناحية النفسية للمدعوين في هذه البيئة، فمن خلال الإطلالة السابقة على حالة العرب قبل الإسلام نعرف ما كان عليه العربي من المزاج النفسي المتقلب بتأثير تلك البيئة الصحراوية المتقلبة فبين التقلب بين جفاف البيئة وحرارة القـيظ تارة وبرد نسيمها وطيب هوائها تارة أخرى يتقلب مزاج العربي في هذه البيئة بين الخشونة والجفاف والغلظة والقسوة، وبين اللين والمروءة والكرم والرحمة.

بين ثورة العقل واحتدامه، وغضب النفس وانفعالها ورقة الوجدان والمشاعر والانفعال لعناصر الجمال في الطبيعة والكون.

ومن ثم جاءت الأساليب القرآنية متنوعة بين الترهيب والترغيب، وبين الزجر والتأنيب والتقـريع والتوبيخ وبين مخاطبة المشاعر والارتقاء بالنفس وترغيبها في ملكوت السموات والأرض.

كـذلك فقد جاءت تطبيقات هذا الأمر في السنة النبويـة في حكمـة النـبي ﷺ في

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٤٧٤/٣)، وأبو داود في "سننه" (٧٩٢) عن بعض أصحاب النبي ﷺ، وابـن ماجـه (٩١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والحديث صححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (٣١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في "العلم"، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم (١٢٧).

(٣) أخرجه مسلم في "المقدمة" (٦٣/١) ط. الشعب.

دعــوته وتغليــبه الرفق واللين والرحمة في إقناع المخاطبين والمدعويــن، وعــدم غضبه واشــتــداده علــى من يقدم على المعصية عن فهم وبينة فيكون غضب النبي ﷺ لانتهاك حرمات الله.

فمن أمثلة لينه ورفقه ﷺ ما سبق ذكره من حسن تصرفه ﷺ مع الرجل الذي أغلظ له في السؤال، وحسن معاملته للأعراب الجفاة، وحكمته ورحمته مع الشاب الذي جاء يسأله أن يرخص له في الزنا[1].

ومــن أمثلــته تغليظه ﷺ وشدته اشتداده ﷺ على أسامة حينما جاءه ليشفع في المرأة المخزومية التي سرقت[2].

وغــضبه ﷺ واشــتداده على الثلاثة الذين خلفوا، وغضبه ﷺ على أسامة حينما قتل رجلاً بعد أن قال لا إله إلا الله[3].

وقــد جاء ذلك كله بناء على وعي تام من النبي ﷺ بطبيعة قومه ومزاجهم وظروفهم وأحوالهم المختلفة، وقد أدى ذلك كله إلى حسن تصرف النبي ﷺ وحكمته في دعوته.

ضرورة التماثل أو التقارب الفكري والثقافي بين الداعي والمدعوين:

لا جرم كان وعي النبي ﷺ بظروف بيئته وأحوال المخاطبين من جميع النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية والثقافية والنفسية واللغوية والبيانية ... إلخ.

كــان لذلك كله تأثيره الحسن في إحداث نوع من التماثل الفكري والثقافي تحقق به معــنى الآيــة الكريمة على أكمل وجه في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[4].

---

(١) تقدم كل ذلك قريبًا.

(٢) أخــرجه الــبخاري في "أحاديث الأنبياء" (٣٤٧٥)، ومــسلم في "الحدود"، باب: قطع السارق الشريف وغيره (١٦٨٨).

(٣) أخرجه البخاري في "الديات" (٦٨٧٢)، ومسلم في "الإيمان"، باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (٩٦).

(٤) إبراهيم: ٤.

وذلك أن معنى اللسان يمكن أن يتسع كما سبق أن بينا ليشمل جميع معارف العصر وظروفه المؤثرة في التخاطب وانتقال الرسالة الدعوية بين الداعي والمدعو ولهذا نجحت دعوة النبي ﷺ إلى أبعد مدى بقدر تحقق هذا التقارب والتماثل الفكري والثقافي بين النبي ﷺ وقومه فضلاً عن التفوق المعرفي التام للنبي ﷺ بما علمه الله تعالى وفتح عليه من العلوم والمعارف مما لا يقدر على تعلمه إلا خاتم الأنبياء والمرسلين.

سادسًا: الوسائل المادية:

أولا) القوة الاقتصادية: من حيث التأثير بتقديم النفع والمساعدة للمدعوين:

لا جرم كان من وسائل الدعوة كذلك التأثير في نفوس المدعوين بتقديم النفع والمساعدة لهم، وقد ضرب النبي ﷺ في ذلك أروع الأمثلة وشهد له القرآن بذلك[1].

فمن الأمثلة على ذلك أن رجلاً جاء يسأل النبي ﷺ فأعطاه غنمًا بين جبلين فكان سببًا في هداية قومه تأثرًا بأخلاق النبي ﷺ حيث رجع إلى قومه وهو يقول: "جئتكم من عند رجل يعطي عطاء من لا يخشى الفقر"[2].

ومن ذلك: ما أخرجه البخاري عن عبدالله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله على رسوله يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم و لم يعط الأنصار شيئًا فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي..."الحديث. وفيه فقال: أترضون أن يذهب الناس بالشاه والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم"[3].

---

(١) على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

(٢) أخرجه مسلم في "الفضائل"، باب: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال لا وكثرة عطائه (٢٣١٢)، ولفظه: "فإن محمد يعطي عطاء لا يخشى الفاقة".

(٣) أخرجه البخاري في "المغازي"، باب: غزوة الطائف- (٤٣٣٠)، ومسلم في "الزكاة" (١٠٦١).

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إلي فقلت: يا رسول الله ما لك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنا فقال أو مسلمًا فسكت قليلا ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي فقلت: ما لك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنا فقال أو مسلمًا ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي وعاد رسول الله ﷺ ثم قال: يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار"[1].

وهذا كله وإن كان خارجًا عن حدّ المؤثرات المباشرة فإنه من المؤثرات المعينة على إلانة قلب المدعو، وحسن التأثير فيه بالاستجابة لهذه الدعوة فمن ثم أشرنا إليه هنا، وقد سبق الإشارة إليه في الوسائل الآلية المساعدة.

ثانيا) القوة العسكرية بين الصبر على الأذى والأخذ بالقوة:

الدعوة الإسلامية مأمورة بإعداد القوة والأخذ بأسبابها في جميع المراحل بحسب الاستطاعة، وهذا لا ينافي الأمر بالصبر واحتمال الأذى من أعداء الدعوة في مرحلة البيان حتى تكسب تعاطف الناس، وحتى تتمحص رسالتها للكشف عن الحقيقة والدعوة إلى الحق وحتى لا يظن بها الظنون بابتغاء نوع من المنافع الدنيوية المادية العاجلة ومع ذلك فهي مأمورة بالأخذ بأسباب القوة في جميع الأحوال لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

ولكن في مرحلة البيان لا يزيد الأمر عن إعداد القوة دون استخدامها بخلاف مرحلة التمكن واستقرار الدولة الإسلامية فإنها يشرع لها استخدام القوة للدفاع عن الدعوة الإسلامية في وجه أعدائها والتمكين لها، وصد ودحر كل من يقف في سبيل إيصالها إلى الناس، كل ذلك بما لا يتناقض مع قواعد الحكمة والنظر في ميزان المصالح والمفاسد، وعدم التعجل لكسب أي مكاسب سياسية أو مادية، بل المقياس الأول هو هداية الناس، وتبليغ هذا الدين.

---

(١) أخرجه البخاري في "الإيمان"، باب: إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة (٢٧)، ومسلم في "الإيمان"، باب: تألف قلب من يخاف على إيمانه (١٥٠).

وقد كانت سنة النبي ﷺ خير تطبيق لحكمة الدعوة في هذا الأمر امتثالاً لتوجيهات القرآن الكريم في ذلك فقد كان النبي ﷺ وأصحابه ينالهم الأذى من المشركين في بادئ الأمر وكانت التوجيهات القرآنية تأمرهم بالعفو والصفح ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[1].

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[2].

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[3].

والآيات في ذلك كثيرة، ثم نسخت تلك الآيات بآية السيف والآيات المشابهة:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[4].

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[5].

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[6].

ورغم قوة النبي ﷺ في المدينة فكان يعمل قاعدة الحكمة والموازنة بين المصالح والمفاسد في التعامل مع المناوئين من اليهود والمنافقين والعرب حتى تستوي قوة الدولة في المدينة، وذلك عملاً بتوجيهات القرآن الكريم حيث أمره بالعفو عن المنافقين في

---

(١) البقرة: ١٠٩.

(٢) آل عمران: ١٨٦.

(٣) المزمل: ١٠.

(٤) البقرة: ١٩٠.

(٥) الحج: ٣٩.

(٦) التوبة: ٢٩.

بـــادئ الأمـــر والإعـــراض عنهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا﴾[1]، أما بعد تمكن الدولة فقد جاء الأمر بتتبعهم وقتالهم وقطع دابرهم والإغلاظ لهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا﴾[2].

وصالح النبي ﷺ اليهود وعاهدهم في بادئ الأمر ثم لما نقضوا عهدهم قاتلهم وأجلاهم عن المدينة.

وهكـــذا كـــان أخذ النبي ﷺ بأسباب القوة حماية للدعوة الإسلامية وتمكينًا لها، مع العمل بميزان الحكمة في ذلك والنظر قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد.

---

(١) النساء: ٦٣.

(٢) الأحزاب: ٦٠-٦١.

الفصل الثالث

التطوير في مناهج الدعوة ووسائلها في الواقع المعاصر

المبحث الأول: مشروعية التطوير وضوابطه

المبحث الثاني: الواقع المعاصر وعوامل التطور

المبحث الثالث: مناهج دعوية أفرزها الواقع المعاصر

المبحث الأول: مشروعية التطوير وضوابطه

تمهيد:

سبق أن بينا أن التطور سنة من سنن الله في هذا الكون، وأنه واقع لا محالة لاختلاف البشر واختلاف ظروفهم وبيئاتهم وأحوالهم المختلفة من عصر إلى عصر.

كذلك فقد استعرضنا مسيرة الدعوة الإسلامية عبر العصور ابتداء من عصر النبوة إلى العصور المتأخرة وبدايات العصر الحديث، ورأينا كيف أن منهج الدعوة قد تأثر في جميع هذه العصور بظروف وأحوال الناس المختلفة في تلك العصور والبيئات المختلفة، وكيف كان منهج الدعوة الإسلامية في تلك العصور بمثابة رد الفعل للمؤثرات المختلفة والظروف الحادثة مما يؤثر على اعتقاد الناس والتزامهم بأركان هذا الدين وواجباته.

وقبل أن نتحدث عن كيفية تطوير الدعوة في الواقع المعاصر، وقبل أن نعرض مقترحاتنا لهذا التطوير نريد أن نطل إطلالة سريعة على العوامل والمؤثرات الخارجية والداخلية التي حدثت في العالم في هذا العصر وأثرت تأثيرًا كبيرًا على مسيرة الدعوة الإسلامية، كما أثرت تأثيرًا كبيرًا كذلك على ظروف الناس وأحوالهم وأعادت تشكيل عقيدتهم وثقافتهم وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم ومختلف مجالات حياتهم وأنشطتهم وأدت إلى إفراز العديد من المناهج الدعوية المختلفة التي سوف نقف على نماذج منها في مبحث من مباحث هذا الفصل.

مما يقتضي أن يراعى ذلك كله في رسم معالم منهج الدعوة في الواقع المعاصر بحيث يراعى فيه تقديم الجانب الإيجابي من المعادلة في مقابل تلك الجوانب السلبية التي سنعنى بتصويرها في هذا المبحث من الرسالة.

كما سنعقد مبحثًا قبل ذلك لبيان حكم التطوير في منهج الدعوة ووسائله، وقيود ذلك وضوابطه، نظرًا لأن من الناس من يرفض التطوير برمته في منهج الدعوة ووسائلها ويعد ذلك من قبيل البدع ومحدثات الأمور، ومنهم من يفتح الباب على مصراعيه بحيث يدخل في وسائل الدعوة ما يعد من الوسائل المحرمة متذرعًا بالقاعدة الميكافيللية (الغاية تبرر الوسيلة).

والحــق أن أمـــر الإسلام دائمًا وسط بين الإفراط والتفريط، فيحتاج الأمر إلى ضبط الأمـــور وتفصيل ما يجوز وما لا يجوز من الوسائل وبيان ضوابط هذا الأمر وقواعده التي يحـــتاج إليها عند التباس الأمور ثم يأتي المبحث الأخير وهو بيت القصيد وهو عن كيفية التطوير في منهج الدعوة ووسائلها في الواقع المعاصر ويشمل إعادة النظر في منهج الدعوة وبرنامجها بما يتفق مع معطيات الواقع المعاصر وتحدياته ويتخلل ذلك عرض المقترحات في تطويـــر الوســـائل الدعوية التقليدية واقتراح الجديد من الوسائل في ضوء تقنيات العصر الحديث ومتطلباته.

المطلب الأول: مشروعية التطوير في المناهج والوسائل

"لقـــد تعرضـــت اهـــتمامات دعاة الصحوة الإسلامية لاستقطاب حاد حول قضية الوســـائل الدعـــوية، وهل يجب أن تكون توقيفية، أم أنه يجوز اختراعها وابتكارها دون خـــوف من مَذَمَّة الابتداع؟ والحق الذي لا مِرْيَةَ فيه أن هذه المسألة من المسائل التي ينبغي ردُّها للكتاب والسنة، واستقراء عمل السلف وسبيلهم مع اعتبار كلام الأئمة المعتبرين من أهل السنة والجماعة"[1].

لقد اشترط العلماء شروطًا لشرعية الوسيلة الدعوية منها:

١- ألا تكون الوسيلة محرمة في ذاتها:

فينبغـــي في الوسيلة الدعوية أن تكون مشروعة في ذاتها؛ وذلك لأن العلماء وإن اتفقوا علـــى أن الوسائل لها حكم المقاصد، فمعلوم: "أن الله تعالى كما تعبدنا بالمقاصد والغايات قـــد تعبدنا كذلك بالوسائل المؤدية إليها، فكما يجب أن تكون الغاية مشروعة، فكذلك يجب أن تكون الوسيلة إليها مشروعة[2].

فلقـــد ســـئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل تاب على يديه جماعة من السكارى،

---

(١) رضا بن أحمد صمدي: ٣٠طريقة لخدمة الدين-دار الوطن-مصر-الطبعة الأولى- (٥٢-٥٣).

(٢) تعرضـــت لتفـــصيل هذه النقطة في كتابي دارسات حول الجماعة والجماعات- مكتبة التابعين- القاهـــرة- الطبعة الثانية- (١٤١٦هـــ-١٩٩٦م)- (١٤٩)، وقد قدم له وقرظه فضيلة الأستاذ الدكتور/ سعود الفنيسان عميد كلية الشريعة سابقًا بجامعة الإمام بن سعود.

ووســيلته في ذلك أنه يجمعهم على السماع المباح، فيلهيهم بذلك عن الشراب فأفتى بأن هذا الرجل جاهل وأن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ غنية[1].

فلــم يبح لهم هذه الوسيلة نظرًا إلى صحة المقصد، وذلك لأن تلك الوسيلة لم تشرع للتعبد بها[2].

وأرى أن ما ذكر عن ابن تيمية في هذا الصدد لا ينبغي أن يفهم منه أنه لا يجوز تغيير المنكر بالوسائل المباحة لصرف الناس عن المنكر، فهذا لا يخالف فيه عاقل.

وذلــك لأن هذه القصة المذكورة عن الإمام ابن تيمية غاية ما تدل عليه أنه رأى أن هــذا الرجل الذي يصرف الناس عن السُّكر بالسماع المباح جاهل لأن ما يفعله لن يؤدي إلى تغـيير المنكــر وتركه، وذلك لأن هذا الفعل لن يؤدي بهم إلى النفرة من الخمر وترك إدمانه، بل سيؤدي بهم إلى إدمان أمر آخر هو السماع، ولعل وصف الإمام ابن تيمية لهذا الرجل بالجهل إنما هو من جهة اعتقاد هذا الرجل أن هذا السماع مباح؛ لأن هذا السماع –غالبًا– إنما هو السماع الصوفي الذي ذمه ابن تيمية وغيره من العلماء لما فيه من مخالفات شــرعية عديدة ترجع إلى الإخلال بآداب الذكر من جهة رفع الصوت والجهر والخضوع بالقول وعدم الخشوع والتضرع مع التمايل والتخنع والتكسر، أو من جهة ما يشتمل عليه مــن المعاني الباطلة كالمغالاة في مدح النبي ﷺ بما يخرجه عن مقام النبوة إلى مقام الألوهية، أو مــن جهــة مــا يصحب ذلك الغناء من آلات اللهو والموسيقى، مع ما ورد في تحريم المعازف.

أو كونه من كلام الفحش والخنا والعشق والفجور الذي لا يجوز سماعه.

فهــذا السماع على هذا النحو إنما يدعو لما يقترن به غالبًا من السكر والشراب فقلما يخلو مجلس طرب من شراب وسكر.

---

(١) انظر: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوى- جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه محمد- دار الرحمة- القاهرة- (١١/٦٢٠) وما بعدها.

(٢) يــراجع كتاب: جماعة المسلمين مفهومها وكيفية لزومها لصلاح صاوي- (ص٧٣)؛ حيث نقل عن ابن القيم والقرافي ما يدل على أن للوسائل حكم المقاصد.

فلعله من هذه الجهة وصف هذا الرجل بالجهل، فهذا الفعل الذي يريد به صدّهم عن السُّكر إنما سيؤدي بهم إلى إدمان فعل آخر يدعو إلى السكر ويحث عليه فيجب تركه من باب سد الذرائع، وإن كان مقصد فاعله لجهله أنه من باب الوسائل التي تأخذ حكم المقاصد.

فلو أنه شغلهم عن هذا السكر بوعظ أو قصص أو ذكر أو تلاوة أو علم أو نحو ذلك لما كان ثمة تردد في إباحة مثل ذلك لكونه مما يزجر المرء عن هذا الفعل المشين لكونه معارضًا له ومضادًا في الطبع منفرًا منه.

ومن ثم فليس ثمة دليل على منع استخدام الوسائل المباحة في الدعوة إلى الله لاسيما الوسائل المحققة لمقاصد الدعوة، والتي لا تنافيها في مقاصدها، ولا تشتمل على مخالفة شرعية.

وهذا لا غبار عليه، ولا يعكر عليه إلا شبهة تعرض لقائل يقول: إن الدعوة إلى الله تعالى عبادة شرعية، وهذه العبادة لا تجوز إلا بما هو مشروع في دين الله تعالى، وذلك لأن الأصل في العبادة التوقف والمنع إلا لما صح به الدليل، ومن ثم فإن الاحتجاج بكون الفعل مباحًا لا يكفي حتى يرد الدليل بمشروعيته في الدعوة إلى الله تعالى.

وهذا كلام وجيه ولكنه يحتاج إلى توجيه حتى لا يساء فهمه، ولا يؤخذ بضيق أفق يضيّق على الدعوة دروبها ومسالكها.

وذلك أننا نقول إن قائل ذلك ينبغي أن تتسع نظرته لأدلة المشروعية فلا تقف عند ما ورد فيه النص من الكتاب والسنة الصحيحة، بل عليه أن يعلم أن من موارد الفقهاء في الاستدلال وإثبات الشرعية العمل بالإجماع والقياس وقول الصحابي والمصلحة المرسلة وغير ذلك مما ذكره الأصوليون في قسم الأدلة الإجمالية للأحكام الشرعية.

٢- المصلحة المرسلة:

ففي مجال الدعوة إلى الله تعالى يمكن التعويل كثيرًا في هذه المسألة -مسألة الوسائل- على المصلحة المرسلة وهي واحد من أهم الأدلة الإجمالية المأخوذ بها في استنباط كثير من الأحكام الشرعية التي لا يوجد فيها نص مباشر من الكتاب أو السنة مع خلوها كذلك

مـــن المعـــارض بمعـــنى أنه لا يوجد في الشرع ما ينص على شرعيتها، ولا ما ينص على تحريمها، مع كونها وسيلة لمنفعة شرعية أو مصلحة دنيوية معقولة المعنى[1].

و لم يقتـــصر عمل الصحابة والتابعين والفقهاء بعدهم في الاستدلال بالمصلحة المرسلة علـــى المنافع والمصالح الدنيوية فقط، بل اتسع ذلك للعمل بها في المصالح الدينية والدعوية ومـــا هي من قبيل التعبد أو ما توصف بأنها عبادات محضة، وذلك كما حدث في مسألة جمـــع القرآن في مصحف واحد، وذلك لأن حاصل المصلحة المرسلة كما بين الشاطبي أنها ترجع إلى حفظ أمر ضروري ورفع حرج لازم في الدين[2].

ومن ثم ينبغي التحقق في الوسيلة الدعوية من أنها تنطبق عليها الشروط والضوابط التي اشترطها الأصوليون للمصلحة المرسلة.

٣- أن ينتفي عنها وصف البدعة.

ونحتاج في هذا المقام أن نبين أولاً حدّ البدعة:

"أمـــا حـــد البدعة فمعروف مشهور، يقول الشاطبي -رحـــمه الله: (وأصل مـــادة "بـــدع" للاختـــراع علـــى غـــير مثال سابق، ومنه قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3] أي مخترعهما من غير مثال سابق متقدم، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّـــنَ الرُّسُلِ﴾[4] أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد بل تقدمني كثير من الرســـل، ويقال: ابتدع فلان بدعة يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق. وهذا أمر بديع، يقال في الشيء المستحسن الذي لا مثال له في الحسن، فكأنه لم يتقدمه ما هو مثله ولا ما يشبهه.

ومن هذا المعنى سميت البدعة بدعة، فاستخراجها للسلوك عليها هو الابتداع، وهيئتها

---

(١) راجـــع في تعريف المصلحة المرسلة وبيان حدها مفصلا: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: الاعتـــصام- ضـــبطه وصححه: أحمد عبدالشافي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية- ١٤١١هـــ-١٩٩١م، (٢/٣٥١) وما بعدها.

(٢) انظر السابق.

(٣) البقرة:١١٧.

(٤) الأحقاف:٩.

هـــي البدعة، وقد يسمي العلم المعمول على ذلك الوجه بدعة: فمن هذا المعنى سمي العمل الذي لا دليل عليه في الشرع بدعة، وهو إطلاق أخص منه في اللغة)[1].

ويقـــول ابن تيمية -رحمه الله- في تعريفها بعبارة موجزة: البدعة هي الدين الذي لم يأمـــر الله به رسوله، فمن دان دينًا لم يأمر الله ورسوله به فهو مبتدع بذلك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[2].

ويقـــول الـــشاطبي: في شـــرح الحد: (وقوله في الحد: "تضاهي الشرعية" يعني أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادة لها من أوجه متعددة:

ويقـــول الـــشاطبي: في شـــرح الحد: "وقوله في الحد: "تضاهي الشرعية" يعني أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادة لها من أوجه متعددة:

مـــنها: وضـــع الحدود كالناذر للصيام قائمًا لا يقعد، ضاحيًا لا يستظل، والاختصاص في الانقطاع للعبادة، والاقتصار من المأكل والملبس على صنف دون صنف من غير علة.

ومـــنها: التزام الكيفيات والهيئات المعينة، كالذكر بهيئة الاجتماع على صوت واحد، واتخاذ يوم ولادة النبي ﷺ عيدًا، وما أشبه ذلك.

ومـــنها: التزام العبادات المعينة في أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة، كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليله.

وثم أوجه تضاهي بها البدعة الأمور المشروعة، فلو كانت لا تضاهي الأمور المشروعة لم تكن بدعة، لأنها تصير من باب الأفعال العادية.

وأيـــضًا فإن صاحب البدعة إنما يخترعها ليضاهي بها السنة حتى يكون ملبسًا بها على الغـــير، أو تكون هي مما تلتبس عليه بالسنة، إذ الإنسان لا يقصد الاستباع بأمر لا يشابه المشروع، لأنه إذ ذاك لا يستجلب به في ذلك الابتداع نفعًا ولا يدفع به ضررًا، ولا يجيبه غيره إليه"[3].

---

(١) السابق- (٢٧/١).

(٢) أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية: الاستقامة- تحقيق: د.محمد رشاد سالم- مكتبة السنة- القاهرة- الطبعة الثانية- ١٤٠٩هـــ- (٥/١).

(٣) الاعتصام- (٢٩/١-٣٠).

ويقول: "وقوله في الحد: "طريقة مخترعة تضاهي الشرعية" يشمل البدعة التَّركة، كما يشمل غيرها، لأن الطريقة الشرعية أيضًا تنقسم إلى ترك وغيره.. وكما يشمل الحد الترك يشمل أيضًا ضد ذلك. وهو ثلاثة أقسام:

قسم الاعتقاد، وقسم القول، وقسم الفعل؛ فالجميع أربعة أقسام.و بالجملة؛ فكل ما يتعلق به الخطاب الشرعي يتعلق به الابتداع"[1].

وقد بين الشاطبي أن أصل الابتداع إنما يرجع إلى الرأي المذموم "وهو المبني على غير أساس، والمستند إلى غير أصل من كتاب ولا سنة، لكنه وجه تشريعي فصار نوعًا من الابتداع، بل هو الجنس فيها، فإن جميع البدع إنما هي رأي على غير أصل، ولذلك وصفت بوصف الضلال. ففي الصحيح عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله لا ينتزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يُستفتون فيُفتون برأيهم، فيَضلون ويُضلون".. وعن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: (من أحدث رأيًا ليس في كتاب الله، و لم تمض به سنة من رسول الله ﷺ، لم يدر ما هو عليه إذا لقي الله عز وجل"..

إلى أن قال: (وقد اختلف العلماء في الرأي المقصود بهذه الأخبار والآثار. فقد قالت طائفة: المراد به رأي أهل البدع المخالفين للسنن، لكن في الاعتقاد كمذهب جهم وسائر مذاهب أهل الكلام لأنهم استعملوا آراءهم في رد الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ، بل وفي رد ظواهر القرآن لغير سبب يوجب الرد ويقتضي التأويل كما قالوا بنفي الرؤية نفيًا للظاهر بالمحتملات، ونفي عذاب القبر، ونفي الميزان والصراط، وكذلك ردوا أحاديث الشفاعة والحوض -إلى أشياء يطول ذكرها- وهي مذكورة في كتب الكلام.

وقالت طائفة: إنما الرأي المذموم المعيب الرأي المبتدع وما كان مثله من ضروب البدع، فإن حقائق جميع البدع رجوع إلى الرأي، وخروج عن الشرع وهذا هو القول الأظهر، إذ الأدلة المتقدمة لا تقتضي بالقصد الأول من البدع نوعًا دون نوع بل ظاهرها تقتضي العموم في كل بدعة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة، كانت من

(١) السابق (٣٤/١).

الأصول أو الفروع..

"وقالت طائفة وهم فيما زعم "ابن عبدالبر" جمهور أهل العلم: الرأي المذكور في هذه الآثار هو القول في أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون، والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات، ورد الفروع والنوازع بعضها إلى بعض قياسًا، دون ردها إلى أصولها والنظر في عللها واعتبارها..... وهذا القول غير مخالف لما قبله، لأن من قال به قد منع من الرأي وإن كان غير مذموم، لأن الإكثار منه ذريعة إلى الرأي المذموم، وهو ترك النظر في السنن اقتصارًا على الرأي، وإذا كان كذلك اجتمع مع ما قبله، فإن من عادة الشرع أنه إذا نهى عن شيء وشدد فيه منع ما حواليه.... وما تقدم من الأدلة يبين لك عظم المفسدة من القول بالقياس وإن كان جاريًا على الطريقة، فامتنع جماعة من الفتيا به قبل نزول المسألة)[1].

ثم ذكر بعض الآثار في التشديد في النهي عن الرأي منها ما رواه عن مالك قال: (وقال مالك بن أنس: قبض رسول الله ﷺ وقد تم الأمر واستكمل، فإنما ينبغي أن نتبع آثار رسول الله ﷺ ولا نتبع الرأي، فإنه متى اتبع الرأي جاء رجل آخر أقوى في الرأي منك، فاتبعته، فأنت كلما جاء رجل عليك اتبعته، أرى هذا لا يتم.

ثم ثبت أنه كان يقول برأيه، ولكن كثيرًا يقول بعد أن يجتهد رأيه في النازلة: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[2] ولأجل الخوف على من كان يتعمق فيه لم يزل يذمه ويذم من تعمق فيه: فقد كان ينعى على أهل العراق لكثرة تصرفهم به في الأحكام، فحكى عنه في ذلك أشياء من أخفها قوله: الاستحسان تسعة أعشار العلم ولا يكاد المغرق في القياس إلا يفارق السنة.

والآثار المتقدمة ليست عند مالك مخصوصة بالرأي في الاعتقاد، فهذه كلها تشديدات في الرأي وإن كان جاريًا على الأصول، حذرًا من الوقوع في الرأي غير الجاري على الأصل. .

---

(١) السابق- (١/٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧).

(٢) الجاثية:٣٢.

ولابن عبدالبر -هنا- كلام كثير كرهنا الإتيان به.

والحاصل من جميع ما تقدم أن الرأي المذموم ما بنى الجهل واتباع الهوى من غير أن يرجع إليه، وما كان منه ذريعة إليه وإن كان في أصله محمودًا، وذلك راجع إلى أصل شرعي؛ فالأول داخل تحت حد البدعة وتنزل عليه أدلة الذم، والثاني خارج عنه ولا يكون بدعة أبدًا"[1].

فتبين لنا بذلك الفرق بين الرأي الذي هو بدعة وهو ما بني على الجهل واتباع الهوى من غير أصل يرجع إليه، أما ما رجع إلى أصل شرعي فلا يدخل تحت البدعة، ولا يلحقه الذم بحال أصاب صاحبه أم أخطأ، بل إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر، مادام كان صاحبه متحريًا للسنة، غير مقصر في طلب الحق، آخذًا بوسائله سالكًا سبله ومسالكه المشروعة.

يقول شيخ الإسلام: (فالمجتهد المستدل من إمام وحاكم وعالم وناظر ومُفت وغير ذلك إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع كان هذا هو الذي كلفه الله إياه. وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا اتقاه ما استطاع. ولا يعاقبه الله البتة خلافًا للجهمية المجبرة، وهو مصيب بمعنى أنه مطيع لله لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر وقد لا يعلمه، خلافًا للقدرية والمعتزلة)[2].

ويقول أيضًا: (والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعملية كما قد بسط في غير موضع، كمن اعتقدت ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما يعرضه ويبين المراد ولم يعرفه)[3].

وفي كتاب الاستقامة لابن تيمية:

فصل: فيما اختلف فيه المؤمنون من الأقوال والأفعال في الأصول والفروع، قال فيه: (ومن هذا الباب ما هو من باب التأويل والاجتهاد والذي يكون الإنسان مستفرغًا فيه

---

(١) السابق- (١/٧٨، ٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/٢١٦، ٢١٧).

(٣) السابق (٢٠/٣٣-٣٦).

وسعه علمًا وعملاً. ثم الإنسان قد يبلغ ذلك ولا يعرف الحق في المسائل الخبرية الاعتقادية وفي المسائل العملية الاقتصادية، والله سبحانه قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...﴾[1]...

وإذا كان كذلك فينبغي أن يُعلم أن للقلوب قدرة في باب العلم والاعتقاد العلمي، وفي باب الإرادة والقصد، وفي الحركة البدنية أيضًا.

فالخطأ والنسيان هو من باب العلم يكون: إما مع تعذر العلم عليه، أو تعسره عليه. والله قد قال: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[3].

وإذا كان كذلك فما عجز الإنسان عن علمه واعتقاده حتى يعتقد ويقول ضده خطأً أو نسيانًا، فذلك مغفور له، كما قال النبي ﷺ: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر"، وهذا يكون فيما هو من باب القياس والنظر بعقله ورأيه، ويكون فيما هو من باب النقل والخبر الذي يناله بسمعه وفهمه وعقله، ويكون فيما هو من باب الإحساس والبصر الذي يجده ويناله بنفسه[4].

(فهذه المدارك الثلاثة قد يحصل للشخص[5] علم يقطع به، ويكون ضروريًا في حقه، مثل ما يجده في نفسه من العلوم الضرورية، ومثل ما سمعه من النبي ﷺ، أو من المخبرين له الصادقين خبرًا يفيده العلم، كالخبر المتواتر الذي يفيده العلم تارة بكثرة عدد المخبرين، وتارة فصفاتهم، وتارة بهما، وغير ذلك مما يفيد العلم.

وقد يكون مما علمه[6] بآثاره الدالة عليه، أو بحكم نظره المساوي له من كل وجه، أو

---

(١) البقرة:٢٨٦.

(٢) الحج:٧٨.

(٣) البقرة:١٨٥.

(٤) الاستقامة (١/٢٦، ٢٨، ٢٩).

(٥) في الأصل: الشخص، وهو تحريف. اهـ

(٦) في الأصل: عمله، وهو تحريف.

الذي يدل على الآخر بطريق الأولى والتنبيه ونحو ذلك. ومع هذا فتكون هذه العلوم عند غيره غير متيقنة مع اجتهاده لدقة العلوم أو خفائها، أو لوجود ما يعتقد المعتقد أنه يعارض ولا يكــون معارضًا في الحقيقة، فيشتبه بالمعارض، لاشتباه المعارض، أو لاشتباه المعاني، أو لاشتراك الألفاظ.

فهــذا مــن أعظــم أســباب اخــتلاف بني آدم من المؤمنين وغيرهم، ولهذا نجد في المختلفــين كل طائفة تدّعي العلم الضروري. فما يقوله إما من جهة القيــاس والنظــر، وإما من جهة السماع والخبر، وإما من جهة الإحساس والبصــر. ولا تكــون واحــدة مــن الطائفــتين كاذبــة بل صادقة، لكن يكون قد أدخل مع الحق ما ليس منه في النفي والإثبات لاشتباه المعاني واشتراك الألفاظ، فيكون حينئذ ما ينفيه هذا يثبته الآخر. ولو زال الاشتباه والاشتراك زال الخلاف التضادي)[1]. فمن مجموع ما نقلنا آنفًا عن الشاطبي وابن تيمــية –رحمهمــا الله– يتبين لنا الفرق الكبير بين البدعة والاجتهاد الخطأ، وبين المبتدع والمجتهد المخطئ.

فالمبتدع كما يقول الشاطبي (معاند للشرع ومشاق له)[2]. وأنه: (قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع.. حيث شرَّع مع الشارع، وفتح للاختلاف بابًا، ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع...)[3].

أما المجتهد المخطئ فهو كما بين ابن تيمية أنه من اجتهد واستدل وأفرغ وسعه فاتقى الله ما استطاع، إلا أنه قد جانبه الصواب لخطأ أو نسيان، كمن اعتقد ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث وكان لذلك ما يعارضه ويبين المراد ولم يعرفه، أو يكون مما خفي عليه بعد البحث والطلب.

فــيقول ابن تيمية: (ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للامة وإن كان ذلك في المســائل العلمية، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة. وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم

---

(١) الاستقامة– (١/٢٩–٣٠).

(٢) الاعتصام –(١/٣٧).

(٣) السابق– (١/٣٨).

الخمـــر لكونه نشأ بأرض جهل مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحـــسب مـــا أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب إمكانه هو أحق بأن يتقبل الله حسناته، ويثيبه على اجتهاداته، ولا يؤاخذه بما أخطأ، تحقيقًا لقوله: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1])[2].

وهـــذا العـــذر ليس مقصورًا على دقائق العلم وحدها إذ يقول ابن تيمية: (فلما طال الـــزمان على كثير من الناس خفي ما كان ظاهرًا لهم، ودق على كثير من الناس ما كان جلـــيًا لهـــم، فكثر في المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين يغفر لهم خطاياهم، ويثيبهم على اجتهادهم)[3].

ويقـــول أيـــضًا: (إن ما ثبت قبحه من البدع وغير البدع من المنهي عنه في الكتاب والسنة، أو المخالف للكتاب والسنة إذا صدر عن شخص من الأشخاص، فقد يكون على وجه يعذر فيه، إما لاجتهاد أو تقليد يُعذر فيه، وإما لعدم قدرته)[4].

وفي كلامه عن بدع المواسم من تخصيص وقت بصوم أو صلاة، قال: (لا ريب أن من فعلها متأولاً مجتهدًا أو مقلدًا كان له أجر على حسن قصده وعلى علمه، من حيث ما فيه مـــن المـــشروع، وكان ما فيه من المبتدع مغفورًا له، وإذا كان في اجتهاده أو تقليده من المعـــذورين، وكـــذلك ما ذكر فيها من الفوائد كلها، إنما حصلت لما اشتملت عليه من المـــشروع في جنسه، كالصوم والذكر، والقراءة، والركوع، والسجود، وحسن القصد في عـــبادة الله وطاعـــته ودعائه، وما اشتملت عليه من المكروه،انتفى بموجبه بعفو الله عنه، لاجتهاد صاحبها أو تقليده)[5].

إلا أن ابن تيمية مع ذلك وإن بين أن المجتهد المخطئ معذور مأجور –إلا أنه نبه على

---

(١) البقرة:٢٨٦.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/١٦٥-١٦٦).

(٣) السابق- (١٣/٦٥).

(٤) السابق- (١٠/٣٧٠، ٣٧٢).

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم- (٢/٦٠٩).

أنه لا يجوز اتباعه فيما أخطأ فيه لمن علم الصواب في خلافه، وإن كان القائل أو الفاعل مأجورًا أو معذورًا[1]؛ لأن كونه معذورًا أو مأجورًا لا يخرجه عن كونه عاملاً بالبدعة، فهذا العامل بالبدعة على سبيل الاجتهاد الخطأ يكون حكمه حكم المجتهد المخطئ، من حيث كونه معذورًا مأجورًا، وكلاهما كذلك لا يجوز اتباعه لمن عرف أن الحق بخلاف ذلك.

فالخطأ في الاجتهاد وارد على الجميع ولم يسلم منه الصحابة، ولا الصديقون ولا الشهداء والصالحون فيقول ابن تيمية: (فأما الصديقون، والشهداء والصالحون فليسوا بمعصومين. وهذا في الذنوب المحققة. وأمَّا ما اجتهدوا فيه: فتارة يصيبون، وتارة يخطئون. فإذا اجتهدوا فأصابوا لهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطأوا فلهم أجر على اجتهادهم، وخطؤهم مغفور لهم)[2].

ويقول في موضع آخر: (فالغرض أن يعرف الدليل الصحيح، وإن كان التارك له: قد يكون معذورًا لاجتهاده، بل قد يكون صديقًا عظيمًا، فليس من شرط الصدِّيق أن يكون قوله كله صحيحًا، وعمله كله سنة.

فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكلية، إذا خرج غيره عن ذلك، لما رآه في طريق الناس من الظلمة)[3].

والحقيقة أن ملاك الأمر في هذا الباب، وهو العمدة في التفريق بين البدعة والاجتهاد الخطأ، وبين المبتدع والمجتهد المخطئ أو العامل بالبدعة ممن قد يشارك أهل البدع في بعض بدعهم لخطأ في النظر والاستدلال فالعمدة في ذلك، هو أن ينظر إلى منهج الاستدلال والنظر الذي يسلكه القائل بهذه البدعة والمتلبس بها، فإن كان منهجه في النظر والاستدلال هو منهج أهل البدع والضلال والتفرق، فوصف المبتدع حري به، ووجوب اجتنابه والافتراق عنه خليق بنا، وإن كان منهجه في النظر والاستدلال هو منهج أهل

---

(١) السابق- (٢/٥٨).

(٢) السابق- (٢/١٨٢).

(٣) مجموع الفتاوى- (١٠/٣٦٤، ٣٦٥).

الـسنة والجماعـة، خاصـة وإن كان موافقًا لهم في الغالب ملازمًا لجماعتهم مثنيًا على طـريقتهم، فلـيعلم أنه ما قصد إلى البدعة قصدًا، بل إنما وقع فيها خطأ، فمثل هذا حقه العفو إذ إن العصمة منتفية عن العباد إلا من عصم الله من أنبيائه ورسله.

والدليل على ذلك أن أهل السنة ما فتئوا ينكر جمهورهم على بعض المنتسبين إليهم من جلّـة العلمـاء بعـض زلات لهم دون أن يحكموا عليهم بالخروج عن دائرة أهل السنة والجماعـة، ودون أن يخـرجوهم إلى دائرة الفرق وأهل الضلالة نظرًا لما عرف عنهم من التزامهم المجمل بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح ولزوم طريقتهم ومنهجهم في النظر والاستدلال.

وذلـك كما أنكروا على أبي حنيفة، وكثير من أتبعه من المتقدمين،وذلك كما أنكروا علـى كل من الإمام النووي، وابن حجر وخلق كثير ممن بعدهم من المتأخرين مسائل لا تحصى كثرة مما عُدَّت من الأصول كمسائل في الإيمان والصفات وغير ذلك و لم يخرجهم ذلـك مـن دائرة أهل السنة والجماعة، ولا حكموا عليهم بذلك بوصف الفرق الضالة الخارجـة عـن الصراط. وتقدم عن الشاطبي –رحمه الله– قوله: (وأما الجزئي فبخلاف ذلك، بل يُعد وقوع ذلك من المبتدع له كالزلة والفلتة) اهـ.

"ومن المعلوم أن من أهم أمارات البدعة عدمُ ورود الدليل الشرعي على اعتبار أصلها أو وصـفها فيظن المبتدع أنه بنيته الحسنة في اختراعها قد استزاد بابا للخير وانفرد بطريق إلى الله قـد هجرها السالكون، فهذه هي البدعة الأصلية، التي لم يعتبرها الشرع بأي وجه مـن الوجوه، فإذا ما اعتبر الشرع أصلها دون وصفها (كالذكر الجماعي دُبُرَ كل صلاة فَـرْض) فهذه البدعة الإضافية وهي التي شهد الدليل على جواز حقيقتها كمطلق الذكر ولكـنه لم يـشهد على اعتبار وصفها ككون هذا الذكر جماعيا ودبر كل صلاة فرض، فجمهور أهل العلم على أن مَذَمَّة الابتداع تلحقها أيضا، ويُفهم من نقل الشاطبي –رحمه الله– لآثـار الـسلف في هـذا الباب عدم اختلافهم في ذم البدعة الإضافية أيضًا، ولولا الاحتياط في نقل الاجماع لاعتبرته إجماعًا عن السلف.

وعُلِمَ بالاستقراء أن الأوصاف التي بابتداعها تكون البدعة إضافية هي الأوصاف التي

تـوجد بها العبادة وهي: ١-المقدار، ٢-الكيف، ٣-الزمان، ٤-المكان، ٥-السبب (الوسيلة)، ٦-الغاية (أي النية)، ٧-الجنس (الماهية).

والمعنى أن هذه الأوصاف متى لم يرد باعتبارها دليل شرعي تكون العبادة بذلك بدعة إضافية، وما يعنينا في هذا المقام هو الوسيلة، إذ تقرر في علم أصول الفقه أن الوسائل لها أحكام المقاصد، والمراد دخول الوسائل في إطار شرعية المقاصد، وفرعوا على هذا الأصل أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وأن ما لا يتم الحرام إلا به فهو حرام"[1].

وبهذا نستطيع أن نتبين حدّ البدعة في الأقوال والأفعال وكذلك في الوسائل الدعوية التي لها حكم المقاصد فهي لابد أن تخلو من وصف البدعة وشروطها.

أما ما كان واقعًا على سبيل الاجتهاد الخطأ فلا يوصف بالبدعة ولا يوصف صاحبه بالمبتدع بل هو مخطئ مأجور إن شاء الله، ولكن والحال هذه لا يجوز اتباع الخطأ وتقليده لمن تبين له الصواب بالدليل الشرعي الصحيح، وإن كان لا يجوز له رمي المجتهد المخطئ المخالف له بالبدعة والضلالة، إن كان الأمر مما يسوغ الاختلاف فيه، وأحسب أن أمر الوسائل من هذا الباب، فإن هذه الوسائل إما أن يأتي الدليل الصحيح بمشروعيتها فهذا لا خلاف فيه، وإما أن يأتي الدليل على حرمتها والنهي عنه فهذه لا خلاف وجوب اجتنابها كذلك.

وإنما يقع الاجتهاد والاختلاف والخطأ المغفور من المجتهد بشروطه في النوع الثالث من الوسائل وهي ما لم يأت في الشرع ما يدل على إلغائه أو اعتباره، فمن ثم يختلف الناس فيها فمنهم من يجعلها من قبيل المصالح المرسلة، ومنهم من يحكم عليها بالابتداع، وقد سبق بيان الأصل الذي ترجع إليه المصلحة المرسلة، والأصل الذي ترجع إليه البدعة، والفارق بينها وبين المصلحة المرسلة وبين الاجتهاد الخطأ، فمن ثم يمكن التفريق بين ما يلتبس على الداعي من الوسائل من جهة الحل أو الحرمة.

---

(١) ٣٠ طريقة لخدمة الدين- (٥٣-٥٤).

ومـــن ثم نحـــتاج "إلى تقرير أمرين: الأول أن هناك فرقًا بين البدعة وبين المصلحـــة المرســلة والاستحـــسان عـــند من يقول بهما، يقول الشاطبي –رحمه الله: فإن كثيرًا من الـــنـــاس عـــدُّوا أكثـــر المصالح المرسلة بدعا ونسبوها إلى الصحابة والتابعين، وجعلوها حجـــــة فـــيما ذهـــبوا إليه من اختراع العبادات.. ثم أخذ الشاطبي –رحمه الله– يـــبين أصـــل المصلحة المرسلة وأن الاعتداد بها يرجع إلى اعتبار المناسب الذي لم يشهد له أصل معين ثم ساق عشرة أمثلة جرت في عهد الصحابة خرجت على جهة المصلحة المرسلة و لم تعتـــبر مـــن البدع المحدثة ككتابة المصحف وتضمين الصناع ونحو ذلك، وبين أن ضابط المـــصلحة المرســـلة أنها لا تنافي أصلا من أصوله ولا دليلا من دلائله وأن عامة النظر فيها (المـــصلحة المرســـلة) إنما هو فـيما عقل معناه وجرى على ذوق المناسبات المعقولة التي إذا عُرِضَـــتْ على العقول تَلَقَّتْها بالقبول فلا مَدْخَلَ لها في التَّعَبُّدات ولا ما جرى مُجْرَاها من الأمـــور الشرعية؛ لأن عامة التعبدات لا يُعْقَل لها معنى على التفصيل كالوضوء، والصلاة والصيام.

الثاني: أنَّ حاصل المصلحة المرسلة –كما قال الشاطبي– يرجع إلى حفظ أمر ضروري ورفـــع حـــرج لازم في الـــدين، وأيضًا مرجعها إلى حفظ الضروري من باب ما لم يتم الواجب إلا به.. فهي إذن من الوسائل لا من المقاصد.. ثم قال: وأما كونها في الضروري من قبي الوسائل وما لا يتم الواجب إلا به"[1].

"والـــذي لا شـــك فيه أن رسول الله ﷺ لم يَنُص على بدعية كل البدع بأن عَيَّنها أو بيـــنها، لاســـتحالة ذلـــك مع تمادي الزمان وتولد المحدثات الكثيرة، فكان تنبيه ﷺ على كليات القضية وأصول الابتداع ليقيش السُّنِّيُّ بعد ذلك ويتحرى الاتباع كيفما تيسر.

والـــذي لاشـــك فيه أيضًا أن جانب الابتداع مبني على الاحتياط لا التساهل، فإذا تفـــاوت القول في قضية بين تبديعها وعدم تبديعها فالأحوط في جَنْبِ المتحرِّي للسنة أن يزهد فيها وأن يلتمس البراءة من الابْتداع ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

---

(١) السابق– (٥٤–٥٥).

لكـــن سمات الفعل المبدع وملامحه قد تختلط بملامح وسمات الفعل المشروع، ويتحاور ذلك مع عدم وجود دليل خاص على التبديع، بل قد يتضافر مع ذلك اجتماع جمهرة من أهـــل العلـــم على اعتبار مشروعية ذلك الفعل في ظل تبديع الآخرين، فوجب عندئذ أن يأخذ الدعاة حِذرَهم ويسلكوا سبيل الأناة في تناول هذا الفعل، وألا تأخذهم العزة بالإثم في سماع الهدى وتفيؤ ظل الشريعة.

وفي المقابل لابد أن يتهادن الدعاة فيما اختلفوا فيه من الحق، وأن يتركوا التهاجر عند كـــل نازلة تنزل بالمسلمين، وألا يفزعوا إلى التبديع سلاحا يشهرونه عندما يعييهم الدليل، فـــإن شـــأن العلماء التريث فيما لم يستبن لهم حتى يستجلوا غامضة فيكون الإنكار على بصيرة من الهدى والبينات"[1].

ومن خلال ما سبق نستطيع أن نلخص الفارق بين البدعة والمصلحة المرسلة بالآتي:

١-أن المصلحة المرسلة تندرج تحت أصل شرعي وهو حفظ الضروري ورفع الحرج، ومـــا لا يتم الواجب إلا به ونحو ذلك، أما البدعة فهي لا تندرج تحت أصل شرعي وليس لها في الشرع ما يشهد لها، ومن ثم فما كان من الوسائل من باب حفظ الأمور الضرورية، أو من باب رفع الحرج، أو من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو مشروع وليس من باب البدعة ما لم يثبت في الشرع نص بمنعه.

٢-أن المصلحة المرسلة من باب الوسائل كما رجح الشاطبي[2] ومن ثم فهي لها حكم المقاصـــد، بخـــلاف الـــبدع فهي ليس لها أصل تندرج تحته، ومن ثم لا يجوز التذرع فيها بالمقاصد.

"وبـــذلك نعلـــم أن الوسائل الدعوية يجب أن تخضع لهذا التقدير العلمي، وألا تكون خاضـــعة في منهج الدعاة إلى الهوى أو الطبع أو ما استقر في أعرافهم الدعوية، فلا حاكم بينهم إلا شرع الله تبارك وتعالى.

---

(١) السابق- (٥١-٥٢).

(٢) انظر: الاعتصام- الباب الثامن.

ولكن قد يختلف العلماء في تبديع مسألة، فماذا يكون موقف الداعية من هذه المسألة؟
والجـــواب أنـــه لابد من التفريق بين ما هو بدعة في أصول الدين وفروعه، فالابتداع في أصول الدين دائر بين الفسق والكفر والضلالة المحضة، أما الابتداع في فروع الدين إن كان في أصـــول المسائل -أي المقاصد- كأصول العبادات مثل الصلاة والذكر ونحو ذلك فهي حـــرية بوصـــف الضلال الذي ألصقه الرسول ﷺ بالبدعة. أما إذا كانت فيما دون ذلك فليس الخطب فيها كغيرها.

وقـــد قرر الإمام الشاطبي -رحمه الله- أن أحكام البدع ليست على رتبة واحدة وأن مـــنها الـــبدع المحرمة ومنها البدع المكروهة وأن المحرم منها ينقسم إلى صغير وكبير، وإذا تقـــرر ذلـــك كان تصرف الداعية مع تلك المسألة المختلف فيها بِحَسَب مكانتها وجلالة أمرها.

ثم إن البدعة تنشأ على أربعة أوجه -كما قال الشاطبي:

أحدها: وهو أظهر الأقسام أن يخترعها المبتدع.

والثاني: أن يعمل بها العالم على وجه المخالفة فيفهمها الجاهل مشروعة.

الـــثالث: أن يعمـــل بها الجاهل مع سكوت العالم عن الإنكار وهو قادر عليه، فيفهم الجاهل أنها ليست بمخالفة.

الرابع: من باب الذرائع، وهي أن يكون العمل في أصله معروفًا إلا أنه يتبدل الاعتقاد فـــيه مع طول العهد. ثم يقول الشاطبي -رحمه الله: إلا أن هذه الأقسام ليست على وزن واحد، ولا يقع اسم البدعة عليها بالتواطؤ بل هي في القرب والبعد على تفاوت. فالأول هو الحقيق باسم البدعة فإنها تؤخذ علة بالنص عليها، ويليه القسم الثاني ثم الثالث فالرابع. قال: وأما القسم الثاني والثالث فالمخالفة فيه بالذات والبدعة من خارج، إلا أنها لازمة لها لزوما عاديا، ولزوم الثاني أقوى من لزوم الأول.

وقـــد ظهر لي في بعض المسائل أنها من البدع التي لا يجوز إقرارها، مثل إمساك ورقة فـــيها أسماء أشخاص عند ذبح الأضحية وذكر هذه الأسماء عند الذبح، فلما راجعت فيها الـــشيخ العلامـــة ابن باز -رحمه الله- ردَّ في فتوى مكتوبة لدي أن هذا ليس ببدعة وأنه

يشهد له أصل مثل قوله ﷺ عند ذبح أضحيته: "اللهم هذا عن محمد وآل محمد".

فعلمت حينها أن أمر التبديع ينبغي عدم التسرع فيه والهجوم على أحكامه. وقد استبان لنا مما سبق أن الداعية ينبغي أن يتصف بما يلي:

أولا: الإلمام بالقواعد الأصولية التي تحكم مسائل البدعة والتبديع.

ثانيا: أن يأخذ في الاعتبار تفاوت البدعة في مراتبها.

ثالثا: ألا يتسرع في تبديع مسألة إلا بعد البحث التام لجوانبها ومراجعة أهل العلم بها.

رابعًا: أن يتسم بالحكمة في التعامل مع المخالف (المبتدع).

وقد حَرِصْتُ أن أضع هذه القواعد وأن أُحَرِّرَها مُجافيا التحيزَ لأحد، مفضلا عدم التفصيل وضرب الأمثلة حتى لا يتكئ على هذه التفاصيل متكئ فيحسب نفسه أولى بكلامي من غيره، وكان هدفي (الذي يجب أن يعلم) أن ينضبط الدعاة بالقسطاس المستقيم وألا يُشَوِّهوا الدين بالتوسُّع في ابتكار الوسائل الدعوية المبتدعة، وألا يجوروا على بعضهم إذا حصل الخلاف في بعض المسائل والله تبارك وتعالى هو المسئول أن يصلح أحوال المسلمين"[1].

٤- أن تكون محققة للمقصد الدعوي أو معينة على تحقيقه:

فيشترط لمشروعية اتخاذ الوسيلة الدعوية أن تكون محققة للمقصد الدعوي أو معينة على تحقيقه، وذلك بالشروط والضوابط السابقة، وإلا فإن كل وسيلة لا تحقق مقصود الدعوة فاتخاذها محض عبث، ينبغي التنزه عنه توفيرًا للجهود والأوقات والنفقات.

٥-ألا تتعارض مع مقصد من المقاصد الشرعية:

ينبغي ألا تتعارض الوسيلة الدعوية مع مقصد من مقاصد الشرع، فعلى سبيل المثال إذا كان من المقاصد الشرعية ترك المعاصي، وتقوى الله تعالى فيكون كل وسيلة من الوسائل تؤدي إلى عكس هذا المقصود وسيلة ممنوعة ومحرمة.

---

(١) ٣٠طريقة لخدمة الدين- (٥٧-٥٩).

ومن الأمثلة على ذلك ما يقام من الحفلات الراقصة الماجنة التي يدعونها -بزعمهم- بالحفلات الخيرية، حيث يؤتى فيها براقصة مشهورة، أو مغنية مشهورة أو فرقة راقصة ونحو ذلك من المحرمات بقصد جمع التبرعات الخيرية لصالح المرضى أو للمنكوبين أو لأسر الضحايا أو لمساعدة المجاهدين ونحو ذلك فإذا اعتبرنا جمع التبرعات للعمل الخيري عملاً من أجل أعمال الدعوة إلى الله، فإن اتخاذ هذه الوسائل المحرمة يجعل هذا العمل غير مشروع لاشتماله على وسيلة محرمة لا يتحقق إلا من خلالها، فمما هو معلوم وثابت أن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

فمن ثم لا يجوز جمع التبرعات لأعمال خيرية دعوية بمثل هذه الوسائل المحرمة.

ومن ثم نستطيع أن نجمل الشروط والضوابط التي تباح بها الوسيلة الدعوية بالآتي:

١-أن تكون الوسيلة مباحة في ذاتها.

٢-أن يتحقق فيها ضابط المصلحة المرسلة.

٣-أن ينتفي عنها وصف البدعة.

٤-أن تكون محققة للمقصد الدعوي، أو معينة على تحقيقه.

٥-ألا تتعارض مع مقصد من المقاصد الشرعية.

المبحث الثاني: الواقع المعاصر وعوامل التطور:

أخذ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه سبات عميق شمل جميع مناحي الحياة منذ القرن العاشر الهجري؛ فهو "أول قرون الخمود والتقليد والمحاكاة، وترى هذا الخمود عامًا شاملاً للعلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم، فلا تجد في كتب التراجم التي ألفت للعصور الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقري، أو النابغة، أو المحقق على الأقل، أو من جاء في فن من الفنون بشيء طريف مبتكر، أو زاد في العلم زيادة حسنة، إذا استثنينا بعض الأفراد في أطراف العالم الإسلامي"[1].

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- مطابع علي بن علي- الدوحة- الطبعة العاشرة (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م)- (ص١٦٦).

ولرصد التغيرات التي طرأت على العالم الإسلامي يتحتم علينا أن نضع العالم الإسلامي تحت المجهر لنستكشف الأدواء التي تفشت فيه، وجعلته كالرجل المريض العاجز، حتى تتجلى لنا العوامل المؤثرة في هذا التغير.

وباستقراء تاريخ العالم -بما فيه العالم الإسلامي- نجد هناك تحولات شديدة أثرت في مجريات الأحداث والأمور، ولم يكن العالم الإسلامي بمنأى عن تلك التأثيرات.

أ-المؤثرات الخارجية:

حدث تبادل لمواقع القيادة بين العالم الإسلامي والغرب، لقد كان العالم الإسلامي هو الهادي للبشرية في حيرتها الروحية، وكان آخذًا بزمام العقل، وإمامًا للتفكير العلمي السليم، وهذا يعني أن حضارته كانت حضارة متوازنة شاملة، معنية بالروح والمادة معًا، ولا تضخم جانبًا وتهمل الآخر. ولكن حدث قصور في فهم المسلمين ونظرتهم للحياة أدى بهم إلى اعتزال قيادة البشرية على ما سنبينه. وفي هذه الأثناء هب الغرب من رقدته التي تطاولت على مدى قرون، نافضًا عنه غبار الجهل والتخلف حتى تحولت عجلة الحضارة من الشرق مولية وجهها نحو الغرب، وترك العالم الإسلامي عرشه الذي كان متوجًا عليه ليحل محله الغرب.

لقد أصاب الغرب أحداث غيرت مجرى التاريخ عندهم؛ حيث كانت هذه الأحداث كالبراكين الثائرة، والطوفان الهادر الذي يغير معالم كل شيء أمامه... لقد زُلزل الغرب من جميع أركانه.

لقد كان التغير عنيفًا ولم يكن متدرجًا، وقد شمل كل المجالات الدينية والعلمية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

لقد كان ثورة شاملة حاولت تحطيم كل القواعد القديمة وإحلال قواعد جديدة محلها.

١-التغير الديني (الثورة على الكنيسة):

لم يكن الدين في الغرب دينًا ربانيًا وقائدًا روحيا يربي الشعوب على الإيمان، وينير لها طريقها ليوصلها للسعادة الأبدية في جناب رب العالمين، ولكنه دين محرف "من صنع

الكنيسة الأوربية لا صلة لها بالأصل المنزل، الذي أرسل المسيح ليبلغه لبني إسرائيل: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1]"[2].

لم يكن دينا بقدر ما كان سلطة كنسية يعلوها البابا، جعلت لنفسها حق تفسير الدين ونصوصه، وأنه لا أحد أقدر منهم على فهم النصوص، بل إن في الدين أسرارًا لا يفهمها سواهم، وكل من يخرج عن هذا التفسير يكون قد خرج على إرادة الرب.

وقد تدخلت الكنيسة في كل شيء وأقحمت نفسها فيما لا قبل لها به تحت اسم الدين، فهي إن أنعمت على أحد فباسم الدين، وإن حرمت أحدًا فباسم الدين.

فلقد نافست الكنيسة متمثلة في سلطة البابوات سلطة الأباطرة، ووصل بها الأمر أن أعلنت حرمان بعض الأباطرة من رحمة الكنيسة، وهذا يعني سحب السلطة الزمنية من تحت أقدامهم[3].

"ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقله الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها، وألفوا في ذلك كتبًا وتآليف، وسموا هذه الجغرافية —التي ما أنزل الله بها من سلطان: الجغرافية المسيحية (christian topography) وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها.... ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم —يقصد محاكم التفتيش- يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفًا أحياء، كان منهم

---

(١) آل عمران:٤٩.

(٢) محمد قطب:مذاهب فكرية معاصرة- دار الشروق- القاهرة- الطبعة الثامنة- (١٤١٤هـ-١٩٩٣م)- (ص٩).

(٣) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- (ص١٨٩-١٩٠)- مذاهب فكرية معاصرة- (ص٤٣-٤٧)- سفر بن عبدالرحمن الحوالي: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة- مطابع أم القرى- الطبعة الأولى- (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م)- (ص١٢٨) وما بعدها.

العـــالم الطبيعـــي المعروف برونو، نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمـــت عليه بالقتل، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعني أن يحرق حيا، وكذلك كان.

وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غليلو (Galilio) بالقتل؛ لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس"[1].

كـــل ما سبق أدى إلى نشوء صدام عنيف بين الكنيسة والعلم انتهى في نهاية المطاف بالخـــروج على الكنيسة، واعتبارها سبب التخلف والجمود الحاصلين في المجتمع الأوربي، وأنها راعية الخرافة والجهل.

وكانت الثورة على الكنيسة -رغم طغيانها على جميع المستويات- محصورة في طبقتي الأباطـــرة والعلمـــاء، وبعد الثورة الفرنسية ١٧٨٩م تجاوزت الثورة على الكنيسة هاتين الطبقتين إلى القاعدة الشعبية[2].

لقد قابلت تلك الثورة تطرف الكنيسة ومغالاتها في التمسك -فيما تدعي- بالنصوص المقدســـة، بتطـــرف في المقابـــل برفض الدين وطرحه كلية، وليت الثورة اقتصرت على الكنيـــسة وتصوراتها وحاولت العودة إلى الدين الصحيح، ولكنها تطرفت وحاربت الدين في حد ذاته، فلم "يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير، ومن الوداعة والهدوء، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته، ويفـــرقون بين ما يرجع إلى الدين عن عهدة ومسئولية، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمـــود وجهـــل واستبداد وسوء تمثيل، فلا ينبذوا الدين نبذ النواة، ولكن الحفيظة وشنآن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر في أمر الدين والتريث في شأنه كغالب الثوار في أكثر الأعصار والأمصار"[3].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- (ص١٩١-١٩٢) باختصار.

(٢) انظر: العلمانية- (ص١٦٤).

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- (ص١٩٣) باختصار.

ولـــذلك ظهـــر الإلحاد –وذلك بعبادة المادة وطرح كل ما هو غيبي –على مستوى خطير؛ حيث كان الإلحاد في العصور السابقة متمثلا في أفراد، ولكن أن يأتي عصر كامل يـــسمى عصر الإلحاد؛ حيث عم الإلحاد جميع المستويات فهذا ما لم يحدث إلا في أوربا في العصر الحديث، ومنها انتشر الإلحاد إلى جميع أنحاء المعمورة.

إذن طـــرحت أوربـــا الدين، ورغم ذلك تزعم أنها راعية المسيحية في العالم وترسل بالمنـــصرين لأفـــريقيا وآسيا، ولا يخفى أنها لا تفعل ذلك حبا في الدين، ولكنها تبغي من وراء منافع اقتصادية وسياسية...إلخ.

٢–التغير العلمي (النهضة العلمية):

بعد أن احتك الغرب بالمسلمين من خلال المعابر الثقافية في كل من الأندلس وصقلية وجـــنوب الأنـــدلس والتي كانت تحت حكم المسلمين، وبعد احتكاك الغرب المباشر من خلال الحروب الصليـبية والتي عاش فيها كثير من الغربيين في البلاد الإسلامية وذلك على مدار حوالي مائتي عام، وجد الغرب نفسه أمام عقلية متفتحة غير العقلية الأوربية الجامدة، "فاســـتيقظ العقـــل الأوربي من سباته وأخذ يقتبس عن المسلمين طرائق البحث ومناهج التفكير التي تجعله يكد ويعمل في مجال اختصاصه دون وصاية ضاغطة.

وثـــارت ثائرة رجال الكنيسة على الذين يتلقون علوم الكفار (المسلمين)، ويعرضون عن التعاليم المقدسة فأعلنت حالة الطوارئ ضدهم، وشكلت محاكم التفتيش في كل مكان تـــصيدهم وتـــذيقهم صنوف النكال، وأصدرت منشورات بابوية جديدة تؤكد العقائد الـــسابقة وتلعـــن وتحرم مخالفيها، وبذلك قامت المعركة على قدم وساق، وأخذت تزداد سعارًا بمرور الأيام.

وكـــان مـــن سوء طالع الكنيسة أن النظريات الكونية سبقت النظريات الإنسانية في الظهـــور، وهـــي نظريات أثبتت الأيام صحتها –إجمالاً– بخلاف الأخرى، وبذلك قدر للكنيـــسة أن تصطدم بالصحيح قبل الزائف، فلما خسرت معركتها معه سهلت هزيمتها أمام الآخر"[١].

---

(١) العلمانية– (ص١٤٩–١٥٠).

فقــد ظهــرت نظريات كوبرنيق وبرونو وغاليلو العلمية التي قاومتها الكنيسة، فدعا ذلك إلى ثورة العلماء ودعاة التجديد مطالبين بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيدًا عن الوحي.

ثم ظهــرت نظرية نيوتن في الجاذبية، والتي أيدها بقانون رياضي مطرد، وقد اعتبرت أعظــم النظــريات العلمية أثرًا في الحياة الأوروبية، فهي التي وضعت أساس الفكر المادي الغربي وإليها يعزى الفضل الأكبر في نجاح كل من المذهب العقلي والمذهب الطبيعي.

وفي ســنة ١٨٥٩م نشر الباحث الإنجليزي "تشارلز داروين" كتابه "أصل الأنواع"، فأحدث ضجة لم يحدثها أي مؤلف آخر في التاريخ الأوربي قاطبة، وكان له من الآثار في المجالات الفكرية والعلمية ما لم يكن في الحسبان[1].

ولقــد كثــرت المخترعات العلمية منذ اكتشاف قوة البخار والتي ترتبت عليها ثورة الغرب الصناعية، واكتشاف الكهرباء، واختراع اللاسلكي، وثورة الاتصالات عبر الأقمار الــصناعية، والــتقدم الهائل في صناعة الدواء والصناعات الحربية..إلخ، كل هذا يجعل هذا العصر خليقًا بأن يطلق عليه "عصر التقدم العلمي والتقني".

ولقــد أذهل هذا التقدم العلمي الدول المتخلفة فجعلها تتنافس في تتبع خطى الغرب، وكذا الغرب من منطلق القوة أراد فرض سيطرته على تلك الدول على ما سنبينه.

٣-التغير الفكري:

منذ أن خلعت أوربا ربقة الدين من عنقها وهي تموج بأفكــار ومذاهــب فكريــة ســاعدت علــى تأزم مشكلاتها، وقد بلغ الأمر بهذه الأفكار أن بلغت حد التناقــض، والقضيــة أنهم ظنوا أن العقل يعصمهم من الزلل لذا جعلوا التحاكم إليه، و لم يفطنوا إلى أنهــم إنمــا يعتمدون على أهوائهم، وأن هذه الأهواء لا تسير على خط واحد حتى يمكن الاتفــاق بيــنها؛ لذا وجدت الأفكار المختلفة والتي يصل بها الحال أن تكون على طرفي نقيض.

---

(١) انظر: السابق- (ص١٤٩) وما بعدها.

وكانت بداية ظهور المذاهب الفكرية عندما أراد العلماء التفلت من سيطرة الكنيسة؛ فطالبوا بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيدًا عن الوحي، ولم يجرؤ دعاة المذهب العقلي أول الأمر على إنكار الوحي بالكلية، بل جعلوا لكل من الطرفين دائرة خاصة يعمل فيها مستقلا عن الآخر.

وكان مذهب ديكارت أبرز المذاهب الفلسفية في هذا العصر، وقد دعا إلى تطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة واستثنى من ذلك -لسبب ما- الدين والعقائد الكنسية والنصوص المقدسة، ولكن سبينوزا طبق المنهج العقلي على الكتاب المقدس، ووضع الأسس التي قامت عليها "مدرسة النقد التاريخي" التي ترى أنه يجب أن تدرس الكتب الدينية على النمط نفسه الذي تدرس به الأسانيد التاريخية، أي على أساس أنها تراث بشري وليست وحيا إلهيا.

أما جون لوك فقد خطا خطوة أبعد من ديكارت بأن طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض، كما دعا إلى تطبيق مبدأ جديد على الحياة الأوربية آنذاك، وهو مبدأ التسامح الديني وإعطاء الحق لكل إنسان في أن يعتنق ما يشاء ويكفر بما يشاء من الأديان والمذاهب.

وبعد اكتشاف نيوتن لقانون الجاذبية أثر هذا الاكتشاف في وضع أساس الفكر المادي الغربي؛ حيث وجه الغرب طاقاته العقلية في اكتشاف الطبيعة بجميع أسرارها، ومن هنا طرح الفكر الغربي عبادة "إله الكنيسة" واتجه لعبادة العقل والطبيعة، يقول سول: صار لزامًا على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة اهـ.

وكتب الفكر الغربي تسمي ذلك العصر عصر "تأليه الطبيعة" أو "عبادة الطبيعة" وليست هذه العبارة مجازًا، بل هي مستعملة على الحقيقة تمامًا.

وجدير بالذكر أن شيوع المذهب العقلي الطبيعي في عصر التنوير قد نتج عنه بالاعتماد على نظرية نيوتن مذهبان جديدان على العالم المسيحي ينمان عن التخبط والضياع:

الأول: مذهب المؤلهة الربوبيين "دايزم" (Deism) أو "المؤمنين بإله مع إنكار الوحي"، وهـذا المـذهب يمثل فكرة انتقالية؛ لأن الوثبة من إله مسيحي إلى عدم وجود إله كانت مستحيلة كما يقول برنتن.

وكان من زعماء هذا المذهب فولتير وبوب ومعهم عدد آخر ممن كانوا يرون ضرورة الإيمان بالله –ولو أمام الجمهور– أما الوحي فأنكروه؛ لأن إثباته يعني صحة تعاليم عدوهم الكنيسة، وليس معنى ذلك أن إيمانهم بالله يمكن أن يسمى إيمانًا على الحقيقة فإن كل عمل هـذا الإلـه في نظرهم هو أنه خلق الكون ثم تركه يدور وفق القوانين المودعة فيه والتي أوضحها نيوتن.

الثاني: المذهب الإلحادي المادي: إن تهافت مذهب المؤلهة وتفاهته هي التي أوحت إلى بعـض معاصريهم بإنكار هذا الإله البعيد الذي لا أثر له ولا ضرورة لاختراعه كما تقول حكمة فولتير: "إذا كان الله غير موجود فلابد من اختراعه"! فالطبيعة تغني عنه والاعتراف بوجـوده هو نوع من الإقرار بصحة دعاوي الكنيسة، فالأولى أن نستبعد وجوده نهائيا، إرغامًا لأنف الكنيسة على الأقل.

وتطرف منهم قوم "رأوا أن الله شر إيجابي، وبخاصة إذا كان إله الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

يقـول كرسون: ذهب بعضهم في الإنكار إلى أبعد حد إنهم يدعوننا حتى إلى حذف اسـم الله نفسه، وفي هذا يقول دولباخ: إن عقيدة الله المأثورة نسيج من المتناقضات، إن فكرة الله هي الضلالة المشتركة للنوع الإنساني اهـ.

ثم جـاءت الـثورة الفرنسية مجسدة للفلسفات والمذاهب المناقضة للدين؛ فقد استمد زعمـاء الثورة مبادئهم واقتباساتهم من كتاب "العقد الاجتماعي" لروسو الذي أطلق على كتابه "إنجيل الثورة الفرنسية"، وكذلك من كتاب "روح القوانين" لمونتسكيو.

ثم جاءت وضعية "أوجـست كونت"؛ حيث ساد الحس كمصدر للمعرفة، ومال اتجاه التفكير إلى سيادة الطبيعة على الدين والعقل معًا، وإلى استقلال "الواقع" كمصدر للمعرفة اليقينية مقابل الدين والعقل.

لقد استأصل المذهب الواقعي فكرة المطلق، وأراد أن يقضي على اللاهوت والميتافيزيقا على السواء ويحل محلهما الواقعية التي لا تعترف بيقين للمعرفة إلا إذا كانت آتية عن طريق التجربة، وهذا المنطق يؤدي حتمًا إلى أن ما وراء الطبيعة والمعرفة الآتية عنه ليس لها صفة اليقين، وعلى هذا الأساس يكون الدين الذي هو وحي من كائن وراء الطبيعة ليس له صفة اليقين، فإذن: يجب إبعاد اللاهوت والفلسفة الميتافيزيقية عن توجيه الإنسان وإحلال الفلسفة الواقعية محلهما في رسم منهج للإنسان يسير عليه حتى يحصل السعادة، وأن الهدف الذي يجب أن يصل إليه الإنسان ويضحي بفرديته من أجله هو الإنسانية، وهي في المذهب الواقعي تقوم مقام اللاهوت.

يقول الأستاذ يوسف كرم: تلك هي ديانة الإنسانية مسخ بها كونت الديانة المسيحية، ونصب نفسه كاهنها الأكبر، ووضع لها شعارًا المحبة كمبدأ، والنظام كأساس، والتقدم كغاية، فكان له بعض الأشياع في فرنسا وإنجلترا والسويد وأمريكا الشمالية والجنوبية تبعوا في كل بلد كاهنًا أكبر وأقاموا معابد اهـ.

ثم ظهرت نظرية دارون في علم الأحياء، ورغم أنها في مجال الطبيعة إلا أنها أثرت في الأفكار والفلسفات تأثيرًا بعيد المدى؛ فالنظرية التي تقرر حيوانية الإنسان وماديته "بمعنى أن الظروف المحيطة به هي التي أثرت في "تطوره" وإعطائه صورته" والتي تنفي القصد والغاية من خلقه، وتنفي التكريم الرباني له بإفراده بين الكائنات الأخرى بالعقل والقدرة على التميز فضلاً عن المزايا الأخرى "الإنسانية"..

إن نظرية كهذه يمكن أن تعطي إيحاءات خطيرة في كل اتجاه.

فحين يكون الإنسان حيوانًا أو امتدادًا لسلسلة التطور الحيواني فأين مكان العقيدة في تركيبه، وأين مكان الأخلاق، وأين مكان التقاليد الفكرية والروحية والأخلاقية والاجتماعية..إلخ؟!

وحين يكون حيوانًا أو امتدادًا لسلسلة التطور الحيواني، فما مقياس الخطأ والصواب في أعماله؟ وكيف يقال عن عمل من أعماله: إنه حسن أو قبيح، جائز أو غير جائز.. بعبارة أخرى: كيف يمكن إعطاء أخلاقية لأعماله؟ وحين يكون حيوانًا أو امتدادًا لسلسلة التطور

الحيواني، فما معنى "الضوابط" المفروضة على سلوكه؟ وما معنى وجود الضوابط على الإطلاق؟

كل تلك إيحاءات يمكن أن تستخرج من النظرية لمن أراد أن يصطاد في الماء العكر! ولكننا إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن أحدًا لم يصنع ذلك سوى اليهود!! هم الذين استخرجوا هذه الإيحاءات كلها التي لم يقلها دارون، وربما لم يفكر فيها أبدًا، ولكنهم أسرعوا إلى اقتناصها، وأنشأوا منها نظريات "علمية" اقتصادية ونفسية واجتماعية.. إلخ موجهة كلها لمحاربة الدين والأخلاق والتقاليد..

وكانت فكرة "التطور" ذاتها من أشد ما لعب به اليهود لزلزلة عقائد "الأمميين" وتقويضها.. فقد ضخموا تلك الفكرة أي تضخم وصنعوا منها قذائف يطلقونها على كل معنى "ثابت" في حياة البشرية من دين أو قيم أو أخلاق.

والحق -مرة أخرى- أنهم لا ينشئون الأحداث ولكنهم يتحينون الفرص ويستغلون الأحداث، لقد وجهوا قذيفة مدمرة إلى فكرة "الثبات"، فقالوا -عن طريق استخدام فكرة "التطور": إنه لا شيء ثابت على الإطلاق، وإن طلب الثبات في أي شيء: الدين أو الأخلاق أو التقاليد..إلخ، هو في ذاته فكرة خاطئة! فكرة غير علمية! فكرة مخالفة لطبيعة الأشياء.

ثم ظلوا يرددون هذه الأقاويل وينشرونها ويؤكدون عليها، حتى صارت هي الصبغة المسيطرة على الفكر "الأممي" لا يقبلون فيها جدلاً ولا مناقشة.. ومن ناقش فهو "الرجعي" "المتزمت" "الجامد" "المتأخر" الذي يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء.. وعقارب الساعة لا ترجع أبدًا إلى الوراء!! وستسحقه عجلة "التطور" التي لا تبقي ولا تذر!!

من بين الأسماء "اللامعة!" التي شكلت الفكر الأوربي الحديث ثلاثة أسماء على الأقل من "كبار" اليهود: ماركس وفرويد ودوركايم، كل منهم قام بدوره في زلزلة الفكر الأممي وإعادة تشكيله على النحو المطلوب.. وكل منهم قام بدوره في تحطيم الأعداء الألداء للمخطط اليهودي: الدين والأخلاق والتقاليد.. وكل منهم بنى أفكاره "العلمية!" على أساس النظرية الدارونية من هنا أو من هناك..

فأمـــا ماركس أبو الشـيوعية والمادية الجدلية والتفسير المادي للتاريخ فقد أخذ جوهر النظرية الدارونية وأنشأ على أساسه نظرية اقتصادية وتفسيرًا للحياة البشرية يحصر الإنسـان في عـــالم المـــادة والتطور المادي، ويجعل قوانين المادة منطبقة على عالم البشر!! كما يجعل أمـــور الحياة كلها، من عقائد ومشاعر وأفكار وأنماط سلوكية ومنظمات ومؤسسات.. إلخ.. تبعًا للطور الاقتصادي وللأوضاع المادية التي يعيش فيها الإنسان ومجرد انعكاس لها، لا تـــسبقها ولا تخـــرج عـــنها، ولا دور للإنسان فيها إلا أن يدور مع الطور الاقتصادي ومتقضياته.. لأنها "حتميات".

وقـــسم الحـــياة البشرية بمقتضى هذا التصور إلى خمس مراحل حتمية: هي الشيوعية الأولى والرق والإقطاع والرأسمالية والشـيوعية الثانية والأخيرة.

وجعـــل الانتقال من كل طور من هذه الأطوار إلى الطور اللاحق له حتميا من جهة، ومردودًا إلى أسباب مادية واقتصادية من جهة أخرى.

وأمـــا فرويد فقد أنشأ نظرية نفسية لتفسير تركيب النفس الإنسانية ونشـاطاتها، بناها على فكرة حيوانية الإنسان.

وخلاصة هذا التفسير أن الطاقة الجنسية هي الطاقة العظمى في الكائن البشري، وهي المسيطرة على طاقاته جميعًا، والموجهة لها، والمسـخرة لها كلها لحسـابها الخاص!

يولد الطفل بطاقة جنسية، وتسيطر عليه -منذ لحظة مولده- تلك الطاقة الجنسـية التي ولـــد بهـــا، فيرضع ثدي أمه بلذة جنسية، ويتبول ويتبرز بلذة جنسية، ويمص إبهامه بلذة جنـــسية، ويحـــرك أعضاءه بلذة جنسية.. ثم ينمو الصبي فيحس تلقاء أمه بشهوة جنسية (كما تحس الصبية بالشهوة الجنسية تلقاء والدها) ولكنه يجد أباه حائلا بينه وبين الاستيلاء علـــى الأم التي يشعر نحوها بتلك الشهوة الجنسية، فيكره أباه الذي يحبه في ذات الوقت، ويـــصطرع الحـــب والكـــره اللذان يحس بهما في آن واحد تجاه الأب، فيكبت الكره في اللاشـــعور، الذي تدفن فيه -ظاهريا- كل الرغبات المكبوتة والمخاوف المكبوتة ولكنها تبقـــى حـــية فاعلة مؤثرة موجهة لسلوك الإنسان دون وعي، ويظهر الحب وحده على السـطح؛ لأن ذلك هو الذي يعجب المجتمع! (أي نفاقًا!).

ولكن القضية لا تنتهي عند هذا الحد ولا على هذه الصورة؛ فإن الصبي يأخذ في حس نفسه مكان والده، تعويضًا عن عجزه عن الاستيلاء على الأم بسبب قيام والده حاجزاً بينه وبينها، فيروح ينهى نفسه ويأمرها كما ينهاه أبوه ويأمره، فينشأ الضمير، وتنشأ -في نفس الطفل- القيم الأخلاقية التي يتعاطاها المجتمع، ويرضى عنها، كما ينشأ الدين من ذات العقدة التي سماها عقدة أوديب (ويقابلها عقدة إليكترا عند البنت) وهي العقدة الناشئة من الكبت الجنسي لشهوة الصبي الجنسية نحو أمه (وشهوة البنت الجنسية نحو أبيها).

وهكذا تنشأ القيم العليا كلها: الدين والأخلاق والتقاليد المستمدة من الدين، من تلك العقدة الناشئة من الكبت الجنسي.

وأما دوركايم فقد أنشأ نظرية اجتماعية لتفسير الظواهر الاجتماعية بناها على حيوانية الإنسان وغلبة نزعة القطيع الحيوانية عليه من جهة، وعلى انعدام الثبات في القيم الاجتماعية من جهة أخرى[1].

ومن المذاهب الملحدة كذلك "الوجودية" وهي تيار فلسفي يزعم أنه يعلي من قيمة الإنسان، ويؤكد على تفرده وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجه.

والوجودية لها مدرستان:

-مدرسة تقر بوجود خالق، وإن كانت لا تجعل له الطاعة والخضوع، من أبرز رجالها الفيلسوف الألماني الكاثوليكي المعاصر كارل جاسبرز، ولكنها في دائرة ضيقة لم يلتف حولها إلا جمع قليل من المفكرين.

-مدرسة ملحدة تنكر وجود الخالق ﷻ، من أبرز رجالها الفيلسوف الفرنسي جان

---

(١)انظر: العلمانية- (ص١٥٢) وما بعدها، مذاهب فكرية معاصرة- (ص٩٨) وما بعدها- د/محمود عبدالحكيم عثمان: جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي- مكتبة المعارف- الرياض- (١٤٠١هـ-١٩٨١م)- (ص١٨٠) وما بعدها.

بـــول ســـارتر، وهذه المدرسة هي التي بيدها قيادة الوجودية حاليا، وهي المقصودة عند إطلاق اسم الوجودية.

والفكر الغربي الآن ينقسم إلى: فكر مادي وفكر وجودي:

أمـــا الفكر المادي فهو الفكر العلماني الذي انبعث من المناهج السياسية والاقتصادية سواء الديمقراطية منها أم الماركسية.

أمـــا الفكـــر الوجودي فهو الفكر الإنساني المتصل بالوجدان والنفس والحياة، ويرى أتـــباع الفكر الوجودي أن الفكر المادي صهر الإنسان وحوله إلى ترس آلة؛ ولذلك فهو يبحث عن وجوده، ويريد أن يختار موقفه من الحياة وطريقه، ويتحمل مسئولية اختياره ثم يخطو سارتر بالفكر الوجودي خطوة أخرى فيتحرك داخل إطار الفكر المادي فينكر الإله والـــبعث والجـــزاء، فمذهب سارتر الوجودي قد انبثق من المذهب المادي واختار فكرة العدمية وإنكار وجود الله أساسًا له.

أما نشأة التيار الوجودي الحديث فيعتبر سيرن كير كجورد الفيلسوف الدنماركي هو المؤســـس الحقيقـــي للتـــيار الوجودي بالمعنى المعاصر، فقد وجدت فكرته عن الوجودية المعاصرة صدى كبيرًا عند الكثيرين من معاصريه ومن بعدهم حتى صارت تيارًا فلسفيا.

وقد استكمل مارتن هدجر مذهب الوجودية حتى أصبح من أكبر المذاهب الفلسفية؛ لذا يلقب عند الوجوديين بزعيم الوجودية.

أما جان بول سارتر فهو أشهر زعماء الوجودية حتى طغت شهرته على كثير من دعاة الوجودية، وهو أول فيلسوف يرتضي أن يلقب بلقب وجودي[1].

ويجـــب أن لا نـــسى دور اليهود في العمل على نشر المذاهب الإلحادية في الغرب، وتسليط الضوء عليها، والاستفادة من ثمراتها إلى أبعد حد ممكن.

فـــدورهم في الانحراف بالقيم والأخلاق وإفساد العقول أمر معروف على من يعرف أســـاليبهم ومكـــرهم؛ فهم قد "تمكنوا من تجنيد بعض علماء اليهود –كما رأينا– لوضع

---

(١)انظر د/علاء بكر: مذاهب فكرية في الميزان– دار العقيدة– الإسكندرية– (ص٣١٢) وما بعدها.

شـــبه نظريات علمية مبتدعة لإفساد المجتمع الإنساني وهدم الأديان والأخلاق، ومن أمثلة ذلك كما ذكرنا سابقًا:

-كارل ماركس صاحب النظرية الماركسية المعادية للأديان.

-واليهودي دور كايم صاحب علم الاجتماع لهدم النظام الأسري.

-واليهودي فرويد صاحب النظرية الفرويدية في علم النفس لإثارة الجنس والغرائز"[1].

ولم يكتف اليهود بذلك بل عملوا على إنشاء حركات ومنظمات ونوادٍ تعمل على نشر فكر اليهود، ومحاولة التمكين لهم بشتى السبل المشروعة وغير المشروعة؛ مثل الحركة الصهيونية التي كانت ترمي إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين تحكم من خلالها العالم كله.

وهناك منظمات ونوادٍ تخدم الصهيونية سرًّا، وتظهر بخلاف ما تضمر:

١-الجمعيات الماسونية.

٢-أندية الروتاري.

٣-أندية الليونز.

فالماسونية مثلا وجدت في الفلاسفة الملحدين أمثال: فولتير وروسو ودالمار أنصارًا يعادون الأديان بغرض نشر الانحلال والرذيلة، وبجهودهم قامت الثورة الفرنسية والتي يعتقد أنها بتدبير وتخطيط الماسونية.

والروتاري مؤسسة دولية ظاهرها أنها تعمل في مجال الخدمة الاجتماعية والثقافية، وحقيقتها أنها منظمة تعمل لصالح الماسونية وتسيطر عليها اليهودية العالمية.

أما الليونز (المنظمة العالمية لأندية الأسود) هي مجموعة نواد ذات طابع خيري في الظاهر وتابعة للماسونية في حقيقتها تديرها الأصابع اليهودية لإفساد العالم والسيطرة عليه[2].

---

(١) السابق- (ص٢٥٢) بتصرف.

(٢) السابق- (ص٢٦٥) وما بعدها.

وقبل أن نختم حديثنا عن التغير الفكري لا ننسى تلك النظرية المستحدثة عند الغرب والتي تنطلق من إحساس الغرب بمركزيته في العالم، والتي يحاول من خلالها أن يصبغ العالم كله بفكره سواء أكان منحرفًا أم مستقيمًا، وهذه النظرية هي نظرية العولمة والتي تعني بالإنجليزية (Globalization) وترجمتها في العربية "كوكبة"، وهي ظاهرة رأسمالية تختص وتكمن أساساً في الدول الرأسمالية الكبيرة، ولا تنتج من عندنا ولسنا طرفاً فيها.

ويقول "مارتن ولف": "العولمة هي عملية غسيل حقيقية للأدمغة" ويقول آخر: "العولمة هي صياغة جديدة للعالم تلغى فيها ذاتية الشعوب".

ويقول الأستاذ "فتحي يكن": إنها أشبه بالاجتياح... اجتياح الكبير للصغير، والقوي للضعيف، والغني للفقير... اجتياح مشاريع الآخرين لحضارتنا وثقافتنا، وتراثنا.

-إنها استرقاق ولكن تحت غطاء عصري مزيف، وشعار براق مكذوب.

-إنها السقوط في الأفخاخ المنصوبة، وبالتالي ضياع الهوية والشخصية[1].

-إنها الأمركة وفرض النظام الأمريكي الاجتماعي والسياسي والأخلاقي والسلوكي على العالم.

-إنها صهينة العالم وإخضاعه لهيمنة الصهيونية؛ وذلك أن الاقتصاد العالمي يخضع لسلطانها، كما أنها هي التي تحكم أمريكا من داخلها، وما أمريكا إلا القناع الذي تلبسه الصهيونية، ويختفي وراءه اليهود.

يقول البروتوكول الخامس عشر: "يجب أن يكون الدولار في المائة سنة القادمة عملة العالم"، ويقول البروتوكول العشرون: "إن استيلاءنا على ثروات العالم عن طريق الأسهم والسندات سيضطر الحكومات إلى طلب العون المالي منا"[2] .

---

(١) فتحي يكن -رامز طنبور: العولمة ومستقبل العالم الإسلامي، ص(١٢).

(٢) محمد خليفة التونسي (ترجمة): الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون- مكتبة دار التراث- القاهرة- ص(٢٣١-٢٦٤).

ويـــرى البعض أنها تبشر بوعود مشرقة، أو أنها ديناميكية جديدة تبرز داخل العلاقات الدولية، أو أنها دعوة إلى عالمية المصالح والأهداف، ولكن الأمر ليس كذلك.

فإن المراد بها على الصعيد الاقتصادي:

-تحويل اقتصاديات الدول الأخرى إلى اقتصاديات تابعة لا تستطيع تحقيق نموها الذاتي إلا اعتمادا على اقتصاديات الدول الغربية لاسيما الاقتصاد الأمريكي.

-وتحـــويل شعوب العالم الأخرى إلى شعوب مستهلكة للمنتج الغربي بمختلف أشكاله ونوعياته.

أما على الصعيد السياسي، فهو: أن تتحول دول العالم الأخرى إلى نماذج مشوهة من ديمقراطية الغرب، خاضعة لما يملى عليها من قبل الدول الغربية.

وأخـــيراً: إنهـــا مـــصطلح ظاهـــره الـــرحمة، وباطنه فيه العذاب الشديد، إنها أشبه بالمـــصطلحات الأخـــرى المثيلة كالخصخصة والحصحصة والعصرنة والممكنة، والعقلنة، والأمركة، والفرنسة، والصهينة... وصولاً إلى الشيطنة[1].

الأسس التي تقوم عليها العولمة:

-إزالة الحواجز والحدود أمام حركة التجارة والثقافة العالمية.

-العمـــل على دمج اقتصاديات العالم في اقتصاد واحد خاضع لنظام البلدان الصناعية المـــتقدمة ومجموعة البلدان السبع الصناعية، وبالتالي القضاء على أي نظام اقتصادي آخر سواء أكان هو النظام الإسلامي أو النظام الاشتراكي.

-حـــرية انـــتقال الـــسلع والبضائع أي: تحويل الأسواق الوطنية إلى مستهلك للسلع والخدمات الأجنبية، وفتح الحدود القطرية أمام انتقال المواد الخام دون قيود أو حدود.

-تعميم وتوسيع الخصخصة على جميع القطاعات الزراعية والنقل والمواصلات .

-مـــنح المزيد من المرونة والصلاحيات لتوسيع فعاليات الوكالات الدولية والجمعيات الأهلية.

---

(١) انظر: العولمة ومستقبل العالم الإسلامي- (١١).

العولمة والثقافة:

الثقافة العربية:

"الثقافة العربية": عربية اللسان، إسلامية المضمون والتاريخ، وهي كائن حي يضم العناصر الثلاثة: الوطنية والقومية والإسلامية، وهي في جملتها واقعية، عملية، متحررة، تقدمية، إنسانية"[1].

معالم الثقافة العربية وخصائصها:

إن الثقافة العربية ثقافة متميزة، تختلف عن ثقافات الغرب والشرق وتتسم باتصالها بالفكر الإسلامي والقرآن، وتقوم على أساس اللغة العربية الفصحى وميراثها، وتستمد من التاريخ الإسلامي فإن معالمها وخصائصها مما لا يقع تحت حصر، ويمكن أن نستوعب أبرز خطوالها في نقاط رئيسية: التوحيد- الأخلاقية- التوازن بين الروحي والمادي- النظرة العقلية المؤمنة- الحرية المنضبطة- القدرة على التصحيح- الترابط بين الماضي والحاضر- الجمع بين الدنيا والآخرة- القدرة على التطور- الطابع الإنساني- الوسطية- التكامل[2].

وجوه التباين والاختلاف بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية

لا ترى الثقافة الغربية أن "الدين" جزء أساسي من تكوين فكرها وثقافتها، بينما الثقافة العربية تؤمن بالدين جزءًا أساسياً لا ينفصل عن المجتمع.

والثقافة الغربية تنكر الغيبيات وتؤمن بمادية الحياة وبالمحسوس والملموس، بينما تؤمن الثقافة العربية بأن هناك جانبًا من الحياة لا يصل إليه الحس أو النظر، ولكنه يفهم بالعقل والإيمان.

تعلي الثقافة الغربية من شأن الجنس، وتحاول أن تجعل من الآريين والبيض والغربيين جنسا متميزًا؛ استعلاء على الساميين والملونين والشرقيين، بينما ترى الثقافة العربية أن

---

(١) أنور الجندي: الثقافة العربية، ص(٢٣).

(٢) السابق، نفس الصفحة.

الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل[1].

إن الثقافة الغربية إلحادية لا تتفق بحال من الأحوال مع الثقافة العربية التي تمتزج بالإسلام والإيمان، ويجرى التوحيد فيها مجرى الدم في الشعيرات، في شعرها ونثرها في أدبها وعلمها وفلسفتها، في كتب اللغة وكتب الدين، وكتب العلم على اختلافها[2].

أخطار العولمة في المجال الثقافي:

الثقافة الغربية والفكر الغربي واقع تحت تأثير خطرين كبيرين:

الخطر الأول:

خطر الجذور الوثنية الإغريقية الرومانية البعيدة المدى في تشكيل مزاجه وطوابعه، وهو مزاج ليس الدين جزءا منه، ولا ارتباط له أساسا بالمفاهيم الروحية أو الغيبية، أو مفاهيم التوحيد والنبوة.

الخطر الثاني:

وهو الخطر الأدهى والأمر! إنه خطر اليهودية وقيمها التي يسجلها التلمود والمشنا[3] وهو ما كشف عنه في أواخر القرن التاسع عشر بما يسمي بروتوكلات حكماء صهيون، والدعوات الصهيونية، والماسونية والبهائية.

مما سبق يتضح لنا أنه لا تشابه ولا ارتباط بين الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي؛ لذا فالدعوة إلى عولمة الثقافة أو عالمية الثقافة دعوى فارغة ضالة تنطوي على نوايا خبيثة!

عولمة جسد المرأة:

لقد استخدمت المرأة أسوأ الاستخدام في الدعاية للعمل الرخيص كالدعارة،

---

(١) السابق، ص(١٢٥- ١٢٨) باختصار.

(٢) يوسف القرضاوي: الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، دار الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص(٢٧) بتصرف.

(٣) التلمود والمشنا: من كتب اليهود.

والمخدرات وأنواع الموسيقى والغناء، ومختلف أشكال الترفيه.

إن ما نراه الآن في بلادنا الإسلامية على شاشات التلفاز من استعراض النساء لمفاتنهن، ووقوفهن بجانب سيارة أو شامبو أو وجبة جديدة لهو صورة ومظهر من مظاهر العولمة الثقافية التي غزت ديار الإسلام العتيقة، وحملت إليها جراثيمها الملوثة التي باتت تهدد مجتمعنا بالأخطار والزوال.

إن المرأة -اليوم- تلعب دوراً خطيراً في تبني هذه الظاهرة (العولمة الثقافية) والترويج لها في كل مكان، والدليل على هذا ما يأتي:

أكوام المجلات التي تحمل صوراً لفتيات عاريات أو شبه عاريات بلغة أو بأخرى تدعو إلى الرذيلة والفساد، ولا شك أن هذه المجلات التي تملأ الأرصفة والشوارع هي من نتاج انفتاح الثقافة بين الدول وبعضها.

أنواع الدعاية المختلفة التي تزدحم بها أجهزة التلفاز، والتي تبدو فيها المرأة راقصة، ومغنية، تعرض تفاهة، فها هي لا تزيد على أن تكون من وسائل الترفيه الفارغة التي تغرق المجتمع في تيار من الرفاهية ووسائل الراحة الزائدة التي تقضي على مكامن الإبداع والطاقة لدى الإنسان.

نوادي الماسونية التي ظهرت في أثوابها الجديدة البراقة وهي البهائية، والروتاري، والليونز، والتي انتشرت في العالم الإسلامي انتشار النار في الهشيم، وأخذت تعمل على إشاعة التهتك والدعارة والجنس والتجسس والإغراء، ومحاربة الوطنية ومصارعة الارتباط بالدين، وإشاعة الثقافة اليهودية...

طريق المسلمين إلى التحرر

"إن أول خطوة في طريق الحفاظ على الخصوصيات الثقافية هي إثبات الهوية والحفاظ عليها، فلسنا أقل من فرنسا التي اتخذت موقفاً متشدداً في هذا الصدد، فاتخذت إجراءات قانونية صارمة سواء داخل فرنسا أو خارجها للمحافظة على لغتها الفرنسية، ولسنا أقل من الصين واليابان، فبرغم أن الصينيين واليابانيين يجيدون اللغة الأمريكية (الإنجليزية) إجادة تامة، فإن إجادة اللغة الإنجليزية لم تجعلهم يعتنقون الثقافة الأمريكية!! لقد تعلموا

لغـــة الأمريكان ليتعرفوا على العلوم والتكنولوجيا الأمريكية، وبعد أن فهموا هذه العلوم جـــيداً طـــوروها وأضافوا إليها، وقاموا باختراعاقم واكتشافاقم التي فاقت التكنولوجيا الأمريكية.

فهـــل نـــتهج لهجهـــم ونحـــذو حذوهم لنحافظ على هويتنا وخصوصياتنا العربية الإســـلامية، أم نتـــرك ثقافـــة الماكدونالـــدز، والهامبورجـــر، والكوكاكولا، والعنف، والاغتـــصاب، والشذوذ الجنسي، وسيادة الدولار تطغى وقميمن على خصوصيات الثقافة الإســـلامية المرتكـــزة على التآخي والإيثار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل"[1].

٤-التغير الاجتماعي:

كان المجتمع الأوربي في عصر النهضة يتكون من رجال الكنيسة على كافة مستوياقم، ورجال الدولة وحاشيتهم، ثم عامة الشعب، وقد كان النظام الاجتماعي الذي هيمن على الحـــياة الأوربية طيلة القرون الوسطى هو نظام الإقطاع؛ حيث كانت الكنيسة أكبر ملاك الأراضـــي، وأكـــبر الـــسادة الإقطاعـــيين في أوربا؛ فقد كان دير "فلدا" -مثلاً- يمتلك ١٥٠٠٠ قصر صغير، وكان دير سانت جول يملك ألفين من رقيق الأرض، وكان الكوين فيـــتور أحد رجال الدين سيدًا لعشرين ألفًا من أرقاء الأرض، وكان الملك هو الذي يعين رؤســـاء الأساقفة والأديرة... وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين، ويلقـــبون بالـــدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية... وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً من النظام الإقطاعي.

ثم حـــدثت تحولات ظاهرة في الحياة الأوربية أدت إلى تخلخل المجتمع الأوربي وتغير بعـــض ملامحـــه الثابـــتة؛ فابـــتدأت المـــدن الأوربية في النمو، وظهرت الطبقة الوسطى الـــبورجوازية فظهـــر منافس قوي للإقطاعيين يتمثل في طبقة في المدن البورجوازية الذين

---

(١) د.فـــوزية العـــشماوي: الحـــوار بين الحضارات والخصوصيات الثقافية، جريدة الأهرام، العدد (٤١٩٣٦)، ١٣ رجب ١٤٢٢ هـــ، سبتمبر ٢٠٠١.

كانوا بمثابة الطلائع للرأسماليين الكبار.

ثم قامت الثورة الفرنسية على يد الشعب الذي أنهكته الضرائب والمظالم ضد رجال الدين والأشراف، وكانت الثورة الفرنسية فاتحة عصر جديد في التاريخ الأوربي؛ إذ توالت بعدها الثورات كالبراكين في أنحاء القارة، وعرفت أوربا –ربما لأول مرة- شيئًا اسمه حقوق الإنسان، وكان نجاح أي ثورة يعني انهيار النظام الإقطاعي وانهيار نفوذ الكنيسة، ونشوء نظام حكم لا ديني.

وفي ظلال هذا الحكم اللاديني التقت مشاعر الناس وتعلقت عواطفهم بكلمة سحرية خلابة ترمز لمبدأ جديد جذاب اتفق في المناداة به الطبيعيون والنفعيون والجماعيون والفرديون ذلك هو مبدأ الديمقراطية ومن الذي لا تخلب الديمقراطية لبه من الشعوب المضطهدة والعقول المغلوبة؟! الشعب هو سيد نفسه وهو مصدر السلطات ولا وصاية لأحد عليه..

وللمواطن –أيا كانت عقيدته أو جنسيته- حريات وحقوق لم يكن ليحلم بها من قبل: حرية العمل، حرية التنقل، حق إبداء الرأي، حرية السلوك، حرية العقيدة، حق التظاهر والاحتجاج...

وله كذلك ضمانات لم تكن- وهو في ظل الإقطاع- لتدور له في خلد: ضمان الاتهام، ضمان التحقيق، ضمانة المحاكمة، ضمانة التنفيذ.

كل الناس بهرتهم هذه الشعارات وأسكرتهم هذه الأحلام فحاولوا بكل جهدهم نسيان ذلك الماضي الرهيب، ونبذه بكل قيمه ومثله وإن كان من بينها الدين والأخلاق.. وتحرقوا مشتاقين إلى مستقبل باهر وضاء، وطغى على الفكر والأدب اتجاه مغرق في التفاؤل واثق ثقة مطلقة في السعادة والتقدم اللذين لا حد لهما.

ولقد واكبت الثورة الصناعية الثورة الديمقراطية؛ حيث ظهرت الآلات ذات القوى المحركة فنهضت بأكبر عبء من العمل، فامتلأت البلاد بالعمال العاطلين، ووجد أصحاب المصانع الأحرار أن ذلك فرصة لتخفيض الأجور وإطالة ساعات العمل، ووجد العمال أن حريتهم في اختيار مهنهم كانت محدودة بمقياس الحاجة إلى ساعات طويلة في أي عمل

يعرض لهم لقاء أجور تافهة لا تكاد تقيم أودهم.

هكــذا جاءت الديمقراطية وهكذا تبددت الأحلام والأوهام التي نيطت بها، وأسفرت الــثورة الصناعية التي واكبت الثورة الديمقراطية عن وجه كالح لا يقل شناعة وفظاعة عن صــورة الإقطــاع، وانقلبت الحرية النسبية التي وصل إليها العمال والفلاحون قيودًا ثقيلة ترهق كواهلهم.

ودخلت المرأة مجال العمل وحينما دخلت فقدت معه العرض الذي طالما حافظت عليه مــن قبل، ففي المجتمع الصناعي اضطرت بعض نساء الريف إلى الهجرة إلى المدينة للعمل هــناك؛ حيث التقطهن أصحاب المصانع يضربون بهن حركات العمال المطالبة بتخفيض ساعات العمل وزيادة الأجور.. وعاملتهن الجاهلية بتلك الفظاظة الفذة، فأعطتهن نصف الأجر على نفس العمل ونفس الساعات!

ولكــن الأمــر لم يقف مع الجاهلية عند هذا الحد.. فالمرأة دائمًا صيد والمرأة المحتاجة صيد ميسر!

وساومها الرجل الذي تعمل عنده.. إما أن تفرط في عرضها وإما أن تعود إلى الجوع الذي فرت منه!

و لم تكــن الجــوعة في الحقــيقة هــي جوعة المعدة فحسب، وإن كانت هذه كافية للــسقوط! إنمــا كان إلى جانبها الحاجة الفطرية الطبيعية إلى الجنس، والحاجة إلى اللباس والزينة، وهي بالنسبة للمرأة ليست كلها كماليات وسقط من الرعيل الأول من العاملات مــن ســقط.. وفــتحن الطريق! ووجد اليهود صيدًا سهلاً يشغلونه في صناعتهم العتيقة العريقة! صناعة البغاء.

ثم ظهــرت قضية مساواة المرأة بالرجل في الأجر فرفضت الرأسمالية الناشئة وأصرت علــى الــرفض، كأنها تحافظ على وضع طبيعي لا يجوز تغييره ولا الخروج عليه! ورفض الرجل كذلك! كأن طلبها عدوان على حقوقه الشخصية أو عدوان على كيانه الذاتي!

وعــند الرفض طالبت المرأة –أو طولب لها في الحقيقة- بأن يكون لها حق الانتخاب حــتى يكــون لهــا –كما قيل- تأثير في اختيار المرشحين للمجالس النيابية فيدافعوا عن

حقوقها المسلوبة حين يصلون إلى البرلمان.

ورفض الرجل إعطاءها هذا الحق، و لم يعترف أصلاً بأن ذلك حق من حقوقها أو أمر جائــز بالنسبة إليها، ثم عادت المعارضة فلانت، وحصلت المرأة في معظم دول أوربا على حق الانتخاب.

ولكنها وجدت أن الأصوات الضئيلة التي تدلي بها في الانتخابات ليس لها وزن حقيقي في المعــركة الانتخابــية، وحــتى إن أثرت تأثيرًا جزئيا طفيفًا في إنجاح مرشح معين، ممن يتعهدون -أو يكونون معروفين- بالتحمس لقضية المرأة والدفاع عنها في المجالس النيابية، فــسرعان مــا ينــسى المرشح وعوده حين يصل إلى البرلمان، أو تضيع صيحته في زحمة الأعمال وزحمة الخطب والكلمات!

عندئذ رؤي لها أن تطالب بحق الترشيح ودخول البرلمان.. لكي تسمع صوتها بنفسها للــذين يــصنعون القوانين (كأنهم لم يكونوا سامعين من قبل) وتشارك بنفسها في إعداد التشريع، فتضمنه ما يحفظ للمرأة حقوقها.

وقامــت قيامة المعارضة كما يحدث في كل مرة، واشتدت حتى ليظن الرائي أن الأمر لــن يــتم أبــدًا.. ثم ظلت أصوات المعارضة تخفت تدريجيا وتلين.. حتى نالت المرأة حق الترشيح.. ودخلت البرلمان!

ثم جــاءت قــضية تعليم المرأة التي كانت من أشد القضايا إثارة للمعارضة في المجتمع الأوربي، ثم خفــت حدة المعارضة شيئًا فشيئًا حتى نالت حقها في التعليم، فخرجت المرأة من البيت لتعلم، وشاع الاختلاط والصداقة بين فتيان الجامعة وفتياتها، وتعود المجتمع على قدر من الفســاد الخلقي.

وخــرجت المــرأة مــن بيتها للعمل فتفسخت الروابط الأسرية و لم يعد لها معــنى، فالــزواج رباط ثقيل يقلل من حرية الرجل والمرأة، فلم لا يتم الاتصال بينهما دون حاجة لهــذا الــرباط الثقــيل، ويــتم الانفصال في أي وقت، هذه هي ظروف الحياة الجديدة ومتطلباتها.

من أجل ذلك "طفح" الجنس.. في الشارع والغابة والنادي والملعب والمرقص، والقصة

والمسرح والسينما، وفي المجلة والصحيفة اليومية فضلاً عن المجلة المخصصة للصور العارية والإثارة الجنسية، ووصل إلى درجة التهتك والحيوانية التي يتعفف عنها بعض أنواع الحيوان!

ومن مظاهر التغير الاجتماعي في أوربا ظهور القوميات، فبعد أن جمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين وجعلت من العالم النصراني عشيرة واحدة، كان الخروج على الكنيسة هو الباعث للقوميات من جديد، وكان الدين والقومية ككفتي ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى، ومعلوم أن كفة الدين لم تزل تخف كل يوم، ولم تزل كفة منافسته راجحة، وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الفاضل الإنجليزي المعروف "لورد لوثين Lord Lothian" السفير البريطاني السابق في أمريكا في خطبته التي ألقاها في حفلة جامعة عليكرة في يناير سنة ١٩٣٨م: "لما قضت حركة لوثر التي تدعي حركة إصلاح الدين على وحدة أوربا الثقافية والدينية، انقسمت هذه القارة في إمارات شعبية مختلفة، أصبحت منازعاتها ومنافساتها خطرًا خالدًا على أمن العالم".

وكان نتيجة الانحطاط الديني، وانخفاض مبادئ الدين والأخلاق، رجحان كفة الوطنية والقومية؛ يقول "لورد لوثين" في نفس هذه الخطبة: "إن الدين الذي هو المرشد اللازم للإنسان، والوسيلة الوحيدة لحصول الغاية الخلقية، والشرف المعنوي للحياة البشرية، كان نتيجة الانحطاط في سلطانه أن فتن العالم الغربي بمذاهب سياسية تقوم على أساس اختلاف الأجناس والطبقات، وآمن -بتأثير العلوم الطبيعية- أن الرقي المادي هو الغاية العليا، والوطر الأكبر، ولا يزال يزيد هذا الأمر في مشاكل الحياة وأثقالها وتكاليفها، وكان من نتائج ذلك أيضًا أنه صعب على أوربا أن توفق بين روحها وحياتها توفيقًا ينقذها من القومية، داهية هذا العصر الكبرى" اهـ[1].

---

(١) انظر العلمانية- (ص١٤٠) ومواضع متفرقة- مذاهب فكرية معاصرة- (ص١١٩) وما بعدها، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- (ص٢١١-٢١٢).

٥-التغير السياسي في العالم:

فـزعت أوربـا عـندما سقطت القسطنطينية في يد المسلمين، وازداد فزعهم بتوغل المسلمين في أوربا ووصولهم لأسوار فينا، فعمل الغرب على تجميع قوتهم لمجابهة تلك القوة الإسـلامية، وبـدلاً من المواجهة المباشرة مع المسلمين استخدم الأوربيون أسلوب قص الأجـنحة، وهذا الأسلوب يعني أنهم استداروا حول العالم الإسلامي واحتلوا أطرافه فيما يـسمى بعملـية الاستكشافات الجغرافية، وتركوا مواجهة المسلمين في مركز ثقلهم، بل حاربوهم على أطراف دولتهم لضمان انعدام القوة.

وقـد ذكرنا سابقًا الثورة الفرنسية التي حولت وجه أوربا السياسي، فبعد أن كانت ملكـية تخـضع لسلطان الكنيسة أصبحت جمهورية لا دينية، مشبعة بالحقد على الكنيسة ورجالها، والدولة وبطانتها حتى قيل أثناء الثورة: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس.

وبعد ذلك ازدادت القوة العسكرية الأوربية والتي قامت على إثرها -بدايـة عهـد الاسـتعمار- المـوجة علـى قلب العالم الإسلامي، فبدأت بالحمـلة الفرنسـية عـلى مـصـر، ثم تلتها الحملات العسكرية على معظم الدول العربية والإسلامية، ولم ينصرم القـرن التاسـع عشر الميلادي حتى سقطت معظم الدول العربية والإسلامية في قبضة الاستعمار الأوربي.

ولكـنه نتـيجة للـصراعات الفكرية التي كانت تموج بها أوربا، وظهور القوميات، واخـتلاف المـصالح والسياسات قامت الحرب العالمية الأولى، والتي ترتب عليها تشكيل جديد للخريطة العالمية؛ حيث تم إسقاط الخلافة العثمانية وتفتيتها إلى دويلات واقعة تحت الانـتداب الأجنبي، وتغير ميزان القوة الأوربية؛ حيث ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية كقوة أخذت مكانتها على الساحة الدولية، وقد ظهر ذلك جليا بعد الحرب العالمية الثانية؛ وظهـرت قـوتان جديدتان هما الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، وكل قوة تُدعَّى لمذهب خاص بها، وإن كان المذهبان في التحليل النهائي لا يخرجان عن مجمل الفكر الأوربي العلماني.

فأصـبح هـناك معـسكر اشتراكي، ومعسكر رأسمالي، وكل يريد فرض سيطرته على

العالم، سواء بإيجاد العملاء من الحكام، أو إسقاط الحكام الوطنيين، أو أي وسيلة سواء أكانت أخلاقية أم لا.

وفي التسعينات من القرن الماضي سقطت الدولة الشيوعية، و لم يبق على الساحة إلا الولايات المتحدة التي سيطرت على كل المنظمات الدولية بما في ذلك مجلس الأمن والأمم المتحدة، وأصبح العالم واقعًا تحت قوة واحدة تعتبر نفسها شرطي العالم.

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ظهرت رعونة هذه الدولة؛ حيث احتلت أفغانستان والعراق بدعوى محاربة الإرهاب، وتهدد سوريا بدعوى تدخلها في شئون لبنان، وهي إذا كانت تهدد سوريا لتدخلها في شئون لبنان، فها هي تتدخل في شئون السودان الداخلية إثر أزمة دارفور.

و لم يكفها ذلك بل تتدخل في شئون الدول العربية جميعًا مطالبة إياهم بإصلاح أنظمتهم، بل وفرض نظام جديد يسمى "الشرق الأوسط الكبير".

٦-التغير الاقتصادي:

كان الاقتصاد الأوربي يقوم على الإقطاع؛ حيث أقرت الكنيسة النظام الإقطاعي السائد، بل أصبحت مؤسسة من مؤسساته الثابتة، وأقرت الاضطهاد الفظيع الذي كان يتعرض له أرقاء الأرض رغم تنافيه مع تعاليم الإنجيل، ولكنها في مواقف أخرى كانت أكثر تشددًا لاسيما في مسألة "الربا".

ويرى "جورج سول" أن الكنيسة كانت تحرم الربا لسبب نفعي بالإضافة إلى الدافع الديني، فيقول "سول": هذا التأكيد بفساد الربا وشروره ليس فكرة مجردة فحسب، ولكنه كما هو الشأن بالنسبة إلى معظم المذاهب الأخرى البارزة في ذلك الحين وفي عصرنا هذا كان يحقق غرضًا هامًا حينذاك لأولئك الذين عملوا على ترويج الفكرة.

لقد شعرت الكنيسة وحلفاؤها الإقطاعيون في العصور الوسطى -وبحق- أن ثمة خطرًا يهدد سلامتهم وسلطانهم نتيجة نمو الرأسمالية، وإن لم يطلق عليها أحد هذه التسمية، إن استنكار الربا كان من الأغراض الدالة على أن وسائل جديدة في الإنتاج والتبادل بدأت تعمل على تقويض دعائم النظام الإقطاعي اهـ.

وعلى أية حال فإن اقتصاد القرون الوسطى لم يكن يستطيع التملص من اتباع التعاليم الكنسية التي كانت جزءًا من النظام الأخلاقي المسيحي، كما أنه كان -في الوقت نفسه- خاضعًا ومقيدًا بالأعراف الإقطاعية السائدة، ولذلك كان حتمًا أن ينهار بانهيار الكنيسة والإقطاع.

ثم جاء المذهب الرأسمالي الذي دعا إليه آدم سميث ومالتس وريكاردو، وهو مذهب قائم على المنفعة المادية؛ حيث يتم تحقيق أكبر ربح بأية وسيلة، وهذا الاقتصاد عموده الفقري الربا والاحتكار.

وفي مقابل تطرف الرأسماليين نحو الفردية تطرفت طائفة أخرى فاتجهت اتجاهًا جماعيا لا يقيم للفرد وزنًا إلا من جهة كونه مسمارًا في الآلة الاجتماعية، وهذه هي اشتراكية ماركس التي آمنت إيمانًا أعمى بأن القضاء على الملكية الفردية وقبض الدولة على وسائل الإنتاج كفيل بتحقيق الجنة الأرضية وإزالة كل الشرور والمساوئ التي يعج بها التاريخ، ولا تستثني الشيوعية من ذلك شيئًا حتى "المرأة" فإن الشيوعية الجنسية والإباحية المطلقة هدف صريح من أهداف الشيوعية في كل مكان؛ فالزواج ينتج الأسرة، والأسرة في نظرهم أعدى أعداء المجتمع اللاطبقي؛ لأنها تحتم على المرء أن يتملك ويدخر، والملكية الفردية تقليد إقطاعي استغلالي إن لم يتم القضاء عليه انتكس المجتمع إلى طور تاريخي أدنى![1].

وحدث صراع بين الشيوعية والرأسمالية انتهى هذا الصراع بسقوط مروع للشيوعية، واستبدت الرأسمالية الغربية باقتصاد العالم؛ حيث تستغل الدول الفقيرة لتوفير الرخاء والرفاهية للدول الغنية، بما يسمى باتفاقية الجات التي تفتح أسواق الدول الفقيرة أمام غزو بضائع ومنتجات الدول الغنية؛ حيث لا تستطيع الدول الفقيرة منافسة هاتيك الدول، فتكون النتيجة الحتمية لتحرير التجارة العالمية أن يزداد الغني غنًا، والفقير فقرًا، ولا مجال هنا لعاطفة الرحمة أو الشفقة التي يتشدقون بها، فعجلة المصلحة والمنفعة تطحن كل من

---

(١) انظر العلمانية- (ص٢٦٠) وما بعدها.

يقف أمامها.

ومن أبرز المواقف المدللة على ذلك الغزو الأمريكي لدولة العراق، حيث ادعت امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل فقامت بحرب شعواء أسقطت على إثرها نظام صدام حسين، ثم أحكمت سيطرتها على حقول البترول العراقية لتأمين مصادر الطاقة اللازمة لعمل مصانعها.

وهنا تتكشف الدوافع الحقيقية للحرب الأمريكية على العراق:

١-محاربة الإسلام تحت مسمى "الضربات الاستباقية".

٢-إزالة القوى المنافسة لإسرائيل في المنطقة.

٣-تأمين مصالحها الاقتصادية في المنطقة.

ب-المؤثرات الداخلية:

يبدو أن العالم الإسلامي في لحظة انعدام الثقة بالذات، وغفلته المستبدة به نسي أنه يملك مقومات النجاح من موارد بشرية واقتصادية إلى جانب موقعه الذي يتوسط العالم، وفوق هذا وذاك امتلاكه لمنهج رباني يحث أتباعه على الجمع بين الدين والدنيا ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[1].

لقد أفاق العالم الإسلامي من سكرته فوجد أن ميزان القوة في يد الغرب، فاختلت الموازين العقلية عنده وفقد اتزانه، ولم يكن قادرًا على اختيار الطريق السليمة، بل كانت عنده القابلية للاستعمار والغزو نتيجة لهذا الانهزام النفسي الذي سيطر عليه وأفقده صوابه.

ونحن في عرضنا للمؤثرات الداخلية لا نريد أن نجلد الذات أو أن نلهب ظهورنا بسياط التقصير والتخلف والرجعية والانهزامية، ولكن لكي نعرف مواطن الخلل لنتمكن من العلاج:

---

(١)القصص:٧٧.

١-التغير العلمي:

حـــدث انفـــصام في الشخـــصية الإسلامية؛ حيث ظنت أن العلم الممدوح هو العلم الشرعي فحسب، وطرحت العلوم الدنيوية: الفلك، الكيمياء، الفيزياء، الهندسة...إلخ، مع أن الإســـلام ديـــن ودنيا، فقد كان الرسول نبيا وقائدًا عسكريا ورئيس دولة..إلخ، فلو كانت دعوة الإسلام دعوة قاصرة لجلس رسول ﷺ في المسجد يعلم الناس، و لم يكن يعنيه بناء الدولة الإسلامية وتوطيد أركالها.

المهـــم أن هذا الانفصام أثر على حال العالم الإسلامي روحيا وماديا، فنشأت البدع والخـــرافات العقدية في الدين، وتخلف المسلمون في جميع النواحي العلمية، فلم تعد هناك اختـــراعات أو اكتـــشافات أو نظريات علمية، وكل ما هنالك ما هو إلا اجترار لعلوم السابقين دون إضافة تذكر.

وأثـــناء هذا الجمود المطبق آفاق المسلمون على صفعة قوية من الغرب الناهض؛ حيث هـــاجم الفرنسيون بقيادة نابليون مصر بجيش مسلح بأحدث الأسلحة إلى جانب وجود علماء ومهندسين وكيميائيين..إلخ.

نعـــم لم يـــتمكن الفرنسيون من مصر، ولكن ما حدث يمثل أول احتكاك مباشر مع الغـــرب مـــنذ الحروب الصليبية، هنا وجد المسلمون أنفسهم في حاجة لأن يستفيدوا من الغرب، والعجب أن الغرب يمثل خطرًا على العالم الإسلامي بنواياه وأهدافه الاستعمارية، ومـــع ذلك هو الذي بيده مفاتيح التقدم العلمي، وقد غض المسلمون الطرف عن الخطر الغـــربي المتمـــثل في أهدافه الاستعمارية ورمي بنفسه في أحضان الغرب متقبلاً أن يصبح تلميذًا للغرب؛ فكان "اتصال الإسلام بالحضارة الغربية في هذه المرحلة محصورًا في الجانب المـــادي الآلي مـــنها، أو كذلك أريد له أن يكون، ولم يكن يستهدف أصحابه إلا وصل المسلمين بأسباب القوة؛ لكي يكونوا أندادًا لأعدائهم...

إلى هـــذا المـــدى، وفي هـــذه الحدود، ولهذا الهدف السليم، لم يكن هناك مجال لقيام تعـــارض بـــين الإصلاح وبين الإسلام؛ لأن الأمر كان بعيدًا عن أن يمس نظمه أو قيمه، ولكـــن الأمـــور لم تـــسر على ما أريد لها أن تكون؛ فمع النظم الحربية الجديدة تسربت نظـــريات سياسية وعناصر حضارية وثقافية غربية. فقد استلزمت الإصلاحات العسكرية

الجديدة إصلاحًا في نظم التعليم وفي برامجه، واستلزمت ترجمة كثير من الكتب الأوربية في مختلف العلوم والفنون، واستلزمت استقدام خبراء ومدرسين من الأجانب، كما استلزمت إرسال بعوث علمية إلى مختلف المعاهد الأوربية.

على أن بعض حكام المسلمين كان يتجاوز بالإصلاح حدود الاحتياجات الحربية والتنظيم الصناعي والاقتصادي والإداري، ويعملون على أن تصبح بلادهم جزءًا من العالم الغربي...

ومع حرص بعض المصلحين من ولاة أمور المسلمين على أن يجري الإصلاح في حدود الخبرات الفنية التي تتصل بالجيش والصناعة والزراعة والاقتصاد والتنظيم الإداري، فإن الأمور قد تجاوزت الحدود التي أرادوها وقدروها"[1].

وبعد ذلك جاء الاستعمار فوظف كل جهوده لتفريغ عمليات النهضة العلمية من مضمونها، بل ومحاولة إجهاض أي نهضة علمية سليمة وحقيقية، وذلك باستخدام المستشرقين الذين عملوا على إشغال المسلمين بقضايا تافهة لا تمثل صلب النهضة العلمية؛ فإذا هم يهاجمون الدين الإسلامي باتهامه بأنه سبب تخلف المسلمين، وأن لغتهم العربية لا تصلح لأن تكون لغة العلم، إضافة إلى عملهم الدائب على إخراج المرأة من عفتها وطهارتها تحت مسمى قضية تحرير المرأة، وكأن الهجوم على الدين واللغة والمرأة هي مرتكزات النهضة.

ولم يكتف الاستعمار باستغلال المستشرقين لوأد مشروعات النهضة الحضارية الإسلامية، ولكنهم وزعوا أذيالاً لهم في أرض المسلمين يعملون على نشر روح الانهزامية والتبعية للغرب، فيفسدون ولا يصلحون، مع أنهم يُدّعى لهم على أنهم دعاة التقدمية وأعداء الرجعية، وهم المفكرون الأصلاء التنويريون، ولاشك أنهم الذين ينطبق عليهم قول رسول الله ﷺ: "دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

---

(١) د/محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الخامسة- (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م)- (ص١٦-١٧)باختصار.

قلت[1]: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتا"[2].

إننا في محاولة اللحاق بركب التقدم العلمي والتقني خسرنا كثيرًا من قيمنا ومبادئنا، وبقدر ما استفدنا من الغرب خسرنا من ديننا؛ لأننا أخطأنا الطريق الصحيحة، فإنه لا تعارض بين العلم والدين في الإسلام، و لم يحدث أن كانت هناك عند المسلمين محاكم تفتيش تحاكم العلماء وتصفهم بالهرطقة، ثم تأمر بإحراقهم أحياء.

فالإسلام حث على النظر وأمر أتباعه بذلك، والقرآن فيه من الشواهد ما يغني عن الحصر، وتاريخ المسلمين الأوائل خير شاهد على ذلك.

والمطلوب منا أن لا ننسى إسلامنا، بل نزداد به تمسكًا، وأن نستفيد من الغرب علومه وتقدمه المادي شريطة أن لا يؤثر ذلك على عقيدتنا.

والأمثلة كثيرة على نهضة بعض الدول مع تمسكها بأديانها الوضعية أو المحرفة، فهذه اليابان تخرج من الحرب وهي خاسرة لكل شيء إلا العزيمة والإصرار، فنجحت في سنوات قلائل أن تنافس من جديد، بل وتغزو جميع الأسواق العالمية بمنتجاتها.

٢-التغير السياسي:

كانت السمة الغالبة على العالم الإسلامي أنه كتلة واحدة من أقصاه إلى أقصاه إلا في بعض الفترات التي كانت تتغير فيه تلك السمة.

فمنذ عصر الراشدين والدولة الإسلامية كلٌ لا يتجزأ، ثم تلتها الدولة الأموية وهي على هذا الحال، ثم جاءت الدولة العباسية وهي تحكم من الصين شرقًا حتى المحيط الأطلسي غربًا، وذلك لاستقلال الأمويين بالأندلس في أوربا، وحين ضعفت الدولة العباسية استقلت بعض الدول عنها استقلالاً فعليا ولكنها كانت تخضع لها اسميا، فهي تحت ظل الخلافة وإن استقلت عنها بالحكم، وجاءت الدولة الفاطمية (العبيدية) أثناء

(١) أي: حذيفة بن اليمان.

(٢) أخرجه البخاري في "المناقب"، باب: علامات النبوة في الإسلام- (٣٦٠٦)، ومسلم في "الإمارة"، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين (١٨٤٧).

الخلافة العباسية كعرض زائل، ثم جاءت الدولة العثمانية التي أدت ما عليها حتى أصابها ما أصابها على يد الذئب الأغبر كمال أتاتورك الذي ألغى خلافة المسلمين التي جمعت شملهم على طول تاريخهم، ورغم بعض السلبيات التي كانت تعتريها فإن وجودها لا يستغنى عنه المسلمون بحالٍ من الأحوال؛ لذا عمل الغرب على ضرب المسلمين ضربة تقصم الظهور، فكانت "الفجيعة قاسية على قلوب المسلمين.. ذرفوا معها الدموع، وحاولوا أن يذلوا الدماء فلم يستطيعوا.. وقام القهر السياسي الداخلي في تركيا متمثلا في حملات من القمع الدموي، وقام قهر الاحتلال العسكري في سائر البلاد الإسلامية، وبخاصة في مصر والهند.. حائلاً دون تحرك إيجابي لإنقاذ الخلافة أو إعلانها في مكان آخر"[1].

وكانت الدول الإسلامية قبل سقوط الخلافة بقليل واقعة تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي، وعمل الاستعمار على بث الفرقة بين المسلمين ببعث النعرات الجاهلية كالفرعونية بمصر، والفينقية بسوريا ولبنان، والطورانية في تركيا، ولأول مرة في تاريخ المسلمين توضع الحدود بين الدول الإسلامية، وفي ظل الاحتلال كانت المحاربة للإسلام على أشدها، فكانوا يأملون أن يتنصر المسلمون، وجاءت أقوالهم مؤكدة لذلك في كثير من المؤتمرات، يقول الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر: "إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم"[2].

ولقد ضرب الاستعمار كل الحركات الإسلامية، وأفسحوا المجال للحركات المضادة للدين، ثم اختفى الاحتلال العسكري للبلاد، "وقد كان هذا الاختفاء راجعًا في بعض الأحيان إلى أسباب اقتصادية، لكنه في رأينا راجع في الأرجح إلى وجود البديل الذي يوفر

---

(١) المستشار الدكتور علي جريشة: الاتجاهات الفكرية المعاصرة- دار الوفاء- المنصورة- الطبعة الثالثة- (١٤١١هـ-١٩٩٠م)- (ص٣٦-٣٧).

(٢) جلال العالم: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام وأبيدوا أهله- مكتبة التابعين- القاهرة- (ص٣٨).

الأنفس والأموال التي كان يقتضيها بقاء الاحتلال الأجنبي، وكثيرًا ما يقترن اختفاء الاحتلال بهالة من البطولة تضفى على النظام الجديد"[1].

وقد ظهرت في المنطقة سلسلة من الانقلابات العسكرية التي ساعدتها استخبارات الدول الاستعمارية، وذلك لإجهاض أي توجه إسلامي في الحكم، "وكان أول انقلاب عسكري ابتليت به المنطقة هو عام ١٩٠٨م في تركيا، وكان أول انقلاب بعد المرحلة الجديدة هو انقلاب حسني الزعيم في سوريا ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م، ثم تلته سلسلة انقلابات كان أهمها وأخطرها الانقلاب العسكري في مصر عام ١٩٥٢م- ١٣٧٣هـ"[2] الذي أطاح بالإخوان المسلمين، وحولوا مصر إلى دولة اشتراكية، وكذلك الحال في تركيا عندما وصلت بعض الأحزاب الإسلامية إلى مدة الحكم لم يسع القائمين على المبدأ العلماني إلا أن يقوموا بانقلاب أزال هذه الأحزاب مثلما حدث مع حزب الرفاه الإسلامي بقيادة نجم الدين أربكان.

ويلاحظ على هذه الانقلابات:

"أ-أنها أدت من ناحية الغزو الفكري للعالم الإسلامي "خاصة" أضعاف ما أدته جيوش الاحتلال الأجنبية؛ إذ أعطت القدوة السيئة من قادتها، فضلاً عن أنها مكنت للغزو الفكري خلال وسائل الإعلام وبرامج التعليم، وأنظمة الحكم.

ب-أنها مكنت لدولة اليهود من قيام، ثم مكنتها من التوسع "في حربي ١٩٥٦م-١٩٦٧م"، وأخيرًا أضفت عليها الشرعية بعقد الصلح معها، وهو أمر كانت تهدف له دولة اليهود خلال الثلاثين عامًا المنصرمة و لم يكن هناك من يتشجع للإقدام عليه.

جـ-أنها حاربت الحركات الإسلامية بأقسى مما حاربها به جيوش الاحتلال الأجنبية، مع استخدام تمثيليات محاولة الاغتيال، أو التآمر، أو الاتصال بدولة أجنبية... و"طبخ" القضايا أو تلفيقها، والإلقاء بزعماء الحركات الإسلامية وأبنائها في السجون والمعتقلات مع

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة- (ص٣٩).

(٢) السابق- (ص٤٠).

ما يتعرضون له من تعذيب وتقتيل وتشريد"[1].

ومــــن هذه الأحزاب التابعة للغرب والتي عملت على التغير السياسي لوجه العالم الإسلامي

الأحزاب الشيوعية[2]:

أســـست الشيوعية أحزابا لها في كل الدول العربية والإسلامية تقريبا، فنجد لها أحزابا في مصر.. سورية.. لبنان.. فلسطين.. والأردن.. تونس وغيرها.

ومـــن هـــذه الأحـــزاب: الحزب الديمقراطي الكردستاني، وهو حزب قومي علماني اشتراكي يدعو إلى إنشاء دولة كردية في منطقة كردستان بعد توحيدها.

ففي عام ١٩٢٧م توحدت جميع المنظمات الكردية في حزب (خويبون) الذي أســـه عدد من المهاجرين الأكراد المقيمين في الخارج.

وللحـــزب توجه اشتراكي ماركسي بالإضافة إلى التوجه القومي العرقي، ويعد نضاله جزءا من نضال الحركة الديمقراطية للبروليتاريا "طبقة العمال والفلاحين".

وكان زعماؤه دائما يعلنون عن ارتباط حزبهم برباط الصداقة مع الاتحاد السوفيتي قبل انهياره، والمعسكر الاشتراكي قبل زواله.

ويستخدم الحزب المصطلحات الشيوعية في كتاباته وتوجيهاته مثل: الحزب التقدمي، الطبقة العاملة، طبقة الفلاحين، الطبقة البرجوازية، البروليتاريا... إلخ.

القومية العربية:

حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم، على أســـاس مـــن رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين. وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوربا.

وقد ظهرت بدايات الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

---

(١) السابق- (ص٤٠-٤١).

(٢) استفدنا هنا من الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة- مانع الجهني.

متمثلة في حركة سرية تألفت من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية، ثم في حركة علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرا لها، ثم في حـــركة سياســـية واضحـــة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٢م.

هذا وقد ظلت الدعوة إلى القومية العربية محصورة في نطاق الأقليات الدينية غير المسلمة، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرها، ولم تصبح تيارا شعبيا عاما إلا حين تبنى الدعوة إليها الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر حين سخر لها أجهزة إعلامه وإمكانات دولته، ويمكن أن يقال: إنها الآن تعيش فترة انحســار أو جمود على الأقل.

ومن هذه الأحزاب القومية: الحزب القومي السوري، وهو حزب يدعو إلى القومية العربية، واعتبار الوطن الســوري البيئة التي نشأت فيها الأمة السورية، والقول بأن النهضة السورية تستمد روحها وتاريخها السياسي والقومي من مواهب الأمة السورية، وقد اتخذ الحزب اسم "الحزب القومي الاجتماعي"، وشعاره زوبعة لها أربعة رءوس ترمز إلى: الحرية والواجب والنظام والقوة.

وفي هـــذه الآونة الأخيرة عاد الاستعمار من جديد للبلاد الإسلامية، فها هي أمريكا التي تحت مسمى محاربة الإرهاب تقوم بغزو أفغانستان، ثم العراق، وها هي تهدد السودان بفـــرض عقـــوبات عليه بشأن مسألة دارفور، وتهدد إيران بسبب مسألة محاولة امتلاكها للسلاح النووي، وتفرض عقوبات على سوريا...إلخ.

وتقوم أمريكا بمحاربة الإسلام في كل مكان، فقد جمدت أرصدة المنظمات الإسلامية بدعوى مساندتها وتمويلها للإرهاب، وتقوم بالضغط على الحكومات الإسلامية لمحاربة ما يـــسمونه بـــــ"الأصولية الإسلامية"، وفي هذه الموجة الجارفة يضيع الحق ويظهر الباطل، فالمقاومـــة الإســـلامية في فلسطين والعراق إرهاب، وشارون وبوش ومن على شاكلتهما دعاة سلام وحرية...إلخ.

كـــل هذه الصور تمثل إلى أي مدى بلغ الضعف والوهن بالحكومات والأنظمة العربية والإسلامية، وأنها لا تملك من أمرها شيئًا.

٣-التغير الديني:

لقد وصل الحال بالمسلمين أن أصبح الإسلام مجرد مظاهر خارجية وتقاليد يحافظ على شكلها أكثر من المحافظة على مضمولها، وهذا هو الجمود بعينه؛ فالعقيدة الحية في القلوب تدفع أصحابها للعمل دون ملل أو كسل... العمل الجاد المثمر الذي يشع النور والهداية في جميع جوانب الحياة.. العمل الذي يحتسب صاحبها كل أعماله عند الله ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

هـذا الفهم هو الذي حمل الإسلام إلى الدنيا بأسرها، ولكن هذا الفهم أصابه الخلل وأصبح الإسلام محصورًا في بعض الشعائر والأوراد والأذكار.

وقـد شـارك الصوفية والفقهاء في تعميق هذا الخلل؛ حيث أشاع الصوفية بين الناس كـره الدنـيا والدعوة إلى اعتزالها وترك الجهاد بمفهومه الواسع، وحصره في جهاد النفس متمـسحين بقـول منسوب إلى النبي ﷺ يقول فيه -إثر عودته من غزوة من الغزوات: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"[٢].

فأصبحت غاية المسلم هي الدروشة، بأن يجلس في تكية من التكايا أو زاوية من الزوايا تاركًـا العمـل والكـسب مدعيا أنه متوكل، وزاعمًا أن الأخذ بالأسباب ينافي كمال التوكل.

---

(١)الأنعام:١٦٢-١٦٣.

(٢) أخرجه البيهقي في "الزهد" من حديث جابر كما قال الحافظ العراقي في "المغني عن حمل الأسفار" (٢٥٦٧) وقال: "هذا إسناد فيه ضعف". وذكره العجلوني في "كشف الخفاء" وقال: "قال الحافظ ابـن حجـر في "تسديد القوس": هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة". انتهـى. وقال في "تخريج الكشاف": "هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث بـن أبي سـليم، والثلاثة ضعفاء، وأورده النسائي في "الكنى" من قول إبراهيم بن أبي عبلة أحد التابعين من أهل الشام" وقال شيخ الإسلام في "الفتاوى" (١١/١٩٧) "لا أصل له، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله. وانظر "الضعيفة" (٢٤٦٠).

وزادت الطــرق الــصوفية وكثر أتباعها، وزاد الاعتقاد في الأولياء والمشايخ، وهذا انحراف خطير في العقيدة.

أما الفقهاء فقد كان التعصب لمذهبهم هو الـسمـــة الغالبـــة عليهـــم، وثارت بينهم المناوشـــات الـــتي قـــد تصل إلى حد التشابك بالأيدي والاعتداء بالضرب، واستخـــدام الـــسلطـــان لنـــصرة فريق على الآخر. هذا إلى جانب جمودهم على أقوال علمائهـــم، وإعطائهـــا العـــصمة، واعتبار أن نصوصهم مقدسة، وهذا من التبلد العقلي الذي أصاب الفقهـــاء، و لم يكـــن جهدهم في المذهب إلا بكتابة الحواشي والشروح على متون كتب المتقدمين.

ومع أن العصر قد اختلف عن سابقه؛ لأن المجتمعات دائمًا في تطور في جميع النواحي، فـــإن الفقه لم يتطور مع المتغيرات، بل وأعلن الفقهاء غلق باب الاجتهاد، "وبذلك حدث لأول مـــرة في تاريخ المسلمين أن ضاقت دائرة الفقه الواقعي بل والافتراضي عن الإحاطة بأحـــداث الحياة كلها، وكان الذي ضاق –بطبيعة الحال- هو فقه المتون والحواشي، و لم تضق الشريعة نفسها وما كان لها أن تضيق.

يقول الشيخ محمد الغزالي: مع أن الزمن لا يقف، ومع أنه تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثـــوا من فجور، ومع أن الجماعة الإنسانية تدخل في أطوار متباينة من ناحية العلاقات الدولـــية والأوضاع الإدارية والاقتصادية والسياسية، ومع ضرورة بقاء الدين مهيمنًا على توجيه القافلة السائرة، مع هذا كله فإن التفكير الإسلامي الفقهي توقف في أغلب ميادين المعاملات إن لم يكن جمد فيها كلها، وأغلقت أبواب الاجتهاد بضعة قرون حتى انكسرت أخـــيرًا تحـــت ضـــغط الحاجـــات الملحـــة، وصحب انكسارها فوضى منكرة في الفهم والتطبيق... اهـــ.

والمؤســـف أن الـــذي حصل أول الأمر هو أن باب الاجتهاد لم يفتح و لم يكسر بل استوردت القوانين الأجنبية الكافرة"[1].

اســتوردت تلـــك القوانين حينما تنكرنا لديننا، واتهمناه بالعجز، و لم يكن العجز منه

---

(١) العلمانية- (ص٥١٢-٥١٣).

ولكنه منا، وكما قيل:

ومـــا لــــزماننا عـــيب ســــوانا نعـــيب زمانـــنا والعـــيب فيـــنا
ولـــو نطـــق الـــزمان لـــنا هجانـــا ونـــشكو ذا الـــزمان بغـــير ذنـــب

وأصـــلح ما نصف به حال الدين هو "الدين بين عجز أبنائه وكيد أعدائه"، نعم لقد ضـــغط الأعـــداء علينا حتى صرنا في ركابه، ولقد ثارت معركة بلا أرض؛ حيث حاول أذيـــال الغرب والمستشرقون من قبلهم أن يوهموا المسلمين أن التقدم مرهون بطرح الدين، كما ثار الغرب من قبل على الكنيسة، ونتيجة للطعن المستمر من قبل أعداء الدين ظهرت اتجاهات ثلاثة:

١-اتجاه طرح الدين خلف ظهره، وأعلن إلحاده.

٢-اتجاه آمن ببعضٍ وكفر بآخر، مثل من آمن بالصلاة والحج والصوم مع عدم إيمانه بتدخل الإسلام في شئون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فالدين في القلب ولا مجـــال له في الحياة، والدين في المسجد ولا أثر له في خارجه، فالدين وظيفته مقصورة على الوعظ والتهذيب الخلقي فحسب.

٣-اتجاه إسلامي أصيل، رأى أن الإسلام دين شمولي، كما قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[1].

علـــى كـــلٍ فـــإن الاتجاهين الأولين هما اللذان كتب لهما الظهور بسبب الاستعمار، واستخدام المستشرقين الذين كان من أثرهم على المسلمين:

"١-بلـــبلة الأفكـــار وتشويه صورة الإسلام الصحيحة في عقول الكثيرين بالشبهات الـــزائفة، والأكاذيب الباطلة، حتى غاب الكثير من مفاهيم الإسلام الصحيحة عن أذهان غالبية المسلمين، وصاروا يحتاجون بشدة إلى تصحيحها.

٢-إخـــضاع النصوص الشرعية لأهواء الرجال وآرائهم، مما أدى إلى تحريف معانيها، مع تعمد إساءة فهمها، ونشر هذه المفاهيم الخاطئة بين تلاميذ المستشرقين.

٤-صرف المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، ودفعهم إلى التصوف، وتشجيعهم على

---

(١) البقرة:٢٠٨.

التمسك به لما فيه من شغل النفس بغير الجهاد.

٥-الطعـــن في الكثير من مراجع الدين، من تراث أئمة المسلمين وكتبهم القيمة، والتي تعد أساسية لفهم الإسلام"[١].

وسيتم دراسة الاستشراق بالتفصيل في التغير الفكري.

من عوامل التغير الديني وبعض مظاهره:

التنصير:

ومـــن العوامل التي حاولت خلخلة عقيدة المؤمنين، وكان لها أثر في بعض الأماكن من البلدان الإسلامية التنصير؛ فقد كان همّ القائمين عليها إدخال المسلمين في النصرانية، فكثفوا مـــن جهـــودهم، ولكن باءت محاولاتهم بالفشل الذريع، ولكنهم لم ييأسوا ورضوا بزعزعة إيمان المسلم ببث الشبهات والأضاليل حتى يخرج جيل مسلم لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، ولا ضير إذن أن لا يدخل في النصرانية.

وكـــان لتحقـــيق هـــذا الهـــدف عدة محاور ارتكز عليها العمل الكنسي الموجه ضد المسلمين:

المحور الأول: تزييف العقيدة

وقـــف الغرب على نتيجة مهمة، وهي أن المسلم ينتصر بعقيدته السليمة، فكان "لابد إذن في نظـــر الغـــرب من تزييف هذه العقيدة، وامتصاص ما فيها من قوة وجهاد وإيمان، وكذلك بتحويل العقلية الإسلامية عن فهمها الصحيح لهذه العقلية بإثارة الشبهات حولها وحـــول فكـــرها الإسلامي، وذلك كمقدمة لتذويبها في الفكر الغربي باعتباره هو الفكر العالمـــي المسيطر، وبذلك يفقد العالم الإسلامي عقيدته ويستسلم للاحتواء الغربي ويسقط فريسة ذليلاً في يده"[٢].

---

(١) مذاهب فكرية في الميزان- (ص٢٣).

(٢) مجـــدي عبدالمجيد الصافوري: سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية، دار الصحوة للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م،، ص(٣٣٢).

ومـــن الوســـائل المـــستخدمة لهذا الغرض ما يسمى بـــ"حوار الأديان"، وهي دعوة ماســـونية تستغل النصارى في القضاء على الإسلام وإخضاع شعوبه، وتتخذ هذه الدعوة أسماء جذابة مثل: الدعوة للعالمية، أو التوفيق بين الإسلام والنصرانية، أو الدعوة إلى الإيمان الإبراهيمي، وأحيانا تحت مسمى حوار الأديان.

وتقوم فلسفة هذه الدعوة على زعم أن هناك قواعد مشتركة بين الإسلام والنصرانية، كالإيمـــان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وتكريم أم المسيح -عليه الصلاة والسلام- وأن الخلاف بين الإسلام والنصرانية خلاف شكلي وليس بجوهري.

بـــدأت هـــذه الدعوة من جانب النصارى منذ أوائل القرن العشرين، وتبنتها الصهيونية العالمية من خلال عقد العديد من المؤتمرات بدعوى التقريب بين الإسلام والنصرانية.

المحور الثاني: القضاء على القرآن ومحوه

يعلـــم الغـــرب النصراني علم اليقين أن "القرآن هو المصدر الأساسي لقوة المسلمين، وبقاءه بين أيديهم حيا يؤدي إلى عودتهم إلى قوتهم وحضارتهم.

-يقـــول المبـــشر وليم جيفور بالكراف: متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيدًا عن محمد وكتابه.

-ويقول المبشر تاكلي: يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه حتى نقضي عليه تمامًا.

يجـــب أن نـــبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديدًا، وأن الجديد فيه ليس صحيحًا"[1].

المحور الثالث: تدمير أخلاق المسلمين وعقولهم وصلتهم بالله وإطلاق شهواتهم

يحـــاول المنصرون وأذنابهم "صبغ الحياة الإسلامية الاجتماعية بالصبغة التحللية، وذلك مـــن خـــلال إشـــاعة الفساد والرذيلة في أوساط المسلمين، وإتاحة الفرصة للشباب من الجنسين لأخذ نصيب وافر من الانحلال"[2].

---

(١) قادة الغرب يقولون، ص(٦٢-٦٣) باختصار.

(٢) وسائل المنصرين www.aliman.org.

والأمـثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ولكننا نعرض صورة منها ليعرف القارئ إلى أي مــدى بلغ تركيزهم على هذا الأمر، فبعد عودة روح الإيمان لألبانيا، وشعورهم "بأن لهــم إخــوة حــول العالم جاءوهم يحملون إليهم بعض الخير المكنون في صدور وقلوب المسلمين العرب.

وفي الــوقت الــذي كانت المساجد تعمر وتشيد، والكتاتيب تنتشر، والحفاظ يزداد عــددهم.. كانت مكاتب العون والمساعدة والمستشفيات والمستوصفات تفتتح والمرضى المساكين يجدون دواءهم عند أطباء عرب ومسلمين.

ولكــن في بلد مثل ألبانيا لا يمكن للفاتيكان أن يسكت أو يصمت طويلا، فافتتح له سفارة وانتشرت جمعيات التبشير والتنصير لشعب بفطرته مسلم، لكن ولم لا؟ فالكل يريد قطعــة من الكعكة الألبانية، والمساعدات الأوربية مرهونة بفتح الباب على مصراعيه أمام المبشرين.

كانــت المعادلــة صــعبة؛ فالجمعيات الإسلامية لا تكاد تصل إلى الرقم ١٠، بينما الأخــرى تتخطــى ٢٠٠؛ أي أكثــر من ٢٠ ضعفا، فشل الآخرون في تحويــل قبلــة الألــبــان، فلجــئوا إلى حــيلة أخــرى: لماذا لا يستعينون برجال الأعمال من الطليان واليونانيين وغيرهم للاستثمار في اللحم البشري الألباني عبر فتح كباريهات وكازينوهات ومراقص، وعبر نشر الرذيلة التي قد تغري الكثيرين بمردودها.. وكما ازداد عدد المساجد زرعــت تيرانــا العاصمة وحدها بآلاف المقاهي والكازينوهات، وانتشرت الملاهي الليلية وصــالات الديــسكو، وعــرفت ألبانيا الموضة والزي القصير والسهر والرقص والخمور والمافيا"[1].

هــذا هــو الدور الذي يقوم به المنصرون في ظل حماية الفاتيكان والدول الغربية، ولا يعجــب المرء من ذلك إذا علم أن "الكنيسة تدار فيها الخمور وتقام فيها حفلات الرقص

---

(١) د.حمــزة زوبــع، كــان يــا مــا كــان.. ذكــريات عاشق لبلاد الألبان، ٢/١٢/٢٠٠٣، www.islamonline.net بتصرف.

الماجن للمراهقين والمراهقات من أجل استهواء الشباب وجلبهم إلى النصرانية"[1].

والأمــر غــير متوقف على أهل المدن والحضر، بل "اهتم المبشرون بالريف الــذي يتميـــز بمحافظــته علــى التقاليد الإسلامية، مما يجعله أقل تقبلاً للإفساد، إلا أن تفشي الجهـــل والمــرض وغلــبة العــوز على أبنائه يتيح لهم مناخًا مناسبًا، فأنشأوا المراكز الاجتماعــية والصحية والمهنية وأسسوا المدارس والمحاضن المختلفة ونظموا برامج توطين البدو ومحو الأمية بين الكبار بهدف النفاذ إلى عقول أكبر قدر ممكن من طبقات وقطاعات الشعب"[2].

وهذا الفساد أصبح واقعا من خلال الإعلام المرئي والمقروء، الذي أصبح تجارته الرابحة هــي عرض النساء بصور متهتكة، بدعوى التمدن والتحضر، إلى جانب القصص المتكررة عن العلاقة بين الرجل والمرأة التي تدور في فلك واحد ولا تتغير، مما يدلل على أنها مؤامرة مدروسة موجهة لبلوغ مأرب معروف.

"يقــول صموئيل زويمر رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد عام ١٩٣٥م: إن مهمة التبشير التي ندبتكم الدولة المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن هذا هداية لهم وتكريمًا.

إن مهمــتكم أن تخــرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية.

لقــد هيأتم جميع العقول في الممالك الإسلامية لقبول السير في الطريق الذي سعيتم له، ألا وهــو إخــراج المــسلم من الإسلام، و لم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإســلامي مطابقًــا لما أراده الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، ويــسعى للحصول على الشهوات بأي أسلوب، حتى أصبحت الشهوات هدفه في الحياة، فهو إن تعلم فللحصول على الشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز

---

(١) وسائل المُنصرين www.aliman.org.

(٢) العلمانية، ص(٥٥٤).

ففـــي سبيل الشهوات... إنه يجود بكل شيء للوصول إلى الشهوات، أيها المبشرون: إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه"[1].

إفساد المرأة المسلمة

لماذا المرأة؟

يتـــبادر إلى أذهان الجميع لماذا التركيز على المرأة المسلمة من قبل الغرب ومن قبـــل أذنابـــــه المستغربين العلمانيين، والسر أن هؤلاء فطنوا لمكانة المرأة الأساسية ودورها في صـــنع الأمة، وتأثيرها على المجتمع؛ لذا أيقنوا أنهم متى ما أفسدوا المرأة ونجحوا في تغريبها وتـــضليلها، فحين ذلك تهون عليهم حصون الإسلام، بل يدخلونها مستسلمة بدون أدنى مقاومة.

يقول أحد المبشرين: كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرقوها في حب المادة والشهوات.

ويقـــول لاسي: إن التربية المسيحية أو تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للإسلام داخـــل حصنه المنيع -الأسرة- عدوًا لدودًا وخصمًا قويًا لا يقوى الرجل على قهره؛ لأن المســـلمة التي تربيها يد مسيحية تعرف كيف تتغلب على الرجل، ومتى تغلبت عليه أصبح مـــن السهل عليها أن تؤثر على عقيدة زوجها وحسّه الإسلامي، وتُربي أولادها على غير دين أبيهم، في هذه الحالة نكون قد نجحنا في غايتنا من أن تكون المرأة المسلمة نفسها هي هادمة للإسلام.

ويقـــول أحدهم: وبما أن الأثر الذي تُحدثه الأم في أطفالها ذكورًا وإناثًا بالغ الأهمية، وبمـــا أن النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة، فإننا نعتقد أن الهيئات التبشيرية يجب أن تُؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة في التعجيل بتنصير البلاد الإسلامية.

لـــذا فقـــد اهـــتموا بفتح المدارس وشجعوا المرأة على الالتحاق بها فنادوا بضرورة

---

(١) قادة الغرب يقولون، ص(٦٥-٦٦).

التعـليم ووضـعوا لهـا برامج ومناهج تُبعدها عن دينها وتزرع في قلبها الحقد عـلى الإسلام وأهله.

ومن شدة حرصهم على إفساد المرأة يقول أحدهم ويُدعى "جب": إن مدرسة البنات في بـيروت هـي بؤبـؤ عيني.. لقد شعرت دائمًا أن مستقبل سوريا إنما هو بتعليم بناتها ونسائها.

وكـان اهـتمامهم بالمدارس الداخلية أشد، كذا اهتموا بإنشاء دور لإيواء الطالبات المغتـربات؛ حـيث يؤدي ذلك إلى انتزاعهن من بيتهن المسلمة، ووقوعهن تحت سيطرة التبشير مباشرة، وقد قال المنصرون في ذلك: إن التبشير يكون أتم حبكًا في مدارس البنات الداخلـية، ممـا يكـون فـيها من الأحوال المواتية والفرص السانحة؛ ولأنها تجعل الصلة الشخصية بالطالبات أوثق؛ ولأنها تنـزعهن من نفوذ حياة بيتية غير مسيحية.

وتقـول المبـشرة آن ميلـيجان: في صـفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشـاوات وبكوات، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي، وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة.

كذلك وضعوا البرامج لها، وأكثروا من الاستعانة بالجمعيات النسائية في أمريكا.

وأعلـن المؤتمـر التنفيذي الذي عُقد في القاهرة عام ١٩٠٦م: أنه لا سبيل إلا بجلب النسـاء المـسلمات إلى المـسيح، إن عدد النساء المسلمات عظيم جدًا، لا يقل عن مائة مليون.. نحن لا نقترح إيجاد منظمات جديدة، ولكن نطلب من كل هيئة تبشيرية أن تحمل فرعها النسائي على العمل، واضعة نصب عينيها هدفًا جديدًا هو الوصول إلى نساء العالم كلهن من هذا الجيل.

وكـان مـن جهود المنصرين إنشاء النوادي النسائية، ودفع الكتب الموجهة إلى المرأة المسلمة.

ممـا سبق يظهر لنا أن أعداء الإسلام يعلمون أن أقصر طريق يؤدي إلى حصن الأسرة في المجتمع الإسلامي، وبالتالي أسهل وسيلة لنقل الأفكار والفساد؛ لأن فساد المرأة يترتب

عليه فساد النشء والأسرة والمجتمع من حولها؛ فقد رأى المنصرون أن حجاب المرأة المسلمة يقف سدًا منيعًا دون إفسادها وبالتالي إفساد الأجيال المؤمنة، فبذلوا كل جهودهم لإخراجها من حرزها الذي لم يستطيعوا اقتحامه عليها، ولا شيء يعدل التعليم في ذلك.

كما سخروا أجهزة الإعلام المختلفة، وأنشأوا مراكز الفساد تحت ستار الترفيه أو الفنون للغرض نفسه.

ولقد كان من أفحش النتائج المدمرة، بسبب هذا الاختلاط، ظهور عادات وأخلاقيات جديدة في المجتمع، تحادّ الدين وتضاده، أو تتنافر مع ذوقه وآدابه في أقل الأحوال!

وكان ما أصاب المرأة المسلمة من ذلك بالذات هو المقتل الذي أسرع بالمجتمع نحو هاوية سحيقة ما لها من قرار!

فلم تكن الدعوة إلى ما أسموه "تحرير المرأة"! إلا مؤامرة رهيبة، على البيت المسلم لتدميره من الأساس، وتحويل مساره إلى وجهة مضادة لم تحدث قط في تاريخ المسلمين، حتى في أشد فترات ضعفهم أو فسادهم أو هزيمتهم، فكان من ذلك سفور المرأة المسلمة حتى العري والتهتك، ثم انحلالها الخلقي، واندفاعها الفجائي إلى خارج البيت لتزاحم الرجال في كل مجال، حتى مجالات الخلاعة والمجون والاستهتار!

لقد كانت المرأة في بلاد المسلمين –بلاشك- محتاجة إلى التعليم والثقافة والدراسة، لكن حين تولى قضيتها المفسدون في الأرض، قادوها إلى شر مهلك، وجعلوها نكبة النكبات على أمتها ودينها، وعلى مستقبل الأجيال التي تقوم بتربيتها، وقد استغل المفسدون حاجة المرأة، وغفلة الأمة، وجهل قادتها، أو فسوقهم عن أمر الله ﷻ، وليس أدل على ذلك من تعهد الطاغية إسماعيل "حاكم مصر" لملوك أوروبا بأن يطلق الحرية للمرأة المسلمة؛ لأنهم كانوا يدركون تمامًا خطورة هذا الأمر، وأهميته البالغة في إحداث الانقلاب الحاسم في مسار الإسلام، ثم كفالة امتداد آثار هذا الانقلاب لآماد بعيدة لا يبلغونها عن غير هذا الطريق، ولعل هذا هو عين ما لحظه المبشر المتعصب القس "زويمر" في

وصاياه للمبشرين؛ إذ يقول مركزًا آماله على هذا الجانب الاجتماعي الخطير:

تبـــشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم، ومن بين صفوفهم؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها!

ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة؛ إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين، وتحرير النساء[1].

المحور الرابع: تشكيك المسلمين بدينهم

"في كـــتاب مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين يقول: إن المسلمين يدّعون أن في الإســـلام مـــا يلبي كل حاجة اجتماعية في البشر، فعلينا نحن المبشرين أن نقاوم الإسلام بالأســـلحة الفكرية والروحية"[2]، وهذا يعملونه على نطاق واسع خاصة لدى القراء من أرباع وأنصاف المثقفين.

ومـــن أبرز القضايا التي يتكلمون عنها: قضية الرق، وتعدد الزوجات، وقضية الجهاد، وهـــذا الثلاثـــي لا تجـــد منصّرًا في الدنيا يتكلم عن الإسلام إلا ويبرز هذه الأمور الثلاثة ويحاول أن يشكك المسلمين في دينهم من خلالها[3].

ومـــن التغيرات الدينية الخطيرة ظهور الإلحاد في المجتمعات الإسلامية، والإلحاد مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى:

- فيدعي الملحدون أن الكون وجد بلا خالق.
- وأن المادة أزلية أبدية، وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت.

ويعـــد أتباع العلمانية هم المؤسسون الحقيقيون للإلحاد، ومن هؤلاء: أتباع الشيوعية، والوجودية، والداروينية، والفرويدية...إلخ.

---

(١) انظـــر: العلمانـــية، ص(٥٥٥)- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص(١٤٣-١٤٤)- شبكة الحصن للعلوم النفسية والإنسانية www.bafree.net.

(٢) قادة الغرب يقولون، (٧١-٧٢).

(٣) انظـــر: وسائل المُنصرين www.aliman.org- الحوار الذي أجراه حميد المهدي مع د.حاتم العناية لمجلة العالم الإسلامي www.muslimworldleague.org.

ولقد انتشرت الحركات الإلحادية بين المسلمين في الوقت الحاضر، فبدأت بعد سقوط الخلافة الإسلامية؛ حيث صدر كتاب في تركيا عنوانه: مصطفى كمال للكاتب قابيل آدم يتضمن مطاعن قبيحة في الأديان وبخاصة الدين الإسلامي. وفيه دعوة صريحة للإلحاد بالدين وإشادة بالعقلية الأوربية.

وإسماعيل أحمد أدهم حاول نشر الإلحاد في مصر، وألف رسالة بعنوان: لماذا أنا ملحد؟ وطبعها بمطبعة التعاون بالإسكندرية قرابة سنة ١٩٢٦م.

أما إسماعيل مظهر فقد أصدر في سنة ١٩٢٨م مجلة العصور في مصر، وكانت قبل توبته تدعو للإلحاد والطعن في العرب والعروبة طعنا قبيحا معيدا تاريخ الشعوبية، ومتهما العقلية العربية بالجمود والانحطاط، ومشيدا بأمجاد بني إسرائيل ونشاطهم وتفوقهم واجتهادهم.

ولقد أسست في مصر سنة ١٩٢٨م جماعة لنشر الإلحاد تحت شعار الأدب، واتخذت دار العصور مقرا لها، واسمها رابطة الأدب الجديد، وكان أمين سرها كامل كيلاني.. وقد تاب إلى الله بعد ذلك.

وفي سنة ١٩٣٠م ألف إسماعيل مظهر حزب الفلاح ليكون منبرا للشيوعية والاشتراكية، وقد تاب إسماعيل إلى الله بعد أن تعدى مرحلة الشباب وأصبح يكتب عن مزايا الإسلام.

ومن الشعراء الملاحدة الذين كانوا ينشرون في مجلة العصور:

-الشاعر عبداللطيف ثابت الذي كان يشكك في الأديان في شعره.

-والشاعر الزهاوي ويعد عميد الشعراء المشككين في عصره.

الانحراف ومظاهره المختلفة (الإدمان- الإباحية...)

ومن المظاهر التي تدل على ضعف الدين في النفوس العبّ من الشهوات واتباع الأهواء، وما هلكت الأمم السالفة إلا بانحطاط أخلاقها وانحرافها عن الصراط السوي.

ومما يدلل على هذا الانحراف تزايد معدلات الإدمان بين الشباب بدءاً من التدخين وانتهاء بالسموم البيضاء والمشروبات الكحولية (الخمر)، ولا فرق في الانحراف بين الرجال

والنـــساء، فأصبحت اليوم وأنت تمر في الشوارع تجد النساء على المقاهي يدخن ويشربن النرجيلة، وما خفي كان أعظم.

وأعظـــم ما يُدعِّي للانحلال الديني وسائلُ الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة؛ فالبطل أو البطلة لا تكتمل ملامح شخصيته إلا بالتدخين، وشرب الخمور من العصرية والتحضر، والصداقة بين الرجال والنساء (المخادنة) شيء غير مستنكر.

فهذا السيل الجارف من الأفلام والمسلسلات وأغاني الفيديو (الكليبات) تؤكد مفهومًا واحدًا هو التحلل الديني والإباحية.

هـــذه الســـموم تفرض على المجتمعات الإسلامية فرضًا حتى تسللت هذه الأفعال غير الدينية والأخلاقية بين الشباب، وأصبح أمرًا غير مستنكر أن تجد فتى وفتاة في أوضاع غير أخلاقية في الحدائق والمتنزهات العامة أمام جمهور الناس دون حياء أو خجل.

وهـــذه الانحـــرافات تنشأ في عدم وجود دولة إسلامية ترشد الناس للحق والصواب، وأكـــبر دليل على ذلك أفغانستان التي احتلتها أمريكا وأزالت حكم طالبان، ما هي نتيجة هـــذا الغـــزو؟ لقـــد أصبحت أفغانستان من أكبر الدول في زراعة النباتات المستخدمة في المخدرات!!

موجة الإعراض والغفلة عن الدين:

ففـــي معترك الحياة وطحنها الناس في مادية قاتلة أصبح الكل مشغولا بتحصيل قوته، ومن أجل الحصول على المال يفعل المرء أي شيء ويمتطي أية وسيلة؛ فلا عبرة بحل الوسيلة أو حرمتها، فقد يعمل في حانات الخمور ولا يستحرم ذلك، وقد يتعاون مع المحتل الغازي -كما يحدث في العراق- ولا يهمه ذلك، ولا يتورع عنه.

وهـــذا كلـــه من الغفلة المستحكمة على قلوب الناس، ولو أن الإيمان يملأ على المرء جوانحه لتعامل بما يمليه عليه هذا الإيمان ولو خالف من الأرض كلهم جميعًا، وصدق الذي قال: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم على أرضكم.

وهـــذه المـــوجة من الإعراض والغفلة عن الدين لا تختص بفئة، فالفقير تجده يضرب بـــسهم في إعراضـــه عن الدين كالغني، وكل له طريقه في الإعراض أو الغفلة؛ فالفقير -

مثلا- قد لا يتورع عن أخذ الرشوة من الناس حتى يمضي لهم مصالحهم، وقد لا يتورع عن خيانة صاحب العمل، وكل ذلك بدعوى تربية أولاده، ونسي قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾(1).

أما الغني فقد يحتكر البضائع لكي ترتفع الأسعار على الناس فتتضاعف مكاسبه، ويضرب صفحًا بقول النبي ﷺ: "من احتكر فهو خاطئ"(2).

ظهور واستمرار التيارات الدينية المنحرفة:

ومن الآثار السيئة على المسلمين وجود بعض المذاهب المنحرفة إلى الآن، ومما يزيد الطين بلة توليها مقاليد الحكم، فالنصيريون المنتسبون للشيعة -وهم قلة- يحكمون الآن في بعض البلدان العربية ويضربون بيد من حديد على أهل السنة، وشيعة إيران الذين يضطهدون أكثر من عشرة ملايين سني في دولتهم، ومحاولة نشر المذهب الشيعي بين السنة، وهناك من يتأثر بهم ويدخل في مهامه لا يعلم أن أحدًا نجا منها إلا من رحم الله.

وهناك التيارات الدينية الهدامة التي تتمسح في الإسلام، والإسلام منها براء؛ مثل البهائية والقاديانية التي تنتشر الآن في أوربا والتي كان مهد دعوتها كل من الهند وإيران، وقد حكم علماء المسلمين بأنهم ليسوا مسلمين لإبطالهم لشرائع الإسلام وادعاء زعمائهم النبوة، وأخذهم من اليهودية والنصرانية..إلخ.

٤-التغير الاجتماعي:

حدثت تطورات خطيرة في المجتمع المسلم، وظهرت هذه التغيرات إثر الاستعمار الغربي، وانفتاح المسلمين المبهورين على الغرب، وفرض الأوضاع الاجتماعية الغربية بالقوة على المسلمين.

ولقد بدأ هذا التغير السافر يطفو على السطح عندما انبهر بعض المسلمين بأخلاق

---

(١) النساء:٩.

(٢) أخرجه مسلم في "المساقاة"، باب: تحريم الاحتكار في الأقوات (١٦٠٥).

الغــرب الاجتماعــية رغــم أنهــا تنافي الدين الإسلامي؛ فالشيخ رفاعــة الطهطــاوي يــتحــدث عــن الرقص فيقول: "ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس وكأنه نوع مــن العــياقــة والــشلبنة؟ لا مــن الفسق، فلذلك كان دائمًا غير خارج عن قوانين الحياء، بخــلاف الرقص في أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء لأنه لتهيــج الشهوات، أما في بــاريس فإنــه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدًا، وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معهــا فــإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية، وهكذا، وسواء كان يعرفها أو لا، وتفــرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد، كما قال الشاعر:

ولا ألفــا خلــيل كــل عــام   أيــا مــن لــيس يرضــيها خلــيل

فهــم لا يــصبرون علــى طعــام   أراك بقــية مــن قــوم موســى

وقــد يقع في الرقص رقصة مخصوصة بأن يرقص الإنسان ويده في خاصرة من ترقص معــه، وأغلــب الأوقات يمسكها بيده، وبالجملة فمس المرأة أيا كانت في الجهة العليا من الــبدن غير عيب عند هؤلاء النصارى، وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عد هذا من الأدب"[(١)].

فالــشيخ هنا مبهور بالغرب أيما انبهار، ثم جاء الاحتلال الذي هاجم الأخلاق بكلتا يديــه، وحــاول نــشر العهر والفجور عن طريق الملاهي الليلية والسينمات والمسارح والمجــلات والجرائد، وبدأت البلاد الإسلامية تتسابق في السفور، وبدأت في مصر على يد قاســم أمين كدعوة نظرية ثم حدث التطبيق على يد سعد زغلول الذي نزع النقاب عن وجــه اللائي استقبلنه إثر عودته من المنفى، وما سمي ميدان التحرير بذلك الاسم إلا لأنه شهد حادث نزع النساء للحجاب، وهذا من باب التلبيس على المسلمين.

وكــذلك الحــال في بلاد المغرب والشام وغيرها من البلدان، حتى بدا هــذا الأمــر كأنــه عادة مستقرة بين الناس ومن العادات الوافدة كذلك "البوي فرند" وهي اســم

---

(١) العلمانية- (ص٦٢٥).

مستعار عن المخادنة، فتجد الدعوة للتقارب بين الفتيان والفتيات ومحاولة إبراز أن هذا الأمر طبيعي وضروري بين الشباب، والشاذ وغير الطبيعي هو الذي ينأى بنفسه عن هذه الأمور.

ولهذا انتشر الزواج العرفي بين شباب الجامعات، وأصبح ظاهرة يجب التوقف أمامها، ومحاولة دراسة أسبابه وطرق علاجه.

ونتيجة لانتشار الزنا تحت أسماء كثيرة؛ منها: الحب، العاطفة، الزواج العرفي! كثرت أولاد الزنا الذين امتلأت بهم الملاجئ والذين لا يجدون لهم عائلاً يحوطهم برعايته وحنانه وعطفه.

وما يحدث يؤكد انحسار التوجيه الأسري، وانعدام دور المؤسسات التربوية؛ فالأسرة لا قيام لها في حالة انتشار المخادنة أو ما يسمى بالزواج العرفي، فالكل يشبع نهمته كالبهائم دون تحمل لمسئولية، هذه المسئولية التي دعا الإسلام إلى تحملها فقالﷺ: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؛ فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها..."الحديث[1].

وهذا كله يدفع بالنظام الاجتماعي كله إلى السقوط في مهاوٍ سحيقة من الرذيلة والانحراف؛ لأن النظام الاجتماعي قائم على الأسرة، والأسرة إن حدث فيها ما يخل بها فالخلل يصيب النظام المجتمعي بأسره.

ومما زاد في التفكك الأسري زيادة معدلات الطلاق التي تعبر عن مرض اجتماعي خطير، وهو عدم الاستقرار بين الأزواج، هذا الأمر الذي يترتب عليه ضياع الأولاد الذين لا يجدون القدوة الحسنة في الأبوين، مما يؤدي بهم للوقوع في براثن الشيطان.

وكذلك مما يدفع للتفكك الأسري اختلاط الرجال بالنساء دون ضوابط شرعية؛

---

(١) أخرجه البخاري في "الاستقراض"، باب: العبد راع في مال سيده (٢٤٠٩)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم في "الإمارة"، باب: فضيلة الإمام العادل (١٨٢٩).

حـيث يـؤدي الاخـتلاط غير المنضبط بأن يفتن بعض الرجال بنساء أجنبيات من غير أزواجه، أو العكس، وتقام علاقات غير شرعية تؤثر على علاقة الرجل بزوجته الشرعية، أو علاقتها مع زوجها.

أما المؤسسات التربوية، فلم تعد تهتم بالتربية الإسلامية، بل تنقل المناهج الغربية وتملأ عقول الأولاد بكلام قد يخالف الدين في بعض الأحيان، وأصبح الاهتمام من المدرسين هو كيفـية تحـصيل الأمـوال من الطلبة عن طريق الدروس الخصوصية، و لم يعد أمر التربية السليمة تهمهم.

وكـذلك المناهج التي يتم بها التطويرا.... هذا التطوير الذي يحاول أن يكون نسخة شـائهة من المناهج الغربية، بل تأتي المنح من بعض الدول الغربية باسم تطوير المناهج وهو في الحقيقة إفساد للمناهج، وبلغ من وقاحة دولة ما تدعي أنها دولة الديمقراطية والحرية في العالم أنها تحاول التدخل في شئون بلد إسلامي متهمة منهجه الإسلامي الأصيل بأنه يوجد تربة صالحة للإرهاب.

الـصغار هـم مادة الإسلام، والقيام على تربيتهم تربية إسلامية يبشر بالخير للإسلام والمسلمين، وإهمالهم يؤدي بالمجتمع الإسلامي إلى حافة الهوية.

ومـن المؤامرات ضد المسلمين محاولة إلغاء الكتاتيب التي كانت الحصن الذي لاذ به المـسلمون في الحفـاظ على عقيدتهم سليمة نقية؛ فعن طريق التجربة ثبت أن الحضانة أو المدرسـة لا تقوم بالدور الذي تقوم به الكتاتيب في تحفيظ القرآن للناشئة، فضربها ضرب للمجتمع الإسلامي من قاعدته.

ومـن المظاهر الاجتماعية السيئة المنتشرة في هذا العصر انعزالية أهل المدن بعضهم عن بعـض، وانـشغال كل واحد منهم بنفسه، وفقدان روح الجماعة؛ حيث أصبح الجار لا يعرف جاره الذي يسكن معه في عمارة سكنية واحدة، أو الذي يجاور مسكنه.

ومـن هنا نشأت ظاهرة أن لا يتعرف الجار على حال جاره الذي قد يكون في أمس الحاجـة للمـساعدة، وكل ذلك على العكس من حال أهل الريف —وإن بدأت أمراض المـدن تزحف إليهم- الذين ينتشر بينهم روح المحبة والتعاون وهذه الانعزالية تحول دون

انتشار الدعوة، التي تعتمد على المخالطة والاجتماع، وقد حث الإسلام على مخالطة الناس قـال رسول الله ﷺ: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"[1].

٥-التغير الاقتصادي:

المـوارد في العـالم الإسلامي متوفرة؛ حيث أنعم الله عليها بوفرة المواد الخام، وكثرة الأيدي العاملة، مع موقع جغرافي متوسط يتحكم في الطرق التجارية في العالم، ورغم هذا كله فإن المجال الاقتصادي في العالم الإسلامي ضعيف جدًا.

فالأمـوال كـثيرة، والخبرة متوفرة، والأيدي العاملة متوفرة، والأسواق مفتوحة، كل هـذه مقدمات هامة ورئيسة من مقومات النجاح، ولكن هناك سوء استغلال من الدول الإسلامية لهذه المقومات.

وكل هذه المقومات جعلت من العالم الإسلامي هدفًا للقوات الاستعمارية التي تبحث عـن الرفاهية على حساب الآخرين، ولم يكن الاستعمار ليجلو عن تلك البلاد دون أن يجعلها تابعة له اقتصاديا، وأن يحول دون قيام نهضة اقتصادية حقيقية.

ولقـد غـدت الـدول العربية مجرد سوق كبير للمنتجات الشرقية والغربية، وأصبح الاستيراد هو التجارة الرابحة، حتى أصبحنا نستورد سجادات الصلاة وفوانيس رمضان من الخارج.

والمنافـسة الاقتصادية بين الدول قائمة على أشدها، والعرب والمسلمون خارج حلبة المنافـسة؛ حـيث يكتفون بأن يكونوا مستهلكين بدلاً من أن يكونوا منتجين، بل يمكن القـول: إن الـدول الكبرى تفرض علينا هذا الوضع فرضًا، والعجب أننا نرضخ لذلك، ونجـد من بني جلدتنا من لا يرى مانعًا في ذلك، بل يزيد ذلك حتى سمعنا أحدهم يقول: لأمريكا مصالح استراتيجية في المنطقة.

---

(١) أخـرجه التـرمذي (٣٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٩٣٩).

أي خور وضعف وجبن هذا، بل أي عمالة تلك.

ومما يزيد الأمر سوءًا أن أصحاب رءوس الأموال يخافون استثمار أموال في مشروعات اقتصادية تفيد البلدان العربية والإسلامية، ولكنهم يفضلون أن يودعوا أموالهم في بنوك سويسرا وغيرها من بلدان الغرب، والتي يستفيد منها الغرب في مشاريعه، ولا يأخذ المودعون إلا الفتات فيما يسمى بالأرباح.

هذا إلى جانب أن الدول العربية والإسلامية مضطربة في خططها الاقتصادية؛ فتارة تصادر أموال الأغنياء تحت اسم التأميم وبعدها بفترة تبيع ما قد أممته سابقًا تحت اسم الخصخصة، بعد أن كانت تريد المركزية أصبحت تريد اللامركزية، وقد ترتب على ذلك أن زادت الهوة بين الفقراء والأغنياء، فالفقير نتيجة لغلاء الأسعار يزداد فقرًا، والغني يزداد غنًا؛ لأنه يساهم في المحافظة على تلك الهوة.

هذا إلى جانب تخلخل اقتصادنا الذي يتعامل بالربا، حيث يتحكم فيه اليهود، وما حدث لنمور شرق آسيا ليس منا ببعيد.

والعالم الإسلامي لا يملك خطة لتوحيد صفهم تجاه التكتلات العالمية، فأوربا وحدت عملتها لتكون كتلة اقتصادية واحدة أمام الولايات المتحدة واليابان والصين، وكل ما نفعله هو اتفاقات لا تطبق على أرض الواقع، ويعاني النظام الاقتصادي في الدول الإسلامية من الفساد الذي يعم كثيرًا من النواحي، فمثلا تجد انتشار الرشاوي، وكثرة الاختلاسات، وأخيرًا المستثمرون الذي يقترضون من البنوك أموالاً طائلة ثم يقومون بالهروب بهذه الأموال إلى الخارج.

وأخيرًا نجد أن بعض الموارد التي تنفعنا اقتصاديا هي من باب الوبال علينا، فنتيجة لوجود البترول في بلادنا الذي تقوم عليه الحركة الصناعية في الغرب، نجد أن لعاب أمريكا قد سال لتأمين مصدر الطاقة لمصانعها، فقامت بافتعال حرب على العراق واحتلت أراضيه، وأول ما فعلته هو تأمين الحقول النفطية من التخريب وتركت البلاد تمج بالخراب، وهذا يؤكد أن السبب وراء هذه الحرب سبب اقتصادي.

وكذلك تتربص هذه الأيام بالسودان، وتتدخل في شئونه الداخلية بدعوى إحلال

السلام في منطقة دارفور في غرب السودان، والله أعلم بما ستسفر عنه الأيام وتتمخض عنه الأحداث.

٦-التغير الفكري:

حدث تزلزل فكري شديد عند المسلمين؛ حيث استخدم الاستعمار إرهابا فكريا، وذلك باستخدام المستشرقين الذين عملوا بكل طاقتهم على التحقير من علوم المسلمين وإنتاجهم العقلي، وإثبات الأفضلية للغرب، ونجح المستشرقون في ذلك أيما نجاح، واستطاعوا أن ينقلوا النظريات والمذاهب التي يموج بها الغرب إلى بلاد المسلمين.

تلاميذ المستشرقين:

إذا كان المستشرقون نجحوا في نقل فكرهم -غثه وسمينه- إلينا، فإن أعظم مكاسب المستشرقين هو أنهم غرسوا نبتًا فاسدًا في الأرض الإسلامية؛ فقد "حرص المستشرقون على كسب الأنصار، واستخدام الأتباع لترديد مفترياتهم على الإسلام، وافتعال معارك حول عقائده وآدابه ومختلف أحكامه لتعميق المفاهيم التي يريدون فرضها، وترسيخها في الأذهان، وتوسيع دائرة الانتفاع بها"[1].

يقول الدكتور "أبو شهبة" عن مدى نجاح المستشرقين في التأثير على بعض المسلمين: قد نجح المستشرقون إلى حد ما في التأثير في بعض الكتاب المسلمين في عصرنا الأخير فاقتفوا آثارهم فيما زعموا، ورددوا من دعاوى لم تقم عليها بينات، بل وزادوا عليها من عند أنفسهم.

وكل هؤلاء وأولئك نفثوا سمومهم باسم البحث والمعرفة وحرية النقد، والله يعلم والراسخون في العلم يعلمون، أن ما زعموا أبعد ما يكون عن العلم الصحيح والبحث القويم والنقد النزيه. اهـ.

لقد تركت الدراسات الاستشراقية الحاقدة آثارها على بعض المسلمين ممن تلقوا دراساتهم في الجامعات الغربية أو في جامعات بلادهم التي لم تكن هي الأخرى بمعزل عن

---

(١) أساليب الغزو الفكري، ص(٢٣).

تلك الدراسات التي تسربت إليها بشكل أو بآخر.

فأخذ أولئك المتأثرون والمبهورون بتلك الدراسات يرددون شبهات المستشرقين ويروجون لها بين المسلمين ويعتبرونها حقائق علمية مسلمًا بها، وأخذوا يعلمونها طلابهم من المسلمين، ويكتبون فيها المؤلفات، وبذلك يحققون آمال المستشرقين والمستعمرين.

أسباب انخداع بعض المسلمين بالمستشرقين:

أما الأسباب التي جعلت بعض المسلمين ينخدع بما كتبه المستشرقون عن الإسلام، وما أبدوا من آراء غريبة حول مختلف الجوانب فقد لخصها الدكتور "السباعي" بما يأتي:

١-جهلهم بحقائق التراث الإسلامي وعدم اطلاعهم عليه من ينابيعه الصافية.

٢-انخداعهم بالأسلوب العلمي –المزعوم– الذي يدعيه المستشرقون.

٣-وإما رغبتهم في الشهرة والتظاهر بالتحرر الفكري من ربقة التقليد كما يدعون.

٤-وقوعهم تحت تأثير "أهواء" و"انحرافات" فكرية لا يجدون مجالاً للتعبير عنها إلا بالتستر وراء أولئك المستشرقين والكاتبين. ا.هـ

أشهر الكتاب المسلمين المتأثرين بالمستشرقين:

١- الشيخ علي عبدالرازق مؤلف كتاب "الإسلام وأصول الحكم"

يعد كتابه هذا من كتب التجديد في الفكر الإسلامي الحديث، يتطرق الكاتب فيه إلى موضوع: إن الإسلام دين لا دولة، يستعرض فيه مؤلفه هذا الموضوع مستعيرًا فيه كل ما كتبه المستشرقون حوله من آراء، وينتهي المؤلف فيه إلى القول: إن الإسلام (دين) فقط، وإن ما يدعو إليه من (وحدة) بين المؤمنين به هو وحدة دينية لا وحدة في (الحكومة) أو (الدولة) أو الترابط السياسي.

وبذلك جاء مخالفًا لما أجمع عليه المسلمون، مستهدفًا إبعاد الإسلام عن مجال الحكم والعلاقات؛ ليصبح مثل المسيحية الغربية كما يريده المستشرقون، ولذلك نال إعجاب المعنيين من الغربيين فتُرجم إلى لغاتهم وأصبح من المصادر والمراجع المعتمدة في الجامعات الأمريكية والغربية الأخرى التي تهتم بالدراسات الإسلامية، حيث وجدت تلك الجامعات في ذلك الكتاب خير عون في تشويه الحقائق الإسلامية والتأثير من خلاله على عقيدة

المسلمين باعتباره كتابًا إسلاميًا لأحد مشايخ الأزهر، وإن كان لا يخرج في كل ما جاء به عمـا جـاء من المستشرقين الغربيين من نظرتهم إلى الإسلام كدين وحكمهم عليه، يقول رشـيد رضـا واصفًا ذلك الكتاب: أول ما يقال في وصف هذا الكتاب: إنه هدم لحكم الإسـلام وشرعه من أساسه، وتفريق لجماعته وإباحة مطلقة لعصيان الله ورسوله في جميع الأحكـام الـشرعية الدنـيوية وتجهـيل للمسلمين كافة من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين.

٢- الدكتور طه حسين:

يقـول الدكـتور طه حسين: فإذا كنا نريد هذا الاستقلال العقلي والنفسي الذي لا يكـون إلا بالاستقلال العلمي، والأدبي، والفني، فنحن نريد وسائله بالطبع، ووسائله أن نتعلم كما يتعلم الأوروبي، لنشعر كما يشعر الأوروبي، ولنحكم كما يحكم الأوروبي، ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي، ونصرف الحياة كما يصرفها.

إن التجديد الذي يطالب به الدكتور طه حسين هنا هو مجاراة الأوروبيين في تفكيرهم واقتفاء أثرهم فيما يقولون ويفعلون وهذا هو عين ما يردده المستشرقون من ضرورة اتباع خطوات الغرب في الحياة، ويقع في مقدمة تلك الخطوات فصل الدين عن السياسة وإبعاده واللغة في مجال الترابط والتلاحم، يقول في هذا الصدد:

من المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد: بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول.

ويقـول في معـرض إعجابـه بالدراسات الاستشراقية، وضرورة التماس العلم عند المستـشرقين والغربيين: لابد من التماسه –أي العلم– عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض علـى أقدامـنا ونطـير بأجنحتنا، ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا.

فالتجديد الذي طالب به طه حسين ودعا إليه هو وغيره في الحقيقة والواقع ما هو إلا فكرة تبناها المستشرقون ودعوا إليها وعملوا على تحقيقها.

فمـا قاله لم يكن إلا ترديدًا لمقالتهم وتقليدًا لدعوتهم. يقول الدكتور البهي عن ذلك:

فحركة التجديد في الفكر الإسلامي التي ظهرت في الشرق الإسلامي منذ بداية القرن العشرين تعتبر (تقليدًا) للدراسات الإسلامية في تفكير المستشرقين الغربيين. ثم أضيف إلى هذا التقليد فيما بعد -منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بعد أن تهيأ الجو في الشرق الإسلامي للحديث في مواجهة الإسلام والمسلمين- ترديد الفكر الإلحادي المادي الغربي الوضعي والماركسي.

يحدثنا الأستاذ أنور الجندي عن مدى تأثر طه حسين وغيره بدراسات المستشرقين في مصر قائلاً: كان المستشرقون يقفون من رجالنا موقف التلاميذ أمثال أحمد زكي باشا، وأحمد تيمور وعبدالعزيز جاويش... ثم تغير الوضع فأصبح مثقفونا في جامعات أوروبا تلاميذ المستشرقين في دراستهم وجاء بعضهم إلى مصر فأعلى من شأن الاستشراق كما فعل طه حسين في مقدمة كتابه عن الأدب الجاهلي، ومن المعروف أن طه حسين وزكي مبارك ومنصور فهمي ومحمود عزمي كانوا تلاميذ لمستشرقين يهود مثل (دور كايم) و(ليفي برابل) والأخير هذا حرض منصور فهمي على معالجة موضوع تعدد زوجات الرسول ﷺ بأسلوب استشراقي.

ويقول الدكتور محمد عثمان فتحي عن طه حسين وغيره ممن افتتنوا بالحضارة الغربية فانحرفوا في كتاباتهم عن الموضوعية العلمية ومنهجيتها: كان جيل طه حسين ومنصور فهمي وتلاميذهما من غلاة المشايعين للحضارة الغربية وثقافتها خيرها وشرها حلوها ومرها، ما نحب منها وما نكره، ومن زعم غير ذلك فهو خادع أو مخدوع. كما عبر طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، وكما عبرت مذكرات زوجته الفرنسية التي نشرتها أخيرًا.

الحضارة الغربية هي التي أوقعت كثيرًا من الكتاب المسلمين في أخطاء كثيرة، وخدعتهم بمظاهرها المادية وما حصل من تقدم فيها جاهلين أو متجاهلين أنها كسراب؛ لأنها خالية من القيم الإنسانية والأمثلة على ذلك كثيرة.

فكل ما يكتبه الغربيون عن الحضارة العربية الإسلامية يصبح لدى هؤلاء حقائق مسلمًا بها، ويحاولون نشرها وغرسها في نفوس المسلمين، والدفاع بكل حماس عنها.

ولقد أحس بإسداء هذا الإعجاب بالحضارة الغربية والانخداع بها بعض الكتاب الغربيين فأبدى النصح للمسلمين بتدارك أمرهم، وعدم الانجراف في ذلك التيار، والتمسك بقيمهم الأصيلة والاعتزاز بشخصيتهم الإسلامية الرفيعة، يقول الدكتور (دون لويس روفاس) أستاذ كرسي علم النفس في كلية الطب في جامعة غرناطة: انصحوا المبهورين بحضارة الغرب أن يعيدوا النظر فيها، احذروا يا عرب يا مسلمون أن تخلطوا تصوراتكم بالحضارة الأوروبية، أنتم أهل حضارة عريقة، وهي وإن كانت لم تصل من الناحية المادية إلى مستوى الغرب. إلا أن لها مقومات لا تملكها حضارة بلداننا الأوروبية، إن الإنسان حاول أن يؤلّه نفسه بواسطة العلم، والعلم وحده، ولكنه وجدها أحقر وأقل مما كان يعتقد، فلا تتخلوا عن نزعاتكم المكتسبة من تصوراتكم الإسلامية، ولا تتطلعوا إلى الحضارة الغربية تطلع الممجد لها، المعظم لشأنها، إنها ستبلى... إن أخطر ما يواجهكم هو الشعور بالنقص تجاه الحضارة الأوروبية والثقة بكل ما يأتي من خارج البلاد. اهـ.

أما الكتاب المسلمون الذين تأثروا بآراء وأفكار المستشرقين حول الحديث النبوي، والتي تهدف إلى التشكيك فيه من جوانب مختلفة حتى يترك العمل به من قبل المسلمين. فيحدثنا عن ذلك الدكتور الأعظمي مبينًا المرحلة التي بدأ فيها هؤلاء الكتاب يرددون نفس الآراء والأفكار زاعمين أنها من نتاج عقولهم ونتائج أبحاثهم للتستر على مصدرها الحقيقي، موهمين المسلمين أنها نابعة من عقول بني جلدتهم حتى يكون تأثيرها أوقع في نفوسهم، فيقول عن ذلك: لا يحدثنا التاريخ عن أفراد أو جماعات تنتسب إلى الإسلام دعت إلى نبذ الحديث النبوي بعد القرن الثاني، وأما الذين نادوا به في القرن الثاني فقد أصبحوا في ذمة التاريخ، واستمر الوضع هكذا بعد ذلك أحد عشر قرنًا على وجه التقريب. وتغير الزمن وزالت دولة المسلمين، وجاء عهد الاستعمار والاستعباد، وبدأ المستعمرون بنشر أفكارهم الخبيثة للقضاء على مقومات الإسلام، عن طريق طائفة من المستشرقين الذين أعدوا للقيام بنشر تلك الأفكار، فأثمرت تلك الجهود المبذولة بكل سخاء من قبل الاستعمار في البلاد الإسلامية التي وقعت في قبضته، فأصيبت بسموم تلك

الأفكار؛ ففي العراق برز من دعا إلى نبذ الحديث، أما في مصر فترجع هذه الفتنة إلى عهد محمد عبده إن كان ما ذكره واستنتجه "أبو رية" صحيحًا، وقد أعلن الفكرة نفسها –أي فكـرة ترك الحديث– الدكتور توفيق صدقي في مجلة المنار حينما كتب فيها مقالين بعنوان "الإسـلام هـو القرآن وحده" استدل بالآيات القرآنية لعدم الحاجة إلى الحديث النبوي حسب زعمه.

٣- أحمد أمين:

ثم جـاء دور أحمـد أمين ليضرب بأوفر سهم في هذا الميدان مرددًا أكاذيب وأباطيل "جـولد تسيهر" وغيره من المستشرقين حول الأحاديث النبوية، متونها وأسانيدها ورجالها ومكانـتها التشريعية في الإسلام وذلك حينما ألف كتابه "فجر الإسلام" سنة ١٩٢٩م، وعقـد فصلاً خاصًا فيه عن الحديث يأتي فيه بأفكار وآراء حوله، وهي لا تخرج بجملتها عن أفكار وآراء المستشرقين، ولكن دون أن ينسبها إليهم لحاجة في نفس يعقوب أخفاها، إلا أنه أظهرها لبعض خلانه.

يقـول الدكـتور السباعي مبينًا هذه الحقيقة: لما ثار النقاش حول الإمام الزهري في الأزهـر سنة ١٣٦٠هـ قال الأستاذ أحمد أمين للدكتور علي حسن عبدالقادر وهو الذي أثـيرت الـضجة حوله: إن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة، فخير طريقة لبث ما تراه مناسبًا من أقوال المستشرقين أن لا تنسبها إليهم بصراحة ولكن ادفعها إليهم على أنها بحث مـنك، وألبسها ثوبًا رقيقًا لا يزعجهم مسها كما فعلت أنا في "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام".

وممـا جـاء عـن أحمد أمين في محاولته التشكيك في الحديث النبوي مقتفيًا في ذلك أسـلوب ونهج المستشرقين في الفصل الذي عقده لهذا الغرض زعمه: أن كثرة الوضع في حـديث رسول الله ﷺ والكذب عليه إنما نشأ ذلك من عدم تدوين الحديث، وزعم فيه أيضًا أن الكذب على رسول الله ﷺ بدأ في عهد النبي نفسه ﷺ، وأن للشعوب التي دخلت الإسـلام دورًا بارزًا في الوضع الذي بلغ من الكثرة إلى درجة أن البخاري انتقى صحيحه مـن ستمائة ألف حديث كانت شائعة في عصره، وذكر في هذا الفصل أن جهود علماء

الحديث إنما انصبت على السند من الحديث دون متنه. وأتى بمجموعة من الأحاديث على صحة ما يزعم وهي كلها غير صالحة للاستدلال على زعمه. ثم تطرق إلى المكثرين من الصحابة للحديث فذكر من جملتهم أبا هريرة الذي قال عنه محاولاً التشكيك في أمانته والثقة به: إنه لم يكن يكتب، بل كان يحدث عن ذاكرته، وإنه كان يحدث عن رسول الله بما لم يسمعه منه، وإن الصحابة شكوا في صدقه وبالغوا في نقده ويعترض على نقاد الحديث لأنهم عدلوا الصحابة كلهم و لم يتعرضوا لأحدهم بسوء و لم ينسبوا لأحدهم كذبًا. فكانوا يعدلون كل الصحابة، و لم يجرحوا أحدهم على عكس ما فعلوا بمن جاء بعدهم من الرواة. كما يتهم بعض علماء الحديث ونقاده بالغفلة وعدم الدقة كعبدالله بن المبارك.

مزاعم كثيرة واتهامات متنوعة ليس له معها أدلة تثبت صحتها، بل تكثر الأدلة التاريخية الثابتة على تفنيدها مما لا يدع مجالاً للشك في أنها من نسج خيال وتنم عن سوء نية، وأن مدعيها لم يكن باحثًا مخلصًا وكاتبًا أمينًا يمشي وراء البحث عن الحقيقة العلمية كما ينبغي، لقد رأيناه في أبحاثه خاصة فيما يتعلق بالحديث النبوي الشريف مغرضًا يهدف منها إلى التشكيك في الحديث النبوي، والتقليل من مكانته التشريعية، وهذا هو عين هدف المستشرقين من دراساتهم الحديثية، فقد فند الدكتور السباعي كل تلك المزاعم والأوهام تفنيدًا قائمًا على براهين وأسس علمية بحيث لم يدع لمستزيد مزيدًا عليه.

ومما يدل على أن أحمد أمين كان في مقدمة الطاعنين في الحديث والمشككين فيه أنه حينما نشر إسماعيل أدهم رسالة في سنة ١٣٥٣هـ عن تاريخ السنة، وأعلن فيها أن الأحاديث الموجودة حتى في الصحاح ليست ثابتة الأصول والدعائم بل هي مشكوك فيها، ويغلب عليها صفة الوضع، وحينما قوبلت هذه الرسالة بالرفض من قبل المسلمين وعلمائهم، واضطرت الحكومة المصرية إلى مصادرتها دافع الكاتب عن نفسه قائلاً: إن ما ذهبت إليه من الشك في صحة الحديث يشاطرني فيه جماعة من كبار الأدباء والعلماء وفي مقدمتهم أحمد أمين. فلم ينكر ما نسب إليه زميله فيما بعد.

٤- محمود أبو رية:

وبعد هؤلاء تسلم اللواء أبو رية الذي ألّف كتابه "أضواء على السنة المحمدية" فنشر فيه مزاعم واتهامات تجاوز الحد حول الحديث، وأخذ يخلط بين كل ما قاله من سبقه من المستشرقين ومن سار على طريقهم من المسلمين. فجاء كتابه مزيجًا من مختلف الآراء والأفكار التي قيلت للتشكيك في الحديث النبوي كمصدر للتشريع الإسلامي، يقول الدكتور أبو شهبة عن ذلك الكتاب وما اتبعه فيه مؤلفه من أسلوب: تلقف فيه كل ما قاله الأقدمون والمحدثون من طعون في الأحاديث ورجالها، وما قاله المستشرقون والمبشرون، وأذنابهم، وحرص أشد الحرص على أن يظهر السنة بمظهر الاختلاف والتناقض والتحريف والتبديل، والسذاجة والتخريف، وفي سبيل هذا الغرض زيف الصحيح وصحح المختلق المكذوب. اهـ.

يستشف من أحد النصوص الواردة في هذا الكتاب أن مؤلفه لم يكن ليحاول التشكيك في الحديث فحسب بل التشكيك في القرآن ونبوة محمد ﷺ، وذلك بإحالته القارئ في هذا النص على كتب "جولد تسيهر" المعروف بمواقفه من القرآن الكريم والرسول ﷺ، ومحاولته التشكيك في كل واحد منهما على حد سواء، والنص المستشف منه ذلك هو قوله: "ومن شاء أن يستزيد من معرفة الإسرائيليات والمسيحيات وغيرها في الدين الإسلامي فليرجع إلى التفسير والحديث والتاريخ، وإلى كتب المستشرقين أمثال جولد تسيهر، وفون كريمر وغيرهما".

وفي النفس شيء حتى من قصده بكلمة "المحمدية" الواردة في عنوان كتابه؛ فكلمة المحمدية كما ذكر إدوارد سعيد هي التسمية الأوروبية العلائقية المهينة التي تطلق على الإسلام عندهم.

أبو رية في محاولته التشكيك في السنة يقلل من دور علماء الحديث في ميدان العلم والتشريع والنقد والتمحيص والتثبت من روايات الأخبار، حيث يقول عنهم: فترى المتقدمين منهم، وهم الذين وضعوا هذه القواعد، قد حصروا عنايتهم في معرفة رواة الحديث والبحث على قدر الوسع في تاريخهم، ولا عليهم بعد ذلك إن كان ما يصدر عن

هـؤلاء الرواة صحيحًا في نفسه أو غير صحيح، معقولاً أو غير معقول، إذ وقفوا بعلمهم عند ما يتصل بالسند فحسب، أما المعنى فلا يعنيهم من أمره شيء. اه.

نفس المزاعم التي رددها المستشرقون، ويقول عن كتابة الأحاديث في عهد النبيﷺ: ... تضافرت الأدلة على أن أحاديث الرسول ﷺ لم تكتب في عهد النبي ﷺ كما كان يكتب القرآن، ولا كان لها كتّاب يقيدونها عند سماعها منه وتلفظه بها. اهـ.

ونحن بدورنا نقول له: لقد تضافرت الأدلة بما لا يدع مجالاً للشك في أن كتابة الحديث وقعت في الجملة في عهد الرسول ﷺ وإن كانت على نطاق محدود، وليس أدل على هذه الحقيقة من كتب ورسائل الرسول ﷺ إلى الأمراء والملوك، إضافة إلى ما كتب في عهده من كتب وصحائف بإذنه وأمره.

هذا وقد تولى الرد على مزاعم أبي رية السابقة أساتذة أفاضل منهم الأستاذ عبدالرحمن المعلمي اليماني[1].

ولقد انتقلت مذاهب كثيرة إلى العالم العربي والإسلامي وظهرت أحزاب فكرية ممثلة لها، إما عن طريق التسرب التلقائي العفوي، القائم أحيانا على حسن النية من جانب المتلقي، وذلك بسبب رغبة بعض البلدان في تقليد دول الغرب التي كانت تحتلها، وإما عن طريق الغزو الفكري المنظم الذي يستهدف استمرار تبعية الشعوب الإسلامية وانصياعها للتيارات الفكرية الوافدة من غيرها ممن لا يدين دينها ولا ينتهج سبيل الحق الذي هداها الله إليه، ومن هذه المذاهب الفكرية التي كان لها أثر في العالم الإسلامي:

الوضعية:

فالمذهب الوضعي مذهب فلسفي ملحد يرى أن المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولاسيما تلك التي يتيحها العلم التجريبي، وينطوي المذهب على

---

(١) انظر: د. محمد بهاء الدين: المستشرقون والحديث النبوي، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م- ص(٢٥٦-٢٧٧).

إنكار وجود معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولاسيما فيما يتعلق بما وراء المادة وأسباب وجودها.

ولقد تأسس المذهب الوضعي في فرنسا على يد الفيلسوف كونت، وقد تأثر بهذا المذهب زكي نـــجيب محمود وهو مفكر عربي مصري، تبع الفلسفة الوضعية الملحدة، وتبنى أفكارها، وألف كتاب "المنطق الوضعي"، وقيل: إنه تاب عن ذلك في أواخر عمره وأعلن ذلك في دار العلوم، وقد ذكر ذلك الدكتور محمد الجليند أستاذ الفلسفة بدار العلوم.

الوجودية:

الوجودية اتجاه فلسفي يغلو في قيمة الإنسان ويبالغ في التأكيد على تفرده، وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى موجه. وهي فلسفة عن الذات أكثر منها فلسفة عن الموضوع.

ومن أشهر زعمائها المعاصرين: جان بول سارتر الفيلسوف الفرنسي المولود سنة ١٩٠٥م، وهو ملحد ويناصر الصهيونية، له عدة كتب وروايات تمثل مذهبه منها: الوجودية مذهب إنساني، الوجود والعدم، الغثيان، الذباب، الباب المغلق.

وقد تأثر بتلك الدعوة الدكتور عبدالرحمن بدوي، وقد قيل برجوعه عن ذلك؛ حيث ألف في أواخر عمره كتابين في الدفاع عن الإسلام ورسوله.

الروحية الحديثة:

الروحية الحديثة دعوة هدامة وحركة مغرضة مبنية على الشعوذة، تدعي استحضار أرواح الموتى بأساليب علمية وتهدف إلى التشكيك في الأديان والعقائد وتبشر بدين جديد وتلبس لكل حالة لباسها. ظهرت في بداية هذا القرن في أمريكا ومن ورائها اليهود ثم انتشرت في العالمين العربي والإسلامي؛ حيث تحمس لها عدة أشخاص وحملوا رايتها، منهم:

-الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير أمين عام (الجمعية المصرية للبحوث الروحية)، وقد أصدر مجلة "عالم الروح" وهي الناطقة باسم هذه الدعوة الهدامة، وقد بدأ نشاطه منذ سنة ١٩٣٧م وقام بترجمة كتابي فندلي وباورز.

-الأستاذ وهيب دوس المحامي ت ١٩٥٨م وهو رئيس الجمعية المذكورة.

-د.علـــي عـــبدالجليل راضـــي رئيس (جمعية الأهرام الروحية)، له كتاب بعنوان "مشاهداتي في جمعية لندن الروحية".

-حسن عـــبدالوهاب وكان سكرتيرا للجمعية لفترة، ثـــم اكتشف زيف الروحية الحديثة.

-وهناك عدة مجلات وصحف أخرى تروج لها مثل: مجلة صباح الخير، آخر ساعة، المصور، المقتطف، وصحيفة الأهرام، فضلا عن مجلة عالم الروح الخاصة بها.

ولقـــد تغلغلت الأفكار الوافدة في المدارس الأدبية؛ حيث نقل كثير من المثقفين العرب تلك الاتجاهات إلى بلادهم، فاستعملوا نفس الألفاظ، ورددوا نفس التصورات، وتبنوا نفس المفاهيم، دون بيان للأسس الأخلاقية التي تقوم عليها هذه المدارس.

وهكـــذا وجـــد القارئ المسلم نفسه، واقعا تحت تأثير هذه المدارس، بل إنه ألزم بدراستها فـــي الكليات المعنية بالدراسات الأدبية، وأعد فيها الرسائل العلمية، وبدت فلسفات هـــذه المدارس كما لو كانت جزءًا لا يتجزأ من طبيعة تكون الشباب المسلم في المجال الأدبي، ومنها:

الحداثة:

وهـــو مذهب فكـــري أدبي علماني، بني على أفكار وعقائد غربية خالصة مثل: الماركسية والوجودية والفرويدية والداروينية، وأفاد من المذاهب الفلسفية والأدبية التي سبقته مثل السريالية والرمزية... وغيرها.

وتهدف الحداثة إلى إلغاء مصادر الدين، وما صدر عنها من عقيدة وشريعة، وتحطيم

كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية بحجة أنها قديمة وموروثة؛ لتبني الحياة على الإباحية والفوضى والغموض، وعدم المنطق، والغرائز الحيوانية، وذلك باسم الحرية، والنفاذ إلى أعماق الحياة.

ومن رموز مذهب الحداثة في البلاد العربية:

-يوسف الخال -الشاعر النصراني- وهو سوري الأصل رئيس تحرير مجلة شعر الحداثية، وقد مات منتحرا أثناء الحرب الأهلية اللبنانية.

- أدونيس (علي أحمد سعيد) نصيري سوري، ويعد المروج الأول لمذهب الحداثة في البلاد العربية، وقد هاجم التاريخ الإسلامي، والدين والأخلاق في رسالته الجامعية التي قدمها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة "القديس يوسف" في لبنان، وهي بعنوان: الثابت والمتحول، ودعا بصراحة إلى محاربة الله ﷻ، وسبب شهرته فساد الإعلام بتسليط الأضواء على كل غريب.

-د.عبدالعزيز المقالح - وهو كاتب وشاعر يماني، وهو الآن مدير لجامعة صنعاء وذو فكر يساري.

-عبدالله العروي - ماركسي مغربي.

-محمد عابد الجابري مغربي.

-الشاعر العراقي الماركسي عبدالوهاب البياتي.

-الشاعر الفلسطيني محمود درويش - عضو الحزب الشيوعي الإسرائيلي أثناء إقامته بفلسطين المحتلة، وهو الآن يعيش خارج فلسطين.

-كاتب ياسين ماركسي جزائري.

-محمد أركون جزائري يعيش في فرنسا.

-الشاعر المصري صلاح عبدالصبور - مؤلف مسرحية الحلاج.

المبحث الثالث: مناهج دعوية أفرزها الواقع المعاصر[1]

تمهيد:

بعد أن أطلنا الحديث عن العوامل الداخلية والخارجية التي أثرت على العالم الإسلامي، نستطيع أن نقول: إن بقية من الخير كانت لا تزال موجود، من رجال قائمين على الحق لا يضرهم من خذلهم، قد فتت أكبادهم تلك الحال المتردية للعالم الإسلامي، فهبوا يجاهدون على جميع الأصعدة، فمنهم من حارب الاستعمار وما جلبه علينا من أفكار منحرفة تحاول تشويه العقيدة الإسلامية، ومنهم من حارب الجهل الذي خيم على العقول المسلمة قرونًا طويلة..إلخ.

هؤلاء الرجال هم إفرازات للعوامل الخارجية المتمثلة في الاستعمار بكافة صوره وأشكاله والمستمرة حتى اليوم، وكذلك للعوامل الداخلية؛ حيث الانبعاث الذاتي الذي يعبر عن الأصالة ومحاولة التغيير الجادة لا الحلول المستوردة من هنا أو هناك والتي لا تعبر عن شخصيتنا أو تراثنا وأصالتنا بحال من الأحوال.

وكان أول انبعاث ذاتي يحاول تجديد الروح الإسلامية هي دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والتي تعتبر هي أول نهضة حقيقية للمسلمين في العصر الحديث لا ما يشاع من أن أول نهضة لنا جاءت إثر الحملة الفرنسية الغازية لأرض مصر أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، فالنهضة المتمثلة في دعوة هذا الشيخ المجدد كانت سابقة لهذه الحملة الصليبية، وإذا كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد استطاع أن يقوم بدعوة أثرت في العالم الإسلامي كله، فإن هذا الشيخ لم يكن الوحيد الذي انفعل بأمر أمته وأراد أن ينفعها، فهناك دعوات كثيرة تأثرت بدعوى الشيخ من قريب أو من بعيد، ولكن يجمعها جميعًا العمل للإسلام ومحاربة البدع والجهل والتخلف العلمي والعملي الذي أصاب هذه الأمة؛ ومن هذه الدعوات أو المناهج الدعوية:

---

(١) سنعرض في هذا المبحث لعدد من نماذج الجماعات الدعوية التي أفرزها الواقع، وهذا لا يعني بالضرورة تأييدًا لشيء من تلك الجماعات المذكورة.

دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

التعريف بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

قام الشيخ محمد بن عبدالوهاب المشرّفي التميمي المولود سنة ١١١٥هـ والمتوفى سنة ١٢٠٦هـ، في الجزيرة العربية وبالتحديد في نجد إبان القرن الثاني عشر الهجري، وبتعاون أمير الدرعية –أولا– ومؤسس الدولة السعودية الأولى –بعد ذلك– الأمير محمد بن سعود بن مقرن بحركة دعوية جهادية إسلامية كبرى في جزيرة العرب كان لها أثر خارجها، ولقد أخذت هذه الدعوة على عاتقها نشر الإسلام والذود عنه منطلقة من تحقيق التوحيد الذي كان هجر وساد المجتمعات الإسلامية في الشرق والغرب أنماط من الكفريات والبدع أنست الناس أمور دينهم وحلت محله وكأنها الدين الحق الذي لا يخالطه باطل[1] ولقد تمثلت حال العالم الإسلامي قبل قيام الشيخ محمد بن عبدالوهاب بحركته فيما يلي.

١–تضعضع وانهيار الدول الإسلامية القائمة حالئذٍ كالعثمانية السنية التي أصبحت صوفية ترعى الطرقية بمذاهبها وصورها الخليط من النصرانية والبوذية وتشيع فيها الرهبانية والإيمان بنظريات خيالية كالحلول ووحدة الوجود والاتحاد، والدولة الصفوية الشيعية الرافضية، ودولة أباطرة المغول التي بدلت دينها على يد أكبر منشئًا ديانة السيخ بدلاً من الإسلام والهندوسية أو مزيجًا منهما[2].

٢–انقضاض المستعمر على العالم الإسلامي من كل جانب وتربص به مثلما سموا الدولة العثمانية بالرجل المريض وأخذوا يقتطعون أطراف العالم الإسلامي من الشرق والغرب[3].

---

(١) انظر: ابن غنام: روضة الأفكار، (٢٥/١)– د. صالح العبود: عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي– رسالة دكتوراه– (١١٣/١)، وما بعدها– ابن حجر القطري: الشيخ محمد بن عبدالوهاب– دار الاعتصام– القاهرة– ص(٢٠–٢٨).

(٢) عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب– (٣٧/١–٤٣).

(٣) حاضر العالم الإسلامي (٢٥٩/١)، وما بعدها.

٣-عموم الجهل بالدين وشيوع الكفر والبدع في كل مكان فعبدت الأحجار والأشجار وكان ينذر لها وللجن ويذبح ويتوسل لها ويتبرك..إلخ[1].

ولم تكن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب جماعة ولا فرقة ولا مذهبا دينيا جديدًا، ولا حزبا سياسيا ولا دعوة مناهضة ولا مخالفة لدعوة النبي الخاتم محمد ﷺ، بل كانت حركة إسلامية دعوية جهادية تعمل لتكريس الإسلام وإعادته إلى الواقع الحياتي وإعادة أهله إليه، وكان صاحبها وباعثها وعلماؤها من حيث العقيدة على مذهب أهل السنة والجماعة وديانة الأئمة الأربعة وفي الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد وصمها مخالفوها بالوهابية نسبة إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتملص الشيخ وأتباعه من هذه التسمية ودفعوها غير مرة وإلى الآن.

وقد سرد الشيخ عقيدته غير مرة مؤكدًا أنه على الإيمان الذي كان عليه النبي ﷺ وصحابته والتابعون وتابعوهم والأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد الذين زكتهم الأمة، وما كان عليه شيوخه السلفيون مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير.. إلى آخرهم، مؤمنًا بأركان الإيمان كلها من الاعتقاد بالجنان والقول باللسان والعمل بالأركان، ومؤمنًا بأصوله الستة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبما كان عليه جمهور الأمة من أهل السنة والجماعة مثل أن القرآن كلام الله غير مخلوق ومضي الجهاد وطاعة الإمام العادل والفاجر والصلاة خلفه والجهاد معه..إلخ[2].

دواعي نشوء دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

تمثلت الأسباب التي دعت إلى نشوء دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في سببين رئيسين إلى جانب وجود الشيخ وعلمه وندبه نفسه للذود من دين الإسلام وهذان السببان هما...

---

(١) انظر: د.عقيلة الشيخ محمد بن عبدالوهاب-(٣٧/١) وما بعدها- الشوكاني: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد- ص(١٨)- حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين- ص(٣١٩).

(٢) انظر: رسالة الشيخ إلى أهل القصيم ضمن "الشيخ محمد بن عبدالوهاب" ص(٣٤) وما بعدها.

أ-فشو الكفريات والبدع في المجتمع الإسلامي كله وظهورها في محيط الشيخ من نجد مـــن جزيـــرة العرب بصورة صارخة واضحة التباين مع ما تعلمه الشيخ من الدين الحق وتتمثل هذه الشركيات والبدع في....

١-شـــيوع الطرقية الصوفية بما يلابسها من بدع ومخالفات ما أنزل بها من سلطان.. بدع وصلت إلى حد الكفر كالقول بالحلول ووحدة الوجود وبدع أصغر من الكفر لكنها ليـــست مـــن الإســـلام كالذكر بما لا يجوز وعلى هيئات لا تجوز.. أضف إلى ذلك سمة المتـــصوفة الخطيرة وهي نفض أيديهم من الأمور والانقطاع عن العالم تاركين كل شيء للناهـــبين ينهبونه، وقد بلغ الأمر أسوأه لما رعت الدولة العثمانية التصوف دفعًا للناس عن الاشتغال بأمر أمتهم المتداعية الأركان[1].

٢-وقـــد تفشت في الدولة العثمانية مثالب أخرى مثل الهزائم المتالية أمام النمسا وروسيا والبندقـــية مما أدى إلى توقيع صلح كارلوفزي عام ١١١٠هـــ وانفلات المر من يد السلطان وقيام الوزراء وهم في الغالب عملاء للأعداء بتدبير الأمور، وقيام الكثيرين من الولاة بالخروج علـــى الدولـــة والاستقلال بما تحت أيديهم بل وبتوسع على حساب الدولة وقتالها مثلما فعل محمـــد علـــي في مـــصر. وكذلك امتلاء القصور بالجواري والسبايا ممن كان بعضهن عيونًا للأعـــداء، وتعالي السلاطين على الرعية، وقد أيدت الدولة التصوف بمختلف طوائفه وصوره رغـــم تداخل هذه الصور مع عادات النصارى والهندوس والبوذيين من مثل الرهبانية والموالد والإيمـــان بنظـــريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وكذلك قصد الأولياء والصالحين من الأحياء والأموات والنذر والذبح والدعاء عند القبور[2].

٣-وأمـــا عـــن نجـــد (موطن نشوء دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب) فكانت أكثر ســـوءًا.. إذ لم تـــشهد نفوذًا للدولة العثمانية ومن أجل ذلك كانت الحروب بين البلدان النجدية قائمة والصراع بين قبائلها المختلفة مستمرًا وحادًّا وعنيفًا، ولذا كانت نجد متمزقة بـــين إمارات صغيرة متعادية ومتفككة في كل قرية أمير وفي نفس الوقت يتهدده طامع في

---

(١) عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب- (٧١/١)، وما بعدها.

(٢) السابق: (٤٣/١)، وما بعدها.

إمارته وربما يكون أقرب أقربائه فهو خائف ومخيف وقد وصل بحال إلى أن القرية الواحدة تتمزق بين أميرين متعاديين أو ثلاثة أو أكثر[1].

"وقد كان الناس فيها على حال لا يرضاها مؤمن، كان الشرك الأكبر قد انتشر في نجد حتى عبدت القباب والأشجار وعبد القبور وعبد من يدعي الولاية وهو من المعتوهين أو المجانين واشتهر في نجد السحرة والكهنة وسؤالهم وتصديقهم وليس هناك منكر إلا من شاء الله وغلب على الناس الإقبال على الدنيا وشهواتها[2]. وكثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور والبناء عليها والتبرك بها والنذر لها والاستعاذة بالجن والذبح لهم ووضع الطعام لهم وجعله في زوايا البيوت لشفاء مرضاهم ونفعهم وضرهم والحلف بغير الله[3] وما كان عليه أكثر أهل البوادي من عنزة وآل ظفير وأمثالهم من عدم إقرارهم بالبعث وعدم اتباعهم كتاب الله وأنهم كانوا يقولون: "إن كتاب الله عند الحضر وأنهم "عايفينه" ومتبعون ما أوجد آباؤهم مما يسمونه الحق ويفضلونه على شريعة الله وفيهم من نواقض الإسلام أكثر من مائة ناقض كسب الشرع أو سب الأذان إذا سمعوه[4].

ب-السبب الثاني من أسباب نشوء الدعوة هو الضعف المزري الذي لحق العالم الإسلامي قبيل قيام الشيخ بحركته، وقد تمثل في أمور كثيرة أهمها:

-ضعف الدول القائمة حالئذ كالدولة العثمانية التي أخذ النصارى يقتطعون أطرافها من الشرق والغرب، وينشق عليها الولاة في العالم العربي كما حدث على أيدي المماليك ومحمد علي في مصر والشام، وكذلك الدولة الصفوية الرافضية في إيران التي كانت في تناحر مستمر مع الدولة العثمانية السنية (راعية التصوف بدورها) مما أضعفهما جميعًا، ودولة أباطرة المغول في الهند التي تخلت عن الإسلام والعربية ممثلة في الخط العربي عملاً

---

(١) ابن بشر: "عنوان المجد" (٩/١) بتصرف.

(٢) الشيخ ابن باز: من محاضرة له بعنوان "محمد بن عبدالوهاب دعوته وسيرته"، الدار السعودية للنشر- (٢٣).

(٣) عنوان المجد- (٦/١).

(٤) من رسالة للشيخ محمد بن عبدالوهاب ضمن روضة ابن غنام (١٠٧/١).

لحساب ما يشبه زمالة الأديان في عصرنا الحاضر.

-تداعي الأمم الغربية على الأمة الإسلامية وتقسيم الأرض الإسلامية فيما بينهم وتكوين إمبراطوريات متعاظمة على حساب العالم الإسلامي وإذلال أهله وانتهاب موارده وقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب من أهم أسباب منع استيلاء المستعمر على الحجاز ونجد وأحيانًا جزيرة العرب.

الأساليب التي اتخذتها الدعوة لنشر التوحيد:

تعددت أساليب نشر الدعوة في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ما بين أساليب تعليمية لتعليم الناس وتفهيمهم أمور دينهم ليلتزموا بها وأمور الكفر ليقلعوا عنها، وقد تعددت هذه بين إلقاء دروس العلم وتأليف الكتب وإلقاء الخطب وإنشاد الأشعار، وكذلك دعا الشيخ والعلماء في الدعوة الأمراء والتواصل معهم عبر الرسائل العديدة التي كان يبعث بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب إليهم يدعوهم فيها للتخلي عن الكفريات والبدع ومحاربتها والإقلاع عنها والرجوع إلى دين الله أو كان هؤلاء الأمراء يبعثون إلى الشيخ أو إلى علماء الدعوة ليستفتوهم في أمور دينهم فيبعث إليهم هؤلاء بالردود.

وكذلك لم يدخر الشيخ ولا أهل حركته وسعًا في محاربة الصادين عن سبيل الله ومحاربي الدعوة ولكن قاتلوهم قتالاً شديدًا حتى فشى الإسلام وأجلوا هؤلاء عن بلادهم وتوسعت الدولة السعودية الموحدة في بلادهم.

أولاً: الكتب:

١-"كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد" وهو من أول مؤلفات الشيخ وأصح الروايات على أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ألفه في البصرة على حد قول الشيخ عبدالرحمن بن حسن، وقد أثنى عليه العلماء ثناء حسنًا.. قال ابن بشر: "ما وضع المصنفون في فنه أحسن منه، فإنه أحسن فيه وأجاد وبلغ غاية المراد"[(١)].

ويشتمل على ستة وستين بابًا بعد المقدمة التي بدأها الشيخ قائلاً: "كتاب التوحيد"

---

(١) عنوان المجد- (٩٢/١).

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِـي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2] وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[3] وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[4] وقـوله: ﴿قُـلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[5] وحديث ابن مـسعود: "من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه[6] وحديث معاذ: "كنت رديف النبي ﷺ"[7].

وقـد كثـرت الشروح والتعليقات على كتاب التوحيد مثل: "تيسير العزيز الحميد"، و"فتح المجيد شرح كتاب التوحيد"، و"مغني المريد الجامع لشروح كتاب التوحيد"، "فضل الغني الحميد تعليقات على كتاب التوحيد".

٢-"مختصر سيرة الرسول ﷺ".

٣-"آداب المشي إلى الصلاة".

٤-"شروط الصلاة وأركانها وواجباتها".

٥-"رسالة في رد على الرافضة".

٦-"هذه مسائل لخصها الشيخ محمد بن عبدالوهاب من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية".

٧-مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب في اثني عشر مجلدًا هي:

-الأول في العقيدة والآداب الإسلامية.

---

(١) الذاريات:٥٦.

(٢) النحل:٣٦.

(٣) الإسراء:٢٣.

(٤) النساء:٣٦.

(٥) الأنعام:١٥١.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠)، وقال: "حديث حسن غريب".

(٧) أخرجه البخاري في "الجهاد والسير"، باب: اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦)، وفي غير موضع من صحيحه ومسلم في "الإيمان"، باب: الدليل على أ ن من مات على التوحيد دخل الجنة (٣٠).

-خمس مجلدات في الحديث.

-مجلدان في الفقه.

-مجلد في التفسير و"مختصر زاد المعاد".

-مجلد في الرسائل الشخصية.

-مجلد في ملحق المصنفات.

وقـــام بتحقـــيقها عبدالعزيز زيد الرومي، ود/محمد بلتاجي، ود/سيد حجاب، وهذه الكتب كلها للشيخ محمد بن عبدالوهاب.

٨-"مجمـــوعة التوحيد" وتشتمل على ست وعشرين رسالة من تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبدالوهاب وبعضها لمشايخ آخرين.

٩-"صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان" للشيخ المحدث محمد بشير السهسواني الهندي.

١٠-"الانتـــصار لحزب الله الموحدين والرد على المجادل عن المشركين" للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بطين.

١١-"العقائـــد الـــسلفية وأدلتها العقلية والنقلية" للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي القطري.

١٢-"الـــشيخ محمد بن عبدالوهاب وعقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه" للمولف السابق.

١٣-"الدر النضيد على أبواب التوحيد" الشيخ سليمان بن عبدالرحمن الحميدان.

وهـــذا قليل من كثير من الكتب التي أنتجتها دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لتعليم الناس أمور دينهم وإرشادهم إلى مواطن الضلال حتى يتجنبوها.

ثانيا: الرسائل:

ومنها:

-رسالة الشيخ إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته.

-رســـالة إلى محمـــد بن عباد مطوع ثرمداء قد أرسل إليه كتابًا فيه كلام حسن في

تقرير التوحيد وغيره وطلب من الشيخ –رحمه الله– أن يبين له إن كان فيه شيء يخالفه.

-رسالة أرسلها إلى فاضل آل مزيد رئيس بادية الشام.

-رسالة أرسلها إلى السويدي (عالم من أهل العراق) وكان قد أرسل له كتابًا وسأل عما يقول الناس فيه فأجابه بهذه الرسالة.

-رسالة أرسلها جوابًا لعبدالله بن سحيم مطوع أهل المجمعة حسين سأله عن الكتاب الذي أرسله عدو الله سليمان بن محمد بن سحيم مطوع أهل العراق.

-رسالة إلى أهل المغرب.

-رسالة الشيخ إلى ثنيان بن سعود.

-رسالة الشيخ إلى عبدالرحمن بن ربيعة.

-رسالته إلى أهل الرياض.

-رسالة الشيخ إلى أحمد بن إبراهيم.

-رسالة الشيخ إلى سليمان بن سحيم ردًّا على رسالته التي شنع بها على الشيخ.

-رسالة الشيخ إلى أهل الدرعية.

-رسالة الشيخ إلى أحمد بن محمد بن سويلم وثنيان بن سعود.

-رسالة أرسلها إلى إخوانه من أهل سدير بسبب أمر جرى بين أهل الحوطة من بلدان سدير.

-رسالة أرسلها الشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود إلى والي مكة مع الشيخ عبدالعزيز الحصين.

-رسالة من الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من العلماء والقضاة في الحرمين والشام ومصر والعراق وسائر علماء المشرق والمغرب يشرح فيها حقيقة العبادة وبين التوحيد والفرق بين حق الله وحق أنبيائه وأوليائه ويحذر من الشرك ويبينه ما هو ليجتنب.

-رسالة من الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب وفيها شرح مذهب الشيخ وأنصاره وأتباعه وأنه مذهب أهل السنة والجماعة وهي عبارة عن محضر سجل

ما وقع بالفعل ووثيقة تاريخية لا يقدر أحد أن ينكرها.

-رسالة "الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم بالسنة والكتاب" للشيخ حمد بن ناصر بن معمر، وهي كذلك وثيقة تاريخية سجلت مناظرة وقعت بين الشيخ حمد بن معمر وأصحابه وبين علماء مكة وأعيانها في دعاء غير الله، وتميز الشرك من التوحيد وحكم تارك الصلاة والزكاة وفي حكم البناء على القبور.

-رسالة للشيخ محمد بن عبداللطيف آل الشيخ تتضمن سجلاً بما عمله الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن من بعثه هذا الشيخ إلى اليمن وعسير وتهامة لينشر عقيدة السلف الصالح هناك ويبين التوحيد ليعمل به والشرك ليجتنب.

وقد جمعت هذه الرسائل وغيرها الكثير -والتي تبين منهجًا كان يتبعه الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأنصاره من أئمة آل سعود والعلماء الأجلاء -كانوا يرسلون إلى الأمراء ورؤساء العشائر والمطوعين ليدخلوا في التوحيد ويدعوا ما هم عليه مما لا يرضاه الله ورسوله والمؤمنون حتى إذا ما دخل هؤلاء الأمراء والرؤساء في التوحيد دخلت رعاياهم في إثرهم إذ الناس على دين ملوكهم.

ومن مجموعات الرسائل:

١-القسم الخامس من مجموعة مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب وقد صنفها وأعدها للتصحيح تمهيدًا لطبعها كل من عبدالعزيز زيد الرومي، د/محمد بلتاجي، د/سيد حجاب، وبلغت ستا وخمسين ٥٦ رسالة، وطبعت بمطابع الرياض بإشراف جامعة الإمام محمد بن سعود.

٢-"مجموعة الدرر السنية في الأجوبة النجدية ورسائلهم" جمع وتحقيق وترتيب الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ويقع في اثني عشر جزءًا.

٣-"الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية" مجموعة خمس رسائل لكبار أئمة نجد وعلمائها جمع وترتيب الشيخ سليمان بن سحمان وقد طبعتها مطبعة المنار ط ٢ لسنة ١٣٤٤، وعلق عليها السيد محمد رشيد رضا صاحب المطبعة.

ثالثًا: الخطب والأشعار:

الخطابة أحد أهم الفنون العربية، وقد بلغت شأوًا بعيدًا من التبجيل والحفاوة لدى العرب الجاهليين فيما قبل ظهور الإسلام، ولما جاء الإسلام عنى بها كأحد أهم السبل لنشر الدعوة الإسلامية حتى أصبحت فيما بعد إحدى شعائره مثلما في الجمعة وفي العيدين ويوم عرفة... إلخ.

وقد كان رسول الله ﷺ أخطب الناس والعرب على الإطلاق، ونبغ من أمته في الخطابة كثير من الأعلام على رأسهم الراشدون الأربعة -رضي الله عنهم- خاصة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومن غيرهم ثابت بن قيس وطلحة بن عبيدالله وعبدالله بن الزبير وزياد بن أبيه، وغيرهم الكثير في هذه الأمة الداعية إلى الله، وإلى دينه الحنيف.

أما في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فقد كان الاعتماد على الكتب والرسائل أكثر، وناب عن الخطابة إلقاء الشيخ وعلماء الدعوة دروسًا على مريديهم من الشباب وطلاب العلم هي بلغة عصرنا أشبه بالمحاضرات منها بالخطب وقد كان لهذه الدروس أثر بالغ في شيوع دعوة الشيخ ودعوته ودعوة الإسلام على منهج السلف عمومًا، وقد كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب نفسه متصفًا بفصاحة اللسان وعذوبة الحديث وقوة الحجة حتى ليقول عنه الشيخ أحمد بن حجر آل أبو طامي: "كان الشيخ -رحمه الله- علمًا من الأعلام، ناصرًا للسنة، وقامعًا للبدعة، خبيرًا مطلعًا، إمامًا في التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلوم الآلة كالنحو والصرف والبيان، عارفًا بأصول عقائد الإسلام وفروعها، كشافًا للمشكلات، حلالاً للمعضلات، فصيح اللسان، قوي الحجة، مقتدرًا على إبراز الأدلة، وواضح البراهين بأبلغ عبارة وأبينها تلوح على محياه علامات الصلاح وحسن السيرة، وصفاء السريرة[1]".

---

(١) الشيخ محمد بن عبدالوهاب ص(٢٨).

ولا شـــك أن هـــذه صفات الخطيب الناجح، ومع ذلك لم يغفل علماء الدعوة أمر الخطابـــة تمامًا وإنما توجد في ثنايا تاريخ حركتهم خطب ذات أثرٍ وفيها من حسن السبك وجـــودة المعـــاني وأهميتها في حمل فكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب والتأكيد على عقيدته السلفية الشيء الكثير منها:

مـــن خطبة للملك عبدالعزيز: "أنا بذمتكم وأنتم بذمتي، إن الدين النصيحة، أنا منكم وأنتم مني، هذه عقيدتنا في الكتب بين أيديكم، فإن كان فيها ما يخالف كتاب الله؛ فردونا عنه، واسألونا عما يشكل عليكم فيها، والحكم بيننا كتاب الله وما جاء في كتب الحديث والسنة".

ويقول: "ما كنا عربًا إلا بعدما كنا مسلمين، كنا عبيدًا للعجم، ولكن الإسلام جعلنا سادة، ليس لنا فضيلة إلا بالله وطاعته واتباع محمد، ويجب أن نعرف حقيقة ديننا وعربيتنا ولا ننساها.

كل حرية باطلة إلا حرية الإسلام، والإنسان لا ينفع إلا بالدين، ونحن لا نبغي محاربة أوروبـــا، وإنما نطلب حقوقنا باتحادنا، فنعتصم بالله، والإسلام أكبر وسيلة وأكبر حصن، هو أكبر مزايا الحسب والنسب، فيجب على المسلم محبة دينه وشعبه ووطنه".

ويقـــول في خطـــبة لـــه بمكة أيضًا: "يسموننا بالوهابيين، ويسمون مذهبنا بالوهابي؛ باعتـــبار أنه مذهب خاص، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثها أهـــل الأغـــراض، نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة، ولم يأت محمد بن عـــبدالوهاب بالجديد؛ فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رســـوله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح، ونحن نحترم الأئمة الأربعة، ولا فرق بين الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة؛ كلهم محترمون في نظرنا"[1].

---

(١) راجـــع: الـــشيخ محمـــد بـــن عـــبدالوهاب- (ص٢٨)- عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب- (٢/٣٠٦-٣٠٨).

أما عن الشعر:

وقد كثر الشعر في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتنوع ما بين دعوة إلى أفكار الدعوة ومدح وثناء على علمائها وأئمتها وخاصة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ومن شعراء الدعوة:

١-الشيخ سليمان بن سحمان صاحب "الدرر السنية" وله ديوان شعر مطبوع؛ منه قوله:

حنيفية نسقي لمن غاضنا المرا   نعم نحن وهابية حنفية

سنصعقه صعقًا ونكسره كسرًا   ومن هاضنا أو غاضنا بمغيضة

فعاد حسيرًا خاسئًا نائلاً شرًا   وكم من أخي جهل رمانا بجهله

٢-الشيخ أحمد بن مشرف الإحسائي الوهيبي صاحب "ديوان ابن مشرف في العقائد والتوحيد والفقه والأدب" ومنه قوله جوابًا عن الإمام فيصل بن تركي:

فنال المُنى بالنصر كل موحد   هم نصروا التوحيد بالبيض والقنا

يُسمى بشيخ المسلمين محمد   وآووا إمامًا قام لله داعيًا

وقد جد في إخفائه كل ملحد   لقد أوضح الإسلام عند اغترابه

٣-الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن، ومن شعره:

وسلت سيوف البغي من كل غادر   ودارت على الإسلام أكبر فتنة

وكانوا على الإسلام أهل تناصر   وذلت رقاب من رجال أعزة

تزورهم غرثى السباع الضوامر[1]   وأضحى بنو الإسلام في كل مأزق

(١) راجع ديوان ابن مشرف في العقائد والتوحيد والفقه والأدب، وصالح العبود: عقيدة الشيخ-(٣٨٣-٣٨٢/٢).

رابعًا: الجهاد المسلح:

كـــان الشيخ محمد بن عبدالوهاب يؤمن بمضي الجهاد منذ بعث الله محمدًا ﷺ إلى أن يقاتل آخر أمته الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل...[1].

وشـــأن كل دعوة للتوحيد تلاقي من الكفار وأصحاب المصالح كثيرًا ممن يصدون عن ســـبيل الله، ويبغونها عوجا، فقد لاقت دعوة الشيخ ولاقى هو كثيرًا من الصدود والعنت إلى درجة أن اضطره الأعداء إلى الدخول في حروب مباشرة بالسـيف والمدفع معهم، فقاد الجيوش الإمام محمد بن سعود وأحيانًا ابنه عبدالعزيز وانخرط الشيخ محمد بن عبدالوهاب جـــنديا في جـــيش التوحيد ليؤدبوا المنافقين وأصحاب المصالح التي تضاد مصالح الإسلام والتوحـــيد في أنحـــاء جزيرة العرب، وكانت أكبر المعارك التي خاضوها هي مع دهام بن دواس حاكم الرياض التي أصبحت عاصمة لآل سعود فيما بعد، وانتصر آل سعود ببركة الشيخ على دهام هذا، وتوسعت دولتهم حتى عمت غالب الجزيرة ووصلت إلى درجة أن ذهـــب سعود الكبير بنفسه لهدم قبة الحسين في شمال العراق (كربلاء) ومتجاوزين بذلك الحجـــاز الذي دخلوا في حروب معه كان لهم الغلبة فيها أيضًا وقد خلعوا الأشراف من حكم مكة والمدينة[2].

---

(١) راجع عقيدته في ذلك ضمن رسالة إلى أهل القصيم في مؤلفات الشيخ الجزء الخامس.

(٢) انظـــر: الـــشيخ محمد بن عبدالوهاب- ص(٢٧)- د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي- مكتبة النهضة المصرية- الطبعة الخامسة عشرة- ١٩٩٩م- (١٣٨/٧)- وغيرها.

جماعة التبليغ والدعوة[1]

تمهيد:

من أهم الاتجاهات الدعوية التي ظهرت كرد فعل للمؤثرات سالفة الذكر، والتي كان مـــن أهمهـــا فيما يخص جماعة التبليغ سيطرة الاستعمار الإنجليزي بوجوهه المتعددة الخبيثة علـــى تلـــك الأراضـــي الهـــندية وبخاصة مدينة دلهي عاصمة بلاد الهند، فظهر من يفتح للاســـتعمار ذراعيه كما هو حال الخونة في كل عصر إلى أن جعلوا من البلاد كلها مرتعًا خصبًا لكل جراثيم الفكر على اختلاف أنواعها.

لكن الأمر لم يكد يخلو للاستعمار وأعوانه حتى ظهر المخلصون (كما نحسبهم كذلك ولا نزكي أحدًا على الله) فحملوا مشعل الدعوة لهذا الدين، ففتح الله على أيْدِيهم القلوب المغلقة، وأنار بهم ظلمات كانت بعضها فوق بعض.

أولـــئك هم رجال التبليغ والدعوة كما أطلق عليهم، ونتناول في هذه الصفحات لمحة موجـــزة عن هذه الجماعة بوصفها أحد اتجاهات الدعوة الذي أخذ حيزًا كبيرًا من قطاع الأمة الإسلامية.

النشأة والتأسيـس:

ظهرت هذه الجماعة في منطقة ميوات بدلهي عاصمة الهند في أواخر القرن الرابع عشر الهجري على يد محمد إلياس الكاندهلوي، والذي روي عنه في نشأة هذه الجماعة أنه رأى بعـــض الـــرؤى المنامـــية الـــتي تحثه على الدعوة إلى الله والخروج لدعوة الناس إلى الدين وإرشادهم إلى طريق الهداية، فكانت هذه الرؤى هي السبب الثاني لنشأة هذه الجماعة بعد ظروف الاستعمار وطغيان الحضارة الغربية ومنهجها العلماني[2].

"وقـــبل دعوة الشيخ إلياس مئات وألوف من تلك المنطقة "ميوات"، وخرجوا شهورًا

---

(١) عـــرض هذا التعريف لا يقتضي تأييدًا لهذه الجماعة ولا لغيرها من الجماعات، وراجع ما كتبناه بـــشأن موقف المسلم من هذه الجماعات في الفصل الخاص بالحديث عن الدعوة الجماعية والعمل الجماعي.

(٢) انظر د/صلاح الصاوي: مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي- (ص٢٠٤) .

وقطعوا آفاقًا بعيدة ما بين شرق الهند وغربها وشمالها وجنوبها ركبانًا ومشاة، فتغيرت أخلاقهم وتحسنت أحوالهم واشتعلت بواطنهم الدينية، وانتشرت الدعوة في الهند وباكستان من غير نفقات باهظة ومساعدات مالية ونظم إدارية، بل بطريقة بسيطة تشبه طريقة الدعوة في الإسلام، وتذكر بالدعاة المسلمين المجاهدين المؤمنين الذين كانوا يحملون في سبيل الدعوة والجهاد متاعهم وراءهم وينفقون على أنفسهم ويتحملون المشقة محتسبين متطوعين"[1].

وبذلك تستقر أركان هذه الدعوة بظهور أتباعها، وظل الأمر على هذه الحال من النشاط إلى أن توفي الشيخ محمد إلياس في رجب ١٣٦٣هـ أو ١٣٦٤هـ- ١٩٤٤م[2]، بعد أن أرسى الأسس التي ترتكز عليها الجماعة، وكانت وفاته في بلدة نظام الدين ودفن بها -رحمه الله.

وتبعه على نفس النهج ابنه الشيخ محمد يوسف الذي جاب أقطار العالم الإسلامي لنشر هذه الدعوة وتوطيد أركانها، ووصف بشخصيته الفذة وهمته العالية في الدعوة وعبادته الخاشعة وكثرة دعاته، وكان من مؤلفاته كتاب حياة الصحابة الذي يعد من أهم كتب التبليغيين زار -رحمه الله- المدن الكبرى في باكستان الشرقية والغربية كلتيهما، وعقد فيها اجتماعات كبرى لا نظير لها في التاريخ القريب.

وبعد وفاة الشيخ محمد يوسف -رحمه الله- في أول أبريل ١٩٦٥م تبعه الشيخ إنعام الحسن، وهو الأمير الثالث للجماعة بعد وفاة الشيخ محمد يوسف كان مقره الهند بمسجد نظام الدين، صاحب الشيخ إلياس في بدايته، وكان صديقًا للشيخ محمد يوسف، وكانا متقاربين في الدعوة وتوفي سنة ١٤١٦هـ ولم يخلفه أحد لأسباب غامضة، والآن يتولى

---

(١) خالد بن عبدالرحمن: وجوب الدعوة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ومنهاج جماعة التبليغ في ذلك، دار ثابت- (ص٦٤).

(٢) انظر: د. سعد الدين السيد صالح: الفرق والجماعات الإسلامية المعاصرة وجذورها التاريخية، دار أحد، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م) - (ص٣٦٥)- حسين جابر: الطريق إلى جماعة المسلمين، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ-١٩٨٨م) - (ص٢٩٥).

أمر الجماعة مجلس شورى[1].

عقيدة الجماعة:

تأثرت هذه الجماعة منذ نشأتها بالصوفية، فنسب مؤسسها الشيخ إلياس -رحمه الله- إلى الطريقة الجشتية، وهي إحدى الطرق الصوفية المنتشرة في الهند، تبدأ سلسلتها من خواجه معين الدين الجشتي[2] فهو محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي الديوبندي الجشتي.

ورغم نسبة رئيس الجماعة إلى إحدى الطرق الصوفية إلا أن الجماعة في عمومها لا ترتبط عقيدتها بعقيدة مؤسسها بقدر ارتباطها بالمكان الذي تواجد فيه، فترى منهم من يحمل عقيدة السلف لتواجده في بيئة أهل السنة والجماعة المنتهجين منهج السلف الصالح، وترى منهم من لا يرى بأسًا بعقيدة الأشاعرة والماتريدية، وقد ترى منهم من لا يعرف شيئًا عن العقيدة أصلا لجهله أو لحداثة سنه بين الجماعة، ولعل سبب ذلك راجع إلى أن دعوتهم قائمة على البعد عن الخلافات العقدية كما ذكر الشيخ الألباني -رحمه الله[3].

مبادئ الدعوة عند الجماعة:

قرر مؤسس الجماعة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ستة مبادئ قامت عليها هذه الدعوة، وهذه المبادئ هي:

١-الكلمة الطيبة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٢-إقامة الصلاة ذات الخشوع.

---

(١) انظر: سليم الهلالي: الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، دار البصيرة، الإسكندرية - (ص٣٥٦)- الفرق والجماعات الإسلامية المعاصرة وجذورها التاريخية- (ص٣٦٥) .

(٢) انظر: الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة- (ص٣٥٦) .

(٣) انظر: الفتاوى الإماراتية للألباني- س ٧٣- (ص٣٨)- د/صلاح الصاوي: مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي- (ص٢٠٤) .

٣-العلم والذكر.

٤-إكرام المسلمين.

٥-الإخلاص

٦-الدعوة إلى الله والخروج في سبيل الله[1].

ويقوم البرنامج الدعوي على تحقيق النقاط التالية:

أولا: الاجتهاد في تحقيق المبادئ الستة السابقة.

ثانيا: الاجتهاد في العمل بالدعوة إلى الله والعلم والتعلم والعبادات والخدمة وأما الدعوة فعلى أربع وجوه:

١-دعوة فردية.

٢-دعوة اجتماعية.

٣-دعوة عمومية.

٤-دعوة خاصة.

وهي لأربع طبقات:

١-العلماء وذلك بمحبتهم وإكرامهم.

٢-الوجهاء وهم أصحاب الجاه كالأمراء والحكام.

٣-القدماء وهم الذين خرجوا في الدعوة.

٤-عامة المسلمين.

وأما العلم والتعلم يكون في الفضائل فقط، والاعتماد في ذلك على كتب الفضائل كرياض الصالحين للنووي، وحياة الصحابة للكاندهلوي، والترغيب والترهيب للمنذري، والأدب المفرد للبخاري.

ويدخل في العلم والتعلم مذاكرة العشر سور الأخيرة من القرآن بين الخارجين،

---

(١) وجوب الدعوة إلى الكتاب والسنة - (ص١١٩)- الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة- (ص٣٧٨)- عصام مرعي: القول البليغ في نصح جماعة التبليغ- دار أهل السنة- توزيع المكتبة الإسلامية- (ص١٨).

والآداب العامة كأدب الطعام والشراب والمنام وقضاء الحاجة.. إلى غيرها من السنن.

وأمـــا العــبادات فيكون التركيز على المحافظة على جزء من القرآن في اليوم والصلاة المكتوبة والسنة، وقيام الليل والأذكار الصباحية والمسائية.

وأما الخدمة فيدخل فيها خدمة النفس وخدمة الجماعة الخارجة وخدمة الأمير وخدمة أهل البلدة أي المسلمين عامة.

ثالثًا: ونخرج بأربعة: النفس – المال- الوقت- الافتقار إلى الله.

رابعًا: ونلتزم بطاعة الأمير في غير معصية، والصبر والتحمل وحرمة المساجد، وتقديم العمل الجماعي على الانفرادي.

والأعمال الجماعية هي:

١-حلقة التعليم ٢-بيان الفجر ٣-بيان المغرب والعشاء

٤-قراءة في حياة الصحابة ٥-آداب الطعام والشراب ٦-آداب السفر

٧-المشورة ٨-النوم.

خامسًا: ونقلل من أربع: الطعام – المنام- قضاء الحاجات- الخروج من المسجد.

سادسًـــا: ونتــرك في الخروج أربعة أمور: الإسراف- الإشراف- السؤال- استعمال حاجة الغير إلا بإذنه.

ونجتهد بالخروج على الترتيب التالي:

١-أربعة أشهر في أقرب فرصة.

٢-أربعون يومًا في السنة.

٣-ثلاثة أيام في الشهر.

٤-جولـــتان في الأســـبوع (جولة مقامية أي في نفس المنطقة ومحيط الداعي، وجولة انتقالية إلى القرى المجاورة).

٥-حلقتان في اليوم (حلقة في المسجد من الفضائل وحلقة في الترتيب).

٦-تفـــريغ ســـاعتين ونصف لعيادة المريض وزيارة الأرحـــام، والأذكـــار.... إلى غـــير ذلك.

٧-حضور المشورة وحضور يوم الخميس ليلة الجمعة للمناقشة في فكر الدعوة.

وقبل كل عمل علينا أن نبين آدابه مثل الطعام والشراب والمنام والسفر وقضاء الحاجة وزيارة العلماء والوجهاء وآداب المساجد والسلام.

وعلينا أن نربط الجدد، وهم الذين لم يخرجوا من قبل بالإخوة القدماء الذين قضوا فترة من الزمن في الخروج[1].

طريقة تنفيذ الخروج:

تبدأ أعمال الخروج فور ركوبهم وسيلة السفر بقراءة القرآن والحديث، وبعد وصولهم المسجد وأداء تحيته يجتمعون للشورى حول ترتيب عملهم وتوزيعه خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة على الوظائف التالية:

١-إعداد الطعام ويقوم به اثنان منهم أو ثلاثة.

٢-زيارة إمام المسجد ومركز الشرطة والمهمين من أهل الحي.

٣-إمارة حلقة التعليم.

٤-التعريف بالجماعة بعد صلاة العصر.

٥-درس العصر.

٦-التذكير بآداب الجولة.

٧-درس المغرب.

٨-درس العشاء.

٩-التذكير بآداب الطعام وآداب النوم.

١٠-مذاكرة الفجر.

وينتظم عملهم على النحو التالي:

أولا: حوالي الساعة التاسعة صباحًا يجتمعون على "حلقة التعليم" ويقتصر على:

١-تلاوة العشر سور الأخيرة من القرآن يشارك كل منهم في القراءة والاستماع.

(١) وجوب الدعوة إلى الكتاب والسنة - (ص١١٩-١٢١).

٢-قـــراءة بعـــض الأحاديث النبوية في فضائل الأعمال من كتاب "رياض الصالحين" للـــنووي خاصًا بالعرب... ومن كتاب "تبليغي نصاب" لمحمد زكريا الكاندهلوي خاصًّا بالعجم.

٣-الـــتدريب علـــى إلقـــاء الموعظة بتعداد الأصول الستة أو الصفات الست التي مر ذكرها إجمالاً أو تفصيلاً.

٤-تدارس آداب وأصول الجماعة وهي كالتالي:

-الالتزام بأربع: طاعة الأمير، الاشتراك في الأعمال الجماعية، الصبر والتحمل، نظافة المسجد.

-الاشتغال بأربع: الدعوة، العبادات، حلقة التعليم، الخدمة.

-التقليل من أربع: الطعام، المنام، الكلام، وقت قضاء الحاجات (الخاصة).

-تجـــنب أربـــع: الإسراف، الإشراف، السؤال، استعمال ملك الغير إلا بإذنه، وقد سبقت الإشارة إلى هذه النقطة وسابقتها.

-عـــدم الخـــوض في أربـــع: المسائل الفقهية، المسائل السياسية، أوضاع الجماعات الأخرى، الجدال.

-عـــند زيارة الحكام تبين لهم الأحوال (نشاط الجماعة)، والعلماء يطلب منهم الدعاء والمثقفون يدعون بدون إلحاح، ويركز في الدعوة على العوام.

ثانـــيا: بعد صلاة الظهر يتولى أحدهم تعريف المصلين بأهداف خروجهم وأنهم جاءوا مـــن بلاد وقبائل ومهن شتى لا يريدون غرضًا دنيويا، وإنما زاروهم لله ولدين الله راجين منهم أن ينصروهم في هذا السبيل، وبعد التعارف يكون الغداء والراحة.

ثالـــثًا: بعد صلاة العصر يلقي أحدهم موعظة قصيرة يحث فيها المصلين على الاشتراك مع الخارجين في زيارات خاصة في البيوت لمن يرون حاجتهم للزيارة.

رابعًـــا: قـــبل المغرب بساعات يجتمع الخارجون للاستماع إلى آداب الجولة العامة، ويخـــتار منهم أميرهم جماعة أو أكثر للتجول على الناس في الأماكن العامة: الشارع، المحل الـــتجاري، المقهـــى، والـــنادي، ودعوة من يلقونه إلى المسجد بعد تذكيره بغاية وجوده

ومستقبله الأخروي، ويعين من بينهم أميرًا ودليلاً ومتكلمًا ويبقى واحد منهم منعزلاً لذكر الله في المسجد سببًا لنجاح الجولة، وآخر لاستقبال المستجيبين، وثالث مع بقية الخارجين في تلاوة لفضائل الأعمال.

خامسًا: بعد صلاة المغرب مباشرة يعلن أحدهم عن الموعظة الرئيسية بعد صلاة النافلة بالصيغة التالية: "نعلم جميعًا أن نجاحنا وفلاحنا في الدنيا والآخرة، باتباع أوامر الله وعلى طريق رسوله، من أجل ذلك إن شاء الله نصبر أنفسنا قليلاً بعد السنة الراتبة للاستماع بالتفصيل إلى كلام الدين والإيمان".

وبعد النافلة يتكلم أحدهم في نطاق الأصول الستة أو الصفات الست مثيرًا العاطفة والغيرة الدينية مستعينًا ببعض الآيات والأحاديث "الضعيفة غالبا" والقصص (الإسرائيلية غالبًا)، ويختم الدرس بالهدف الأساسي له: (التشكيل)- ويعنون به دعوة الحاضرين وتسجيل المستجيبين منهم للخروج في سبيل الله- ويحفزهم أحيانًا كثيرة بقوله: "مستعدون إن شاء الله!" ثم يقوم بالدعاء الجماعي.

سادسًا: بعد صلاة العشاء يقرأ أحدهم قصة أو أكثر من كتاب "حياة الصحابة" لمحمد يوسف الكاندهلوي بقصد ألا يستكثر الدعاة جهادهم ونفقتهم ولحثهم على بذل المزيد.

سابعًا: يذكرهم واحد منهم أو أكثر بآداب الطعام والنوم قبل انصرافهم إليهما، وربما ذكروا في هذا الوقت أو غيره بآداب المساجد وآداب الغسل.

ثامنًا: قد يقتسمون ساعات الليل في التهجد، ويختلف جهدهم باختلاف أفرادهم، ولكن على الجميع الاستيقاظ قبل نصف ساعة على الأقل من أذان الفجر لقيام شيء من الليل وصلاة الصبح.

تاسعًا: بعد الصلاة يحدثهم أحدهم عن عظمة الله وعن الدار الآخرة، وربما تدارسوا الأصول أو الصفات، أو أعادوا تلاوة العشر سور القصار من القرآن حتى الشروق.

عاشرًا: بعد انتشار الشمس يصلون سبحة الضحى، ويتناولون طعام الإفطار وينالون قسطًا من الراحة حتى الساعة التاسعة تقريبًا حيث يجتمعون لحلقة جديدة من التعليم

والتشاور في الأعمال الأربع وعشرين ساعة التالية"[1].

أهم الانتقادات الموجهة إلى هذه الجماعة:

١-عدم الخوض في الأمور السياسية؛ أو المشاركة في الحياة السياسية على نحو ما نجد في جماعة الإخوان المسلمين؛ إذ السياسة المتعلقة بالدين والمسلمين عندهم ليست من الدين، ويجبكون في ذلك "عبارات خاوية على عروشها مثل "السياسة أن تترك السياسة" وعلى شاكلتهم المتصوفة "السياسة تياسة"[2].

٢-عدم نهيهم عن المنكر:

تعاملت هذه الجماعة مع واجب الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر تعاملاً سلبيا جدًّا، بل وجعلوه من أصول دعوتهم، وذلك زعمًا منهم أنه ينفر الناس من دعوتهم ويثير غضب المسئولين عليهم[3].

ومعلوم أن الذي يثير غضب المسئولين هو ترك الحكمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس الأمر والنهي نفسه.

٣-قيام دعوتهم على التوسع الأفقي الكمي لا النوعي وإصلاح الفرد من زاوية خاصة، وهي الزاوية الروحية دون التركيز على التربية الشاملة التي تتناول التربية العقلية عن طريق العلم الشامل بالإسلام مما أدى إلى انتشار الجهل بين قطاع كبير من هذه الجماعة وخصوصًا طبقة العوام والأدميين[4].

٤-لا يعرف للجماعة علماء يرجع إليهم، وذلك لقلة اهتمامهم بالعلم الشرعي بمفهومه الشامل.

٥-جهلهم بمسائل العقيدة، ومبايعة كبار مشايخهم على الطرق الصوفية مثل الجشتية

---

(١) الجماعات الإسلامية نقلاً عن "رأي آخر في جماعة التبليغ"- (ص١٠-١٤).

(٢) الجماعات الإسلامية- (ص٤٠٢-٤٠٣).

(٣) انظر: القول البليغ في نصح جماعة التبليغ- (٣٨-٤١).

(٤) الفرق والجماعات الإسلامية- (ص٣٧٤).

والقادرية والسهروردية والنقشبندية[1].

٦-اهتمامهم بعلم الفضائل وإهمالهم علم الأحكام والتوحيد والمسائل.

٧-المغالاة فيما أسموه الخروج في سبيل الله واعتباره الجهاد الأكبر.

ثمار الجماعة وأثر دعوتها:

١-كان للجماعة آثار كبيرة على الدعوة الإسلامية في العالم الإسلامي، وخصوصًا في المغرب والجزائر وتونس ومصر وكثير من شباب الجماعات الإسلامية عرف الاستقامة والالتزام عن طريق جماعة التبليغ ثم تطور أمره بعد ذلك.

٢-كان بعدهم عن السياسة والاقتصاد والاجتماع سببًا من الأسباب التي فتحت أمامها أبواب الدعوة للإسلام.

٣-كان للجماعة تأثير على العالم الخارجي فعن طريقها انتشر الإسلام بين العمال المسلمين الذين كانوا قد انسلخوا عن دينهم، فبنيت المساجد وأقيمت الصلاة وظهر الزي الإسلامي ودخل العديد من النصارى في الإسلام، الأمر الذي ما كان يتم إلا بفتح إسلامي قوامه السلاح والقتال.

٤-المران على الدعوة والتنظيم والاجتماعات المتكررة، كل ذلك أكسبهم دقة التنظيم في أمورهم دون أدنى تكلف أو ملل وفي إمكان الجماعة أن تعقد وتنظم لأكبر اجتماع، الذي لو قامت به أي جهة غيرهم لتكلفت نفقات باهظة واحتاجت لزمن طويل[2].

٥-شيوع الدعوة وانتشارها وبلوغها الآفاق يقول الشيخ أبو بكر الجزائري: "كما عرفتها بفرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وبريطانيا، وسمعت عنها بأمريكا وفي القارة الهندية وشاهدت الآثار دعوتها في الشرق الأوسط.

---

(١) الجماعات الإسلامية نقلاً عن رسالة إنعام الحسن الجوابية على رسالة الشيخ الحصين- (ص٣٨١).

(٢) انظر: الفرق والجماعات الإسلامية المعاصرة وجذورها التاريخية- (ص٣٧٠-٣٨٠)- أيمن أبو شادي: نظرة علمية في أهل التبليغ والدعوة- أحياد، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ-١٩٩٨م)، (٨٦/١-٨٩).

ومن آثار تلك الدعوة ما يلي:

١-إقام الصلاة ذات الخشوع.

٢-إظهـــار الشعائر الدينية كالحجاب للنساء وإعفاء اللحية في الرجال وتغطية الرأس بالعمامة ونحوها.

٣-ترك الشركيات والخرافات قولاً وعملاً واعتقادًا.

٤-الاســـتجابة لدعـــوة التوحيد والعمل بالكتاب والسنة، إذ كانوا في شمال إفريقيا وأوربـــا يـــتابعون دروســـي مـــن بلد إلى بلد طيلة ما أنا مقيم في الإقليم ألقي مواعظي ودروسي، وهي تمتاز بحمد الله بالعقيدة السلفية ومحاربة الشرك والبدع والضلالات.

لقـــد مضت عشرات السنين والمسلم لا يستطيع في أوربا أن يظهر إسلامه فضلاً عن أمريكا، فأكثر العمال سكيرون تاركون للصلاة، متفرنجون لغة وزيًّا وخلقًا وسلوكًا حتى جاء الحق تبارك وتعالى بجماعة التبليغ تحمل هداية الإسلام عقيدة وعبادة وسلوكًا، وذلك في صـــمت ويـــسر وســـهولة، فوجد الإسلام في أمريكا وأوربا بصورة ما كان يتصور وجودها فضلاً عن رؤيتها بغير جهاد السيف.

وآثـــار دعـــوة التبليغ في القارة الهندية لا تقل عنها في غيرها، فقد رجع المسلمون إلى الإســـلام بعـــد التنكـــر له والخروج عن تعاليمه والضياع في متاهات البدع والخرافات وصنوف الشركيات[1].

مقترحات علمية لهذا الاتجاه الدعوي:

حتى لا يتسع البون بين هذا الاتجاه وغيره من اتجاهات العمل الإسلامي، نظرًا للطابع الخاص الذي يطبع به أفراد هذا الاتجاه بما يميزه عن غيره من الاتجاهات فإلى أفراد الجماعة وأمرائها نقدم هذه المقترحات:

١-التكامل مع الآخرين:

وذلك يكون باعتبار أن هذه الطريقة في الدعوة وسيلة من وسائل العمل لإقامة شرع

---

(١) نظرة علمية في أهل التبليغ- (١/١١٧).

الله في دنـيا الناس وليست هي الإسلام كله، ولكنها الخطوة الأولى التي يجب أن تتكامل مـع خطوات بقية الدعاة إلى الله، فبهذا يمكن أن يمتهد السبيل إلى السكوت المرحلي عن الأغلاط المنتشرة بين صفوفهم.

٢-الـبراءة مـن التعصب لذاتها وأمرائها ومنهاجها، وإذا تم ذلك امتهد سبيل لسد النقص الناشئ لدى هذا الاتجاه.

٣-الاهـتمام بـالعلم الشرعي، فلابد أن يتسلح فريق من هذا الاتجاه بالعلم الشرعي الصحيح حتى يستطيعوا حراسة مسيرتهم فلا تجتالها البدع والخرافات عن الجادة.

٤-شمـول برامجهم في الدعوة لما لا يصح عقد الإسلام إلا به، فلا يصح عقد الإسلام ابـتداء إلا بالالتزام المجمل بالتوحيد والبراءة المجملة من الشرك، ولا تمتد أحكام هذا العقد إلا بالاسـتقامة على ذلك، فلا يتوجه لشعيرة من الشعائر إلا إلى الله، ولا ترد الأمور عند التنازع إلا إليه، ولا يوالي إلا في ذاته ﷻ، فيجب أن يتضمن البرنامج الدعوي هذا القدر الذي لا يصح الإسلام إلا به، وهذا القدر يمكن تبسيطه حتى يتمكن العامة من إدراكه بلا عـنت ولا مـشقة. ولا يجمل من الدعوة أن تقر أحدا من أفرادها على شيء من طوارق الـشرك أو أن تتساهل في هذا مهما تكن المبررات، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُـشْرَكَ بِـهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] وقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

٥-التزام أفراد الجماعة بأصول العمل الجماعي وشروطه وتتلخص فيما يلي:

أ-أن يكـون الاجـتماع بينهم على منهاج النبوة لا غير على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في العقيدة والمنهج والسلوك، وأن يلزموا ما أجمع عليه المجتهدون من أهل السنة والجماعة.

ب-أن يتجـرد الأفراد من آفات أهل هذا الزمان، من شح مطاع وهوى متبع ودنيا

---

(١) النساء:٤٨.

(٢) الأنعام:٨٨.

مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه وغير ذلك مما يعوق العمل الجماعي.

ج-ألا يكــون اجتماعهم على أصول أو أفكار أو مبادئ أو رأي أو اجتهاد أو عمل يفارقــون بــه جماعة المسلمين، ويخالفون به سوادهم الأعظم من أهل الحل والعقد، سواء كان ذلك في المنهج والاعتقاد أو كان في الرأي والحرب والمشورة.

د-أن يجــتمعوا علــى أنهم مجموعة من المجموعات العاملة للدين تحت جماعة المسلمين العامــة، وليسوا هم وحدهم جماعة المسلمين، لذا فهم لا ينكرون على الخارج عنهم فلا يكفرونه ولا يؤثمونه؛ لأنهم لا يرون مجموعتهم لازمة لأفرادها ولا لغيرهم من المسلمين.

٥-ألا يجعلــوا لأفــراد العمل تميزًا عن غيرهم ممن ليس في هذا العمل بحيث لا يكون للحليف منزلة أعلى من غير الحليف من جهة المحبة والولاء والنصرة.

٦-ألا يتعــصبوا لشيخهم أو لجماعتهم أو لأعمالهم التي يعملونها فلا يبالون أن يعمل المــسلم مع أي جماعة من الجماعات الراشدة، ممن لزمت ما عليه جمهور الأمة و لم تفرق كلمتها.

وعليهم ألا يتعصبوا لآرائهم بأن يستمعوا لآراء المخالفين لهم بغرض الوصول إلى الحق والاجتماع عليه، فإن اجتمعت الكلمة فيها ونعمت وإلا فليدعوا ما اختلفوا فيه، وليقفوا عند ما اجتمعت عليه كلمتهم.

٧-ألا ينكــروا مــا مــع غيرهم مــن الحــق والعمــل المشــروع، ولا ينكــروا فــضلهــم ومــا يقدمــونه للأمة من خير بل يثنون على المحسن في إحسانه، وينصحون للمــسيء في إساءته، ولا يمنعون من مشاركة غيرهم في أعمالهم المتفق عليها بين الأمة ما أمكنهم ذلك.

٨-ألا يتميزوا عن جماعة المسلمين العامة باسم أو رسم أو شعار ما لم يكن ذلك على ســبيل التناســق والــتعاون والتآلف والتعاضد، ولا يكون ذلك إلا باجتماع كلمة هذه المجموعات والجماعات على متبوع مطاع يوزع عليها أعمالها ويؤلف بينها، فيكون التميز لتقــسيم الأعمــال والأدوار، فيعــرف كل فريق بعمل لا يعارض به غيره، بحيث يكون اختلاف الاسم والشعار دالاً على اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

٩-ألا يعطي أمير العمل اختصاصات الخليفة أو نائبه كوجوب لزومه ولو كان جائرًا أو صاحب بدعة أو هوى، أو لزوم طاعته خارج دائرة العمل الذي تم الاجتماع عليه[1].

أو غــير ذلــك مما هو من اختصاص الخليفة أو نائبه بحيث لا يخلط بين هذه الإمارة الجزئية والإمارة العامة[2].

وأخــيرًا.. فبعد هذا العرض البسيط لجماعة التبليغ والدعوة -بمالها وما عليها- نكون قــد انتهيــنا من عرض أحد الأمثلة للاتجاهات الدعوية التي ظهرت كرد فعل للحضارة الغــربية والاســتعمار الأوربي بكــل خبثه، وحملت شعار الدعوة رغم كل الصعوبات وانتهجت لنفسها منهجًا وطريقة بيناها في بحثنا هذا.

---

(١) بــل ينبغي أن ينتهي التعاقد والاجتماع بنهاية العمل، ولا يبدأ أصلاً إلا بعد الاتفاق على عمل مــشروع لا يفــرق جماعة المسلمين، ولذلك فهذه الجماعة الجزئية أو البيعة الجزئية يمكــن أن نــسميــها بجماعــة العمل أو إمارة العمل قياسًا على جماعة السفر وإمارة السفر؛ لأن هذا هو دليلها، فينبغي الوقوف بها عند حدود الدليل، فالمسوغ لإنشائها هو العمل فلا يحل أن توجد قبله ولا بعده.

(٢) دراسات حول الجماعة والجماعات- (ص٤١٥-٤١٧) بتصرف.

جماعة الإخوان المسلمين[1]

عوامل النشأة:

نشأت جماعة الإخوان المسلمين بمصر عام ١٩٢٨م نتيجة لعدة عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وتعليمية وتربوية، مرت بها مصر منذ الاستعمار البريطاني لأراضيها.

العوامل السياسية:

وتتمثل في وجود الإنجليز على أرض مصر وهيمنته على كل نظم المجتمع بدءًا بالاستعمار المادي إلى الاستعمار الفكري..

كذلك في وجود الملكية الحاكمة وممارستها استبدادًا شبه مطلق في مصر.

وتأتي الأحزاب السياسية المصرية كقوة ثالثة أو كعامل سياسي ثالث بعد الإنجليز والملك، من هذه الأحزاب: ١-حزب الأغلبية الشعبية "الوفد"، والأحزاب المنشقة عنه مثل: الأحرار الدستوريون، السعديون، الكتلة السعدية.

٢- أحزاب القصر والاتحاد والشعب.

٣- الحزب الوطني.

وقد سيطر كبار الملاك ورجال المال على هذه الأحزاب جميعًا ماعدا الوطني، وانشغل أعضاؤها بلعبة السلطة والانتخابات، وتبنيها النظام الغربي العلماني وأساليبه السياسية، وقد تميزت هذه الأحزاب بالتصارع والاقتتال والانقسام والفرقة مما أدى إلى ضعف الأمة وتبديد قواها وفساد أخلاق أبنائها.

العوامل الاجتماعية:

وقد برزت في ظاهرة الاحتلال وما صاحبها من تحطيم للأخلاق والأعراف والعادات

---

(١) عرض هذا التعريف لا يقتضي تأييدًا لهذه الجماعة ولا لغيرها من الجماعات، وراجع ما كتبناه بشأن موقف المسلم من هذه الجماعات في الفصل الخاص بالحديث عن الدعوة الجماعية والعمل الجماعي.

الإســـلامية، وحـــركات التنـــصير التي قامت بحملات تنصيرية واسعة النطاق في مختلف المحافظات والقرى الإسلامية.

كما برزت في حركة تحرير المرأة التي بدأها قاسم أمين فـــي كتابيه: تحريـــر المـــرأة ١٨٩٩م والمـــرأة الجديـــدة ١٩٠٠م، ونجـــم عنها تغير كبير في سلوك المرأة المسلمـــة وأخلاقهـــا.

ومن صور التغير هذه:

-خروج المرأة إلى الشارع متبذلة سافرة.

-شيوع الاختلاط بالرجال في الميادين الاجتماعية المختلفة.

-شيوع البغاء الرسمي والترخيص له.

-انتشار السفور والعري على صفحات الجرائد والمجلات والمراسلات.

وبرزت كذلك في النظام الطبقي الذي تميز به المجتمع المصري آنذاك، وأدى إلى وجود تفـــاوت حـــاد بين الطبقات العليا من كبار ملاك الأراضي الزراعية، وأصحاب وسائل الإنتاج من الشركات التجارية والصناعية والبنوك والمؤسسات المالية، والطبقات المتوسطة والدنـــيا من المثقفين والعاملين بالحكومة والفلاحين وصغار العمال. الأمر الذي أدى إلى انتشار البؤس والفقر بين أصحاب هذه الطبقات الأخيرة.

العوامل الاقتصادية:

وتتمـــثل في الاســـتعمار الاقتصادي وسيطرة الشركات الأجنبية على الاقتصاد المصري، وارتباط الأخير بالاقتصاد البريطاني، واعتماده على أذونات الخزانة البريطانية، الأمر الذي أدى إلى تخلف الاقتصاد المصري وانخفاض مستوى المعيشة إلى درجة كبيرة...

العوامل الفكرية:

وتتمـــثل في ســـيطرة تـــيارات فكرية مناهضة للإسلام على الفكر والثقافة، من هذه التيارات:

-التـــيار التغريبي الليبرالي بزعامة سلامة موسى وعلي عبدالرازق وطه حسين، والذي يدعو إلى الاقتداء بالنموذج الغربي في كل شيء.

-التيار الإقليمي بزعامة لطفي السيد وسلامة موسى وطه حسين، وأفكاره هي نفس أفكار التيار التغريبي.

-تيار التغريب الشيوعي الذي تكونت حلقاته في مصر بعد الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧م، والذي حمل برامج المعالم الماركسية الهدامة.

الأوضاع التعليمية والتربوية:

وتتمثل في ضعف النزعة القومية في التعليم المصري؛ حيث ظل التاريخ الأوروبي غالبًا على المنهج، وأهمل التاريخ المصري والإسلامي.

٢-ضعف الاهتمام باللغة العربية في حين الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية.

أهداف الجماعة:

وهكذا تضافرت هذه العوامل جميعًا في إفراز جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وقيامها بثورة إصلاحية شاملة لكل مناحي الحياة، يتضح ذلك من خلال رسائل الأستاذ البنا مؤسس الجماعة ومرشدها الأول الذي قسم أهداف الجماعة إلى:

أهداف قريبة وهي المساهمة في الخير العام والخدمة الاجتماعية وتشمل:

-إصلاح الفرد.

-بناء الأسرة.

-إرشاد المجتمع.

أهداف بعيدة: وهي الإصلاح الشامل والتغير والتبديل للأوضاع القائمة وتشمل:

-إصلاح الحكومة.

-إعادة الخلافة.

-تحقيق السيادة.

-الأستاذية[1].

---

(١) انظر: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا- دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة- (١٤١٢هـ-١٩٩٢م)- (ص٢٠٤) وما بعدها.

ولعل هذا الأمر هو الذي حدا بالإمام البنا أن يعرف الإسلام بقوله: "الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو حق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء"[1].

وسائل الجماعة:

أما الوسائل الدعوية أو الحركية التي وضعتها الجماعة لتحقيق أهدافها، فقد جاءت منسجمة تمامًا مع الواقع المصري باعتبار نشأة الجماعة والواقع العربي الإسلامي، باعتبار نفوذها وانتشارها، وذلك كالآتي:

الوسيلة الأولى: الدعوة والبيان (الوعظ والإرشاد)

وهذه الوسيلة تتبع مع الفرد والجماعة ومهمتها:

- المساهمة في الخير العام والخدمة الاجتماعية.
- تعليم الأميين وتلقين الناس أحكام الدين.
- الوعظ والإرشاد.
- إقامة المنشآت النافعة.
- تكوين رأي عام، وتصحيح فهم المسلمين لدينهم.
- استخدام النشرات والبيانات والمؤتمرات والبعثات في نشر الدعوة.
- محاربة الجهل والمرض والفقر والرذيلة.

وقد تحققت هذه الوسيلة بجلاء إبان نشأة الجماعة في الثلاثينيات والأربعينيات، من القرن الماضي[2].

---

(١) السابق- (ص٣٥٦).

(٢) انظر بتوسع: محمد شوقي زكي: الإخوان المسلمون والمجتمع المصري- دار الأنصار- القاهرة- الطبعة الثانية- (١٤٠١هـ-١٩٨٠م)- (ص١٣٨) وما بعدها.

الوسيلة الثانية: التربية (الإعداد والتكوين):

وتقتصر هذه الوسيلة على أعضاء الجماعة أنفسهم وتتم من خلال الأسر والكتائب والرحلات والدورات والمؤتمرات وغيرها.

الوسيلة الثالثة: العمل السياسي (النضال الدستوري):

وتعد هذه الوسيلة علامة بارزة على جماعة الإخوان بل تعد موضع انتقاد من قبل البعض؛ حيث يرون أنها جماعة سياسية تعنى بالسياسة على حساب الدين... إلى آخره.

والحق أن اهتمام الإخوان بالسياسة جاء متزامنًا ومتماشيًا مع سوء الأحوال السياسية في مصر وفي العالم العربي والإسلامي كله، كما أوضحنا من ذي قبل؛ لذا عملت الجماعة على إصلاح الشئون السياسية الداخلية في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية، ودفعت بأعضائها للمشاركة في الحياة السياسية، ونافست للدخول في المجالس النيابية والوزارات، واستطاعت بالفعل أن تحصد مقاعد كثيرة في دول كالأردن والبحرين والكويت والمغرب والسودان والجزائر واليمن ومصر وغيرها.

كما شاركت الجماعة في انتخابات النقابات المهنية والاتحادات الطلابية، وحققت نجاحًا ملموسًا داخل مصر وغيرها من البلدان العربية والإسلامية.

وهكذا اعتمدت الجماعة هذه الوسيلة في محاولة لإصلاح شئون الدول الإسلامية الداخلية.

وقد تلجأ الجماعة إلى تغيير هذه الوسيلة حين ترى مناسبتها للواقع، من ذلك أنها قد تقاطع الانتخابات التشريعية -كما حدث في مصر والجزائر مثلاً- حين ترى أن ذلك أصلح للدعوة.

الوسيلة الرابعة: الجهاد:

ويعد الجهاد المسلح وسيلة أساسية من وسائل الإخوان التي تتخذها الجماعة في رد العدوان على الأمة الإسلامية، ويدل على ذلك هتافها الدائم "الجهاد سبيلنا".

وقد تحققت هذه الوسيلة إبان الاحتلال البريطاني لمصر؛ حيث قاوم الإخوان الإنجليز في مصر وقناة السويس، كما شاركت بكتائبها في الجهاد المسلح في فلسطين

عـام ١٩٤٨م، والـيوم تقـف حركة المقاومة الإسلامية "حماس" إحدى فصائل جماعة الإخوان في مواجهة العدو اليهودي على أرض فلسطين.

هـذه هي أهم الوسائل الدعوية التي ارتكزت عليها جماعة الإخوان المسلمين في مصر لمعالجة الأوضاع القائمة وأسلمة المجتمع المصري[1].

انتقادات ومآخذ على جماعة الإخوان:

وقد أخذ على هذه الجماعة العديد من المآخذ والانتقادات منها:

الـتورط في المزالق السياسية، الدخول في مواجهة غير حكيمة مع الأنظمة الحاكمة، تهـوين بعض قادتها وزعمائها من بعض مسائل العقيدة والميل نحو التصوف، التقارب مع الـشيعة وغـير ذلـك من المسائل التي توجه إليهم سهام النقد فيها ويحاول أئمة الجماعة ومنظريها دفعها وردّها"[2][3].

---

(١) انظر: د/عبدالحميد الغزالي: حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة- دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة- (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)- (ص١٣٣) وما بعدها.

(٢) انظر في ذلك: د/صلاح الصاوي: مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي- الآفاق الدولية للإعلام- (ص١١٣-١٢٣).

(٣) مـن الكتب التي تدفع الشبهات عن الجماعة: شبهات وردود- دكتور توفيق الواعي، مدخل إلى جماعـة الإخـوان المسلمين- سعيد حوى، الإمام الشهيد حسن البنا بين عطاء الرسائل والسهام السوداء- للدكتور جابر قميحة.

السلفية المعاصرة

تعريف بالدعوة السلفية

يجب أن ننبه ابتداء أننا لا نعني بالدعوة السلفية اتجاهًا بعينه من الاتجاهات التي ترفع هذا الشعار في واقعنا المعاصر، وإنما نعني بها دعوة الكتاب والسنة، والدين الصحيح والإسلام النقي، وهي اتباع سبيل المؤمنين من السلف الصالح وهم أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وهذا يعم كل من تمسك بهذه الأصول فلا يقيد النعت بهذه الصفة بطائفة بعينها وإنما يعم كل من اتصف بهذه الأصول سواء تسمَّى بهذا اللقب (السلفي) أم لم يتسم به.

وهم بذلك الفرقة الناجية بين الفرق والطائفة المنصورة التي قال فيها النبي ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة"، وفي رواية: "لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم"، والسلفيون في كل عصر هم الفئة الذين قال فيهم الرسول ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك"[(١)].

لماذا كانت هذه التسمية؟

هذه التسمية اختصار لتعريف مطول فالقول بأن فلانا سلفي يعني أنه ليس خارجياً مستحلاً دم المسلم بالمعصية، وليس رافضياً ممن يكفر الصحابة، وليس محرفاً متأولاً بالباطل ممن ينفي صفات الله ويحرف معانيها، وليس مشبهاً لله بخلقه وليس حلولياً أو اتحادياً ممن يقول بالوحدة أو الحلول، وليس صوفياً، وليس قبورياً ممن يعبد القبور لها ويقدم النذور، وليس مقلداً متعصباً ممن يلتزم قول إمام بعينه ولو علم أنه يخالف الآية والحديث.. فكلمة السلفي هي تعريف مختصر يختصر كل الاحترازات السابقة.

وليست السلفية بعد ذلك نسبة إلى إمام بعينه أو شيخ خاص، وإنما هي المنهج والطريق الذي سار فيه الصحابة والخلفاء الراشدون والأئمة المرضي عنهم والتابعون لهم بإحسان

---

(١) أخرجه مسلم في "الإمارة"، باب: قول النبي ﷺ لا تزال طائفة- (ح١٩٢٠) من طريق ثوبان.

إلى يوم الدين.

الأصول العلمية للدعوة السلفية:

تقوم السلفية على ثلاثة أصول علمية أساسية: هي التوحيد، والاتباع، والتزكية، وهذه بعينها هي أركان الدين ومقاصد الدعوة التي بعث بها جميع الرسل من لدن آدم إلى محمد عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.

فالتوحيد هو عماد الدين وهو الذي من أجله بعث الله رسله إلى العالمين كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1].

وهو يعني عبادة الله وحده لا شريك له، بكل أنواع العبادة التي شرعها: الظاهرة: كالصلاة والصوم والحج، والنذر والذبح، والطواف ومفردات ذلك، والباطنة: كالخوف والرجاء، والحب والتوكل والإنابة.. الخ.

وأما الاتباع فهو إفراد الرسول ﷺ وحده بالمتابعة فلا تشريع إلا بما جاء به، ولا دين إلا ما قرره وأقره، وهذا معناه أن كل فرد بعده ﷺ يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا هو ﷺ.

وأما التزكية فهي إصلاح النفس وفق المنهج الرباني ولا يكون ذلك إلا بأداء الفرائض، ثم الإكثار من النوافل والتزام طاعة الله ورسوله في ذلك، فلا عبادة إلا بما شرع الله، ولا تقرب إلا بما رسم رسول الله ﷺ.

أهداف الدعوة السلفية المعاصرة:

للدعوة السلفية المعاصرة أهداف عظيمة في الحياة أهمها:

١- توحيد المسلمين تحت عقيدة واحدة. ومنهج تشريعي واحد وذلك حتى يسهل إقامة الأمة الواحدة التي تنضوي تحت علم واحد وإمام واحد.

٢- بناء المسلم الطيب الزكي النفس الموحد البعيد عن الشرك والتعصب والخرافة والجهل.

---

(١) التوبة: ٧١.

٣- تنقـــية المجتمع الإسلامي من الشرك والبدع والخرافات والخلاعة والمجون، وذلك بإيجاد (المحضن) النظيف الذي يصلح لتربية أجيال المسلمين.

٤- محاربـــة الانحـــلال والأفكار الدخيلة التي اجتاحت شباب الإسلام وخاصة أفكار الملاحدة والشيوعيين والزنادقة.

٥- تخليص العالم الإسلامي من أعداء الإسلام الذين غزوا دياره، ومزقوا شمله، وفرقوا أوطانه لتقوم للمسلمين أمتهم ودولتهم العزيزة"[١].

أهم قواعد المنهج السلفي:

١- الالتـــزام بالكتاب والسـنة مصدراً للتشريع ومرجعاً عند كل خلاف، وتطبيقاً في الحـــياة، والحكم بهما على كل قول، وعدم تقديم أي قول يخالفهما مهما كان قائل هذا القول.

٢- جعل توحيد الله هو الأساس والمنطلق والخاتمة والنهاية.. والتوحيد يعني إثبات ما أثبـــته الله لنفســـه وأثبته له رسوله بغير تحريف ولا تمثيل، وعبادة الله وحده لا شريك له، وتطبيق شرعه في الأرض وفي كل شأن من شئون حياتنا.

٣- التمـــسك بوحدة الأمة وعدم السماح بتمزيقها وتفريقها في مناهج عقائدية، أو مذاهب فقهية أو عصبيات حزبية.

٤- التفـــريق الـــدائم بين الحق والباطل والشرك والتوحيد، والسنة والبدعة، والنصح الدائم لله وكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم كما قال رسول ﷺ.

أسباب تكون السلفية وانتشارها:

تـــتعدد الأسباب التي يبديها المتحدثون عن السلفية المعاصرة تعدد المتحدثين أنفسهم فمثلا القوميون والعلمانيون يرجعون تكون المنهج السلفي وأسباب انتشاره إلى أمور على رأســـها هزيمة العرب في حزيران ١٩٦٧م المعروفة بنكسة ٦٧، على حين يرى السلفيون لذلك أسبابا أخرى تاريخية – نراها الأهم والآكد- ولذلك نطرح أهمها:

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الخالق.

الإسلام نفسه لأنه الدين الأحق بالاتباع وبتنظيم حياة البشر ولأنه الدين الذي يرضاه الله.. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1].. بل إن الله لا يرضى دينا غيره.. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2] وإذن فالطبعي والبدهي هو الإسلام وما عساه من مختلف الأديان هو الشذوذ، وكون الإسلام هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وكون المنهج السلفي والسلفيين يتقصون حياة السلف الصالحين من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل القرون المفضلة فإذن على منهجهم أن يسود المجتمعات المسلمة في كل بلد ويصبح الإسلام وبعث محمد وإنزال الله الوحي تكون جميعا السبب الأول للوجود السلفي وكون هذا هو الحق فإنه لا يستغرب من شيوع الحق وانتشاره.

السبب الأقرب إلى المباشرة من هذا السبب السابق هو دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الدعوية الجهادية التي أحيت المنهج السلفي القديم المتبلور على يدي الأئمة الأربعة وبالأخص الإمام أحمد بن حنبل وحنابلة القرن الرابع الذين أطلقوا هذا اللقب (سلفية) على أنفسهم في مقابل (خلفية) الذي راج على ألسنة الأشاعرة ومن إليهم، ثم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في القرنين السابع والثامن الذي أكثر من ذكر هذا الاسم (سلفية) وحدد له ملامح واضحة، ثم جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب فنصر هذا المنهج فقد تتلمذ على كتابات السلفيين من أمثال ابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير، واتخذ مذهب الإمام أحمد مذهبا له في الفقه، وبتعاون الإمام محمد بن سعود أمير الدرعية مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب دخلت الدعوة طورها الجهادي (القتال في سبيل الله من أجل نشر الدعوة السلفية) وتكونت على إثر ذلك الدولة السعودية بأطوارها الثلاث التي مولت الدعوة السلفية ورعت العلماء لينشروها بدورهم في ربوع العالم الإسلامي.

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) آل عمران: ٨٥.

من أهم أسباب تكوين وتبلور وانتشار المنهج السلفي عموما هو انتشار وشيوع الشركيات والبدع والأفكار الهدامة والعقائد الباطلة وتفرق الأمة التي دعت جميعها المخلصين من المسلمين إلى التمسك والاعتصام بالوحي المحمدي (الكتاب والسنة) والبحث عن حلول للأزمات التي افتعلها الكافرون والمبتدعة والفرق الضالة فتكوّنت لدى السلفيين ردود مقنعة بل ومفحمة على كل مسألة خاض فيها هؤلاء كالقدر والإرجاء والتكفير والرفض وخلق القرآن والتأويل الفاسد لنصوص الوحي والحاكمية... إلخ، وهي عقائد وأفكار أصبحت تشكل -مع أصول الإيمان وأركان الإسلام والهيئة والمظهر الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم السلفي- ملامح المنهج السلفي المعاصر.

وقد اختار السلفيون منذ وقت بعيد استبدال منهج تعبئة الجماهير تحضيرا للثورة السياسية بمنهج الدعوة والتعليم عبر المساجد والمعاهد والمؤسسات الإسلامية، لتخريج العلماء والدعاة سليمي العقيدة والعبادة الذين يعول عليهم في توجيه الآخرين وإعادتهم إلى الدين الصحيح والقضاء على مختلف مظاهر الشرك والبدع والفسوق الأخلاقي في حياتهم.

أساليب ووسائل توصيل الدعوة السلفية:

يرى غالب العلماء السلفيين المعاصرين أن "وسائل الدعوة اجتهادية... لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فمن لم يفرق بين العبادة (بمفهومها العام) والعبادة (بمفهومها الخاص)، و لم يفرق بين (العبادات المحضة) و لم يفرق بين (ما وافق الشرع) و(ما نطق به الشرع) فإنه سيقع في هذا التخليط الذي وقع فيه من قالوا بأن الوسائل توقيفية في وسيلتها وغايتها)، والوسيلة لا تبررها الغاية..."

"فالأصل في وسائل الدعوة الحادثة في هذا العصر أنها مشروعة، ما لم تخالف أدلة الشرع ومقاصده، علي أنه لا يجوز أن نبدع من يقول بأن وسائل الدعوة توقيفية، أو نخرجه من دائرة أهل السنة والجماعة"

لكن "الواجب على العلماء البداءة بما بدأ به الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما يتعلق

بالمجامع الكافرة والبلدان غير الإسلامية وذلك بالدعوة إلى توحيد الله، وترك عبادة ما سواه، والإيمان به وبأسمائه وصفاته، وإثباتها له على الوجه اللائق به ﷻ، مع الإيمان برسوله ﷺ ومحبته واتباعه، كما أن عليهم دعوة المسلمين في كل مكان إلى التمسك بشريعة الله والاستقامة عليها ونصح ولاة الأمور ومساعدة المحتاجين ومواساتهم. كما أن على العلماء أن يستمروا في الدعوة إلى الله والحرص على الأعمال الخيرية وزيارة ولاة الأمور وتشجيعهم على الأعمال الحسنة وحثهم على تحكيم الشريعة وإلزام الشعوب بها عملاً بقول الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]، وقوله ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2].

ومن أهم وسائل وأساليب الدعوة لدى السلفيين المعاصرين ما يلي:

المناصحة وما يلحق بها من مثل المكاتبة والزيارة.. يقول سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: (... ولكن إن كنت من أنصار السنّة تشاركهم في الخير، وإذا غلطوا تنصح لهم، إذا تساهلوا تنصح لهم، الواجب: مناصحة ولاة الأمور، والكتابة إليهم، والشفاعة لهم في الخير، وزيارتهم. لكن إذا زرته.. هذا الوزير، أو هذا المدير، أو هذا الرئيس، ونصحته لله أو كتبت له كتابة مناسبة متواضعة فيها الرفق والحكمة نفع الله بها كثيراً، أو كفى بها شراً كثيرا. بهذا تتسع الدعوة، وتنتشر الدعوة في البلاد بالنصيحة والرفق والحكمة والمشاركة في الخير تنتشر الدعوة... على العلماء وطلاب العلم أن ينصحوا ويوجهوا النصيحة لولاة الأمور بالكتابة بالزيارة، بالنصيحة الطيبة، بالكتابة الطيبة"... يقول سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾[3] اهـ.

---

(١) النساء:٦٥.

(٢) المائدة:٥٠.

(٣) العصر:١-٣، من شريط بعنوان : "من أخلاق المؤمنين".

العمل والاقتداء:

بمعنى أن يكون الأخ السلفي مثالا يحتذى فيما يعمل وفيما يدع؛ فيكون بذلك قدوة لغيره لاحتذاء عمله وتركه، بل وفي احتذاء هيئته وشكله من مثل: الالتحاء وتقصير الثياب وارتداء الحجاب والنقاب الشرعين... إلى آخره من مظاهر السلفيين المعاصرين.

والحق أن هذا من أنجع الأساليب والعوامل التي أدت إلى نشر الدعوة السلفية، برغم ما ينتاب الإخوة السلفيين من نوائب على يد الأنظمة الحكومية التي لا تقوم على الإسلام ولا ترعاه، أو تلك التي تحاربه، وبرغم ما يرمى الأخوة السلفيون به من سوء معاملتهم للعامة التي إلى الآن لم يقتنع العامة بهذه الدعاوى الهدامة و لم تمنعهم من الانخراط في الجماعة السلفية أفرادا وجماعات.

الكتب والخطب التي تدعو إلى المنهج السلفي وتنشره وتشرحه وتبينه وهي كثرة كاثرة بحيث أصبحت من الظواهر الواسمة للعصر الحاضر في كل بلاد الإسلام برغم محاربة الحكومات غير الشرعية لها في كل البلاد الإسلامية وغير الإسلامية على سواء، وهي تحاربها عن طريق المصادرة والحظر واعتقال واضعيها ومؤلفيها وموزعيها ومقتنيها كلهم على السواء أيضا، ويحقق الكتاب الديني في أي مجال والشريط الذي يشمل درسا أو خطبة دينية مبيعات قياسية بالنسبة لغيره في المجالات الأخرى حتى المجون برغم كثرة الماجنين وبرغم غلاء الأسعار وعوامل الفقر والعوز الشامل لغالب المسلمين وخاصة الملتزمين منهم.

يجيد السلفيون **شبكة المعلومات العنكبوتية العالمية (الإنترنت)** ويحسنون التعامل معها والإفادة منها وكأنهم صانعوها، فيتواصلون مع بعضهم البعض من خلالها وينشرون المذهب السلفي عبرها وهي من أعصى الوسائل على المحاربين للسلفية والفكر والدين بصفة عامة برغم محاولتهم المتكررة لإغلاق المواقع الإسلامية، وللسلفيين المعاصرين مواقع عديدة على شبكة المعلومات هذه وهذه المواقع في ازدياد دائم وتكاد تغطي على ما سواها

من المواقع الإباحية وتلك التي تبث الفكر الهدام، وللسلفيين المعاصرين مئات المواقع التي في الغالب توصف بالإسلامية وأحيانا المواقع العربية والإسلامية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر مواقع (الشبكة الإسلامية، إسلام أون لاين، الإسلام اليوم، صيد الفوائد، موقع الإسلام...) من المواقع العامة التي تقدم الإسلام بشموليته وتواكب الواقع المعاصر.. كما تتعدد المواقع الإسلامية السلفية المتخصصة في العلم أو ما يخص المرأة أو الحركات أو القضايا الإسلامية...إلى آخره.

ويستبعد السلفيون طرقا عصرية أخرى يتبعها المنتمون لبعض الجماعات الإسلامية المخالفون لهم -وربما تكون هذه الوسائل والطرق من أهم أسباب ومسائل الخلاف- ويرى فيها السلفيون المعاصرون أساليب غير ناجعة بل مضرة ومنها:

المظاهرات والمسيرات والتهديد بالتخريب والاغتيال.. يقول الشيخ ابن باز -رحمه الله-: "الأسلوب الحسن من أعظم الوسائل لقبول الحق، والأسلوب السيئ العنيف من أخطر الوسائل في رد الحق وعدم قبوله، أو إثارة القلاقل والظلم والعدوان والمضاربات، ويلحق بهذا الباب ما يفعله بعض الناس من المظاهرات التي تسبب شرًّا عظيماً على الدعاة، فالمسيرات في الشوارع والهتافات ليست هي الطريق للإصلاح والدعوة. فالطريق الصحيح: بالزيارة، والمكاتبات بالتي هي أحسن فتنصح الرئيس، والأمير، وشيخ القبيلة بهذه الطريقة، لا بالعنف والمظاهرة، فالنبي ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة لم يستعمل المظاهرات ولا المسيرات، ولم يهدد الناس بتخريب أموالهم، واغتيالهم، ولا شك أن هذا الأسلوب يضر بالدعوة والدعاة، ويمنع انتشارها ويحمل الرؤساء والكبار على معاداتها ومضادتها بكل ممكن، فهم يريدون الخير بهذا الأسلوب، لكن يحصل به ضده، فكون الداعي إلى الله يسلك مسلك الرسل وأتباعهم ولو طالت المدة أولى به من عمل يضر الدعوة ويضايقها، أو يقضي عليها. ا.هـ"[1]

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية- العدد : ٣٨ صـ ٢١٠ باختصار.

ويقول أيضا: "أما ما يقع من الناس الآن من المسيرات، والمظاهرات، والاغتيالات هي تضر الدعوة تضرها، ما فيها خير، تضر ولا تنفع"[1].

الظهــور في أجهــزة الــتلفاز إلى جانب الدعاوى للكفر والمنطلقات غير الإسلامية كالقومــية والعلمانــية وزمالة الأديان وكذلك إلى جانب العاريات والراقصات والفنون الهابطــة ومــا يــصاحب البرامج الدعوية من موسيقى يحرمها الشرع الإسلامي فمشايخ الدعــوة السلفية قليلو أو عديمو الظهور على القنوات الفضائية أو المحلية خاصة في الدول العلمانــية ومــن هــؤلاء المشايخ في مصر.. يرفضون الظهور في مثل هذه القنوات لهذه الأسباب ولأسباب أخرى.

دخول البرلمانات، ولا يستبعدوها جميعا، ونرى أن الحق فيها أن ينظر إن كان العمل في هــذا الــبرلمان شرعيا قُبل العمل فيه وتوصيل الدعوة إلى الله من خلاله أما إن كانت قوانيــنه وضعية وحكما بغير ما أنزل الله امتنع العمل فيه، ويكون حينئذ ليس من وسائل توصــيل الدعــوة إلى الله بل من وسائل هدمها.. يقول أحد السلفيين المعاصرين: "وهذه الوسيلة تعبدية محدثة فسبيلها الرد ابتداء، وذلك لأن الوسائل الدعوية كغيرها من الوسائل الــتي يستخدمها المسلمون في حياتهم، متطورة من عصر إلي عصر، ويكفي فيها أن تكون محكــومة بالضوابط الشرعية، والفرق واضح بين جعل الشيء تعبديًّا توقيفيًّا، وبين كونه محكومًا بالحكم الشرعي".

(١) السابق.

الفصل الرابع

كيفية التطوير ومقترحاته في واقعنا المعاصر

التطوير في مناهج الدعوة ووسائلها في الواقع المعاصر

تمهيد:

من الجدير بالذكر أن ننبه إلى أن حديثنا عن تطوير المنهج والوسائل الدعوية في الواقع المعاصر لا يعني أن يكون الحديث مقصورًا على ما يتم اقتراحه من الوسائل الدعوية الحديثة فقط، بل لكي نكون موضوعيين وفي ضوء الحديث عن تجديد الخطاب الديني في الواقع المعاصر لابد أن نبدأ في مسألة التطوير من إعادة النظر في منهاج الدعوة وبرنامجها الشامل من خلال إعادة النظر في الوسائل التقليدية التي لا تزال مستخدمة في واقعنا المعاصر، والتي لا يتصور زوالها في يوم من الأيام فما دامت تلك الوسائل لا تزال مستخدمة، وما دامت يرجى لها الاستمرار في المستقبل كذلك فهي وسائل حديثة ينبغي أن ينظر إليها بعين الاهتمام في كيفية تطويرها وجعلها على المستوى اللائق لمعطيات هذا العصر وتحدياته.

إنه لا يليق أن نطيل الوقوف عند الحديث عما يسمى بالشاتنج أو الدردشة على الإنترنت كوسيلة دعوية ونهمل الحديث عن تطوير الخطابة وكيفية مناسبتها للمدعوين المعاصرين بهمومهم المعاصرة وتشكلهم الثقافي والحضاري الجديد.

فلا شك أن وسيلة مثل الخطابة هي أمر أساسي وحيوي ودائم للدعوة لا ينتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لأنها مرتبطة بأصل من أصول الإسلام لا يتصور الإسلام بدونه ألا وهو الصلاة ومرتبطة على الأخص بأهم فريضة من فرائض الصلاة ألا وهي فريضة الجمعة، فإذا كانت الخطبة بهذا الشأن ويحضرها بصفة لازمة جميع المسلمين المصلين بلا استثناء بما في ذلك غير المواظبين على الصلاة منهم، وممن يكتب لهم الهداية بدخول المسجد وأداء الصلاة، فإذا كان أمر الخطبة كذلك فهي أعظم وسيلة دعوية على الإطلاق، فلا ينبغي إهمال الحديث في تطويرها باعتبارها وسيلة دعوية قديمة، والانشغال عنها بالحديث عن وسيلة ثانوية لا يستفيد منها ٥٪ على الأكثر ممن يستفيدون بهذه الوسيلة الأكثر شيوعًا.

إن التطوير الحقيقي ليس هو مجرد التطوير في الوسائل بقدر ما هو تطوير في منهج

العرض ومحتواه وجعله أكثر توافقًا مع هموم العصر وتحدياته.

كذلك فإنه يجدر بنا التنبيه في هذا التمهيد على أن المقصود من اقتراح وسائل جديدة للدعوة لا ينبغي أن يقتصر مفهومه على إحداث آليات عصرية حديثة؛ إذ إن مسألة التقنيات أو اختراع الآلات أو التقدم التكنولوجي ليست وظيفة الداعي، وإنما وظيفته هي الاستفادة من محدثات الحضارة وإبداعاتها ومنتجاتها التي يمكن أن توظف في الدعوة إلى الله تعالى مع رعاية الشروط والضوابط التي سبق بيانها في الحديث عن ضوابط المناهج والوسائل الدعوية.

ومن ثم فليس المتوقع منا أن نتحدث هنا عن وسيلة أحدث من الإنترنت أو القنوات الفضائية، ونحو ذلك من الوسائل الحديثة والمعاصرة، وإنما المطلوب هو الاجتهاد في كيفية الإفادة من هذه الوسائل في الدعوة إلى الله تعالى بأفضل الطرق الممكنة وعلى أحسن وجه وأمثله.

ولهذا فسوف نرسم هنا خطة شاملة لتطوير منهج الدعوة في جميع وسائله المتاحة في هذا العصر، وهذه الوسائل يمكن حصرها في الأنواع التالية:

أولا: التطوير في الوسائل البشرية

(إعداد الدعاة)

قد يفيض البعض في الحديث عن الوسائل الآلية للدعوة أو غيرها من الوسائل ويهمل الحديث عن هذا النوع من الوسائل -أعني الوسائل البشرية- التي تعتبر أهم الوسائل الدعوية على الإطلاق، لأننا نعني بها الحديث عن الداعي نفسه، الذي هو أساس هذه الدعوة والمحرك لها والمؤثر الأساسي في المدعوين.

وفي الحقيقة أنه لا يتصور نجاح لدعوة ما ما لم يكن الداعي مؤهلاً للقيام بهذه الدعوة وحمل أمانتها، وكما أننا إذا أردنا أن نتحدث عن وسائل القوة الحربية، فينبغي ألا يقتصر حديثنا على تطوير الوسائل الآلية أي الأسلحة من سيف وبندقية ومدفع وطائرة.. إلخ، ونهمل الحديث عن المحارب نفسه وهو القوة الأساسية الضاربة والمحركة، فكذلك لا يليق بنا هنا إفاضة الحديث عن الوسائل الآلية للدعوة مثلاً وإهمال

الحديث عن إعداد الدعاة.

ومن ثم فسوف نتحدث هنا عن النقاط التالية:

١-إعداد الدعاة ورفع إمكاناقم الدعوية.

٢-التوجيه الدعوي للشباب واحتضانهم في مراكز الدعوة الراشدة.

٣-التوجيه الدعوي للمرأة المسلمة، وتفعيل دور المسلمة المعاصرة في الدعوة الإسلامية.

٤-الاهتمام بالتنشئة الدعوية للمسلم الصغير.

فبالنسبة للنقطة الأولى وهي:

إعداد الدعاة ورفع إمكاناقم الدعوية، يتم الحديث فيها عن النقاط التالية:

أ-رفع الإمكانات الدعوية للدعاة العاملين.

ب-توفير جميع فرص الرعاية المادية والعلمية والصحية... إلخ لهؤلاء الدعاة.

وفيما يلي تفصيل الحديث في هذه النقاط، وما ينبغي من التطوير اللازم لها:

أولاً: رفع الإمكانات الدعوية للدعاة العاملين:

١-زيادة الوعي الثقافي لدى الدعاة بظروف واقعهم وأحوال المدعوين فيه.

سبق أن تحدثنا عن الصفات اللازمة للدعاة إلى الله أو التي يجب توفرها في هؤلاء الدعاة، وقلنا إن من بين هذه الصفات اتصافهم بصفة العلم ونحب أن نزيد الأمر بيانًا فيما يتعلق بتطوير الدعاة كجزء من خطة التطوير في الدعوة ووسائلها في هذا المبحث من خلال هذه النقاط:

أ-العلم بالواقع يفيد في تحديد المنهج والوسيلة الدعوية المناسبة.

ينبغي ألا يقتصر مفهومنا لصفة العلم على إحراز العلم الشرعي فقط بل إن العلم أو الفقه الحقيقي لا يحصل للداعي أو الفقيه إلا باجتماع أمرين لابد لها منهما:

الأول: العلم بالواقع.

الثاني: العلم بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة.

فالفقيه لا يستطيع أن يفتي في واقعة ولا أن يصدر حكمًا شرعيًا فيها إلا بعد معرفة

واقع المسألة وظروفها وملابساتها بما يجلي غوامضها ويكشف حقيقتها.

وكـــذلك الداعي إلى الله تعالى لا يستطيع أن يتخذ المنهج والوسيلة الدعوية المناسبة، ولا أن يتخذ موقفًا دعويًا أو طريقة دعوية في بيئة ما إلا بعد الإحاطة التامة بظروف هذه البيئة ومعرفة أحوالها والإحاطة بها من جميع جوانبها.

ب-العلم بالواقع يؤدي إلى ضبط انفعالات الداعي تجاه مجتمعه.

ومن ثم فالداعي الذي يعتزل الناس ويترفع عن مخالطتهم، أو يعتبر الاطلاع أو السماع لما في الواقع من صور الفساد والانحلال مثلاً نوعًا من اللغو أو الرفث ينبغي أن يتره عنه، أو يقاطع دنياهم ومعاملاتهم لأدنى شبهة تعرض له دون الإحاطة بملابسات الأمور، لاشك أن مـــثل هذا الداعي سوف يكون قاصر النظرة والإدراك بالنسبة لظروف مجتمعه وأحوال المدعـــوين فـــيه، وينتج عن ذلك أن هذا الداعي إما أن يصور مجتمعه بصورة أقبح مما هي علـــيه، ومـــن ثم يشتد نكيره عليه، ويتجهم له بلا طائل، أو يعتقد عموم الفساد وأنه لا سبيل للإصلاح فيثبطه ذلك عن دعوته ويقعده عنها.

أو يكـــون العكس بأن يتصور مجتمعه دون ما هو عليه من التسيب والانحلال فيكون مفـــرطًا في الـــتفاؤل، مهونًا للأمر، معتقدًا أن الأمور بخير، وأن السيل ما بلغ الزبى، وأن الأمـــر لا يحـــتاج إلى الاشتداد في النكير والإفراط فيه؛ بل يزداد الأمر إلى تخطئة غيره من الـــدعاة فيعدهم مغالين مفرطين، أو يرى أن مثل هذه المنكرات مما يسعه وأمثاله السكوت عنها وتخفيف اللهجة فيها، أو أنها مما يسعه اختلاف الناس ونحو ذلك.

والمقـــصد أن نبين أن جهل الداعي بواقعه قد يؤدي به إما إلى الإفراط أو التفريط في انفعالاتـــه تجاه هذا الواقع، فإما أن يشتد في النكير في أمور هي أهون مما يتصور، وإما أن يتهاون في إنكار الأمور إلى حد تضيع حدود الله تعالى وإشاعة التسيب والاستهانة بها.

جـــ-العلم بالواقع يؤدي إلى حسن تقبل المدعوين للداعي وعدم النفرة من خطابه

وذلـــك أن الداعي الذي يعتزل الناس ويجهل شئونهم وما استجد فيها من محدثات سيظل حديثه بدائيًا بعيدًا عن حياة الناس وواقعهم مما يؤدي إلى النفرة منه وعدم قبوله.

فعلـــى سبيل المثال الفرضي الجدلي لو أن داعيًا يذكر الناس بنعم الله تعالى فقال لهم:

انظروا كيف جعل الله تعالى لنا هذه الأكواخ التي تستر عوراتنا وتحمي أجسادنا من الحر والبرد، لكان أضحوكة للسامعين، أو وعظهم في باب الربا فنهاهم عما وجده في كتب الفقه من صوره القديمة في ربا الفضل مثلاً على فرض أنه غير شائع في مجتمعه وواقعه فيقول لهم مثلاً: أيها الناس اتقوا الربا: لا تبيعوا قمحًا بقمح ولا تمرًا بتمر إلا يدًا بيد، وتكون هذه الصور من المعاملات غير شائعة لديهم أو غير معمول بها في واقعهم... وهكذا.

أو يذكر في حديثه ما مثل به الفقهاء في كتبهم من واقعهم القديم مما لا يوجد في كثير من البيئات أو لا يشيع فيها، فكل ذلك يجعله أضحوكة للناس أو وسيلة للتندر.

د-العلم بالواقع يؤدي إلى معرفة أقرب المداخل إلى قلوب المدعوين وعقولهم

وذلك أن الداعي الذي يكون على وعي بما جدّ في مجتمعه من المذاهب الفكرية، والاعتقادات والاتجاهات ونحو ذلك يكون أكثر قدرة على فهم نفسية المدعوين، ومعرفة أقرب المداخل إلى نفوسهم بحيث يكون لحديثه قبولاً ووقعًا في نفوسهم.

وسبق أن أكدنا على ضرورة التماثل أو التقارب الثقافي بين الداعي والمدعوين حتى يتم التفاهم والتواصل الفكري بينهم، وقلنا إن ذلك كله يتضمن النص على التماثل اللغوي أو اللساني في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1] حيث بينا كيف أن اللسان واللغة يتسع ليشمل الفكر وثقافة العصر؛ وذلك لأن اللغة هي وعاء الفكر كما يقولون.

٢-زيادة الخبرات في الإفادة من معطيات العصر في الدعوة إلى الله تعالى:

مع هذه الثورة العلمية والصناعية الهائلة في مختلف التقنيات وخاصة وسائل الاتصالات لابد من تثقيف الدعاة وحثهم على الإفادة من هذه الوسائل.

ولابد أن يزيد الأمر على مجرد الحث، وذلك عن طريق تنظيم الدورات المتخصصة في

---

(١) إبراهيم: ٤، وانظر توجيه الشيخ يوسف القرضاوي للآية فإنه مفيد هنا، انظر كتاب تيسير الفقه للمسلم المعاصر- (١٦)، مكتبة وهبة.

الإفـــادة من تقنيات العصر كالحاسوب والشبكة العالمية (الإنترنت)، وتعلم اللغة الإنجليزية وغيرهـــا من اللغات التي فرضت نفسها على واقع الناس اليوم ومجالاتهم الحياتية المختلفة، فضلاً عن تعلم لغات الأقوام الذين تتوجه إليهم الدعوة.

وينبغي أن توفر النفقات والمكافآت للمتفوقين في هذه الدورات.

٣-الإحاطة بقضايا العصر وتحدياته وهموم الأمة الإسلامية في واقعها المعاصر، لابد من حـــث الدعاة وتوجيههم نحو معرفة قضايا عصرهم والإحاطة بها. ويمكن تنظيم الدورات التثقيفية أو المحاضرات والندوات والمؤتمرات التي يشارك فيها كبار العلماء والدعاة، ويدعى إليها عموم الدعاة للإفادة والإحاطة بهذه القضايا.

وقد سبق بيان عدد كبير من هذه القضايا في مبحث سابق ممهد لهذا المبحث تحدثنا فيه عن المؤثرات في واقع الأمة اليوم وعن أهم قضايا العصر وتحدياته.

ب-توفير جميع فرص الرعاية العلمية والمادية والصحية... إلخ لهؤلاء الدعاة.

إذا كانـــت الحكـــومات والـــشعوب جادة في العمل على تطوير الدعاة بما يتفق مع معطـــيات العـــصر وتحدياتـــه؛ فإن عليهم أن يقدموا لهؤلاء الدعاة الدعم المادي والعلمي والـــصحي... إلخ بما يهيئ هؤلاء الدعاة للقيام بمهمتهم على أكمل وجه ويتيح لهم فرصة التفـــرغ للقـــيام بمهام الدعوة والإعداد لها والأخذ بأسباب التطوير والتقدم، فلا شك أن للتطوير تبعاته واحتياجاته وتكاليفه مما لا يقدر عليه كثير من الدعاة.

فعلـــى ســـبيل المـــثال لابد من توفير المكتبة الإسلامية القيمة، ولابد من توفير جهاز حاســـوب لكل داع متميز، فضلاً عن تقديم الدعم المادي الكافي حتى لا يفتتن الداعي أمام مغريات الحياة أو ينحرف عن سبيله تحت وطأة شدة العيش وشظفه، ولا ننسى أن الداعي كلمـــا أعطى للدعوة كلما طلب منه إعطاء المزيد، فكثير من الدعاة لا يجدون متسعًا من الوقت لقضائه مع أهليهم وأولادهم، فأوقاتهم موزعة ما بين خطبة ومحاضرة وندوة ودرس علم وإجابة مستفت، وإصلاح بين متخاصمين، ونظر في مهمات الأمور، فإذا كان راتب الداعي لا يكفي لتوفير لقمة العيش الضرورية له ولأولاده كما في كثير من البلدان العربية فكـــيف يتصور منه أن يتفرغ لمهام الدعوة المذكورة، فضلاً عن الحديث عن تطوير نفسه

ودعوته على الوجه اللائق؟!

إن المقابـــل الشهري الذي يحصل عليه خطيب الجمعة في بلد كبير مثل جمهورية مصر العـــربية هـــو ما قيمته ٤٠ ج أربعون جنيهًا يخصم منها الضرائب ونحو ذلك، أي يكون المقابـــل المادي عن الجمعة الواحدة أقل من عشرة جنيهات، فهل مثل هذا المبلغ الزهيد، وتلك الدراهم المعدودة تفي بإمكانات الداعي العديدة؟

وعلـــى سبيل المثال أيضًا فإن راتب إمام المسجد الحاصل على شهادة عليا من الأزهر الـــشريف لا تـــتجاوز مـــائتي جنيه شاملة مكافآت الخطب والدروس والإمامة والحوافز والـــبدلات وغـــير ذلـــك، أي أن أصل راتب هذا الإمام الداعي مع شدة العيش وشظفه وقسوته قد لا يزيد عن خمسة جنيهات مصرية في اليوم فما عسى أن يغني ذلك عنه؟ وهل يكفيه ذلك لإحراز الملح والخبز الجاف له ولأولاده؟

هـــذه أمور ينبغي أن تدرس جيدا، وأن يعتني بها جيدا إذا كنا بصدد إصلاح حقيقي للدعوة وللدعاة؛ إذ إن كثيرًا من أئمة المساجد لا يحضرون الصلوات في مساجدهم فضلاً عـــن أن يقوموا بالدعوة والإرشاد والتوجيه منشغلين بتحصيل لقمة العيش في مكان آخر، ويعذرهم المصلون لذلك في غيابهم لما يعلمون من حالهم.

أو يبقى الإمام في المسجد ويتسول على المصلين أو يمد يده لصندوق المسجد أو يعيش على الصدقات والزكوات في حال يزري به ويسقطه من أعين الناس لشعورهم بحاجته إلى إحـــسانهم ويجعلـــه في موقف ضعيف من تبليغ الحق للناس لشعوره بحاجته إلى إحسانهم كذلك.

٢-التوجيه الدعوي للشباب واحتضانهم في مراكز الدعوة الإسلامية وتفصيل ذلك في النقاط التالية:

أ-العناية بنشر الوعي الدعوي لدى الشباب.

ب-إنشاء المراكز الدعوية المتخصصة على المستويين النظري والتطبيقي.

ج-التوسع في إنشاء المساجد، وتفعيل رسالة المسجد ووظيفته الدعوية.

د-العمل على احتضان الشباب وتدريبهم على الدعوة في تلك المراكز والمساجد.

وهاكم تفصيل الكلام في هذه النقاط:

أولاً: العناية بنشر الوعي الدعوي لدى الشباب:

هذه النقطة غاية في الأهمية، خاصة أن الشباب في كثير من البلدان العربية والإسلامية يعتقدون أن بلادهم تحارب الدعوة الإسلامية وتضطهدها، ومن ثم ينقلبون حربا عليها، فضلاً عن أن لدى هؤلاء الشباب طاقات هائلة، ورغبات شديدة في نشر الدعوة الإسلامية والعمل على إصلاح مجتمعاتهم، فإذا لم يجدوا من أهل الدعوة الراشدة من يأخذ بأيديهم ويفسح لهم المجال للدعوة إلى الله تعالى، بعد العمل على توجيههم وإعدادهم الإعداد الكافي، فإنهم سيتجهون لا محالة للاتجاهات المنحرفة أو المتطرفة التي تطفح بها الساحة في كثير من تلك البلدان.

ومن ثم يتحتم على المسئولين عن الدعوة أن يفتحوا قلوبهم وأيديهم لهؤلاء الشباب، وأن يكونوا صادقين في أمر الاهتمام بالدعوة الإسلامية بحيث يكونون محلّ ثقة لدى هؤلاء الشباب فيستجيبون لهم ويستمعون لداعي العقل والحكمة من مشايخ الدعوة وعلمائها الواعين الراشدين.

وتظهر حسن النوايا الدالة على صدق المسئولين في هذا الأمر بأن يعملوا على توجيه الشباب نحو الاهتمام بالدعوة الإسلامية على علم وبصيرة وفقه بالواقع وتقدير لأمانة ومسئولية هذا الأمر العظيم وتبعاته، فذلك أجدى كثيرًا من سياسة تكميم الأفواه، وتكبيل الأيدي المتبعة في كثير من البلدان، والتي أدت إلى عدم الثقة بالدول والعلماء والدّعاة المعينين من قبل الحكومات الذين صار نعتهم لدى هؤلاء الشباب بعلماء السلطة أو دعاة السلطة، فلا يستجيبون لهم، ولا يعطونهم ثقتهم، وهم لهم قدر كبير من العُذر في ذلك لما يرون من تجهم هؤلاء الدعاة والعلماء في وجوههم، فضلا عما يلاقون من كبت حرياتهم، والأخذ على أيديهم وأفواههم واضطهادهم أشدّ الاضطهاد من قبل كثير من الحكومات لا لشيء سوى أنهم رغبوا في إعلاء كلمة الله تعالى ونشر دينه والدعوة إليه، وإن سلكوا في ذلك سبلاً ليست بالقويمة المعتدلة؛ فإن على هذه الدول والحكومات يقع العبء الأكبر بسبب عدم احتضانهم لهؤلاء الشباب وتمكينهم من

أداء هذه الرسالة الشريفة على الوجه الأكمل.

ثانيا: إنشاء المراكز الدعوية المتخصصة على المستويين النظري والتطبيقي:

مـــن علامات صدق النية في الاهتمام بشأن الدعوة مما يجعل الشباب أكثر إقبالاً على المسئولين عن الدعوة الراشدة التوسع في إنشاء المراكز الدعوية المتخصصة التي تعمل على إعداد الدّعاة وفق أحدث المناهج الدعوية المتطورة، هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية التطبيقـــية فينبغي أن تقوم تلك المراكز كذلك بتدريب هؤلاء الدعاة وإرسالهم للدعوة في بيئـــتها ومكانهـــا بحيث يقوم هؤلاء الشباب بالتدرب على إلقاء الخطب والدروس ودعوة الأفراد والجماعات تحت عين المسئولين وتوجيههم التوجيه الصحيح الذي يقوم بتصحيح الأخطـــاء وضـــمان عدم تكررها والوصول بالداعي إلى اكتساب أساليب الدعوة القويمة الراشدة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثالـــثًا: التوســـع في إنـــشاء المـــساجد كذلك، وتفعيل رسالة المسجد ووظيفتـــه الدعويـــة:

ينبغـــي التنويه ابتداء بأن مجرد وجود المسجد في مكان ما، فإنه يمثل نوعًا عظيمًا من الدعوة التلقائية، فبنيان المسجد نفسه دعوة إلى الصلاة وإغراء بها، والنداء إلى الصلاة عن طريق الأذان خمس مرات كل يوم هو أعظم دعوة للإقبال على الله تعالى.

وقد تكثر المساجد في مكان ما، ويعجب الإنسان حينما يمر عليها وقت صلاة الجمعة مـــثلا فيجدها جميعًا قد امتلأت عن آخرها ولو بُني بجوارها مساجد أخر لوجد أنها تمتلئ كذلك.

وهـــذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن المسجد إنما يغري المسلمين بعمارته، أو أن الله قد تكفل بأن تعمر مساجده وتملأ بزوارها وعبادها.

وأيـــا مـــا كان الأمر فإن المسجد وسيلة عظيمة للدعوة إلى عبادة الله تعالى والالتزام بمنهجه.

وإذا كـــنا بصدد الحديث عن التطور، فإننا نقرر أن التطور الحقيقي هو الذي يبلغ بالدعوة أهدافها وغايتها ويقرب المسلمين من العصور الأولى ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

والملاحـــظ بالنسبة للمسجد الآن أنه قد انحسرت رسالته في كثير من ربوع المسلمين وبلادهم حيث اقتصرت وظيفته على مجرد إقامة الصلاة.

ومعلـــوم أن المـــسجد كان له رسالة عظيمة في الصدر الأول بينها الكتـــاب الكريم والسنـــة النبوية الشريفة قولا وعملا وسار على هذا النهج أصحاب النبي ﷺ والتابعـــون من بعدهم.

فـــالملاحظ أن المـــسجد في العصر النبوي كان مكانًا للعبادة ومدرسة للتعلم، ودارا للتربية وإعداد الدعاة، وصندوقًا للكفالة الاجتماعية، ودارا للمناسبات الاجتماعية وناديا للرياضة، ومجلسا للحكم والشورى، ومركزًا للقيادة الحربية وتجهيز الجيوش.

إذًا فهو مصدر إشعاع للنور والعلم والدعوة والحضارة فهو يمثل الدعوة الإسلامية في أكمل صورها وأتمها.

ولـــذا نقول إن الدعوة الإسلامية اليوم لا يمكن أن تبلغ غايتها المنشودة وتحقق الآمال المرجوة منها ما لم تعد للمسجد رسالته الأولى التي تحققت كاملة في عصر النبوة والعصور التالية.

رابعًا: العمل على احتضان الشباب والاهتمام بهم وتشجيعهم على الالتحاق بتلك المراكز:

علـــى المهـــتمين بالدعوة والمسئولين عنها أفرادًا وحكومات أن يعملوا على احتضان الشباب، واعتبار تلك الرغبة الشديدة لدى الشباب في الدعوة إلى الله تعالى ظاهرة صحية تبـــشر بـــالخير تحـــتاج إلى الرعاية والتدريب وإعطائها الفرصة الكافية كي تأتي بثمارها وأكلها.

ويـــتحقق ذلك بتوجيه هؤلاء الشباب نحو تلك المراكز الدعوية والاحتفاء بهم، وتقديم الـــرعاية العلمية والمادية لهم التي تكفل لهم الصبر على تعلم علوم الدعوة وفنونها والتمرس بها وتطبيقها على أمثل وجه وأكمله.

٣-التوجيه الدعوي للمرأة المسلمة، وتفعيل دور المسلمة المعاصرة في الدعوة الإسلامية:

ويشمل النقاط التالية:

أ-العناية بالتوجيه الديني للمسلمة المعاصرة:

بينا فيما قبل أهمية المرأة في المجتمع الإنساني عمومًا والإسلامي منه صفة خاصة، والحقيقة أن المرأة ليست ذات أهمية ثانوية، ولا تلعب دورًا واحدًا وإنما أدوارًا عديدة ومن الأهمية بمكان، فهي أم وزوجة وبنت وأخت وفي كل حالة من حالات المرأة هذه وفي طل طـر من أطوارها تلعب أدورًا عدة، وتؤديها بكفاءة لا يستطيعها الرجال؛ لأنهم لم يخلقوا لذلك فلا يستطيعونه وخلقت له المرأة فهو سهلٌ ميسر لها.

أما في المجتمع الإسلامي فإن المرأة أبرز دورًا وأعظم؛ لأنه المجتمع الذي يأخذ كل واحدٍ فيه حقه ويؤدي دوره، فلا تأخذ امرأة دور الرجال بدعوى المساواة التي هي في حقيقتها دعوة إلى الندية، ولا يقعد الرجال قعود النساء فتضيع الأمم وتنهار النظم الربانية. من أجل ذلك كله كان لابد من معرفة المرأة ومعرفة الرجل أيضًا -حقوق وواجبات الرجل والمرأة، أدوار كل واحدٍ منهما حتى يضطلع كل منهما بما كلف به وما خلق من أجله.

ولقد اشتمل الإسلام على كل واجبات وحقوق المرأة فاصلا في ذلك بين ما تتساوى فيه المرأة مع الرجل كالثواب والعقاب ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1]، وما ينفرد فيه كل واحدٍ منهما بحكم فعن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: "يا رسول الله هل على النساء جهاد؟ قال: نعم عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة". فبين النبي ﷺ أن الجهاد أنواع منها القتال ومنها الحج والعمرة، وأن النساء يشتركن في الحج والعمرة مع الرجال ولكنهن لا يتحملن القتال؛ لأنهن لا يطقنه.

---

(١) النساء:١٢٤.

وإذن فعلى المرأة ألا تتطلع إلى أدوار الرجال لأن في ذلك تضييعًا لدورها الذي تنشغل عـــنه ولا يستطيعه الرجال، وتضييعًا لدور الرجل الذي لا تستطيع هي أداءه بنفس كفاءة الـــرجل، وهي مع ذلك تحجب الرجل عن دوره فيفسد المجتمع كله بسبب تبادل الأدوار هذا.

إذن فعلـــى المرأة -وهذا هو موضوعنا- أن تتعلم ما هو دورها بالضبط وألا تتخلى عنه، وألا تقلـــد الساقطات والمسترجلات في حضارة الغرب من اللائي لا همّ لإحداهن إلا التزين والتغـــنج لفتنة الرجال وإفساد المجتمع، فإذا ما كانت طموحًا وأصبت أن تفعل شيئًا اختارت أصعب الأدوار لتنافس فيها أصحاب الإرادة والعضلات كي تثبت أنها مثلهم، ولا يرضى الله تعـــالى ولا أحـــد مـــن الـــناس أن تكون المرأة كالرجل في كل شيء، وهذه المرأة المتبرجة والمسترجلة تضيع واجبها فلا تصلح زوجة ولا أما ولا أي شيء صالح[1].

ثم إنـــه لـــيس من منهل تنهل منه المرأة معرفتها بنفسها وبغيرها وبدورها أعظم ولا أحظى من الإسلام ذلك الدين الذي رضيه لها وللناس خالقها وخالقهم تعالى.

"لقد اتخذ الإسلام مبدأ توزيع العمل إلى حد ما لأجل تحديد إطاري عمل الجنسين في الحياة الاجتماعية؛ فدائرة نشاط الرجل منحيث المبدأ تقع خارج البيت، بينما دائرة نشاط المرأة تقع داخل البيت أساسًا، و لم يتم هذا التوزيع بدافع من التميز بين الجنسين، بل هو مـــراعاة لميـــزاتها الجنسية، ولإيجاد المناخ اللازم لأجل أن يستخدم كل منهما مواهبهما الطبيعية على الوجه الأكمل، وبدون إحداث أي خلل في نظام الأسرة أو المجتمع، وبعبارة أخـــرى: لقد أخذ بهذا التباين في الاعتبار على أساس "ترتيبات إدارية" وليس لأجل تحديد أولوية جنس على الآخر..."[2].

---

(١) راجع محمد إسماعيل المقدم: عودة الحجاب- دار العقيدة- الإسكندرية- الطبعة الرابعة-(٢/١٤-٢٢)، وحفصة أحمد حسن: أصول تربية المرأة المسلمة المعاصرة- مؤســـة الرسالة- الطبعة الأولى- (ص٦١٢)، ما بعدها، (ص٦٤٠) وما بعدها.

(٢) وحيد الدين خان: المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية- ترجمة السيد رئيس أحمد الندوي- دار الصحوة ودار الوفاء- ط سنة ١٩٩٤م- (ص١٦٢).

ب-تفعيل الدور الدعوي للمسلمة المعاصرة:

إذا وعــت المسلمة الحقائق السابقة فإنها حينما تدعو إلى الإسلام سوف تدعو لما يفيد غير ما يفيد، وسوف تلتزم بالنافع من الوسائل دون الضار منها؛ لأنها قد التزمت ذلك في بيتها ومع ذويها:

أولا: بث الوعي الدعوي لدى نساء المسلمين:

وينبغي أن تعرف المرأة أنها مسئولة عن نشر الدعوة إلى الله مثل الرجل، فنشر الإسلام مســئولية كــل المسلمين رجالاً ونساءً مثل العمل به تمامًا، ولكن تدعو المرأة في حدود قــدرتها وطاقتها وفي نطاق تواجدها، وإذن فعلى الدعاة أن يستهدفوا المرأة بالدعوة كما يــستهدفون الرجال، ولأن ذلك سبيل إلى دعوة الرجال مثلما هو سبيل إلى دعوة النساء؛ لأن النــساء هــن أول مــن يبث في أبنائهن الخير أو الشر كل بحسب ما عنده من الخير والشر، وتتنوع أساليب ووسائل أساليب الدعوة للمرأة المعاصرة ومنها:

١-الكتب العامة.

٢-الكتب الدراسية.

٣-الأسرة.

٤-السينما والمسرح.

٥-الصحافة.

٦-الأقمار الصناعية... إلى غير ذلك من الوسائل[1].

ثانيا: تبصير المرأة بوظيفتها في الإفادة من معطيات العصر ومواجهة تحدياته:

الناظــر في العــصر الحاضــر يجد أن المرأة المسلمة مستهدفة من أجل إفسادها ليفسد المجــتمع المــسلم، ولذا فإن عليها أن تبصر أمرين الأول: ألا تنساق وراء ما يراد لها من التعري والسفور والخروج والتهتك.

والــثاني: أن تدفــع ذلــك عــن أبنائها وذويها، ونضرب لذلك مثالا واحدًا بأجهزة

---

(١) راجع في تفصيل ذلك حفصة أحمد حسن: السابق- (ص٣٢٠-٣٣٢).

الحاســـوب وشـــبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) التي تبث ليل نهار أخلاقًا وكلامًا ماجنين مفـــسدين مستغلة في ذلك الساقطات والساقطين والداعرات والداعرين الذين ما أكثرهم في المجـــتمع الآن ســـواء المسلم أو غير المسلم، فعلى المرأة أن تفطن لما يراد بها ومنها بشأن هذا وعليها أن تراقب ذويها وخاصة أبناءها فلا تدعهم نهبة لهذا السقوط المريع[1].

ثالثًا: انتشار المراكز الدعوية النسوية المتخصصة في الدعوة النسائية:

مـــساهمة في نشر الدعوة بين النساء، يجب الإكثار من نشر المراكز الدعوية النسائية؛ حـــيث يتم العمل والتنسيق بين النساء من أجل النهوض بالعبء الدعوي بين النـــساء، فما زال هـــذا المجال بحاجة ماسة لإيجاد النساء الداعيات اللائي يربين النساء، فالمرأة أقدر على تعليم المرأة وتوجيهها، ولنا في السيدة عائشة وسائر نساء النبي ﷺ الأسوة الحسنة.

ويجـــب أن يـــتم التواصل بين هذه المراكز الدعوية بعضها مع بعض، حتى لا تكون الجهود المبذولة ضائعة، فالتنسيق بين المراكز الدعوية يعمل على إبراز العمل الدعوي على أكمل وجه والاستفادة منه إلى أقصى حد.

٤-الاهتمام بالتنشئة الدعوية للمسلم المعاصر

وذلك بالآتي:

أولاً: بث الروح الدعوية لدى الأطفال من الصغر:

ثانـــيا: إدخـــال مادة الدعوة الإسلامية ضمن الأنشطة الدراسـية في مراحل التعليم المختلفة.

أما بالنسبة للنقطة الأولى فينبغي أن يكون للأسرة دور فيها بتنشئة الأطفال تنشئة دينية قويمة ثم يعلموهم ويعودوهم نشر الخير وتعليمه، فمثلا إذا علمه الصلاة، أمره وأوصاه أن يدعـــو إليها زملاءه وأصدقاءه ويحثهم عليها، وأنه إذا رأى شيئًا مما يعرف حرمته يعرض عـــنه ويعظ فاعله إن كان صغيرًا مثله، كما لو سمع زميله يكذب أو يـــسب أو يشتم ونحو ذلك.

---

(١) راجع الشيخ المقدم- عودة الحجاب- (٣/١٩-٢٢).

وهـــذا يتربى الطفل على محبة الدعوة الإسلامية ويتم هذا الأمر ويحسه بأن يلقن الطفل الحكمة في الدعوة على قدر فهمه، فيوصي بأنه إذا دعا أحدًا من أصدقائه إلى شيء من الخير أن يتلطف معهم، وأن يدعوهم برفق وأدب، وكذلك إذا نهى عن شيء من الشر ينهى عنه برفق ولطف بغير حمق ولا تهور، وبهذا يتعود الطفل من صغره ضبط مشاعره والتحكم فيها في الدعوة إلى الله فلا يترتب على دعوته شيء من المفاسد والأضرار.

أما بالنسبة للنقطة الثانية فترجع إلى ضرورة اهتمام الدول والحكومات بإدخال الوعي الدعـــوي لـــدى التلامـــيذ منذ الصغر، وذلك بإضافة مادة للدعوة الإسلامية ضمن مواد الأنـــشطة الدراسية التي لا تضاف لمجموع الطالب يكون الغرض منها تعويده الدعوة إلى الفضيلة والخير والنهي عن الرذيلة والشر بالحكمة والموعظة الحسنة ويتم فيها تعليمه آداب الدعـــوة وصـــفات الداعي إلى الله تعالى وضرورة الحكمة فيها، وما ينبغي أن يتحلى به الداعي من الأخلاق والآداب بحيث يثمر ذلك دعوة راشدة.

ولعمـــر الله تعالى إن هذا لهو السبيل لإغلاق الباب في وجه الدعوات المنحرفة والغالية والتي تؤدي إلى ويلات شديدة تعاني منها البلاد والعباد، وهو السبيل كذلك إلى احتضان الـــشباب المسلم وكسب ثقتهم، وحسن توجيههم، بحيث يكون ذلك بمثابة صمام الأمان الذي يحول دون انحراف الشباب نحو تلك الدعوات الغالية.

ثانيا: الوسائل المادية:

ممـــا ينبغي العناية به ونحن بصدد التطوير في منهج الدعوة ووسائلها أن نعني بالجانب المادي بالنسـبة لأمر الدعوة في ذلك في جانبين:

١-القوة الاقتصادية ٢-القوة العسكرية

ويدخل تحت القوة الاقتصادية النقاط التالية:

أ-موارد الدعوة ويشمل:

١-دعم الأجهزة الحكومية.

٢-فتح باب التبرع والمساهمة.

٣-قبول الزكاة.

٤-المشروعات الإسلامية والخدمات الاجتماعية.

ب-مصارف الدعوة:

١-تأليف القلوب ويشمل:

أ-دعوات الحج والعمرة ب-المساعدات والخدمات

ج-مصارف الزكاة د-الهدايا الدعوية المجانية

٢-المسابقات الدينية.

٣-قوافل الدعوة.

٤-المؤتمرات والندوات.

٥-الأغراض العلمية والتعليمية:

أ-إنشاء المكتبات الدينية

ب-طباعة الكتب والرسائل الدعوية.

د-طباعة الأشرطة الدينية

٦-الزيارات والرحلات.

٧-بناء المساجد وتجهيزها.

٨-إنشاء المراكز الدعوية والإنفاق على برنامجها الدعوي.

٩-الخدمات الاجتماعية كالإعانة في تزويج الشباب.

١٠-المشروعات الإسلامية المختلفة حيث تتسع مصارف الدعوة للإنفاق على كافة الوسائل الدعوية والبرنامج الدعوي في كافة صوره وأشكاله والعمل على تحسين أدائه وتطويره بما يحقق الغاية منه.

ولنبدأ أولاً بتفصيل الحديث عن:

موارد الدعوة:

١-دعم الأجهزة الحكومية:

ينبغي على الحكومات الإسلامية أن تقدم الدعم المادي الكافي لتطوير الدعوة، وهذا يشمل العناية بالدعاة وحسن رعايتهم، كما يشمل كذلك بناء المساجد والمراكز الدعوية، ويشمل كذلك دعم جميع أنشطة الدعوة الإسلامية، وذلك بتخصيص المبالغ الكافية لها في

مـوازنة الدولة، والتي تودع في رصيد وزارات الدعوة والإرشاد والأوقاف وتوزع على سـائر الجمعـيات الخيرية العاملة في مجال الدعوة الإسلامية بحسب حجم نشاطها ومدى تأثيره في المجتمع.

ولاشـك أن هـذا الـدعم سيؤدي حتما إلى تحسين الجهود الدعوية وتطوير الأداء الدعوي لأنه سيمكن من اقتناء وسائل التقنية الحديثة المفيدة في مجال الدعوة، كما سيمكن من رصد الجهود البشرية وحبسها لهذا العمل الشريف.

٢-فتح باب التبرع والمساهمة:

وهـذا أمـر حاصل ولكنه يحتاج إلى شيء من الضبط والتنظيم بحيث لا تضيع هذه الأمـوال هـباء أو تقـع في أيدي من يستغلها لمصالحه الشخصية أو لأغراض أخرى غير مقاصد الدعوة، فيحتاج الأمر إلى إشراف جهات رقابية مختصة، مع التوسع في هذا الأمر بـضوابطه وقيوده التي تضمن الإفادة منه في مصالح الدعوة وتطوير وسائلها ودعاتها ومما يقتـرح في هـذا الـصدد تـشجيع البنوك والمصارف الشرعية ومؤسسات الزكاة والبر والجمعيات الخيرية والأوقاف والدعوة والإرشاد ومجمعات البحوث الإسلامية وغيرها على فـتح باب التبرع من المحسنين وكبار الشخصيات والأمراء وفاعلي الخير من عموم الأفراد للمـشاركة في تقـديم المساعدات المالية أو العينية المختلفة لطباعة الرسائل الدعوية النافعة والأشـرطة وتوزيعها بالمجان على عموم المسلمين عن طريق المساجد والأندية والمؤسسات والجمعيات الخيرية أو المساهمة في المشروعات الخيرية لكفالة اليتيم وتحفيظ القرآن وغيرها من المشروعات التي سبق الإشارة إليها.

٣-قبول الزكاة:

لا مانـع مـن تخصيص قدر من أموال الزكاة للدعوة إلى الله تعالى بما لا يضر بمصالح الفقراء، وذلك لأن للزكاة مصارف نص الله تعالى عليها في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**[1].

---

(١) التوبة: ٦٠

فقـــوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يتسع لكل مصارف الدعوة الإسلامية وكل سبلها ووســـائل تطويرها وإصلاحها، فلاشك أن ذلك كله يندرج أول شيء تحت قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٤-المـــشروعات الإسلامية والخدمات الاجتماعية لا مانع أن تقوم الجمعيات الخيرية الدعـــوية بإدارة عدد من المشروعات الإسلامية والخدمات الاجتماعية التي من شأنها ربط الـــناس بمراكز الدعوة خاصة إذا ما اقترنت هذه المشروعات بالمساجد أو جاورتها وذلك مـــثل مكاتـــب تحفيظ القرآن الكريم والمستشفى الإسلامي، وفصول محو الأمية، وفصول الـــتقوية لتلاميذ المدارس الفقراء وتشغيل الفتيات الفقيرات في أعمال تليق بهن ونحو ذلك من الخدمات الاجتماعية المطلوبة التي تسعد أبناء المسلمين وتوطد صلتهم بالمسجد وبتلك المراكز الدعوية.

والحـــق أن مـــثل هذه المشروعات والخدمات قد أثبتت جدواها وفائدتها في كثير من المـــساجد والمراكز الدعوية لما لمسوه فيها من التيسير المادي على الناس، وتخفيف الأعباء عـــنهم، وظهور القيم والمبادئ والآداب الإسلامية، وظهور سماحة الإسلام ونحو ذلك من الأمور التي من شأنها أن تحبب الناس في الالتزام بالإسلام والاقتراب من دعاته وحماته.

ب-أما عن مصارف الدعوة:

فهـــناك قائمـــة من المصارف التقليدية مثل تقديم المساعدات والخدمات من الزكوات والـــصدقات للفقـــراء والمحتاجين[1] والإنفاق على المشروعات الدعوية المختلفة التي سبق الإشـــارة إلـــيها مـــثل بـــناء المساجد والمراكز الدعوية ومثل الإنفاق على قوافل الدعوة والمؤتمـــرات والـــندوات والمكتـــبات الدينية وطباعة الكتب والرسائل الدعوية والأشرطة الدينية...إلخ.

وثمـــة اقتـــراحات بتطوير بعض هذه المصارف أو الاهتمام بتوجيه الإنفاق عليها فمن

---

(١) الاهـــتمام بمـــساعدة الفقراء والمساكين سبيل عظيم من سبل الدعوة إلى الله تعالى وللشيخ رضا صـــمدي كـــلام بديع في هذا الصدد حيث جعله إحدى طرق خدمة الدين فانظره في الطريقة الخامـــسة والعـــشرين في كتابه (ص٣٠٤-٣١٠) ثلاثون طريقة لخدمة الدين- ط دار المؤيد- الرياض، ودار الفهد بجدة- ط ٢٠٠١م.

ذلك:

١-أن يخصص جزء من هذه المصارف للإنفاق على تقديم دعوات مجانية بالحج أو العمرة لكبار الشخصيات المؤثرة في المجتمع والذين يرجى من صلاحهم النفع والخير الكثير لعموم تأثيرهم وذلك مثل: الفنانين والفنانات، والإعلاميين، والرياضيين وأساتذة الجامعة، والكتاب والأدباء والشعراء وذوي المناصب المهمة والمرموقة في مختلف البلدان، فيمكن على سبيل المثال أن توجه إدارة الدعوة والإرشاد بالمملكة دعوات بالحج أو العمرة إلى كبار الشخصيات من الفنانين والفنانات والإعلاميين والرياضيين وذوي المناصب المهمة وغيرهم ممن تشغلهم غمرة الحياة وتلهيهم عن الغاية التي خلقوا لأجلها أو تجعلهم ينحرفون برسالتهم عن تلك الغاية.

وستكون هذه الدعوات بمثابة نوع من الدعوة غير المباشرة وفتح باب التوبة وإصلاح الحال مع الله، ولعل ذلك يكون سببا في بداية صفحة جديدة، وعهد جديد من الطاعة والاستقامة.

ومما يدل على جدوى هذه الوسيلة أننا إذا راجعنا قصص كثير من التائبين والتائبات فإننا نجد أنها كثيرًا ما تبدأ بمثل هذه الرحلة المباركة إلى الحج أو العمرة.

٢-تخصيص جزء من هذه المصارف كذلك للهدايا الدعوية المجانية ومما يقترح في ذلك:

إرسال الإصدارات الجديدة من أشرطة الكاسيت أو الفيديو أو الـCD الاسطوانات الإلكترونية المضغوطة لأهم الدعاة المؤثرين في الأمة في صورة هدايا مجانية مع كروت تحية أو ما شابه ذلك للشخصيات المهمة الذين سبق الإشارة إليهم ويمكن إرسال ذلك كله مكتوبا ومقروءا عن طريق النت والبريد الإليكتروني.

إرسال الإصدارات الجديدة من الكتب والرسائل الصغيرة المؤثرة لأهم الدعاة المؤثرين في صورة هدايا كذلك للشخصيات المذكورة.

٣-مشروع طباعة الكتب والرسائل الدعوية والأشرطة الدينية، وتخصيص جزء منها كهدايا مجانية.

٤-مشروع مكتبة دينية لكل ناد ومسجد:

فبالنسبة للنوادي نقترح:

-إنشاء مكتبتين دينيتين ولو صغيرتين تكونان ملحقتين بالنادي إحداهما للأشرطة الدينية، والثانية للكتب والرسائل الدعوية.

-التوسع في إنشاء المكتبات الإسلامية والثقافية المفيدة في جميع أنحاء المعمورة.

وبالنسبة للمساجد نقترح:

-مشروع مكتبة الرسائل الإسلامية الصغيرة لكل مسجد، والعمل على إيجاد مكتبة إسلامية لكل مسجد ولا نقصد أن تكون في المسجد مكتبة إسلامية كبيرة تحوي أمهات الكتب الإسلامية، فهذا وإن كان خيرًا لكن ليس هو المقصود هنا، بل المقصود أن يكون في كل مسجد مكتبة حائطية لها غطاء زجاجي متحرك تعرض فيها الرسائل الدعوية الصغيرة التي يسهل على الشباب قراءتها في الموضوعات الدينية المختلفة، بحيث تشتمل هذه المكتبة على باقة من الرسائل الدينية الصغيرة لكوكبة من علماء ومشايخ الدعوة الإسلامية المعروفين لدى الشباب والمحبوبين لديهم بحيث تغطى هذه المكتبة كافة الموضوعات الإسلامية التي يحتاج إليها الشباب في معرفة أمور دينهم.

-مشروع مكتبة الأشرطة الإسلامية: وهي على غرار المكتبة السابقة في الشكل والتصميم وتضم كذلك باقة من مختلف التسجيلات الصوتية للعلماء والدعاة المحبوبين لدى الشباب في مختلف أمور الدين ومسائله لاسيما قضايا ومشكلات الشباب المعاصرة.

٥-الإنفاق على الزيارات والرحلات للمساجد والمراكز الدعوية.

٦-بناء المراكز الدعوية والمساجد وتمويل مشروعاتها الدعوية المتعددة:

-التوسع في بناء دور العبادة ومراكز المعرفة والدعوة والإرشاد وتوفير الدعاة العاملين بها، وذلك لأن وجود المسجد في مكان ما يغري المسلمين على العمل على عمارته وملئه والمشاركة في إحياء الصلوات والعبادة فيه.

-الاهتمام برسالة المسجد في العصر الحديث بحيث تتأسى برسالة المسجد في عصر

النبوة مع الوعي بالدور الحضاري للمسجد في الواقع المعاصر، بحيث يكون المسجد وسيلة لجـذب الناس وتقريبهم من الدعاة والعلماء والعباد وأهل الخير ويمكننا أن نتصور المسجد المعاصر ورسالته كالتالي:

أ-قـيامه بتحفـيظ القـرآن وتعليمه لجميع الأعمار للجنسين وتوفير الأماكن المعدة والمهيأة لذلك.

ب-قيامه بتعليم الناس شئون دينهم وإعطاؤهم الصورة الصحيحة للإسلام وذلك عن طريق دروس العلم الدورية المنتظمة.

ج-إفتاء الناس فيما يحتاجون إليه من المسائل.

د-قـيامه بجمـع الـزكاة والصدقات وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين إليها بصورة منضبطة.

هـ-اشـتماله على دار لإقامة المناسبات الاجتماعية مثل حفل النكاح مع الالتزام بآداب المكان – العقيقة- تقديم العزاء- الدعوات والمناسبات السعيدة...إلخ.

و-فصول ومجموعات للتقوية في الدراسة العامة.

ز-يستحب كـذلك أن يكـون له فناء أو حديقة مجاورة تقام فيها أنشطة رياضية وترفيهية للأولاد والشباب حتى يتم ربطهم بالمسجد.

ب-القوة العسكرية:

وتشمل الحديث عن:

١-أهمية عناية الدولة الإسلامية بالقوة العسكرية وأثر ذلك على الدعوة الإسلامية.

٢-بث الروح الدينية لدى الجنود وتوعيتهم بدورهم في حماية الدعوة الإسلامية.

وقـد سـبق الحديث عن هاتين النقطتين في الحديث عن معالم المنهج الدعـوي في الكتـاب والسنة، والأمر لا يحتاج إلى مزيد بيان لأهمية أثر هذه القوة العسكرية في رفع قـدر الدعوة بحيث لا يستهان بها من قبل أعدائها، وبحيث يشعر أبناؤها أنهم في ظلها في منعة وحماية.

ثالثًا: الوسائل الآلية الإعلامية:

تمهيد

لاشـــك أن وســـائل الاتصال الحديثة بكافة أشكالها قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا، فمن منا يخلو بيته من التلفاز أو المذياع أو المسجل...؟ ومن منا لا يطلع يوميا على الـــصحف أو المجـــلات؟ بـــل إن كـــثيراً مـــنا يقتني جهاز "الفيديو" ويشترك في شبكة "الإنترنت".

وهكـــذا صبغت حياتنا بصبغة جديدة، وشكلت وسائل الاتصال عاداتنا وطبائعنا، بل ساهمت بجزء وافر في تشكيل أخلاقنا وأفكارنا، وأصبح الكثير لا يستطيع أن يعيش بدونها بل يرى ذلك محالا.

والحقـــيقة أن بعـــضا من هذه الوسائل قد منح الحياة إشراقة جديدة وشارك في توفير الجهـــد والـــزمن لدى أبنائها وذلك كالهاتف والفاكس والبريد الإلكتروني، كما أكسب أبناءها مزيداً من ألوان الثقافة والمعرفة كالمذياع والصحف والمجلات وبرامج التلفاز المفيدة وغير ذلك.

والبعض الآخر قد أذاب هويتنا ودمر أخلاقنا، وقطع علاقاتنا ومن ذلك التلفاز ببرامجه الهابطة والفيديو والسينما.

نحو أسلمة وسائل الاتصال:

مـــن الجدير بالذكر أن نذكر هنا أن المسلمين بما أوتوا من ذكاء وإبداع قادرون على أســـلمة هـــذه الوسائل جميعًا، وتوجيه مسارها لتخدم الإسلام وتصب في معنيه الثقافـــة الإســـلامية الأصلية، لاسيما وقد جاء في الأثر: "الحكمة صناعة المؤمن أنى وجدها فهـــو أحـــق بها"[1].

(١) ورد هذا الأثر على أنه حديث مرفوع إلى النبي ﷺ أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن علي مـــرفوعًا، وسنده ضعيف جدًا، فلا يجوز ذكره إلا على جهة التنبيه على ضعفه، وإنما ذكرناه هنا استئناسا لما نحن بصدده

"وأســـلمة العلوم والمعارف والمخترعات ترمي إلى تحرير المعرفة مما علق بها من شوائب المادية وأهـــواء التيارات المناقضة للهدى، المنكرة للطيب، والتخلص من التبعية، وتحدث تحـــولا تاريخـــيا في مسيرة الأمة وتوجيه العلوم والمعارف توجهًا إيجابيًا في خدمة الإنسانية والمجتمع...

إن العمل الصحيح الذي يجب أن يبذل تجاه هذه الوسائل هو توظيف هذه المخترعات لترســـيخ عقـــيدة المسلمين، وتهذيب أخلاقهم، وإنماء ثقافاتهم وعقولهم، والحد من انتشار ثقافة اللذة والجنس، كما هو واقع بالفعل"[1].

أولا: وسائل المخاطبة:

أ-مكبرات الصوت

بالنـــسبة لمكـــبرات الصوت ينبغي العمل على قصر استخدامها على الأذان وخطب الجمعة والعيدين والمحاضرات العامة حتى لا تكون سببا من أسباب نفور الناس عن الدعوة لمـــا قـــد تسببه أجهزة مكبرات الصوت خارج المسجد من إزعاج للمرضى المحتاجين إلى الراحة والنوم أو من هم بحاجة إلى الهدوء لاستذكار دروسهم ونحو ذلك.

فينبغي في غير هذه الحالات المذكور ألا يستخدم مكبر الصوت خارج المسجد بحيث يقتـــصر في استخدامه على السماعات الداخلية بحيث لا يتعدى الصوت حاجة المستمعين داخل قاعة المسجد أو المحاضرة.

ب-الإذاعة

المـــذياع جلـــيس كل إنسان، وأنيس كل وحدة، لا يخلو منه بيت ولا يمل من سماعه أحد، يسمعه الصغير والكبير والرجل والمرأة، ويعمل بالليل والنهار.

"أقـــدم وسائل الاتصال الإذاعي وأبسطها، وأكثر وسائل نقل الكلمة المنطوقة وأقلها تعقـــيدا، الوســـيلة الإعلامـــية الأولى التي استطاعت أن تصل إلى جمهورها في أي مكان

---

(١) أنـــور الجندي: الإسلام والمصطلحات المعاصرة، دار الهداية – القاهرة ط١– ١٩٩٧م– (٢٩٨) بتصرف.

متخطية حواجز الأمية وعقبات الانتقال في المناطق الوعرة والقيود السياسية التي تمنع بعض الوسائل الأخرى من الوصول إلى مجتمعاتها.

لقد احتل المذياع مكانة هامة لدى الجمهور المصري[1] بالرغم من الانتشار الكبير لأجهزة التلفاز؛ حيث يحرص الكثيرون على متابعة بعض المواد الإذاعية؛ كنشرات الأخبار، أو الاستماع إلى بعض البرامج التي اعتادوا سماعها، وأصبحت تشكل جزءا من برنامج حياتهم اليومي، أو حتى لمجرد تحقيق الألفة أثناء العمل أو الاستذكار أو قيادة السيارة.

كما أصبح من وسائل تشكيل الوجدان النفسي للمستمعين بمعنى أن البرامج الصباحية تهيئ الناس لليقظة والعمل والتفاؤل وبذلك تخلق جوا إيقاعيا لاستقبال يوم جديد"[2].

ج-المرئي(التلفاز)

من المعروف أن التلفاز هو أكثر وسائل الاتصال الحديثة انتشاراً بين الناس وأعظمها تأثيرا في حياتهم، فلقد شكل التلفاز ثقافة الجماهير، وأخرج أجيالا عدة تحاكي مشاهده، وغدا الموجه والمعلم والصدوق الذي لا يكذب عند قطاع كبير من الناس، وذلك لما يتمتع به من إمكانات وتقنيات هائلة، فهو يجمع بين الصوت والصورة، ويستخدم أسلوباً رائعاً في عرض برامجه، مما يجذب حواس المشاهد جميعها ويجعله أسيراً له يحركه يمنة ويسرة كما يشاء.

ولقد غدا التلفاز صنمًا جديدا يعكف عليه الناس، ويقدمون له عقولهم وأرواحهم وأبناءهم، ويضحون في سبيله بأوقاتهم وأعمارهم، فكم من عقول شوهت، وكم من أجيال دمرت، وكم من أوقات ضيعت بسبب هذه الثقافات التافهة والأفكار الضالة

---

(١) كذا الحال في جميع البلدان، ومصر نموذج من النماذج التي يقاس عليها.

(٢) وليد فتح الله مصطفى بركات: دور الراديو في معالجة القضايا والمشكلات السلوكية في المجتمع المصري (رسالة ماجستير)، ص(٢٨، ٣٣) بتصرف.

الـتي يعرضـها التلفاز كل يوم على مرأى ومسمع ملايين من الناس حتى جذب كل من حـوله، المـرأة والـرجل، الطفل والشاب، الكبير والصغير، فأضحى "إدماناً استسلم له طوائـف كـثيرة مـن الـناس، ودخل التليفزيون إلى المصنع والمتجر وأكشاك السجائر والمـرطبات، ورافق المسافرين في مركباتهم، والمتنـزهين في نـزهاتهم، حـتى أصبح الرفيـق الدائم الذي لا يمل، والسمير المـتعلي الذي لا ينفك عن اللهو وتُرَّهات القول، وطـاب لكثير من الخلق أن يتناولوا طعامهم أمام شاشة التليفزيون ليساعدهم على ازدراد الطعـام والـتهام أكـبر كمـية مـنه حـتى أطلقوا في أمريكا على طريقة الأكل هذه (غذاء التليفزيون)"[1].

التليفزيون وموقعه في الإسلام

لا شك أن التليفزيون كآلة وجهاز لا يوصف بحل ولا بحرمة؛ وذلك لأنه قد يستخدم في الخـير أو في الـشر تماماً كوسائل الإعلام المختلفة كالراديو والصحيفة والمجلة وغيرها، ويوضح ذلك الدكتور يوسف القرضاوي فيقول:

"إن التليفـزيون كالـراديو وكالـصحيفة وكالمجلة كل هذه الأشياء أدوات ووسائل لغايـات ومقاصد لا تستطيع أن تقول: هي خير، ولا تستطيع أن تقول: هي شر كما لا تـستطيع أن تقـول: إنها حلال أو إنها حرام، ولكنها بحسب ما توجه إليه، وبحسب ما تـضمنه من برامج ومن أشياء؛ كالسيف، فهو في يد المجاهد أداة من أدوات الجهاد، وهو في يد قاطع الطريق أداة من أدوات الإجرام.

فالـشيء بحـسب اسـتعماله، والوسـائل دائما بحسب مقاصدها، ممكن أن يكون التليفـزيون مـن أعظـم أدوات البناء والتعمير الفكري والروحي والنفسي والأخلاقي والاجتماعـي، والـراديو والـصحيفة كذلك، وممكن أيضا أن يكون من أعظم أدوات التخريب والإفساد، فهذا راجع إلى نوعية ما يتضمنه من مناهج وبرامج ومؤثرات"[2].

---

(١) مـروان الكجـك - الأسـرة المسلمة أمام الفيديو والتليفزيون - دار الكلمة الطيبة- القاهرة- ط٣- (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م)- ص(٥٥) بتصرف.

(٢) د.يوسف القرضاوي: فتاوى معاصرة.

مقترحات تطوير الإفادة من الإذاعة والتلفاز:

-بالنسبة للإذاعة والتلفاز يحتاج تطويرها إلى خطة إصلاح شاملة تتمثل في:

أ-إصـــلاح الجهاز الإداري والفني لهذين الجهازين أو الوسيلتين الخطيرتين لمالهما من تـــأثير بالغ على عقول الأمة شبابها وشيوخها وأطفالها ونسائها، فتكاد تكون هي الموجه الأول للشباب والشيوخ والأطفال والنساء في البيوت.

وللأســـف الشديد فإن الجهاز الإداري والفني لهذه الأجهزة في كثير من الدول العربية والإسلامية واقع تحت تأثير سيطرة الإعلام الغربي الأمريكي والصهيوني، وذلك بتأثير حالة الانهزامية النفسية التي تظهر في محاولة التقليد التام والانصياع الكامل للغرب ومحاولة الأخذ عنه بلا قيود أو ضوابط، فيقدم المسئولون عن هذين الجهازين للأمة كلّ ما يعج به الغرب من صور الإباحية والفسق والفجور ورذيل العادات والأخلاق، ورديء الأفكار والمناهج وحثالة الفكر بلا تصفية ولا نظر فيما يحقق التقدم الحقيقي للأمة المسلمة وما هو سبب في هلاكها.

لـــذا ينبغي –إذا أردنا إصلاحًا حقيقيا لهذه الأجهزة أن نبدأ خطة التطوير من خلال حسن انتقاء المسئولين الإداريين والفنيين والقائمين على هذه الأجهزة لاسيما المسئولين عن اختـــيار الـــبرامج وإعدادها، حتى نحفظ على الأمة هويتها وعقيدتها وأخلاقها وتقاليدها الأصيلة وحتى لا تذوب الأمة وتنحرف في موجة العولمة الجارفة التي تعمل على استيعاب الأمم الضعيفة وإذابة هويتها عن طريق التبعية للغرب، وأخطر وسائلها على الإطلاق هي تلك الوسائل الإعلامية.

ب-رصـــد الجوائـــز القيمة لاستكتاب الأدباء والقصاصين والروائيين وكاتبي البرامج ومعـــدّيها للكتابة والتأليف والإعداد لبرامج فنية هادفة تناقش قضايا الأمة الملحة، وتبصر الأمـــة وتعمل على توعيتها التوعية الدينية والأخلاقية والثقافية والاجتماعية الصالحة التي تضمن الحفاظ على هوية الأمة وعقيدتها وقيمها الأصيلة.

ج-إتاحة الفرصة وإفساح المجال للبرامج الدينية المتنوعة من خلال الأفلام والمسلسلات والمـــسرحيات والـــندوات والمؤتمرات واستضافة العلماء والمشايخ وأهل الفكر والانتقاء

بالشباب من الجنسين وإدارة الحديث معهم حول قضايا الحياة المختلفة من خلال بيان الوجهة الإسلامية الصحيحة لهذه القضايا المختلفة.

د-تقديم قدر من المسلسلات الدينية التي تعرض الحياة اليومية المعاصرة، بحيث لا تقتصر المسلسلات أو الأفلام الدينية على القصة التاريخية فقط بواقعها البعيد عن مظاهر الحياة المعاصرة مما ينفر كثيرًا من الشباب الغارق في المظاهر العصرية المبتعد عن عبق الماضي المجيد.

بحيث يجد الشباب في هذه المسلسلات حلا لقضايا ومشكلات عصرهم من خلال الرؤية الإسلامية الصحيحة التي تشعرهم بضرورة تحكيم الدين في جميع أمور الحياة وعدم اقتصار الدين على أمر النسك والعبادات فقط بحيث يتم العمل على تغيير تلك الصورة المشوهة أو المحرفة أو القاصرة التي تقتصر على جانب واحد من الدين هو جانب العبادات فقط.

هـ-الاقتراب في هذه المسلسلات والبرامج من لغة الحياة اليومية المعاصرة الموافقة للبيئة التي تعرض فيها باعتبارها تصويرًا للواقع، وذلك لأن كثيرًا من المستمعين ينفر عن سماع البرامج الدينية نظرًا لتمسكها باتخاذ اللغة العربية الفصحى لغة للحوار والسرد مع تفشي الضعف العام والغربة شبه التامة عن اللغة العربية الأصيلة، وليس معنى ذلك الدعوة إلى تهميش اللغة العربية أو إلغائها من وسائل الإعلام، وذلك لأننا نجعل من خطتنا الدعوية الارتقاء باللغة العربية وتطوير طرق توصيلها إلى الناس، وإنما المقصود هنا هو ألا تكون البرامج الهابطة أكثر استحواذًا على عقول الناس ومحبة إلى قلوبهم أكثر من البرامج الدينية بفروق شاسعة يصعب تداركها. وذلك لأننا نؤمن أن القلوب تميل إلى الباطل وأننا مهما حاولنا تقريب المادة الدينية وتحبيب الناس فيها فإننا لا نستطيع صرف قلوبهم عن الميل إلى اللهو والباطل.

ولكن المطلوب ألا يبالغ أهل الباطل في عرض باطلهم في أبهى صورة وأكثرها زينة وتبرجًا، ثم يقعد أهل الحق عن تزيين بضاعتهم وعرضها في أبهى حللها من الزينة المباحة لأنها لا تدعو بحال إلى استخدام شيء من الوسائل المحرمة الممنوعة شرعًا لأن هذا شيء

مقطوع الخير ولا بركة فيه.

وذلك لأن غاية الأمر هو استخدام اللغة العامية في التوعية الدينية وبيان حقائق الدين للمخاطبين وهذا أمر ينبغي ألا يستنكر أو أن تقوم علينا فيه حملة شعواء، وذلك لأنه لا يختلف معي أحد من أهل العلم على ضرورة -ولا أقول جواز- الدعوة إلى الله بغير اللغة العربية، فكما يجب بيان الدين للإنجليزي باللغة الإنجليزية، وبيانه للفرنسي باللغة الفرنسية وهكذا، كذلك ينبغي بيانه للعامي الذي لا يتكلم بالفصحى إلا باللغة التي يعرفها وهي العامية.

معلوم أن من الناس من يتكلم الفصحى بجانب العامية أو يفهم كثيرًا من العربية بجانب العامية، غير أن الغالب على طبقة العامة أنهم لا يكمل فهمهم إلا بالعامية ولا تتضح لهم الأمور والحقائق إلا بها، ولا تتفتح آذانهم وقلوبهم إلا لها، فلماذا إذًا لا نخاطبهم بلغتهم والله تعالى يحث على أن يتكلم الداعي بلسان قومه ليبين لهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1].

ومن ثم فإني ألح ونحن بصدد الحديث عن تطوير الخطاب الدعوي على أمر تقديم العديد من البرامج الدينية باللغة العامية الساذجة سواء من خلال الدرس أو المحاضرة أو الفيلم أو المسلسل أو الندوة والمؤتمر هذا كله جنبا إلى جنب مع البرامج الدينية المماثلة باللغة العربية المعاصرة كذلك.

الشعراوي نموذجًا:

ولعل من أسباب نجاح داعية مثل فضيلة الشيخ الراحل محمد متولي الشعراوي أنه كان مع تناوله لكتاب الله تعالى تفسيرًا وبيانا لمواضع إعجازه المتعددة لغوية وعلمية وغير ذلك -أقول رغم تناوله لتلك الموضوعات الصعبة التناول والتي يصعب عرضها إلا من خلال لغة علمية أكاديمية جافة كان يتكلم بلغة سهلة وسط بين المبالغة في الفصحى والإغراق في العامية، فكان يتكلم اللغة العربية المعاصرة ويخلل حديثه لاسيما في مخاطبة

(١) إبراهيم: ٤.

الحاضـــرين ولفت انتباههم وجذب أنظارهم واهتمامهم ببعض الجمل العامية التي تستلزم التواصـــل بيـــنه وبين جميع الحاضرين على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم العلمية والمهنية والثقافية.

و-العمـــل على رفع مستوى اللغة العربية، وتطوير طريقة عرضها وتعليمها من خلال وسائل الإعلام المتعددة لاسيما الإذاعة والتلفاز، وذلك عن طريق:

أولا: تقـــديم الـــبرامج الحـــوارية المتعددة والمتنوعة في الموضوعات الهامة لاسيما التي تستحوذ على اهتمام الناس.

ثانـــيا: تقـــديم البرامج المتنوعة في قصص الحياة المختلفة بلغة عربية معاصرة، بحيث لا يطلـــق على تلك البرامج أنها برامج دينية، وإن كان هذا لا ينفي أن تكون برامج هادفة، وذلـــك لأن الكثير من الناس ينفر ويفر من البرامج الدينية خاصة إذا كانت باللغة العربية ويمـــيل إلى سماع قصص الواقع بأي لغة كانت ولو باللغة الأجنبية فمن باب أولى ينفر من سماعها باللغة العربية المعاصرة التي يعرفها ويفهمها.

ثالثًا: تطوير خطة تعليم قواعد العربية من خلال العرض في الإذاعة والتلفاز عن طريق الاهـــتمام بالتطبيقات الحوارية المتنوعة في شكل مشاهد تمثيلية تطبيقية على كل قاعدة من القواعد.

رابعًـــا: تقديم المسابقات المتعددة في اللغة العربية وترصد لها جوائز قيمة ويتم عرضها من خلال الإذاعة والتلفاز ومن الاقتراحات في هذا الصدد:

١-اكتشاف أخطاء المتحاورين على نحو برنامج إذاعي قديم عنوانه (الغلط فين) ولكن يكـــون الـــسؤال هـــنا على الخطأ في قواعد اللغة ومفرداتها وأساليبها بحيث يسأل مقدم البرنامج حوارا بين اثنين ثم يذكر بعد انتهائه أن هذا الحوار اشتمل على ثلاثة أخطاء مثلا في قواعد اللغة وأساليبها ومفرداتها ويطلب من المتسابقين اكتشافها.

٢-عمـــل مـــسابقات لمن يتكلم أطول فترة ممكنة دون أن يسجل عليه خطأ واحد في اللغة العربية نحوها وصرفها ومعجمها وبلاغتها...إلخ.

٣-عمل مسابقة لمن يقدم أجمل حوار باللغة العربية.

٤-الحث والتشجيع على المسابقات الأدبية بين الشباب في نظم الشعر.

٥-المسابقات في الخطابة بحيث يتم عرض عدد من المتسابقين يقدم كل منهم خطبة موجزة فيما لا يزيد عن خمس أو عشر دقائق بلغة عربية فصيحة في موضوع معين.

٦-مسابقة القصة القصيرة باللغة الفصحى.

٧-مسابقة الرواية العربية باللغة الفصحى.

٨-مسابقة المسرحية العربية باللغة الفصحى.

وينبغي عرض هذه المسابقات والأعمال في برامج مسموعة ومرئية وتقدم لها الجوائز الثمينة بحيث تحفز همم الشباب للارتقاء باللغة العربية.

٩-الاهتمام بتطوير عرض المادة المدرسية بطريقة إعلامية حوارية جيدة من خلال الإذاعة والتلفاز.

١٠-الاهتمام بعرض المسابقات بين أبناء المدارس في اللغة العربية في برنامج أوائل الطلبة في الإذاعة والتلفاز.

د-الأقمار الصناعية:

تعد الأقمار الصناعية من أعظم الوسائل الإعلامية التي يمكن التعويل عليها كثيرًا بين الوسائل الإعلامية في خدمة الدعوة، نظرًا لتمتع هذه الوسيلة الإعلامية بقدر كبير من الحرية الدعوية وامتلاك القرار بالنسبة للقنوات الإعلامية الخاصة حيث يتيح لها -قدرًا كبيرا من تلك الحرية الدعوية- يحررها من التبعية المباشرة للجهاز الإعلامي الحكومي في كثير من الدول المعادية للإسلام أو المضيقة على الدعوة إليه لما يقع عليها من ضغوط معينة من الدول العظمى.

فلئن كانت الأجهزة الحكومية للإذاعة والتلفاز لا تستطيع تنفيذ الكثير من مقترحاتنا السابقة لتطوير الإذاعة والتلفاز فبوسع هذه القنوات الخاصة أن تقوم بتنفيذ قدر كبير من هذه المقترحات للوصول إلى أكبر استفادة ممكنة من الأقمار الصناعية في الدعوة إلى الله تعالى ومن ثم يمكن لهذه القنوات الخاصة، وكذلك قنوات الأجهزة الحكومية المهتمة بشأن الدعوة الإسلامية أن تقوم بالآتي:

١-العناية بالمظهر الإسلامي للإعلامي مما يكون له أكبر الأثر في الدعوة إلى الله تعالى بطريقة علمية تشجيعية.

٢-إفساح المجال للإعلام الديني وإعطاء أكبر مساحة ممكنة للدعوة الإسلامية.

٣-إبراز القيم الإسلامية الغائبة أو النادرة في الأمة.

٤-كشف المؤامرات والمكائد المدبرة ضد الإسلام والمسلمين وتوعية المسلمين بها.

٥-الاهتمام باللغة العربية والعناية بها على النحو الذي سبق بيانه[1].

٦-رد الشبهات الموجهة للإسلام.

٧-الوقوف على قضايا العصر وتحدياته وتجلية موقف الإسلام من تلك القضايا المهمة.

نأتي لتفصيل الحديث بقدر الحاجة في النقاط السابقة:

١-بالنسبة للعناية بالمظهر الإسلامي:

لاشك أن ظهور المذيع أو المذيعة أو مقدمي البرامج بالمظهر الإسلامي سمتا وخلقًا وحديثًا يمثل نوعًا من القدوة الحسنة التي تغري بالتأسي، وتؤدي إلى شيوع الالتزام بالمظهر الإسلامي الحميد الذي يقود إلى الفضائل، ويمنع من الرذائل، ويعتبر بمثابة عنوان للعفة والطهارة، فهذا نوع من الدعوة العملية التي يكون لها أكبر الأثر في المخاطبين.

٢-وبالنسبة لإفساح المجال للإعلام الديني:

فلاشك أن الإعلام الديني مضيق عليه في أكثر بلدان المسلمين فلعله يكون في هذه القنوات متنفس لإذاعة البرامج الإسلامية المضيق عليها في كثير من هذه البلدان.

٣-بالنسبة لإبراز القيم الإسلامية الغائبة والنادرة:

فلاشك أن بوسع هذه القنوات أن تركز على القيم الإسلامية التي تحارب في كثير من البلدان مثل قيمة الحجاب وعدم الاختلاط الماجن والتحاكم إلى الشريعة الإسلامية...إلخ.

هذا وقد سبق الحديث عن بقية النقاط ضمن نقاط سابقة فلا حاجة للإعادة.

---

(١) انظر ما سبق في الحديث عن تطوير الإذاعة والتلفاز.

هـ- آلة التسجيل الصوتي(الكاسيت) والتسجيلات الصوتية:

من أجمل ما أبدعته حضارة القرن العشرين في وسائل الاتصال الحديثة، والذي يخضع تماما لتصرف الإنسان وتوجيهه ما يسمى بالمسجل.

فهـــو جهاز بسيط لا يحوي برامج خاصة ولا قنوات شاذة، وتقل أضراره كثيرا عما ســـواه من وسائل أخرى، بل ويمتاز بأنواعه المختلفة لاسيما وأن منه ما هو صغير الحجم، قليل الثمن يمكن بسهولة أن يحمل إلى أي مكان ويستعمل في تسجيل أي مادة في محاضرة أو ندوة أو لقاء.

و-آلة التسجيل المرئي(الفيديو) والتسجيلات المرئية:

الفـــيديو صنو التلفاز فكلاهما من وسائل الاتصالات السمعية البصرية الـــتي تجـــذب حـــواس الإنـــسان جميعا، بل تأســـره من خـــلال الصـــور والمشاهـــد والحركـــات المتـــتابعـــة الـــــتي تعرضها، إلا أن الفيديو يختلف عن التلفاز في أنه يعرض ما لا يعرضه الـــتلفاز؛ حيث يختلف عنه إيجابيا في القدرة على التحكم فيه باختيار عرض النافع والمفيد والاقتصار عليه.

نعـــم لقـــد ملأت أجهزة الفيديو البيوت المسلمة وقل أن يخلو بيت منها، وفي غياب الـــرقابة والتـــربية غزت أشرطة الفيديو كاسيت المجتمع، وصارت تجارة رابحة يقبل عليها الشباب المسلم في مقتبل عمره، ويروجون أفلاما غربية غريبة ليست من نتاجنا بل دخيلة علينـــا، هـــذه الأفلام تحمل في داخلها سموما أخلاقية وسموما فكرية أريد بها القضاء على فلذات أكبادنا.

ز-أقراص الليزر الممغنطة(CD):

مقترحات للإفادة من آلات التسجيل والمرئي وأقراص الليزر:

آلـــتا التسجيل الصوتي والمرئي وأقراص الليزر (CD)[1] بالإضافة إلى ما سبق الحديث عـــنه مـــن أهمية هذه الأجهزة، وكيفية استغلال منتجاتها من الأشرطة والاسطوانـــات،

---

(١) سيأتي الحديث عنها فيما بعد باعتبار ما تقدمه من المواد المكتوبة.

فإننا يمكننا أن ندلي هنا ببعض المقترحات الخاصة بكيفية تطوير الإفادة من هذه الأجهزة:

١-الاهتمام بتسجيل البرامج الدعوية المميزة التي تعرّف بالدين الإسلامي بجميع لغات العالم.

٢-الاهتمام بتسجيل البرامج الدينية الهادفة لتنمية الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية.

٣-الاهتمام بتسجيل البرامج الترفيهية النافعة التي تقدم اللهو المباح من خلال المنظور الإسلامي.

٤-الاهتمام بتسجيل البرامج الهادفة التي تم إذاعتها في الإذاعة أو التلفاز.

وهاك تفصيل هذه النقاط:

١-تسجيل البرامج الدعوية المعرفة بالإسلام بجميع اللغات:

وذلك مثل:

أ-ترجمة معاني القرآن الكريم باللغات المنتشرة المختلفة.

ب-بيان أحكام العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج...إلخ.

ولاشك أن التسجيلات المرئية في مثل هذا النوع تكون أكثر فائدة لما يحتاج إليه من تصوير أوضاع الصلاة المختلفة، وكذلك تصوير مناسك الحج وغير ذلك مما يكون تصويره أكثر فائدة.

ج-التعريف بالأخلاق والآداب الإسلامية وبيان أثرها على الفرد والمجتمع.

د-التعريف بالمعاملات الإسلامية الصحيحة.

٢-تسجيل البرامج الدينية الهادفة في الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية وذلك مثل:

أ-البرامج التي تشرح وتبين صور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ب-تسجيل الحوارات والمناقشات حول القضايا الإسلامية الهامة.

٣-تسجيل البرامج الترفيهية المباحة والنافعة مثل:

أ-القصص الدينية والقصص الواقعية النافعة.

ب-الأناشيد الإسلامية للأطفال والشباب.

ج-تسجيل الأفلام والمسلسلات الدينية بضوابطها الإسلامية.

د-إعـادة إنتاج وتسجيل الأفلام الدينية وغيرها بعد عمل (مونتاج) تكييف ديني لها بالحذف والإضافة.

هـ-إنتاج أفلام الكرتون ذات القيم الإسلامية باللغة العربية الفصحى لتربية وتقويم الطفل السليم، وقد أثبتت التجربة تقبل الأطفال لهذه النوعية من الأفلام باللغة العربية تقبلاً حسنًا.

و-إنتاج ألعاب الذكاء المفيدة للطفل.

٤-تسجيل البرامج الهادفة التي سبق إذاعتها مثل:

أ-حلقات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

ب-الحلقات التي تربط بين العلم والإيمان.

ج-عـرض مـشاهد الخلق ودلائل القدرة من خلال عالم الحيوان عالم النبات- عالم البحار- عالم الأفلاك...إلخ.

د-الندوات الحوارية والمؤتمرات حول القضايا الإسلامية.

هـ-الأفلام والمسلسلات الدينية.

ح-الهاتف.

لا شـك أن الهاتف يمثل نقلة حضارية هائلة تعد حقا آية من آيات هذا العصر الذي أتخـم حياتنا بسيل من وسائل الاتصالات التي جعلت العالم كله كقرية صغيرة تسير فيها الأخبار والمعلومات بسرعة البرق، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

ونظـرا لأن الهاتـف وسيلة هامة لا يمكن الاستغناء عنها فقد قام العلماء بتطويره في أشـكال مختلفة، كالمحمول، واللاسلكي.. إلخ، وأقبل الناس على شرائه، ودخل الهاتف – تقـريبا- معظـم البيوتات، بل إن الهيئات والمؤسسات التليفونية ساعدت المواطنين على

---

(١) العلق: ٥.

استخدامه بصور مختلفة بسهولة ويسر.

ونظـــرة الإســـلام للهاتف لم تختلف عن نظرته للتلفاز والمسجل والمذياع وغيرها من الوســائل الحديــثة الــتي لم يتعلق بها في نفسها حكم وإنما يتعلق الحكم باستعمالها، فإن استعملت في محرم فذلك حرام، وإن استعملت في الخير وفي الأمور المباحة فذلك جائز.

إن هـــذه الآلة لسهولة استخدامها انتشرت بين الناس انتشار النار في الهشيم، وخرج كثير من الناس في استخدامها على الآداب الإسلامية؛ ومن ذلك استخدامه في المؤسسات العامة بدون استئذان، واستخدامه في التجسس والتصنت...إلخ.

مقترحات لتطوير الإفادة من الهاتف:

ســبق الحديث عن أهمية الهاتف وبعض فوائده في الدعوة إلـــى الله تعالى، ونركـــز الحـــديث هنا على كيفية تطوير الإفادة منه في الدعوة إلى الله تعالى، وذلك مـــن خـــلال الآتي:

١-عمل خط دعوي ساخن للإجابة على المشكلات التي تحول دون الالتزام بالشرع والتقـــيد بضوابطه، يمكن تسميته بمشروع الهاتف الإسلامي، ويتم الإجابة فيه على مختلف الأسئلة الدينية في جميع نواحي الحياة.

وينبغي أن تكون هذه الخطوط الهاتفية تابعة لوزارات الأوقاف والدعوة والإرشاد، أو لجمعـــيات إسلامية رشيدة مسئولة تقدر أمانة الكلمة، وتهتم بأمر الدعوة الإسلامية وفق الضوابط الشرعية الأصيلة.

٢-عمـــل خط دعوي آخر معلن من شأنه الاتصال بالشخصيـــات المهمـــة، وتقديم التهنـــئـــة الشرعية لهم في المواسم الدينية المختلفة وغيرها، وتقديم المساعـــدة والمعونـــة لهـــن في الإجابة عن أي استفسارات دينية خاصة بهم بحيث يتم ربط هؤلاء المسئولـــين بطـــريقة لطيفة بعلماء الأمة ودعاتها بما يضمن سلامة مسيرتهم وحسن توجيههم لما فيـــه الخير والسداد.

٣-اســـتخدام هذه الوسيلة المهمة على المستوى الفردي فـــي الدعـــوة إلى الله تعالى وتـــذكـــير الأهل والأقارب والأصدقاء والجيران بطاعة الله تعالى والاستقامة على منهجه

وذلك عن طريق:

أ-تذكيرهم بموعد درس علم لأحد العلماء أو المشايخ.

ب-تــذكيرهم أو تنبــيههم للاستماع إلى برنامج دعوي مهم في الإذاعة أو التلفاز، وليس في ذلك أدنى حرج أن تدق على صديقك وتقول له: الآن على قناة اقرأ حلقة مهمة لفضيلة الشيخ فلان فليتك تابعها.

ج-الاتفاق مع الأصدقاء على أن يوقظ الواحد منهم الآخرين لصلاة الفجر بأن يدق الهاتــف علــيه لــيؤذنه بالصلاة ولو بغير مكالمة، بحيث يحصل على أجر عظيم دون أدنى تكلفة.

ط-الشبكة العالمية (النت)[1].

"لا شــك أن الإنتــرنت (الــشبكة الدولية للمعلومات) هي أعجوبة العقد الحالي[2] ومعجــزته الــتي انتــشرت بشكل مذهل في جميع أنحاء العالم؛ حيث يصل العدد الحالي لمشتركي الإنترنت ٣٠ مليون مستخدم"[3].

مزايا شبكة الإنترنت:

وهذه الشبكة لها مزايا لا حصر لها نذكر منها:

-"استخدام البريد الإلكتروني (إرسال واستقبال) مع مختلف مناطق العالم بأي عدد من الرسائل وبأسرع ما يمكن.

-عرض الأبحاث العلمية والاستفادة من أبحاث الغير.

-نشر الآداب والفنون والاطلاع عليها"[4].

-"عرض السلع والمنتجات والتسوق لكل من الشركات والأفراد.

-الاطلاع على القوانين والتشريعات في العديد من الدول.

---

(١) سيأتي الحديث عنها كذلك من حيث الإفادة منها كوسيلة للمكاتبة الدعوية.

(٢) نحن الآن في القرن الحادي والعشرين.

(٣) فاروق حسين: الإنترنت- ص(٥).

(٤) السابق، نفس الصفحة.

-إمكانية تعلم لغة جديدة؛ لأن شبكة الإنترنت تحمل لغات أخرى عديدة تتحدث بها أجهزة الكمبيوتر في هذه الدول.

-الطـــواف حـــول العالم من خلال الشبكة الإخبارية؛ وذلك لأن الشبكة الإخبارية تنطوي على العديد من المجموعات الثقافية والاجتماعية الخاصة بمختلف الدول"[1].

هذا بالإضافة إلى فوائد غير ذلك كثيرة.

مخاطر الإنترنت:

ولا ننـــسى كذلك أن نشير هنا إلى بعض سلبيات هذا "الإنترنت"، فليس كله خيرًا محضا، بل له عديد من التأثيرات السلبية، مثل:

(١) المخاطر المتعلقة بالأخلاق:

يقـــول صاحب كتاب "تكنولوجيا الاتصال": من المخاطر التي تحوط شبكة الإنترنت أنه توجد مواقع على هذه الشبكة للحب والزواج والعلاقات غير الشرعية.. وقد أنشأت جامعات أوروبية وأمريكية وطوائف دينية ومذهبية بعض هذه المواقع، وأنشأ هواة ومدمنو الحاســـوب والتجول عبر الإنترنت بعضها الآخر، وكالعادة، استغلت شبكة المافيا العالمية بعض هذه المواقع؛ لتحقيق أرباح من هذه العلاقات المحرمة وتسويق الفتيات والسيدات من روسيا وأوكرانيا ودول شرق أوربا عبر هذه الشبكة.

(٢) المخاطر المتعلقة بزعزعة عقيدة المسلمين:

حـــيث تقـــوم إحدى المنظمات المشبوهة من خلال شبكة الإنترنت بمحاولة لتشويه القـــرآن الكـــريم؛ حيث طالبت هذه المنظمة من زوار موقعها على الإنترنت بتأليف سور تحاكـــي الـــسور القرآنية الكريمة، في محاولة منها لإقناع جمهور الشبكة العالمية بأن القرآن لـــيس معجزة إلهية من عند الله، بل هو من صنع البشر، وقد تواصلت الجهود والمحاولات لتحريف القرآن الكريم على شبكة الإنترنت.

---

(١) بهاء شاهين: شبكة الإنترنت، ص(١٥٥) باختصار.

(٣) المخاطر المتعلقة بالإباحية الإلكترونية:

حـــيث تحتوي شبكة الإنترنت على آلاف الصور الخليعة والتي يصعب الدخول إليها دون معـــرفة كلمـــة السر "Password" التي تساعد على دخول الشبكات الخاصة أو السرية، وهناك صور تظهر للمتصفح دون دخول على هذه المواقع الإباحية.

(٤) سرقة الوقت والخدمات:

(٥) سرقة المعلومات:

إلى غير ذلك من المخاطر والسلبيات التي ظهرت مؤخرا عبر شبكة الإنترنت[1].

مقترحات لتطوير الإفادة من الشبكة الدولية (النت):

ســـبق الحديث عن أهمية الإفادة من هذه الشبكة في الدعوة إلى الله تعالى، وتحدثنا عن بعض الصور التقليدية في ذلك، ويمكننا أن نضيف هنا بعض صور تطوير الإفادة من هذه الوسيلة المهمة، فمن ذلك:

١-تخـــصيص غـــرف للحديث على الإنترنت فيما يسمى بالـــ chat أو الدردشة تكون تابعة للمراكز الإسلامية الدعوية المتخصصة ويفرغ لها جماعة من المتخصصين على أن يكون هناك نوعان من هذه الغرف:

أ-نـــوع معلـــن بأسماء هذه المراكز الدعوية الإسلامية يكون الهدف منها الدلالة على الخير للراغبين فيه الباحثين عنه أو الرد على دعاوى المناوئين للإسلام الصحيح.

ب-نـــوع غـــير معلن عنه بأسمائه الإسلامية، وإنما يمكن تسميته بأسماء وهمية شبابية يكـــون الهدف منه اصطياد الشباب إلى تلك المواقع، ويمكن لمدير الغرفة أن ينوع الحديث في هـــذه الغـــرفة في المجالات الحياتية المختلفة وينتقل من ذلك إلى توجيه الشباب التوجيه الإسلامي الصحيح في هذه الأمور في مختلف مناحي الحياة، خاصة وأن ديننا الحنيف ليس قاصرًا على مجال النسك وحدها بل يتسع لجميع مجالات الحياة.

وينبغـــي أن يقوم على أمر هذه الغرف هيئات ومراكز إسلامية متخصصة مثل إدارة

---

(١) انظر بتوسع: د.شريف اللبان: تكنولوجيا الاتصال، ص(١٠١) وما بعدها.

الدعوة والإرشاد أو الأزهر الشريف أو الأوقاف ونحوها وذلك للآتي:

أولا: حتى يقدم لها الدعم المادي الكافي من جهة توفير الموظفين المتخصصين المتفرغين لهذا الأمر.

ثانيا: ضمان عدم انحراف هذه الغرف عن مهمتها الأساسية وعدم تلاعب الأشخاص بها، وتوافر الرقابة الكافية عليها.

٢-تخصيص مواقع ثابتة تشتمل على المواد الإسلامية المقروءة والمسموعة التي تبين الإسلام والعقيدة الصحيحة وتدفع عن الإسلام السهام الموجهة إليه من أعدائه ومناوئيه.

٣-تخصيص مواقع ثابتة للإجابة الفورية على الأسئلة الدينية المختلفة من خلال فريق من العلماء يتناوبون على هذه الغرف على مدار (٢٤ساعة) ويمكن البدء بساعات محددة ثم تزيد بحسب الحاجة (ولاشك أن الحاجة ملحة في ذلك).

٤-فضلاً عن تدعيم الطرق التقليدية المعمول بها الآن مثل بث المحاضرات والدروس العلمية عبر مواقع إسلامية في الإنترنت.

٥-توفير الخطب والدروس والمحاضرات وسائر التسجيلات الصوتية لمشاهير العلماء والدعاة لمن يريد الحصول عليها من المواقع الإسلامية في الإنترنت.

ع-السينما:

من المعروف أن السينما من أحدث صور التقنية التي وصل إليها العقل البشري في العصر الحديث؛ "وهي من الناحية العلمية جهاز أو آلة لإلتقاط صور على فيلم (شريط)، وجهاز آخر أو آلة لعرض هذا الفيلم، وبعد ذلك تأتي أجهزة وأدوات مساعدة لصناعة السينما مثل أجهزة تحميض - أي إظهار وتثبيت الفيلم وطبعه -، وأجهزة المونتاج (أي: التوليف)، ومكان العرض، وأجهزة الصوت.. إلخ، وهي الآلات والمستلزمات الضرورية لإنتاج وعرض الأفلام السينمائية ذات الصور التي نراها أو -ندركها- متحركة ونسمعها ناطقة بالألوان"[1].

---

(١) د.محمود عبد الرءوف: مقدمة في علم الإعلام والاتصال بالناس، ص(١٧٩).

أما من الناحية الخلقية فهي أداة لبث عادات العالم الغربي بما يكتنفها من فجور وإباحية ودعارة وشذوذ وعنف وجريمة وفساد بين العالم الإسلامي أو كما يسمونه "العالم الثالث"، هذا العالم الذي يعتنق التوحيد ويقدس الفضيلة، ويسمو على هذه الموبقات.

نعم إن المتأمل لأوضاع السينما في بلادنا يجد أنها تحارب الدين باسم الفن، وتحارب الالتزام والتدين باسم الحرية والانطلاق!!.

إن السينما اليوم لا تعرض فيلما إلا وفيه مناظر فاسدة، ومشاهد مائعة ماجنة حتى صارت التجارة فيها بالأعراض والجنس باباً للرزق، وميدانا للسبق عند أصحاب المطامع الخسيسة، وذوي النفوس الهابطة الدنيئة والضمائر المتعفنة.

مقترحات لتطوير الإفادة من السينما:

لا تزال السينما الدينية حلما بالنسبة لكثير من المسلمين ويرجع تأخر هذا الأمر لأسباب عديدة منها:

١-عدم إقبال كثير من الناس على الفيلم الديني، وذلك لأسباب من أهمها:

أ-الفساد والانحلال العام والإقبال على أفلام اللهو والإباحية.

ب-عقم المعالجة لهذا النوع من الأفلام مثل الحديث باللغة الفصحى، وعدم معاصرة القضايا والموضوعات، وغير ذلك.

٢-عدم تقديم الدعم الكافي من الحكومات أو المؤسسات الدعوية لإنتاج الأفلام الدينية.

٣-المحاذير الشرعية في التمثيل عمومًا، والتي تحتاج إلى قيام لجنة شرعية دعوية بمراقبة المواد المقدمة لضمان شرعيتها.

وإزاء هذه المحاذير فإن الأمر يحتاج إلى جهود حكومية مؤسسية وليس إلى جهود فردية، ومع إعراض المسئولين في كثير من الدول العربية عن الاهتمام بأمور الدعوة الإسلامية فإن هذا الأمر سوف يتأخر كثيرًا، حتى تحدث صحوة دينية لدى القطاع العريض من الناس ترفض أفلام العشق والغرام وتطالب بأفلام القيم الدينية المحترمة.

ك-المسرح:

لعله من الممكن أن نعول على المسرح في الإفادة الدعوية منه أكثر من السينما لأسباب من أهمها:

١-تميز جمهور المسرح.

٢-تعدد نوعيات العمل المسرحي، ووجود المسارح المتخصصة في عرض القضايا الثقافية والفكرية وغيرها.

ويحتاج التطوير إلى:

١-تقديم الدعم الكافي من جهة المؤسسات الدعوية لتقديم أعمال دينية متميزة تجذب الجمهور.

٢-الاقتراب من الجمهور في فكره ولغته وثقافته وقضاياه.

٣-الالتزام بالضوابط الشرعية التي لابد منها لمشروعية هذه الوسيلة للدعوة إلى الله بحيث تجتنب فيها المحاذير الشرعية مثل:

أ-السفور والتبرج والاختلاط الماجن.

ب-هبوط الحوار إلى ما لا يليق.

ج-تزييف الحقائق وعدم عرضها في صورتها الصحيحة.

ثانيا وسائل المكاتبة:

وتشمل وسائل المكاتبة الوسائل الآتية:

١-الرسالة والبرق والفاكس.

مقترحات لتطوير الإفادة منهم:

أ-إرسال برقيات ورسائل وفاكسات للتهنئة بالمناسبات الدينية المختلفة للشخصيات المهمة في جميع الأجهزة مع التذكير بالاستقامة وتقوى الله تعالى ومراقبته.

ب-إرسال برقيات ورسائل وفاكسات للشخصيات المهمة للدعوة إلى حضور الندوات الدينية والمؤتمرات الدعوية المهمة التي تناقش قضايا الإسلام الهامة وتدعو إليه.

ج-إرسال بطاقات عضوية للشخصيات المهمة للاشتراك في أندية دينية أو مراكز

دعوية فعالة وأنشطة تعمل لخدمة الإسلام، وتطلب من هؤلاء المرشحين تقديم يد العون والمساعدة لخدمة الأعمال الدعوية بمختلف الوسائل البشرية أو المادية أو الفكرية التخطيطية أو الآلية أو غير ذلك.

٢-الكتاب والرسائل الدعوية:

قال الشاعر الحكيم أبو الطيب المتنبي:

وخير جليس في الزمان كتاب[1] أعز مكان في الدنا سرج سابح

وصدق الشاعر العظيم؛ فالكتاب لم يزل يحتفظ بمكانته العلمية والثقافية رغم تطور وسائل الاتصالات الجماهيرية من تلفاز ومذياع وصحف ومجلات...إلخ.

"والكتاب وسيلة إعلامية أساسية في حياتنا؛ فعليه يعتمد النظام التعليمي، والتثقيف الشخصي، و لا غنى للمرء مطلقا عن الكتاب حتى وإن قرأ الصحيفة وشاهد التلفاز واستمع إلى المذياع؛ فكل أولئك يفتقر إلى التفصيل والتعميق والتحليل والشمول والموضوعية.

فإذا كانت الصحف والمجلات مادتها الأساسية الأخبار والتعليق عليها وتفسيرها والتحقيقات والأحاديث والصور الصحفية، أما الكتاب فمادته الأساسية هي العلم والثقافة"[2].

إن الكتاب هو الذي يمدنا بالعقيدة السليمة والعبادة الصحيحة والأخلاق الفاضلة، وهو الذي ينقل لنا بتوسع واستفاضة سير الصالحين والصالحات من أمتنا، وهو الذي يغذينا بشتى أنواع المعارف الإنسانية.

ولقد حثنا الدستور العظيم على القراءة، فقال تعالى في أول آية نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3]، وأقسم الله عز وجل

---

(١) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، شرحه وكتب هوامشه: مصطفى سبيتي، (٢ / ٢٤٣).

(٢) مقدمة في علم الإعلام والاتصال بالناس، ص(١٣٧) باختصار.

(٣) العلق: ١-٥.

بـــالقلم وبالكتابة، فقال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1]؛ فالقراءة والكتابة عنصر أساسي في الـــنهوض بتكاليف هذه الرسالة وتبليغها للناس كافة، كما أن من مقومات الشخصية المـــسلمة ثقافـــة الفكـــر، ولا يتأتى ذلك إلا بالاطلاع الواسع على كتب العلوم والثقافة الإسلامية، وهي:

أولا: القرآن الكريم وعلومه.

ثانيا: السنة النبوية وعلومها.

ثالثًا: العقيدة.

رابعًا: السيرة والتراجم.

خامسًا: الفقه وأصوله.

سادسًا: الرقائق والتزكية.

سابعًا: فقه الدعوة والحركة.

ثامنًا: الفكر الإسلامي.

تاسعًا: الثقافة العامة.

مقترحات لتطوير الإفادة من الكتاب:

لا يحـــتاج الأمـــر إلى المزيد في بيان أهمية الكتاب والرسالة الدعوية في الدعوة إلى الله تعالى، وقد سبق بيان شيء من ذلك، ولكن نحتاج هنا إلى التركيز على:

أ-ضــــرورة دعم الكتاب والرسالة الدعوية من المؤسسات الخيرية والأجهزة الحكومية المهـــتمة بأمر الدعوة الإسلامية؛ حتى يتم توفير الكتاب أو الرسالة الدعوية بأزهد الأثمان للقارئ، أو إهداؤه بالمجان عن طريق تبرعات القادرين.

ب-الاهتمام بطريقة طباعة الكتاب والرسالة الدعوية من حيث وضوح الخط، وجمال الشكل، وجودة الورق، وغير ذلك من الوسائل المرغبة في اقتناء الكتاب والمرغبة في قراءته كذلك مما لا ينكر أثره.

---

(١) القلم: ١.

ج-إيجاد نوع من الرقابة العادلة والمنصفة للكتب والرسائل الدعوية تسمح للجيد منها بالظهور والانتشار وتحد من الزائف المحرف الذي ينشر البدع والخرافات ويحارب الإسلام بقصد أو غير قصد.

د-استكتاب الكتاب الإسلاميين في الموضوعات التي تحتاج إليها الأمة والتي تعاني المكتبة الإسلامية والدعوية من نقص فيها وذلك عن طريق:

أ-المسابقات الدينية ذات الجوائز القيمة.

ب-إنشاء دور نشر مدعمة من الأجهزة الدعوية.

ج-قيام المؤسسات الدعوية الخيرية بتكليف العلماء والمشايخ بمثل هذه الأعمال.

٣-الصحيفة والمجلة.

تحتل الصحف والمجلات الصدارة في تثقيف الجماهير، وتوجيه الرأي العام في البلاد، وقد تربعت الصحافة على عرش التأثير زمنا طويلا حتى غدت آية من آيات الزمان، حتى قال فيها أمير الشعراء أحمد شوقي:

لكل زمان مضى آية	وآية هذا الزمان الصحف
لسان البلاد ونبض العباد	وكهف الحقوق وحرب الجنف[1][2]

لقد غدت الصحيفة بما تتمتع به من عناوين جذابة، ومقالات متعددة وصور ورسوم ونكات كثيرة اللسان الناطق عن أحوال الأمم والشعوب، والخطيب البارع الذي يسوق الحجج والبراهين على مراده، والفنان المبدع الذي يصور بريشته ولقطاته الأحداث "فغدا كثير من الناس لا يستغني عن شرائها ومطالعتها يوميا، بل الكثير منهم لا يتناول فطوره إلا بعد الاطلاع على صحف اليوم"[3].

(١) الجنف: الحيف.

(٢) الشوقيات، (١٢٥/١).

(٣) د.ناصر العمر: البث المباشر، ص(١٣) بتصرف.

يقول أحد المفكرين محللا هذا التأثير: "ويأتي تأثير الصحافة كذلك من شكلها المادي، إن الصحيفة تمتع بقوة الكلمة المطبوعة، وهذا العامل النفسي الذي يجعل قارئ الصحيفة لا يخــشى أن تخدعه؛ لأنه يعلم أن هناك ملايين القراء يصدقون مثله بسرعة، وإذا لم تكن الصحيفة تتمتع بالسحر الشخصي الذي يتمتع به الخطيب، وبالتأثير الوجداني الذي يربطه بالمــستمع ويشيع الإيمان، فإن الصحيفة تتفوق على الخطيب في تقدمها بحيل مختلفة على شكل جرعات صغيرة"[1].

مـــن هنا كانت أهمية الصحف بين وسائل الاتصال المختلفة، فهي وسيلة دورية لنشر الأخـــبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والترفيهية.. إلخ، تشرحها وتعلــق علــيها فيخرج القارئ وقد أحاط علما بما حوله من قضايا وأحداث، وتمى عقله وذوقه بما فيها من منوعات وأدبيات.

مقترحات لتطوير الإفادة من الصحيفة والمجلة الإسلامية:

للــصحيفة وتلــيها المجلــة أهمية ليست للكتاب والرسالة نظرًا لكونها أكــثر تداولا وأوســـع انتــشار وأخــف علــى القارئ نظرًا لسهولة موضوعاتها وتنوعها وسهولة أسلوبها...إلخ.

ومما يقترح لتطويرهما:

أ-رصد الدعم المادي الكافي لطباعة الصحيفة أو المجلة الإسلامية من الأجهزة الحكومية المعنية بشئون الدعوة الإسلامية.

ب-اهتمام المؤسسات الدعوية الخيرية أن يكون لها صحيفة أو مجلة دعوية تكون لسان دعوتها وتعبر عن أهدافها وقضاياها وتشارك بدورها في الدعوة إلى الله تعالى.

ج-الاهتمام بجودة طباعة الصحيفة من حيث الشكل والمضمون.

د-الحرص على الاهتمام بالقضايا الإسلامية المعاصرة.

هـــ-الحرص على سلامة الأسلوب واختيار اللغة الفصيحة المعاصرة.

---

(١) د.خليل صابات: الصحافة، ص(٢٥٤).

و-الحـــرص على تنوع الموضوعات لتشمل بيان رأي الإسلام في جميع مجالات الحياة بحيث تشمل جميع الاهتمامات والتخصصات.

٤-الإعلانات والملصقات.

تأتي أهمية الإعلانات والملصقات وفائدتها في أنها تذكر بالأمور والحقائق التي تنوسيت في المجتمع الإسلامي أو يتناساها الناسي رغم وضوحها وكونها من المسلمات، وذلك مثل: الــصلاة، الحجـــاب، الصدق، تقوى الله، ذكر الله، غض البصر، مساعدة المحتاج، إرشاد الضالة...إلخ.

فــيمكن أن توضع اللافتات الجميلة التي يمكن أن تساهم في تجميل البيئة على ناصية الشوارع والطرق مثل:

١-الصلاة أولا.

٢-قم إلى الصلاة متى سمعت النداء.

٣-الحجاب عفة وطهارة.

٤-شرف المرأة حجابها.

٥-﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾.

٦-"اتق الله حيثما كنت".

٧-"لا يزال لسانك رطبا بذكر الله".

٨-"اذكر الله".

٩-"الدين حسن الخلق".

١٠-"إماطة الأذى من الإيمان"...إلخ.

لاشـــك أن كـــل واحدة من هذه الجمل الموجزة تمثل رسالة كاملة، أو هي خلاصة كـــتاب أو مجلـــد كبير، فهي تذكر بفضيلة أو تدعو إلى خصلة من خصال الخير قد يغفل المسلم عنها في زحمة الحياة وماديالها.

ولتطوير هذا الأمر نقترح الآتي:

١-اهـــتمام الأجهزة المعنية بالبيئة مثل مجلس الحي أو المدينة أو المحافظة أو البلدية بمثل

هذه الأمور وتشجيع الناس عليها بدلا من منعها وإزالتها.

٢-تقـديم الـدعم المادي لها من تلك الأجهزة بحيث توضع تلك اللافتات في شكل حـضاري جمـيل، ويمكن أن يخصم جزء من قيمة الضرائب والعوائد والمرافق ونحو ذلك لواضعي مثل هذه اللافتات الجميلة.

٣-يمكـن أن تستخدم هذه اللافتات كدعاية للمحال التجارية بحيث يقترن اسم المحل أو الشركة التجارية مع الإعلان مثل: "الصلاة أولا" (مع تحيات شركة كذا..).

وفي مقابل ذلك تعفى هذه الشركات من دفع رسوم الدعاية للحي أو المدينة.

٥-الحاسوب وأقراص الليزر (CD) .

يمكـن الإفـادة مـن الحاسوب في كتابة الرسائل الدعوية وإرسالها، وكتابة الكتب والمـؤلفات الدعـوية وإعدادها للطباعة ونحو ذلك، ويمكننا الحديث في تطوير استخدامه الدعوي في أهم منتجاته أو مخرجاته في صورة:

-أقراص الليزر (CD):

ويمكن الإفادة منها في تطوير منهج الدعوة بالآتي:

أ-أن تقوم هيئات الدعوة والإرشاد بإنتاج اسطوانات توزع على الدعاة تشمل:

١-مكتبة إسلامية متكاملة لخدمة الداعي.

٢-الموضوعات والقضايا الإسلامية المعاصرة.

٣-أهـم الخطـب العـصرية الـتي ينبغي أن يطرحها الدعاة مع الخطب التقليديـة (مكتوبـة).

٤-خطب أهم الدعاة والمشايخ المشهورين الذين ينبغي احتذاء أسلوبهم ومنهجهم في الدعوة إلى الله (مكتوبة ومسموعة).

٥-توزيع هذه الاسطوانات على الدعاة بالمجان.

٦-البريد الإلكتروني.

ويمكن تطوير الإفادة منه بالآتي:

إرسال الرسائل بالبريد الإلكتروني (الإميل E-mail) عبر شبكة الإنترنت في المناسبات

الدينـــية إلى الشخصيات السابق ذكرها تهنئهم بالمناسبة، وتذكرهم فيها بتحديد العهد مع الله تعالى.

ويمكن إرسال مثل ذلك بالفاكس أو البرق أو البريد العادي.

إرسال الإصدارات الجديدة من أشرطة الكاسيت أو الفيديو أو الــCD الاسطوانات الإلكترونية المضغوطة لأهم الدعاة المؤثرين في الأمة في صورة هدايا مجانية مع كروت تحية أو مـــا شابه ذلك للشخصيات المهمة الذين سبق الإشارة إليهم ويمكن إرسال ذلك كله مكتوبا ومقروءًا عن طريق النت والبريد الإلكتروني.

إرسال الإصدارات الجديدة من الكتب والرسائل الصغيرة المؤثرة لأهم الدعاة المؤثرين في صورة هدايا كذلك للشخصيات المذكورة.

٤-إرســـال التوجـــيهات والنـــشرات والدوريات والأخبار الدعوية الهامة كأخبار المســابقات الدينية وخلافه للعاملين في الدعوة عن طريق البريد الإليكتروني.

٥-إرسال بطاقات التعارف والدعوة الدينية للشخصيات الهامة.

٦-إرسال بطاقات التهنئة والتذكير بالاستقامة للشخصيات الهامة.

رابعًا: الوسائل التخطيطية

ويشمل المباحث التالية:

١-التخطيط بين السرية والجهرية

٢-التخطيط بين الفردية والجماعية

ويشمل الأشكال التالية:

أ-دعوة الفرد للفرد.

ب-دعوة الفرد للجماعة

وتنقسم للأشكال التالية:

١-الجلسة أو المحادثة.

٢-المحاضرة.

٣-الخطبة.

٤-الندوة.

٥-المؤتمر...إلخ.

ج-الدعوة الجماعية والعمل الجماعي:

ويشمل المباحث التالية:

(أ)مشروعية العمل الجماعي والدعوة الجماعية.

(ب)أصول العمل الجماعي وشروطه وضوابطه.

(ج)صوره وأشكاله المقترحة في الواقع المعاصر.

٣-الدعوة بين التدرج والتسرّع.

ويشمل:

أ-التوفيق بين كمال الشريعة والتدرج في التبليغ.

ب-الدعوة إلى التدرج من منطلق الحكمة.

ج-التدرج لا يعني كتمان الدين.

د-لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

هـ-التدرج في الفروع لا الأصول.

و-خطر الاستعجال في الدعوة إلى الفروع.

ز-الدعوة إلى الأهم فالأهم.

ح-مقياس الأهمية نصوص الشريعة.

٤-الدعوة بين الإجمال والتفصيل.

٥-الدعوة بين المقامية والانتقالية.

أ-الدعوة المقامية.

ب-الدعوة الانتقالية (ميادين الدعوة).

١-المساجد.

٢-الأندية.

٣-أماكن العمل.

٤-قوافل الدعوة.

٥-القري والمدن المجاورة.

٦-الدعوة خارج القطر.

أولاً: التخطيط بين السرية والجهرية:

لا نقصد بالسرية هنا أن يتحول الدعاة إلى خفافيش يخفون دعوتهم ويسّرون بها من وراء الظلمات.

فمثل هذه الدعوات السرية لا تكون دعوة شريفة في غالب الأمر بل لم يعرف تاريخ العالم -في الغالب- فن تلك الدعوات السرية إلا ما يخفي وراءه الشر والغدر ولا تكون الدعوة ذات سرية مطلقة إلا إذا كانت دعوة هشة لا تملك من الحجج والبراهين ما يمثل قناعة لدى عقلاء البشر ومنصفيهم ممن يبتغون الحق وينشدونه؛ لذا فهي تخفي عقائدها وأفكارها وتجعلها قاصرة على طائفة معينة من السذج أو ذوي الأطماع والحاجات الذين وجدوا في هذه الدعوة السرية سبيلا إلى تحقيق مطامعهم.

ولذا فنحن نحذر بشدة شباب المسلمين من ترك سبيل الدعوة الواضحة البينة الساطعة

على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، واتباع ما عدا ذلك من الدعوات السرية التي يسيطر فيها شخص ذو طبيعة خاصة على مجموعة من الأفراد غالبا ما يكونون من الشباب المتعجلين لتغيير واقعهم بلا حكمة ولا روية[1].

فالدعوة الإسلامية لا تعرف السرية المطلقة، فالسرية فيها تكون جزئية لبعض الأمور، ولا يشمل ذلك بالطبع المفاهيم الأساسية للعقيدة إلا في حالات التعرض للهلاك المحقق بسبب إظهار تلك العقيدة، وقد تكون السرية مرحلية في وقت دون وقت في بعض الأمور لا في الأمور كلها.

فقد رأينا كيف بدأ النبي ﷺ بالدعوة إلى الإسلام سرًّا في السنوات الثلاث الأولى، وكان ذلك موافقًا تمام الموافقة لحال الدعوة في هذا الوقت حيث كان يخشى أن يطلع صناديد الشرك على أمر الدعوة فيقضوا عليها وهي في مهدها.

فلما اشتد ساعد الدعوة وقوي عودها جهر النبي ﷺ بدعوته حيث أصبح لها من الأتباع والأنصار ما يأمن به استئصال شأفة الإسلام والمسلمين.

وإذا أردنا أن ننظر في تطبيق هذه الوسيلة التخطيطية في واقعنا المعاصر، فإننا ينبغي ألا نخدع بأن الإسلام قد ملأ ربوع الدنيا من مشرقها إلى مغربها، وأن عدد المسلمين اليوم يقدر بالمليارات؛ ففي الحقيقة أن هذه مظاهر خادعة، فالمقياس لا يكون أبدًا بالكثرة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الأمم سوف تتداعى على المسلمين كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها وهم مع ذلك كثير، ولكن كثرة كغثاء السيل[2].

وفي ضوء ما سبق عرضه من المؤثرات الخارجية والداخلية على مسيرة الدعوة الإسلامية اليوم، وفي ضوء هيمنة العولمة، وسيطرة الإمبراطورية الأمريكية على العالم عامة، وعلى الشعوب العربية الإسلامية خاصة، يتبعها في ذلك قوى الشر العالمية الذين

---

(١) لنا في تفصيل هذه النقطة رسالة بعنوان: "تحذير البرية من آفات الدعوة السرية" يسّر الله طبعها وإخراجها.

(٢) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود من حديث ثوبان مرفوعًا بسند صحيح وفيه أن رسول الله ﷺ قال: "يوشك أن تتداعى...." الحديث.

استقطبتهم أمريكا أو تحالفت معهم كبريطانيا وغيرها، في ضوء تلك الظروف السياسية والعسكرية الراهنة نستطيع أن نؤكد ما هو واقع ملموس للجميع أن الإسلام والمسلمين صاروا مستهدفين لقوى الشر في العالم أجمع، وأن الإسلام والمسلمين اليوم يواجهون حربا ضروسًا من جهات عديدة من أعداء الإسلام، فما بين يهودية محتلة طاغية، وما بين صليبية حاقدة، أو شيوعية ملحدة على اختلاف جهات تلك الطوائف وتوزعها الجغرافي بين الشرق والغرب.

وأعود فأقول ينبغي على دعاة المسلمين في ظل هذه الظروف الراهنة أن يكون لديهم ما يخفونه وما يحتفظون به لوقته وحينه.

فكما أن النبي ﷺ لم يكن يجهر بعداوة المشركين في مهد الدعوة رغم اتصاف النبيﷺ بالبراءة التامة من الشرك وأهله، ومع ذلك فقد كان النبي ﷺ يداري المشركين فلا يستثير عداوتهم ولا يهيجهم على الإسلام والمسلمين، وإن كان في الوقت نفسه لا يداهنهم ولا يمالئهم على ما هم فيه من الشرك والباطل ممتثلا أمر الله تعالى له: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[1]، فأمره بأن يكون هجره جميلا بحيث لا يستثير عداوة أعدائه.

فرغم الوضوح في الدعوة والمفاصلة التامة للمشركين ظهرت حكمة النبي ﷺ في عدم استثارة عداوة المشركين وغيرهم من أحزاب الكفر في مواضع عديدة كما سبق بيان ذلك[2].

---

(١) المزمل:١٠، وفي تفسير الهجر الجميل، قال ابن كثير فيه: "هو الذي لا عتاب معه"، ومعنى ذلك أنه ليس فيه مؤاخذة لهم ولا مناقشة، ولا استثارة لحميتهم وعداوتهم، وذلك إذا ما تبين للداعي تمام صدهم عن دين الله تعالى، وعداوتهم لأتباعه بحيث لا تفلح معهم هداية، ولا تنفعهم مناقشة ولا مناظرة، ولا يجدي معهم أخذ ولا رد، وذلك كما قال تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ حيث دل بمفهومه على وجوب ترك التذكرة لهم إن لم ينفع التذكير والوعظ، والله تعالى أعلم.

(٢) راجع فصل معالم منهج الدعوة في ضوء الكتاب الكريم والسنة النبوية.

فكــذلك ينبغي أن تتخذ الدعوة المعاصرة الأسوة في ذلك في واقعنا المعاصر فلا تهيج قــوى الشر عليها، بل يكون لديها من الحكمة ما تعرف به ما تسر وما تجهر، وما تخفي وما تعلن، وما يصلح أن يتكلم به الآن، وما ينبغي أن يؤخر إلى حين.

ثانيا: التخطيط بين الفردية والجماعية:

قد تقتضي الدعوة شكلا من الأشكال السابقة:

أ-دعوة الفرد للفرد:

فقد يصادف الداعي شخصًا ما يطلب هدايته، أو يعرض عليه شبها تعرض له وتحول دون هدايته، وهذه الشبه قد تكون يسيرة، وقد تكون قوية قد استحكمت بهذا الشخص واستقرت لديه.

ففــي مــثل هذه الحالة لابد للداعي أن يدرس جيدًا حال هذا المدعو من حيث فكره وثقافته ونوع الشبه التي ألمت به، ومن حيث ميوله واتجاهاته النفسانية بحيث يتخير أقرب المــداخل إلى قلــبه وعقله، ويتخير الأسلوب وطريقة الحوار التي تناسبه من حيث التركيز على الناحية العقلية العلمية التأملية، أو القلبية الوجدانية العاطفية، ونحو ذلك.

ب-دعوة الفرد للجماعة:

على القائمين على الدعوة في هذه الحالة أن ينظروا في اختيار أفضل الأشكال المناسبة لدعــوة هــؤلاء الجماعة من حيث عددهم وثقافتهم وطبيعة الموضوع الذي تم التحدث بصدده ونحو ذلك.

١-الجلسة أو المحادثة:

فــإذا كان العدد قليلاً بين الثلاثة ودون العشرة فالأمر "يحتاج لأكثر من جلسة يتخير لهــا المكان المناسب ليأخذ الحوار شكل المحادثة الأخوية الهادئة بغية الوصول إلى الحق في موضــوع ما يرجى دعوة هؤلاء الأشخاص إليه، أو لترغيبهم في الإسلام والالتزام به على العموم وعرض محاسنه وبيان فضائله، ولكن لا يتحتم اختيار هذا الشكل (الجلسة) إلا إذا كان هناك موضوع خاص لهؤلاء الأشخاص.

٢-المحاضرة:

فإذا كان العدد أكثر من ذلك وكان الموضوع عاما فالأنسب لذلك أن تكون محاضرة، فالمحاضرة إنما تكون في الموضوعات العامة التي تخص المسلمين كافة، أو تخص قطاعا كبيرًا منهم، مثل قطاع طلاب الجامعة، أو قطاع التجاريين، أو المهنيين، أو الفلاحين أو الشباب أو النساء...إلخ.

٣-الخطبة:

ولها مواضع محددة، منها:

أ-خطبة الجمعة والعيدين حيث تكون فرضا لازمًا.

ب-المناسبات الحماسية الخاصة التي تحتاج إلى إلهاب مشاعر الجماهير وحثهم على أمر ما.

وتحتاج الخطبة إلى جمهور كبير أو قطاع معين من الناس يراد إثارته وتوجيهه لعمل خيري معين.

٤-الندوة:

المتعارف عليه أن الندوة اصطلاح لاجتماع جماعة من الناس في مكان ما للحديث حول موضوع معين، والإجابة على ما يثار حوله من تساؤلات.

وهذا الشكل من أشكال الدعوة يكون أكثر مناسبة حينما تكون هناك قضية ما تثير العديد من التساؤلات، أو تثور حولها الشكوك والشبهات، فيتم استضافة عالم أو أكثر في مكان ما (مدرسة- جامعة- قطاع عمال...إلخ) للحديث حول هذا الموضع والإجابة على تساؤلات الناس حوله.

وهذا الشكل مفيد جدًّا بالنسبة لقضايا الشباب وما يعتريهم من الشكوك والشبهات حول كثير من القضايا.

٥-المؤتمر:

يطلق هذا الاصطلاح على اجتماع عدد من العلماء والمشايخ والباحثين لكي يدلوا بآرائهم وأطروحاتهم وأبحاثهم حول موضوع من الموضوعات التي يثار حولها الجدل، وتحتاج الأمة إلى كلمة حاسمة فيها، يلتقي فيها العلماء أو جمهورهم على كلمة سواء،

وهــذا الشكل له أهمية كبيرة لتصفية الخلافات بين علماء الإسلام ودعاتهم، ولكي تظهر كلمة الدعوة أكثر اتحادًا واتفاقًا فيكون لها قبول أكبر، حيث إن اختلاف العلماء والدعاة كثيرًا ما يكون سببًا من أسباب نفرة الكثير من العامة ومن يستفزهم الشيطان نحو الباطل فيـــتخذون مـــن اختلاف العلماء والدعاة ذريعة يحتجون بها عليهم ويدعون وقوعهم في الاضطراب والبلبلة فينصرفون عن العمل بسبب ذلك بزعمهم.

هــذا فــضلا عـــن أن اتحاد علماء المسلمين ودعاتهم ييئس أعداء الإسلام الحاقدين والمتربــصين به من الطمع في إثارة الفتن والقلاقل والبلابل بين العامة والعمل على تفريق الصف.

ج-الدعوة الجماعية والعمل الجماعي:

مقدمات:

١-ينبغي التفريق أولا بين العمل الجماعي والعمل في جماعة؛ فالعمل الجماعي بشروطه وضوابطه التي سيأتي بيانها لا يمكن تركه أو الاستغناء عنه بحال ما بقي مسمان على ظهر الأرض، وذلك لأن من العمل الجماعي صورًا مفروضة على المسلمين يجب عليهم القيام بها جماعة كالصلاة والحج ومن ثم لا يمكن ترك العمل الجماعي أو القول ببطلانه؛ وذلك لأن الاجتماع على الأعمال الصالحة كالصلاة والحج والجهاد والتعلم، وتدبير شئون المسلمين، وإقامة فروض الكفايات اللازمة لدينهم ومعاشهم وغير ذلك من الأمور التي يلزم الاجتماع لإقامتها وإيجادها، إن لم يقم بها وليّ الأمر أو إن لم يكن للمسلمين وليٌّ يهتم بإقامة تلك الأمور.

أما العمل في جماعة من الجماعات الحالية الموسومة بالتعصب وتفريق أمر المسلمين، وكذلك كل عمل جماعي يتعصب له أتباعه ويجعلونه سببًا لتفريق الأمة فكل ذلك لا يجوز الانخراط فيه بل الواجب على المسلم هو اعتزال تلك الجماعات والأحزاب والفرق المتعصبة لأفكارها وآرائها والتي فرقت المسلمين وفرقت دينهم وجعلتهم شيعا وأحزابًا[1]، وقد نعى الله تعالى لنبيه ﷺ قوما فرقوا دينهم وكانوا شيعا وأخبر ببراءته ﷺ منهم تمام البراءة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

٢-واقع الأمة الإسلامية اليوم أنها متفرقة فرقًا وأحزابًا وجماعات؛ منها ما كان سبب تفرقها الضلال والابتداع مثل الفرق القديمة (الروافض، الإباضية، الأشاعرة، الماتريدية.... إلخ)، ومنها ما سبب تفرقها التمسك بما يختلف عليه من الفروع، مثل ما يطلق عليه الجماعات الإسلامية وهي في الغالب سنية مثل (السلفية، الإخوان المسلمون، السلفية

---

(١) راجع في ذلك كتابنا: دراسات حول الجماعة والجماعات ط. مكتبة الصحابة- جدة، التابعين- القاهرة، حيث أطلت النفس في بيان بطلان الانضمام إلى شيء من تلك الجماعات الحالية بالأدلة الكثيرة المتضافرة.

الجهادية، التبليغ والدعوة، حزب التحرير...... إلخ).

٣-لا يجوز أن يتقد حزب من الأحزاب أوتجتمع جماعة من الجماعات على عمل يؤثر في مصير الأمة غير مجمع عليه ولا اتفق على هذا العمل جمهورهم ولا سوادهم الأعظم؛ بل لا يجوز التحالف والتعاقد -إن جوزناه- إلا في المتفق على جوازه فقط لا في المختلف عليه، ومع ذلك فالواقع أن الأحزاب والجماعات انعقدت على المختلف عليه.

٤-إذن فالدخول في أي من هذه الجماعات ليس هو الصورة الصحيحة لالتزام جماعة المسلمين في معناها العضوي الواقعي، ولا تمثل أي من هذه الجماعات جماعة المسلمين ولا تقوم مقامها.

٥-أمامنا ثلاث طرائق للتعامل مع هذه الجماعات:

الأولى: نقضها وتفكيكها جميعًا لصالح إقامة جماعة المسلمين الواحدة (الأم) ويسبق ذلك اعتناق فكرة النقض هذه والمناداة بها والعمل على تحقيقها ومن ثم عدم الانخراط في أي منها واعتزالها جميعًا.

الثانية: النصح لها بالتخلي عما تخالف فيه (ما ليس محل إجماع من الأمة)، أو على الأقل عدم السعي لإلزام الناس به مع اعتراف كل جماعة بالأخريات والتواصل والتكافل بينها جميعًا، وعدم تحقير جماعة لما تقوم به أخرى من عمل خير وبر وجهاد وعلم يفيد الإسلام والمسلمين.

الثالثة: أن تبقى الحال كما هي عليه من قيام الجماعات واستقطاب كل جماعة من تستطيع من المسلمين إليها، وأن تتناحر فيما بينها وتتهم بعضها بعضًا وتحقر كل جماعة من أعمال الأخريات، وحينئذ تظل هذه المشكلة قائمة وتظل الجماعات حجر عثرة في سبيل قيام جماعة المسلمين الموحدة (الأم)، ولما كان هذا لا يجوز فإذن ليس من حل سوى أحد الاثنين الأولين.. تفكيك هذه الجماعات، أو التواصل والتكامل فيما بينها واعتراف كل واحدة بالأخريات، والآن وبعد أن فرقنا بين العمل الجماعي والعمل في جماعة نريد أن نلقي الضوء على أدلة مشروعية العمل الجماعي وشروطه وضوابطه كي لا يتحول إلى

الصورة المرفوضة التي عليها الجماعات الحالية.

أولاً: مشروعية العمل الجماعي:

سبق أن ذكرنا أن العمل من خلال الجماعات القائمة في الأمة المسلمة ليس هو الصورة المثلى التي ينبغي أن يكون عليها العمل للإسلام فهل ثمة صورة بديلة عن هذه الجماعات المتنافرة المتناحرة؟ وما حكم العمل الجماعي في وسط هذا الواقع الذي تغلب فيه الأهواء ويسوده التنازع؟

أولا: الأدلة على مشروعية العمل الجماعي:

١-حاجة الأمة الإسلامية للعمل والتعاون لإقامة الواجبات الجماعية التي فرض الله تعالى على الأمة القيام بها كالصلاة والحج والجهاد ونصب الأئمة والتعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصناعات ونحوها من فروض الكفايات وغير ذلك.

٢-وجود نصوص شرعية من الكتاب والسنة تحث على العمل الجماعي منها على سبيل التمثيل لا الحصر، قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، وقوله ﷺ : "يد الله على الجماعة"، وغير ذلك الكثير من النصوص ومن مواقف السلف الصالح التي تدل على ضرورة الاجتماع وترك التفرق في العمل لدين الله تعالى.

ب-شبهات القاعدين وردها:

١-النصوص الدالة على العزلة كحديث أبي ثعلبة الخشني في تفسير قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، قال ﷺ: "مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحًا مطاعًا وهوىً متبعًا، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك والزم خاصتك وأهلك"، وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص: "تأخذون ما تعرفون وتدعون ما تنكرون وتقبلون على أمر خاصتكم وتدعون أمر عامتكم"، وحديث حذيفة: "فاعتزل تلك الفرق كلها"..

الرد: يقال للمستدل بهذه النصوص وأشباهها: هي حجة عليكم لا لكم؟ ألا ترى إلى قوله ﷺ: "مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر" يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يستيقن المرء ألا مجيب له: فإن قيل هذه النصوص تشير إلى زمن يجوز فيه ترك الأمر والنهي. قلنا ليس هذا بزماننا. فلا نسلم بأن الإعراض والفساد قد أطبق الأرض،

وإنمـــا هما في مكان دون مكان، فإن قلتم حدث ذلك في ديارنا قلنا وجب قبل ذلك بذل الجهـــد في الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للناس حتى إذا تأكدنا من وقوع الإعراض الذي يسوغ اعتزالهم اعتزلناهم.

-وزمان الغربة لا يعني ترك العمل الجماعي والتعاون على البر والتقوى لأمرين:

الأول: أنـــنا وإن ســـلمنا بأننا قد صرنا إلى زمن الغربة التامة الذي يسود فيـــه "شح مطـــــاع وهـــوى متـــبع ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه" وسلمنا بشـــيوع الإعـــــراض وغلبة الفساد على العباد والبلاد، فإننا لا نُسلم بأن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعـــروف والنهـــي عن المنكر الذي هو علة خيرية هذه الأمة لا نسلم أنه صار غير جائز وذلك لأمور:

أولاً: أن ســـقوط الوجوب لا يعني سقوط الأمر نفسه، بل يكون قد رفع الحرج فيه نظرًا لما يلاقي الداعي في هذا الزمان من عنت وشدة، إلا أنه يبقى بعد ذلك مشروعًا، بل يبقـــى فضيلة لصاحبه وشرفًا وذخرًا له في الآخرة، وجهادًا يتقرب به إلى الله لأنه إن كان ســـبب سقوط الوجوب عنه هو مظنة العنت والشدة وعدم الانتفاع بالذكرى، إن كان هذا هو السبب فنقول إن الشرع قد استحسن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر أيـــضًا في هذه الحالة، وإن كان قد أسقط الوجوب رفعًا للحرج وذلك كما في حـــديث "ســـيد الـــشهداء حمـــزة بن عبدالمطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقـــتله"[1]؛ فهذا يكون سيد الشهداء رغم أنه يغلب على ظنه أن سيؤذى أو يقتل وأنه لن يستجاب له، ومع ذلك فالبلاغ مستحب له إقامة لحجة الله على عباده.

ثانـــيًا: لا نسلم بأن وجوب البلاغ يسقط عن الكافة، بل إنه يبقى فرض كفاية على القـــادرين عليه إذا قام به البعض سقط عن الباقين، فإن لم يقم به أحد أثم جميعهم وذلك لـــتعين الـــبلاغ على العالم به من الأمّة وإن لاقى في سبيله ما يلاقي فإن دين الله يُفتدى بـــالأنفس والمُهـــج وبالغـــالي والرخيص، ولذا أوجب الله القتال على الأمة وفيه إهلاك

---

(١) أخرجه الحاكم ٣/١٩٥ وغيره، وصححه الألباني في الصحيحة ح/٣٧٤.

النفوس، فيجب الانتباه إلى أن جواز (السكوت عن قوة أهل الفجور وأذاهم للناهي إنما يقتصر على العامة من المستضعفين، وأما الدعاة والقادة والعلماء فيأخذون بالعزيمة، ويصدعون بالحق وإن لحقهم الأذى والعذاب والموت، كما بينه ابن تيمية وكما بينه غيره. وكما كانت سيرة الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- في أيام محنة خلق القرآن).

ثالثًا: إذا سلمنا بسقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن المسلم إزاء عامة الناس المعرضين عن دين الله تعالى علمًا وعملاً، فلا نسلم بسقوط ذلك عنه تجاه إخوانه وخاصته الملتزمين بدين الله تعالى علمًا وعملاً.

أما الأمر الثاني الذي لا يجوز لأجله سقوط العمل الجماعي في هذا الزمان فهو:

أنه على فرض شيوع الفساد والإعراض فلن تكون -مع ذلك- أنت المسلم الوحيد الملتزم بدين الله تعالى حينئذ بغير شح مطاع ولا هوى متبع ولا دنيا مؤثرة ولا إعجاب برأيك، بل نقول إنك لابد أن تجد لك في هذا الزمان أشباهًا لك ونظراء في ذلك وإن كانوا قلة إلا أنهم هم خاصة ذلك الزمان الواجب عليك لزومهم والتعاون معهم على البر والتقوى في عمل جماعي مشروع لا يفرق أمر الأمة.

ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: "والزم خاصتك" وذلك في حديث أبي ثعلبة الذي قد احتججت به على ترك العمل.

وألا ترى إلى قول النبي ﷺ في حديث عبدالله بن عمرو كذلك "تقبلون على أمر خاصتكم وتدعون أمر عامتكم".

فها هو الحديث نفسه الذي قد احتججت به على ترك العمل الجماعي والتعاون مع إخوانك فيه، يأمرك فيه النبي ﷺ بأن تقبل على خاصتك فتلزمهم وتتعاون معهم على إقامة دين الله تعالى بلا عصبية ولا اختلاف مفرق، وقد جاءت صيغة التكليف خطابًا إلى جماعة المسلمين الذين برئوا من آفات هذا الزمان، وليس خطابًا لمسلم معتزل في شعف الجبال: (تقبلون وتأخذون وتدعون).

هكذا خطاب للجماعة مما يدل على بقاء العمل الجماعي إلى آخر الزمان، لأنه لا معنى للإقبال على الخاصة ولزومهم لزوم الأبدان للأبدان، فلم يكن إلا لزوم المنهج والعمل

والتعاون على كل ما هو بر وتقوى مما لا تفترق عليه الأمّة شيعًا.

-وهـل يعـني اعتزالك الفرق اعتزال الناس والطائفة المنصورة من الفرقة الناجية مع استمرارها؟.. "لا تزال"؟ وقوله: "طائفة" مما يدل على الاجتماع، وقوله: "ظاهرين" الذي لا يتحقق مع اعتزالهم الناس واعتزال الناس إياهم واعتزال بعضهم بعضًا.

٢-الشبهة الثانية:

كـون الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية يخطئ القاعدون في فهمه من وجوه:

أحـدها: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض باتفاق، ولكن مختلف في ما إذا كـان فرضًا على التعيين أو على الكفاية، وإذن ففرضية الكفاية ليست مطلقة ثم إن فرض الكفاية لابد أن يتعين أحيانًا كثيرة.

الـثاني: مع التسليم بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فـرض عـلى الكفايـة وهـي حجـة القاعدين فشرط الخروج من عهدة الفرض الكفائي حصول الكفاية بمن يقـوم به ولما كانت الكفاية غير حاصلة فيجب أن يقوم بهذا الواجب كل مسلم حسب قدرته"[1].

الـثالث: أن الدعوة إلى الخير -وأعلاها الدعوة إلى الله- واجبة على كل مسلم بقدر اسـتطاعته... قـال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

٣- الـشبهة الثالثة: أن الدعوة مختصة بالعلماء دون غيرهم: (ولاشك أن الدعوة إلى الخـير وأعلاها: الدعوة إلى الله، مشروط لها العلم، ولكن العلم ليس شيئًا واحدًا لا يتجزأ ولا يتـبعض، وإنمـا هو بطبيعته يتجزأ ويتبعض، فمن علم مسألة وجهل أخرى فهو عالم بالأولى جاهل بالثانية، ومعنى ذلك أنه يعد من جملة العلماء بالمسألة الأولى، وبالتالي يتوفر

---

(١) عبدالكريم زيدان: "أصول الدعوة" ص(٢٧٥)، دار الوفاء ط. ١٩٨٧م، مصر.

(٢) يوسف:١٠٨.

فيه شرط وجوب الدعوة إلى ما علم دون ما جهل، ولا خلاف بين الفقهاء أن من جهل شيئًا أو جهل حكمه أنه لا يدعو إليه، لأن العلم بصحة ما يدعو إلى الله بالقدر الذي يعلمه كما سنبينه فيما بعد، ويكون هذا المعنى هو المقصود من قولهم إن الدعوة تجب على العلماء لا على غيرهم. أي على من يعلم المسألة وحكمها التي يدعو إليها، سواء كان من عامة المسلمين أو ممن نال حظًا كبيرًا من العلم. وبهذا يظهر فساد قول من قال: إن المقصود بالعلماء هم الذين نالوا حظًا كبيرًا من العلم دون سواهم، وقد يسمونهم برجال الدين، لأن هذه التسمية تصدق على كل مسلم، فهو من رجال الإسلام، وليست مقصورة على فئة منهم)[1].

ثانيًا: أصول وشروط العمل الجماعي:

أولا: أن يكون المجتمعون على منهاج النبوة لا غير على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في العقيدة والمنهج والخلق والعمل جميعًا (وأن يلزموا ما أجمع عليه المجتهدون من أهل السنة والجماعة).

ثانيا: أن يكون العمل في كافة صوره مع خاصة تجردت من آفات أهل هذا الزمان من شح مطاع وهوى متبع ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه.. وغير ذلك، والتي من شأنها أن تعوق العمل الجماعي أو تحول دون ثمرته.

لذا فقد وجب أن يكون العمل مع خاصة تتصف بالبراءة من آفات العاملين في هذا الزمان وتتصف بأضداد هذه الآفات من كريم الخلال والصفات لذا يجب التحقق من وجود صفات معينة في الأشخاص الذين يتم اختيارهم للعمل معهم، وهذه الصفات هي:

١-تحقق صفة الانتساب إلى جماعة المسلمين بالالتزام بدين الله تعالى علما وعملاً.

٢-عدم التعصب لحزب أو جماعة أو شيخ أو رأي أو عمل يفارق فيه جماعة المسلمين فإن ذلك كله دعوى الجاهلية[2].

---

(١) السابق ص(٢٧٤).

(٢) انظر كلام ابن القيم في ذلك ضمن: حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية: بكر بن عبدالله أبو زيد، ط. دار ابن الجوزي بالمملكة العربية السعودية.

٣-أن يتصف بعكس ما غلب على الناس من الشح المطاع وإيثار الدنيا، فيتصف ببذل النفس والمال لدين الله تعالى، والتضحية في سبيله بكل غال ورخيص، وإيثار دين الله تعالى على نفسه وولده وأهله وعشيرته وتجارته ووطنه وطيب عيشه..إلخ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾[1]، وذلك لأن العمل لدين الله تعالى جهاد والجهاد قائم على التضحية والإيثار، فإذا اعتمدنا في العمل على شحيح بنفسه يؤثر دنياه على آخرته فإنه سرعان ما يخذل إخوانه في المهمات ولا يصبر في المحن والملمات فيعرض إخوانه للفشل أو الهلاك.

٤-أن يتصف بعكس ما اتصف به غالب الناس في هذا الزمان من اتباع الهوى وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فيعرف باتباع الحق وإيثاره، والانقياد للشرع وعدم التعصب لرأيه أو عقله أو هواه، غير مفرق لكلمة المسلمين ولا مفارق لجماعتهم، وإلا فإن كان ممن يتبع هواه ويعجب برأيه فإنه سرعان ما يفارق إخوانه عند أول أمر يختلفون عليه، فيفتح بذلك باب الفرقة والشقاق ويهدم صرح الاجتماع والوفاق.

٥-أن يتصف بصفة هامة، وهي محصلة ما سبق من الصفات، وهي هضم نفسه والحط من ذاته والتواضع لإخوانه والذلة لهم، فإن هذه هي صفة القوم الذين يستبدل الله تعالى بهم، ويختارهم لنصرة دينه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

٦-أن يتصف بعكس ما شاع في غالب أهل هذا الزمان من مرج العهود والأمانات فيتصف بأضداد ذلك من حفظ العهد ورعاية الأمانة، وإلا فكيف نأمن على أمرنا ممن لا يحفظ عهدًا ولا يرعى أمانة، فهذا إلى العصيان والتمرد والخذلان أقرب منه إلى الطاعة والانقياد والنصرة.

٧-أن يكون ربانيا له حظ ونصيب من عبادة وزهد وزكاة نفس وورع منضبط

---

(١) التوبة: ٢٤.

(٢) المائدة: ٥٤.

متشرعًا بدين الله تعالى ملتزمًا لأوامره، مجتنبًا لنواهيه، مجاهدًا لنفسه وشهواته.

٨-أن يعــرف بخلال المروءة وخصالها من الجرأة والشجاعة والنجدة والنصرة لإخوانه والثبات في الحق والصبر في جهاد الأعداء؛ وذلك لأن الجبان المتخاذل لا يصلح أن يعتمد علــيه في عمل قد يعرض فيه إخوانه للخطر بسبب تخاذله وقلة ثباته في الحق، وذلك لأن الدعوة إلى الله تعالى جهاد في سبيله، والجهاد بحاجة إلى الجريء الشجاع.

٩-أن يكــون عــاقلا ناضــجًا ليس غرًا ولا طائشًا ولا مغفلا لأن مــن لم يكــن كــذلــك، كانت مضرته ومفسدته أكثر من نفعه وكان مضرًا لإخوانه وقد يكون سببًا في هلاكهم.

١٠-أن يكــون حكيمًا حليمًا له حسن مداخلة في الأمور، فإن هذه الصفة رأس مال الدعــوة حيث قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

فهذه أهم الصفات التي وجدنا في كتاب الله وسنة رسوله وكلام أهل العلم والدعوة مما ينبغي مراعاتها فيمن يختار للعمل معه لنصرة دين الله تعالى وإقامته.

ثالــثًا: ألا يكون اجتماعهم على أصول أو أفكار أو مبادئ أو رأي أو اجتهاد أو عمــل يفارقون به جماعة المسلمين ويخالفون به سوادهم الأعظم من أهل الحل والعقد، ســواء كان ذلك في المنهج والاعتقاد أو كان ذلك في الرأي والحرب والمشورة، (لذا فهم لا يقدمــون على عمل شيء قبل عرضه على أهل الحل والعقد والتأكد من اجتماعهم أو اتفاق جمهورهم عليه).

رابعًــا: أن يجــتمعوا على أنهم مجموعة من المجموعات العاملة لدين الله تحت جماعة المــسلمين العامة وليــسوا هم وحدهم جماعة المسلمين، لذا فهم لا ينكرون على الخارج عــنهم فلا يكفرونه ولا يأثمونه، لأنهم لا يرون مجموعتهم لازمة لأفرادها ولا لغيرهم من المسلمين.

---

(١) النحل: ١٢٥.

خامسًا: ألا يجعلوا لأفراد العمل تميزًا عن غيرهم ممن ليس في هذا العمل، بحيث لا يكون للحليف منزلة أعلى من غير الحليف من جهة المحبة والولاء والنصرة.

بحيث لا يكون للحليف منزلة أعلى من غير الحليف من جهة المحبة والولاء والنصرة.

فلا منازعة في أن البيعة التي يعقد أصحابها الولاء والبراء على أساسها فيكفرون من عاداهم أو يدعونه، ويفرقون بها كلمة الأمة بيعة مردودة باطلة باعتبار ما أفضت إليه من هذه المفاسد، وقد تقرر في الأصول أن للذرائع حكم المقاصد حلا وحرمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدًا بموافقته على كل ما يريده؛ وموالاة من يواليه؛ ومعادة من يعاديه؛ بل من فعل هذا كان من جنس جنكيز خان وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم صديقًا وليا، ومن خالفهم عدوًا باغيا؛ بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله؛ ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله؛ ويحرموا ما حرم الله ورسوله؛ ويرعوا حقوق المعلمين كما أمر الله ورسوله)[1].

سادسًا: ألا يتعصبوا لشيخهم أو لجماعتهم أو لأعمالهم التي يعملونها بل لا يبالون أن يعمل المسلم عملا جماعيا مع أي فريق من إخوانه الراشدين ممن لزموا ما عليه جمهور الأمة و لم يفرقوا كلمتها.

وعليهم ألا يتعصبوا لآرائهم بأن يستمعوا لآراء المخالفين لهم بغرض الوصول إلى الحق والاجتماع عليه، فإن اجتمعت الكلمة فيها ونعمت، وإلا فليدعوا ما اختلفوا فيه، وليقفوا عند ما اجتمعت عليه كلمتهم.

هذا وقد بلغت آثار هذا الداء -داء التعصب- في الجماعات الحالية اليوم مبلغًا خطيرًا فالناظر إلى أحوال كثير من المسلمين اليوم يرى كيف يستبيح الواحد لنفسه أن يشهد بالزور ويستحل الظلم في حق من يخالفه الرأي وهو من أهل دينه وملته، ويشهد بالباطل

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، وابنه محمد، ط. دار الرحمة للنشر والتوزيع، بالقاهرة.

حمـــية لمن يحبه، وهذا المرض للأسف منتشر بين كثير من منتسبي الجماعات الإسلامية فإنه يحملـــهم التعصب لجماعاتهم على المحاباة لها، والشهادة لها بالزور واستحلال الكذب على الجماعـــات المنافـــسة أو المخالفة، ونادرًا ما تجد من يشهد بالحق، وهذا من الأمور التي زهـــدت كـــثيرًا من الناس في الانضمام إلى جماعات الدعوة، واتخذها بعض الكُتّاب دليلا على تحريم العمل الجماعي)[1].

سابعًا–ألا ينكروا ما مع غيرهم من الحق والعمل المشروع، ولا ينكروا فضلهم وما يقدمـــونه للأمـــة، مـــن خير، بل يثنون على المحسن في إحسانه، وينصحون للمسيء في إســـاءته، ولا يمـــنعون من مشاركة غيرهم في أعمالهم المتفق عليها بين الأمة، ما أمكنهم ذلك.

وهـــذا أمـــر طبيعي ونتيجة طبيعية لترك التعصب لعمل بعينه، بل إن التعصب لصورة معيـــنة مـــن صور العمل حتى تغلب على صاحبها ويعرف بها مع تقصيره فيما عداها من صور العبودية يعد آفة من آفات العبودية كما بينه ابن القيم –رحمه الله، وسيأتي كلامه في الـــنقطة المقـــبلة– كمـــا أن هذه الصورة المقيتة من صور التعصب الداعية لإنكار ما مع الآخرين من الحق، هو من سمات الفرق الضالة من أهل الكتابين من قبلنا، وقد استفاضت الـــنصوص بالنهي عن مشابهتهم، وقد كان ذلك بسبب هلاكهم، لأنه كان سببًا لسخط الله تعالى عليهم ولعنه إياهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– بعد ذكره للآيات والأحاديـــث الناهـــية عن مشابهة أهل الكتاب فيما كانوا عليه من التفرق والاختلاف: (روى الـــنزال بن سَبرة عن عبدالله بن مسعود قال: سمعت رجلا قرأ آية؛ سمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى النبي ﷺ، فذكرت ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: "كلاكما محسن، ولا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا" رواه مسلم.

نهى النبي ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من

---

(١) أصول العمل الإسلامي– عبدالرحمن عبدالخالق– (ص٢١).

الحــق؛ لأن كــلا القارئين كان محسنًا فيما قرأه، وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا)[1].

أمــا من تقدم واجتهد في عبادة من العبادات مع تحقيق الحد الأدنى من سائر العبادات الــتي كلفه الله تعالى بها مع عدم إنكاره على مخالفه في عبادة مشروعة أو عمل مشروع، فهــذا لا يــلام وإنما اللوم على من غلبت عليه عبادة أو عمل ما مع تقصيره في غيره من الواجبات التي كلفه الله تعالى بها حتى يعرف بتلك العبادة وحدها التي برع فيها أو يعرف بــذلك العمــل وحده مع تقصيره في غيره، والحق أن المسلم الذي يلتزم بالدين من جميع جوانــبه يكون حاله في ذلك مشابهًا لحال سلفه الصالح مع مخالفيهم، فيصبح (على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبدالرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه حيث يقول عن حاله في رحلاتــه الكــثيرة: أكثر من لقيت بها موافقًا أو مخالفًا، دعاني إلى متابعته على ما يقوله، وتــصديق قوله والشهادة له، فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت له ذلك -كما يفعله أهــل هذا الزمان- سماني موافقًا وإن وقفت في حرف من قوله أو في شيء من فعله سماني مخالفًــا، وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد، سماني خارجيا، وإن قرأت عليه حديثًا في التوحيد سماني مُشبها، وإن كان في الرؤية سماني سالميا، وإن كان في الإيمــان سمــاني مرجئيا، وإن كان في الأعمال، سماني قدريا، وإن كان في المعرفة سماني كــراميا، وإن كــان في فــضائل أبي بكر وعمر، سماني ناصبيا، وإن كان في فضائل أهل البــيت، سمــاني رافضيا، وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما، سماني ظاهريا، وإن أجبت بغيرهما، سماني باطنيا.

وإن أجــبت بتأويل، سماني أشعريا، وإن جحدتهما، سماني معتزليا، وإن كان في السنن مــثل القــراءة، سمــاني شفعويا، وإن كان في القنوت -يريد القنوت في الوتر دائمًا، أما القنوت في صلاة الصبح، فالشافعية هم الذين يلتزمونه- سماني حنفيا، وإن كان في القرآن، سمــاني حنبلــيا، وإن ذكــرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار -إذ ليس في

(١) شيخ الإسلام: اقتضاء الصراط المستقيم- (ص٣٠ ط دار التراث).

الحكم والحديث محاباة –قالوا: طعن في تزكيتهم...، ثم أعجب من ذلك أنه يسمونني فيما يقـــرعون علـــي من أحاديث رسول الله ﷺ ما يشتهون من هذه الأسامي؛ ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من الله شـــيئًا. وإن مستمـــسك بالكتاب والسنة وأستغفر الله الذي لا إله إلا الله وهو الغفور الرحيم).

قـــال الشاطبي: (هذا تمام الحكاية فكأنه –رحمه الله- تكلم على لسان الجميع. فقلما تجـــد عالمًا مشهورًا أو فاضلا مذكورًا، إلا وقد نبذ بهذه الأمور أو بعضها، لأن الهوى قد يـــداخل المخالف، بل سبب الخروج عن السنة الجهل بها، والهوى المتبع الغالب على أهل الخلاف، فإذا كان كذلك حمل على صاحب السنة أنه غير صاحبها، ورجع بالتشنيع عليه والتقبيح لقوله وفعله، حتى ينسب هذه المناسب)

ثامنًا–ألا يتميزوا عن جماعة المسلمين العامة باسم أو رسم أو شعار ما لم يكن ذلك علـــى ســـبيل التناسق والتعاون والتآلف والتعاضد، ولا يكون ذلك إلا باجتماع كلمة هـــذه المجموعات والجماعات على متبوع مطاع يوزع عليها أعمالها ويؤلف بينها، فيكون التميز لتقسيم الأعمال والأدوار، فيعرف كل فريق يعمل لا يعارض به غيره، بحيث يكون اختلاف الاسم والشعار دالا على اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

وفي هـــذه النقطة والتي قبلها يقول ابن القيم –رحمه الله- في علامات أهل العبودية: العلامـــة الثانـــية قوله: (ولم ينسبوا إلى اسم) لم يشتهروا باسم يعرفون به عند الناس من الأسماء التي صارت أعلامًا لأهل الطريق.

وأيـــضًا فـــإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد يجري عليهم اسمه، فيعرفون به دون غيره من الأعمـــال. فإن هذه آفة يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها. فإنه يجيب لداعيها علـــى اخـــتلاف أنواعها. فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم. فلا يتقيد برســـم ولا إشـــارة، ولا اسم ولا بزي، ولا طريق وضعي اصطلاحي. بل إن سئل عن شـــيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه قال: الاتباع. وعن خرقته؟ قال: لباس التقوى. وعن مذهـــبه؟ قـــال: تحكـــيم السنة. وعن مقصده ومطلبه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وعـــن

رباطـــــه وعن خانكاه؟ قال ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِـــيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ(٣٦) رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾[1] وعن نسبه؟ قال:

أبـــي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخـــروا بقيس أو تميم

يقـــول الـــشيخ بكر أبو زيد –حفظه الله: (وهذه الفرق: العقدية، والسلوكية، والسياسية تـــساقطت أمام (جماعة المسلمين): أهل السنة والجماعة، الذين درجوا على منهاج النبوة، و لم ينفصلوا عنها ولا لحظة زمنية واحدة لا باسم ولا برسم، فليس لهم شخص ينتمون إليه سوى (الـــنبي ﷺ) ومـــن قفى أثره. وليس لهم رسم ومنهاج سوى: منهاج النبوة (الكتاب والسنة) ولـــيس لهـــم جماعة من المسلمين بل (جماعتهم المسلمون) إذ الأصل لا يحتاج إلى سمة خاصة تميـــزه، إنما الذي يحتاج إلى اسم معين هو الخارج عن هذا الأصل، ومن تلكم الجماعات التي انشقت من الأصل (جماعة المسلمين). وفي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وغيره أنه ﷺ قـــال: "ومـــن دعا بدعوة الجاهلية فهو من جثاء جهنم، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم فادعـــوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين عباد الله" فهم بحق يمثلون الامتداد الطبيعي للإسلام في مجمـــوعة وصفائه، وللمســلمين في اجتماعهم وائتلافهم. ولهذا لما جاء رجل إلى الإمام مالك –رحمـــه الله تعالى– فقال: يا أبا عبدالله أسألك عن مسألة أجعلك حجة فيما بيني وبين الله –عـــز وجـــل–، قال مالك: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، سل: قال: من أهل السنة؟؟ قال: أهل الـــسنة الـــذين لـــيس لهـــم لقب يعرفون به لا جهمي، ولا قدري، ولا رافضي. رواه ابن عبدالبر)[2].

وقـــال شـــيخ الإســـلام ابـــن تيمية –رحمه الله تعالى: (وكذلك التفريق بين الأمـــة وامتحـــانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله، مثل أن يقال للرجل: أنت شكيلي. أو قرقندي. فـــإن هـــذه أسمـــاء باطلـــة مـــا أنزل الله بها من سلطان، وليس في كتاب الله ولا سنة

---

(١) النور:٣٦-٣٧

(٢) الانتقاء لابن عبدالبر (ص٣٥) نقلا عن حكم الانتماء.

رسـوله ﷺ، ولا في الآثـار المعروفة عن سلف الأمة لا شكيلي ولا قرقندي. والواجب علـى المـسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول: لا أنا شكيلي ولا قرقندي، بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله.

وقـد روينا عن معاوية بن أبي سفيان: أنه سأل عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما: (أنـت على ملة علي، أو ملة عثمان؟ فقال: لست على ملة علي ولا على ملة عثمان، بل أنـا على ملة رسول الله ﷺ)، وكذلك كان كل من السلف يقولون: كل هذه الأهواء في الـنار، ويقـول أحدهم: ما أبالي أي النعمتين أعظم؟ على أن هداني الله للإسلام، أو أن جنـبني هذه الأهواء؟ والله تعالى قد سمانا في القرآن: المسلمين المؤمنين عباد الله، فلا نعدل عن الأسماء التي سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم -وسموها هم وآباؤهم- ما أنزل الله بها من سلطان.

فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها، ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان)[1].

يقـول الشيخ بكر أبو زيد: وقد كان المسلمون، وهم (الصحابة -رضي الله عنهم) قـبل بـزوغ بـذرة التفرق والانشقاق ليس لهم اسم يتميزون به لأنهم كما ذكر يمثلون الإسلام، والامتداد الطبيعي له، لكن لما حصلت تلك الفرق الضالة التي يشملها لفظ (أهل الأهـواء) لغلبة اتباع الهوى عليهم، ولفظ (أهل البدع) لاتباعهم ما هو خارج عن الدين أجـنبي عـنه، و(أهل الشبهات) لأنهم يلبسـون الحق بالباطل فيشبهون به على العامة، لما حـصلت تلك الفرق، منتسبة إلى الإسلام منشقة عن العمود الفقري للمسلمين، ظهرت ألقـابهم الشرعية المميزة لجماعة المسلمين، لنفي الفرق والأهواء عنهم، سواء ما كان من الأسماء ثابتًا لهم بأصل الشرع:

-الجماعة

-جماعة المسلمين

-الفرقة الناجية

---

(١) الوصية الكبرى- (ص١١١)، والفتاوى- (٣/٤١٥).

-الطائفة المنصورة

أو بواسطة التزامهم بالسنن أمام أهل البدع، ولهذا حصل الربط لهم بالصدر الأول فقيل لهم:

-السلف	-أهل الحديث
-أهل الأثر	-أهل السنة والجماعة

وهذه الألقاب الشريفة، تخالف أي لقب كان لأي فرقة كانت من وجوه:

الأول: أنها نسب لم تنفصل ولا لحظة واحدة عن الأمة الإسلامية منذ تكونها على منهاج النبوة فهي تحوي جميع المسلمين على طريقة الرعيل الأول.

الثاني: أنها تحوي كل الإسلام (الكتاب والسنة) فهي لم تختص برسم يخالف الكتاب والسنة زيادة أو نقصًا.

الثالث: أنها ألقاب منها ما هو ثابت بالسنة الصحيحة ومنها ما لم يبرز إلا في مواجهة مناهج أهل الأهواء، والفرق الضالة لرد بدعتهم، والتميز عنهم، وإبعاد الخلطة بهم، ولمنابذتهم فلما ظهرت البدعة تميزوا بالسنة ولما حكم الرأي تميزوا بالحديث والأثر، ولما فشت البدع والأهواء في الخلوف تميزوا بهدي السلف، وهكذا..

ومن الملاحظ أنه لو كانت الأمة في قالب الإسلام الصحيح خالية من البدع والأهواء كما كان الصدر الأول ومقدمة السلف الصالح لغابت هذه الألقاب المميزة لعدم وجود المناهض لها.

الرابع: أن عقد الولاء والبراء، والموالاة والمعاداة لديهم هو: على الإسلام لا غير، لا على رسم باسم معين، ولا على رسم محدد، إنما هو (الكتاب والسنة) فحسب.

الخامس: أن هذه الألقاب لم تكن داعية لهم للتعصب لشخص دون رسول الله ﷺ.

السادس: أن هذه الألقاب لا تفضي إلى بدعة ولا معصية، ولا عصبية لشخص معين ولا لطائفة معينة فإذا قيل: (أهل السنة والجماعة) انتظم هذا اللقب هذه الخواص وهذا لا يكون لأحد من أهل الفرق بأسمائهم ورسومهم التي انشقوا بها عن جماعة المسلمين)[1].

---

(١) بكر أبو زيد: حكم الانتماء- من (ص٣٠: ٣٥) بتصرف واختصار.

وهنا يأتي سؤالان:

الأول: هو أن بعض الفرق لم تسم نفسها بل سماها الناس؟

والثاني: هو أنه من الممكن أن تطلق بعض الأسماء على من يعتقد أنهم على منهج أهل السنة؟...

ونجيب على هذين السؤالين فنقول: اعلم أنه ليس شرطًا أن تسمى فرقة من الفرق نفسها باسم أو تسم نفسها برسم يخالف اسم ورسم أهل السنة والجماعة بل أحيانًا قد يطلق الناس عليهم ذلك الاسم لأنهم تقيدوا بعمل واحد اهتموا به وجعلوه دينهم فكان هذا منهم خطأ في المنهج أدى إلى أنهم تسموا بهذا الاسم ونسبوا إلى هذا الاسم وإن لم يكونوا هم الذين سموا أنفسهم بذلك.

وعن السؤال الثاني نقول: اعلم أنه حينما ينسب أحد ممن هم على منهاج السنة إلى اسم أو رسم يخالف اسمهم ورسمهم فإن الناس لا يستطيعون أن يسموهم أو ينسبوهم إلى اسم واحد بعينه أو مذهب أو فرقة، أو رسم وذلك لأنهم لم يتقيدوا في عملهم بجزئية أو عمل واحد بل دخلوا في الإسلام كافة و لم يزيدوا و لم ينقصوا، فلو نسبوا فلسوف ينسبون إلى الجهاد – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- الزهد- العبادة والواقع- الفقه- العقيدة والعلم إلى غير ذلك من فروع الدين وأصوله. ولقد ختم الشاطبي كلام عبدالرحمن بن بطة قائلا: فكأنه –رحمه الله- تكلم على لسان الجميع، فقلما تجد عالمًا مشهورًا وفاضلا مذكورًا إلا وقد تسمى بهذه الأمور أ، بعضها لأن الهوى قد يداخل المخالف، وقد سبق نقل كلام الإمام الشهير عبدالرحمن بن بطة وحكايته مع مخالفيه وموافقيه.

تاسعًا: أن يفرق بين الاجتماع على هذا العمل والطاعة للقائم عليه، وبين الاجتماع والطاعة للإمام الأعظم إمام المسلمين أو ولي أمرهم، وذلك حتى لا تختلط الأمور، فعليهم دائمًا أن يعلموا أنهم في عمل جزئي والطاعة فيه مقيدة بحدود هذا الأمر بالشروط السابق بيانها، والله تعالى أعلم.

٣-الدعوة بين التدرج والتسرع:

أ-التوفيق بين كمال الشريعة والتدرج في التبليغ:

سبق أن عرضنا لحكمة الدعوة في التدرج في تبليغ الأحكام والتكاليف في عصر النبوة، وهذا لا إشكال فيه من جهة أن التشريع في ذلك الوقت لم يكن قد كمل بعد، وأنه كان يـــنزل شـــيئًا فشيئًا. أما الآن وقد كملت الشريعة وتم الدين فتثور شبهة أمام الدعوة إلى الـــتدرج، وهي أن الشريعة قد كملت فلا يسعنا أن ننتقص شيئًا منها، ولا أن نكتم شيئًا منها.

ب-الدعوة إلى التدرج من منطلق الحكمة:

والحقيقة أن تصوير الأمور بهذا الشكل هو تصوير خاطئ أو قاصر، وذلك أن الأمر لا يتعدى العمل بمقتضى الحكمة، وذلك لأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه.

ج-التدرج لا يعني كتمان الدين:

والأمـــر لم يعد ذلك إلى النقص والكتمان، فتأخير التبليغ لأمر أو إرجائه لتبليغه وبيانه في الـــوقت المناسب الذي يكون أكثر تحقيقًا للمصلحة الدينية، وأكثر درءًا للمفسـدة كل ذلك تصرف بمقتضى الحكمة ولا يعني انتقاص الشريعة أو كتمانها.

فـــشتان بين من ينطلق من منطلق الإيمان بهذه الشريعة الحريص على ألا ترفض وألا يعـــرض عـــنها في وقت لا يكون المدعو مؤهلا لفهمها أو للعمل بها، وبين من ينطلق من منطلق الكفر بهذه الشريعة وانتقاصها والإعراض عنها وكتمان تبليغها.

ومـــن ثم فإن التدرج في عرض الأحكام والتكاليف وأخذ الناس بها أمر شرعي، وقد فعلـــه النبي ﷺ نفسه بعد كمال التشريع حيث قبل معاهدة قوم على الإسلام شريطة ألا يجاهدوا وألا يتصدقوا فقبل ذلك منهم في حينه، وقال إنهم سيجاهدون وسيتصدقون.

فقبل ألا يلزمهم بالدين كله في ذلك الوقت، وقبل أن يتدرج بهم في الإلزام بالأحكام والتكاليف، و لم يعد ذلك كتمانًا للدين ولا إقرارًا بالنقص منه، لأنه بين أنه حينما يستقر الإيمان في قلوبهم سيدفعهم للأخذ بالدين بكماله.

د-لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة:

ومع ذلك نقرر أنه لا يسع الداعي أن يؤخر البيان عن وقت الحاجة إلا في حالات الإكراه كما قال الله تعالى: ﴿إلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[1].

ولكن شتان بين البيان وبين إلزام المدعو والاشتداد عليه بتكاليف لا يرتقي إيمانه لأدائها، فلابد من الرفق به، وحسن التلطف معه حتى يتم اقتناعه بالأمر أو تحين له الفرصة المواتية للتنفيذ، وعلى الداعي إذا وجد أن إيمان المدعو لا يرتقي إلى قبول بعض التكاليف أن ينشغل بدعوة هذا الشخص إلى ما يقوي إيمانه ويرتقي به بدلا من الإلحاح عليه فيما يضعف عن تحمله في الوقت الراهن.

هـ- التدرج في الفروع لا الأصول:

ومما ينبغي التنبيه عليه كذلك أن التدرج في الدعوة ينبغي أن يكون في الفروع لا الأصول، فأصل الدين وهو عبادة الله تعالى وعدم الإشراك به والإسلام لله تعالى لا تجزئة فيه، لقول الله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[2] وقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا﴾[4].

فأصل الدين إذًا لا يقبل فيه التدرج ولا التجزئ ولا يتصور فيه، ولكن المقصود بالتدرج في التكليف إنما هو في الفروع والتكاليف لا غير.

و-خطر الاستعجال في الدعوة إلى الفروع:

ومما يلاحظ أن بعض الاتجاهات الدعوية المعاصرة قد تسرع في الدعوة إلى فروع

---

(١) النحل:١٠٦.

(٢) البقرة:٢٠٨.

(٣) البقرة:٨٥.

(٤) النساء:١٥٠.

الدين وبعض مظاهره المميزة لأتباعه قبل أن يتم صقل المدعو وتهذيبه وتربيته التربية الإيمانية الكافية.

ويحدث من جراء ذلك أضرار عديدة منها:

١-اغترار الشخص بما حد عليه من مظاهر الدين وإحساسه بالتميز بما يؤدي إلى استعلائه على الآخرين.

٢-تشويه صورة الإسلام نتيجة لما يقع فيه من الأخطاء والمعاصي التي لم يستطع التخلص منها.

٣-الوقوع في الفهم الخاطئ لكثير من القضايا.

٤-الردة عن الالتزام والإحساس بصعوبة التكاليف لأنه لم يهيأ لها التهيؤ الكافي.

ز-الدعوة إلى الأهم فالأهم:

ومن ثم تبرز هنا أهمية الدعوة إلى الأهم فالأهم على نحو ما بينا في الحديث عن منهج التزكية فيتم البدء بدعوة الشخص إلى أصل الدين وهو التوحيد الصحيح والعبادة الصحيحة، ثم يدعا بعد إلى ما يرقق قلبه، ويقوي إيمانه، ويزيد تقواه لله تعالى من القرآن والسنة وقصص الصالحين وأخبار اليوم الآخر، مع الدعوة إلى ما يهذب أخلاقه ويؤدبه بآداب الإسلام في التعامل مع الناس.

ح-مقياس الأهمية لنصوص الشريعة:

ولـيكن المقياس في ترتيب الأمور من حيث الأهمية هو نصوص الشريعة، فيعظم ما عظمه الله تعالى تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[2].

---

(١) الحج:٣٢.

(٢) الحج:٣٠.

رابعًا: الدعوة بين الإجمال والتفصيل:

ففـــي العصر الحديث وفي الواقع المعاصر اليوم ظهرت العديد من القضايا والتحديات للإســـلام وأهلـــه، لعل من أخطرها قضية العولمة بمختلف أبعادها لاسيما البعد الفكري والـثقافي بيـــنما انحـــسرت كثير من القضايا التي كانت سائدة في العصور السابقة والتي شـــكلت ملامح الدعوة الإسلامية في عصور طويلة، وذلك مثل قضية خلق القرآن، ونفي الصفات، وإثبات العلو... إلخ.

وإن كـــنا لا ننكر أن معرفة الحق في مثل هذه القضايا واجب ولكننا نقول في الوقت نفـــسه: إن هذه القضايا لا يمكن أن توصف بأنها قضايا العصر أو أن تمثل موضوع الدعوة ومقاصدها في واقعنا المعاصر.

فلم يعد في كثير من ربوع المسلمين من يثير الشبهات في كثير من هـــذه القضايـــا، وإن وجـــد مـــن يعتقد فيها خلاف معتقد أهل السنة فهو إمـــا خامـــل في دعوتـــه أو مـــستكن بهـــا، أو يعـــتقدها عن جهل لعقيدة أهل الحق دون أن يتخذها قضية يعيش لها ويدافع لأجلها.

وعلـــى كـــل فقد ألم بالمسلمين من البدع والمحدثات والتحديات لهم في دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وآدابهم ما يكاد يعصف بهذا الدين لولا حفظ الله تعالى له.

فقـــد شـــاع في عرف الناس واعتقادهم أن التحاكم إلى القوانين الوضعية والأحكام العـــرفية في معاملاتهم وأمور دنياهم لا يخالف التوحيد ولا إفراد الله تعالى بالعبودية، ولا يتعارض مع إقامة النسك لله تعالى من الصلاة والصيام والزكاة والحج ونحو ذلك، مما يعد تأثـــرًا مباشـــرًا بالنزعة العلمانية العالمية، كذلك شاع فيهم الانصياع والتبعية لغير الكتاب والسنة وأخذ تشريعاتهم وشئون حياتهم من الغرب أو الشرق دون الشعور بأدنى غضاضة ولا نقـــص عليهم في دينهم، وذلك كله بتأثير حركة العولمة التي تم التخطيط لها من فترة كـــبيرة لإذابـــة المسلمين وإتباعهم للغرب أو للإمبراطورية الأمريكية على وجه الخصوص الآن، فـــضلاً عمن يحاول النهش في جسد الأمة والنيل منها من قريب أو من بعيد من غير المارد الأمريكي.

لقــد أصبحت كثير من القضايا تفرض نفسها فرضًا على الواقع المعاصر ولا يستطيع الداعي أن يغمض عينه عنها مثل:

١-قــضية الحكم بغير ما أنزل الله، وما جرته من الفتن والبلايا وانقسام الناس إزاءها فــرق وأحــزاب، ويشترك معها في الأهمية قضية دعاء غير الله تعالى واللجوء إليه ممثلا في عبادة القبور والأولياء تحت ستار التصوف الذي يقوم عليه أحزاب كبيرة تجد من النصرة والتأيــيد من أعداء الإسلام من الداخل والخارج ما يحاولون به عرقلة النمو الواضح الهائل لفصائل الصحوة الإسلامية.

٢-قــضية العولمة والتبعية الغربية الأمريكية في جميع مظاهر الحياة، وعدم تميز المسلمين في عقيدتهم وسلوكهم.

٣-قــضية التبعــية الاقتــصادية للغرب وشيوع المعاملات الربوية العديدة المخالفــة لشريعــة الإسلام، وكيفية تعامل المسلم في معاملاته المختلفة مع شيوع الربا في كثير من المعاملات.

٤-قــضية الانحــلال الخلقي والإباحية التي تفشت في المجتمعات العربية والإسلامية، وأخذت مظاهر متعددة من سفور المرأة وتبرجها واختلاطها الاختلاط المشين، وامتهانها في العديد من المهن الرذيلة التي تتخذ منها المرأة سلعة رخيصة أو وسيلة لجذب الأنظار.

٥-قــضية حقوق المرأة ومكانتها في الإسلام ردًّا على دعاة تحرير المرأة الذين يعملون علــى تمــرد المرأة على دينها وقيمها الإسلامية، ونبذها لمقاييس الطهر والعفة والفضيلة، واتهام الإسلام بانتقاص المرأة حقوقها وإهانتها.

٦-محاربــة سموم العصر الفتاكة التي تفتك بشباب المسلمين فتضعف عقولهم وتنهك قــواهم وأجسادهم على مختلف أنواع تلك السموم من أصناف الخمور والمخدرات على اختلاف أنواعها.

٧-قــضية التربية وانحسار دور الأب والمربي في البيت، وغيابه وذوبانه في دوامة الحياة الاقتصادية.

٨-افــتقاد القدوة في المدرس والشيخ والعالم وأهل الحل والعقد، والتماس القدوة في

أنواع من الزعماء يختلفون بين القصد والتوسط والمغالاة والتطرف والانحلال والتسيب.

٩-فساد التعليم وفشل محاولات التطوير وجنوحها جهة الغرب باستيحائه وتقليده في خيره وشره.

١٠-الفساد الإداري العام والذي يؤثر بطبيعة الحال على جميع جوانب الحياة السياسية والاقتصادية وغيرها.

فهذه فقط بعض القضايا التي تطرح نفسها على الساحة اليوم، وينبغي أن تشكل جزءًا كبيرًا من برنامج الدعوة وموضوعاتها، بالإضافة إلى قضاياه الأساسية الثابتة من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده وتزكية النفوس وإصلاحها، وبيان معالم الدين وأسسه، ودفع الشبهات عنه والانتصار لعقيدته وثوابته.

ومن ثم تنحسر في هذا الواقع بالضرورة كثير من القضايا التي أفرزتها عصور سابقة، والتي كانت تلبية لظروف هذا العصر.

ومن ثم إذا كنا بصدد الحديث عن تطوير الدعوة ينبغي أن نحث الدعاة على الارتباط بقضايا العصر، ومحاولة الخروج من العصر الأموي والعباسي وغيرها من العصور السابقة، ليس على سبيل التمرد والتنكر لتراثنا بل على سبيل العمل على مواصلة المسيرة، وإكمال جهود السلف، وعدم الوقوف عند ما أملته عليه عصورهم وظروفهم فإن هذا لا يعني الوفاء للسلف، والعمل على تنمية دعوتهم بقدر ما يعني إماتة هذه الدعوة والعمل على تجميدها وعدم تنميتها.

لا يليق بالدعاة أن يقدموا مناهج الدعوة وموضوعاتها على ما هي عليه في صورتها القديمة بموضوعاتها وتفصيلاتها وأمثلتها المنبثقة من بيئتها.

فثمة داع يحدث الناس في قضية خلق القرآن، وداع يحدث الناس عن ربا الفضل وأنه لا يجوز بيع مطعوم بمطعوم مع زيادة، وأن العلة في ذلك هل هي الطعم أو كونه موزونًا أو مكيلاً أو كونه موزونًا مكيلاً ونحو ذلك.

أو يحدثهم عن جواز التعامل بالفلوس وهي كسر الدراهم المضروبة من النحاس أو البرونز وغيرها من المعادن الرديئة...

وهذا لا ينبغي كما سبق أن ذكرت، إن هذه كلها موضوعات صالحة للدراسة ويجب الإلمـــام بها ومعرفتها للدارسين، ولكن ليست هي من موضوعات الدعوة التي يجب فرضها على العامة وشغلهم بها، ما لم تتفش صورة منها في المجتمع أو يبتلى بها.

للأســـف الــشديد لا يزال كثير من المشايخ يوجهون أنظار سائليهم عن كتاب في العقـــيدة إلى كـــتاب يعـــرض مسائل الخلاف بين أهل السنة والجهمية والمعتزلة والمرجئة والأشعرية وغير ذلك.

فيشغل هذا المدعو بكثير من القضايا التي لا يجدها في واقعه ولا يعرفها ولا يفهم كثيرًا مـــن أبعادها؛ لأنه لا يعاصرها ثم يظل منعزلاً بعد ذلك عن قضايا مجتمعه وتصوراته وما يناقشه من المسائل والمحدثات.

وهذا يرجع إلى أمر من أمور:

١-إمـــا جهل هذا الشيخ بمصادر العقيدة ومصنفاتها في الواقع المعاصر، أو خلطه بين التوحـــيد الـــذي بعث الله تعالى به الرسل والعقيدة الحالية التي تمثل ردودًا متراكمة على المبـــتدعة في مختلف الأزمنة والأمكنة، فلابد من التفريق بين التوحيد الذي بعث به الرسل في ثبات حقيقته ومفهومه وتصوره وبين العقيدة التي تختلف باختلاف الزمان والمكان وما يجد فيهما من البدع والمحدثات.

٢-وإما إلى قلة تلك المصنفات الحديثة التي تعرض العقيدة عرضًا معاصرًا ميسرًا يركز على القضايا والمقاصد الأساسية الثابتة ويربطها بقضايا العصر ومسائله الملحة.

٣-وإمـــا لشيوع حالة من الانعزالية والتأخر والانكباب على الماضي والعكوف على التراث دون النظر إلى الواقع واستشراف المستقبل.

إن هــــذا كلــــه يدعونا إلى إعادة صياغة منظومة الإسلام في كافة علومه من عقيدة ومعاملات وآداب... إلخ.

فينبغـــي أن تصاغ هذه العلوم والموضوعات كلها صياغة عصرية جديدة تحافظ على الأصـــول والمقاصـــد الأساسية، وتعيد طرحها وتيسيرها بلغة العصر، وفي ضوء معطياته وتحدياته.

لابـــد أن تـــضمن تلك العلوم جميع قضايا العصر كل في بابه، فما يخص العقيدة في العقيدة، وما يخص المعاملات في المعاملات، وما يخص الآداب في الآداب وهكذا..

إنـــنا للأســـف الشديد وطيلة قرون عديدة نعيش في الغالب عالة على تراث أسلافنا نأخذه كما هو لا نزيد عليه شيئًا سوى الإيضاح والشرح والتحقيق والتقرير.

إن كل عصر وواقع لابد أن تكون له منظومة ثقافية خاصة به تعبر عن ظروفه وأحواله وهمومه وقضاياه دون تنكر للأصول الثابتة.

دعوة إلى تطوير حقيقي في مصادر المعرفة الإسلامية:

ومن ثم فإننا ندعو إلى تطوير حقيقي شامل لجميع مصادر المعرفة الإسلامية بما يناسب لغـــة العـــصر وظـــروفه وقـــضاياه ومعطياته وتحدياته، دون المساس بالأصول والمقاصد الأساســـية، وهذا أمر ينبغي أن تنهض له همم الهيئات والمؤسسات الدعوية في جميع بلدان العالم؛ لأن هذا أمر لا طاقة للأفراد به، وإن تصور أن تكون ثمة جهود فردية في هذا المجال فإنه لا يتصور أن تتصف بالشمول والإحاطة والإتقان في منهج واحد متشاكل، لذا فلابد مـــن تنـــسيق الجهود، وتوزيع الأدوار، وتوحيد معالم منهج التطوير والتحديد من خلال مؤسسات دعوية ثقافية تقوم على إدارة مثل هذه المشروعات الضخمة...

ولاشك أنه قد ظهر في الواقع المعاصر شيء من هذا؛ حيث قامت بعض المؤسسات بإصدار بعـــض الموســـوعات الـــشاملة ذات الجهد الواضح، غير أن الغالب على مثل هذه الأعمال هي الإغراق في التراث أكثر من الإغراق في الواقع، وغلبة صفة التراثية فيها على صفة للمعاصرة، ومن ثم فالحاجة ملحة إلى أعمال موسوعية تجمع بين هاتين الصفتين التراثية والمعاصرة.

خامسًا: الدعوة بين المقامية والانتقالية:

تتـــنوع وســـيلة التخطيط للدعوة بين الدعوة المقامية التي يلازم فيها الداعي حيَّه أو بلدته، وبين الدعوة الانتقالية التي ينتقل الداعي فيها من مكان إلى مكان، وفي كل خير.

ففـــي الدعوة المقامية الدائمة المستمرة تتأصل المفاهيم وتترسخ القيم، ويلاحظ الداعي المدعـــوين عن كثب وقرب، فيكون دائم التوجيه لهم، يصحح الأخطاء أولاً فأول، ويتابع المدعو في أطوار نشأته واستقامته حتى يستقيم عوده ويصلب ويقوى.

وفي الدعوة الانتقالية يتجدد النشاط والحماس، ويشعر الداعي أنه يتكلم لأول مرة فلا يخشى ملل السامع ولا سآمته، ويستقبل المدعو كلام الداعي فيطرب له لجدته وطرافته، وقديمًا قالوا: (زامر الحيّ لا يطرب)؛ فالناس يتأثرون بكل جديد طريف ويملّون كل مكرر مُعاد.

وبالانتقال والتحرك خارج الحي أو القرية أو خارج القطر يحتك المرء بأناس جدد، ويتعرف على أقوام لهم من المعارف والعادات والتقاليد والثقافات ما لم يعهده من قبل؛ فتزداد معرفته وخبرته بالناس والحياة، ويكون له من الصلات ما تتسع به دعوته ويكتب له بها النجاح.

أما ميادين الدعوة الانتقالية فتتنوع بين المساجد المختلفة، تلبية لدعوة إلى خطبة أو درس أو محاضرة ونحو ذلك، وكذلك الأندية فيما يقام فيها من الندوات والمحاضرات، ويمكن لكل مسلم واعٍ أن يتخذ من ناديه ومجتمعه مع أصدقائه ميدانًا لدعوته على أن يتلطف معهم في الحديث، ويحسن تخير المداخل المشوقة التي تجعل المدعوين هم الذين يسألون في أمور الدين ويستزيدون منها، ويعينه على ذلك أمور:

أ- صلاحه وحسن خلقه وسمته:

فذلك يجعل الناس يلجئون إليه في مهماتهم وفيما يعرض لهم من أمور دينهم، فلقد لجأ صاحبا السجن إلى يوسف في تأويل رؤياهما لما بدا عليه من أمارات الصلاح فقالا له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

ب- ثقافته ولباقته وتقاربه الفكري والثقافي مع المدعوين:

وقد سبق أن أفضنا الحديث عن ذلك بما يغني عن إعادته هنا، والمسلم الداعي إلى الله تعالى يمكن أن يدعو إلى الله تعالى في كل مكان، في مكان عمله بين زملائه فيدعوهم إلى إقامة الصلاة، ويدعوهم إلى إتقان العمل وإصلاحه والإخلاص والاحتساب فيه، ويكون لهم قدوة في ذلك.

وفي مكان دراسته سواء كان مدرسة أو معهدًا أو جامعة يحسن التآلف بين زملائه والأخذ بأيديهم إلى سبيل النجاة، وحثهم على حلقات العلم، وتلاوة القرآن ومجانبة سبل

---

(١) يوسف: ٣٦.

الضالين والمفسدين... إلخ.

يقول الشيخ رضا صمدي في هذا الداعي الميداني: "إنه الداعية المتحرك في كل صوب، المتقن لدعوته في كل ثوب، إن كان في بيته فنعم العائل والمربي، فإن نزل الشارع وخالط الناس وسعهم بدعوته، فإن ركب وسيلة مواصلات تناثرت بركات دعوته على من حوله من الركب، إذا دخل مصلحة لم يخرج منها إلا بغنيمة دعوية؛ نصيحة يسارّ بها موظفًا، أو موعظة يسمعها لسافرة، أو كلمة معروف يذكر بها من يقف معه في الطابور، إنه المبارك في حله وترحاله؛ كالغيث أينما وقع نفع:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقلت إبقالها"[1]

"إنه الداعية الميداني متحرك لدينه، سواء كان مدرسًا أو طالبًا، مهندسًا أو طبيبًا، عالمًا أو متعلمًا، سائقًا أو راكبًا، حالا أو مرتحلا، أميرًا أو مأمورًا، رئيسًا أو مرؤوسًا، زوجًا كان أو عزبًا، فقيرًا أو غنيًّا، صحيحًا كان أو سقيمًا، مبصرًا كان أعمى، سليم الأعضاء أو معوقًا، في الشارع أو في البيت أو في الجامعة أو في المدرسة، أو في الدكان أو في الحافلة أو في الشارع أو في أي مصلحة حكومية، بلسانه ويده، بنفسه وماله، بكله يتحرك للدين وينافح عنه، لسان حاله: ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وشعاره: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨]"[2].

---

(١) ٣٠ طريقة لخدمة الدين- (٢٩٧).

(٢) السابق-٢٩٩.

خامسًا: الوسائل الدعوية من حيث الشكل:

وتنقسم إلى قسمين:

أولا: الوسائل العادية:

١-الجلسة أو المحادثة:

وهي عادة لا تأخذ الشكل الرسمي، وإنما تأتي في إطار الحديث العام، ويحاول الداعي من خلالها توصيل قضية ما بطريقة مبسطة، وتتسم بأنها تمكن المدعو من المناقشة والحوار، والاستفصال عن المشكلات.

ويحاول الداعي أن يدير دفة الحوار بذكاء دون إشعار المدعو بأنه يوجه لطريق معينة، ولكن ينجح الداعي إذا شعر المدعو أنه وصل للنتيجة المراد الوصول إليها دون ضغط من أحد، ولكنها عن طريق قناعته الشخصية.

٢-الموعظة أو الكلمة:

وهي عادة ما تكون كلمة قصيرة من خلال آية أو حديث غالبًا، ويركز فيها على التذكرة السريعة للحاضرين لإزاحة الغفلة وتجديد التوبة والإنابة وتذكر بالآخرة والرجوع إلى الله تعالى.

وينبغي أن تكون هذه الكلمة أو الموعظة مركزة مجتمعة الفكرة، مرتبة الكلام والمعاني، قوية التأثير بألفاظها ومعانيها وأمثلتها، يعتمد فيها المتكلم على وسائل التأثير الوجداني السابق بيانها أكثر من وسائل التأثير العقلي.

وهذه الموعظة لقصر مدتها تتراوح بين خمس دقائق وخمس عشرة دقيقة أكثر مناسبة لظروف العصر لانشغال الناس، وغلبة الحياة المادية عليهم بقساوتها وغلظها، فلا يكاد يصبر المستمع أكثر من دقائق معدودة حتى تستفزه أمور الدنيا وتستنهضه لتداركها، ومن ثم فهو ينصرف ابتداء عن سماع الدروس والمحاضرات ولكن قد يجلس لسماع موعظة عابرة إن علم أنها لا تزيد على دقائق معدودة يختلسها من زحام الحياة.

٣-الخطبة:

"هـــي وســـيلة جيدة للتبليغ وتكون عادة لجمع من الناس قد لا يعرفهم الداعي أو يعرف بعـــضهم فقط، ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معان معينة يريد بيالها ولفـــت الأنظار إليها، ومن المستحسن أن يكون موضوع الخطبة مما له علاقة في أحوال الناس مع ربط ذلك بمعاني العقيدة الإسلامية، كأن يكون الذين يخطب فيهم ممن تكثر فيهم العصبية القبلية، فيحدثهم عن أضرارها وحكم الإسلام فيها، وأن المؤمن لا ينصر قريبه إلا بالحق، وأن علـــى المسلم أن يرضى بما قضى به الإسلام من التآخي بالإسلام ونبذ العصبية الجاهلية. وعلى الداعي الخطيب أن يلاحظ في خطبته الأمور التالية:

١-الاستـــشهاد بالآيـــات القرآنية والأحاديث النبوية والتطبيقات العملية لها من قبل الرســـول الكريم والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، والصحابة الكرام، فإن ذكر التطبيق يجعل معنى الآية والحديث مشهودًا محسوسًا.

٢-يـــستعين بالقصص الواردة في الكتاب والسنة ولا بأس من تصوير المعاني بشكل قصص وضـــرب الأمـــثال كما في الحديث الشريف: "أرأيتم لو أن في باب أحدكم نهرًا يغتسل فيه في اليوم خمس مرات أيبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: كذلك الصلاة".

٣-أن لا يطيل في الخطبة.

٤-أن لا يكثر الخطب مخافة السآمة.

٥-أن يكون كلام الداعي بسيطًا واضحًا لأن الذين يسمعونه ليسوا في مستوى واحد مـــن العلـــم والقدرة على فهم الخطاب. فإذا اختار الأسلوب البسيط الواضح والعبارات القصية انتفع بها الجميع وفهمها الجميع.

٦-من المفيد للخطيب أن يبدأ خطبته بما يذكر الناس بربهم، ويبين لهم، وينذرهم.

٧-مـــن المفيد للخطيب أن يبدأ خطبته بما جلب انتباه السامعين من حادثة صادفها أو قصة قرأها، أو خاطر انقدح في نفسه، فإذا جلب انتباه السامعين مضى الخطيب في كلامه مسترسلاً مشوقًا ومنذرًا.

٨-علـــى الداعي أن يتفرس في نفوس الحاضرين وأي مرض يغلب عليهم وأي شيء

يحتاجونه أكثر من غيره، فيبدأ به ويربطه بالعقيدة الإسلامية فإذا كانوا بحاجة إلى التخويف والترهيب لما يلمسه فيهم من الجرأة على المخالفات الشرعية ذكر لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك وخوفهم من طول الأمر وأن الحزم يقضي بأخذ العدة قبل حلول الأجل، والعدة هي تقوى الله فإنها خير ما يتزود به المسافر إلى الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[1]، وأن لذة المعصية وهي قصيرة تعقبها مرارة الندم والعذاب مدة طويلة. والعاقل من صبر نفسه عن لذة حرام لا تدوم ليظفر بلذة حلال تدوم ولينجو من عذاب دائم مقيم. وإذا رأى في القوم الذين يخطب فيهم شعورًا باليأس والقنوط وصعوبة الرجوع إلى الله ذكرهم بعظيم رحمة الله وأن الله يقبل التائبين الصادقين وقال فيهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[2]، ويذكر لهم قصة القاتل مائة نفس وكيف أن الفقيه دله على طريق التوبة إلى الله والتحول إلى القرية الصالحة.

٩-على الداعي أن يحذر من ذكر الآيات والأحاديث التي قد يساء فهمها دون شرح وبيان لها مثل قوله ﷺ: "من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة". فعلى الخطيب أن يشرح الحديث حتى يفهمه السامعون الفهم الصحيح.

١٠-وعلى الداعي أن لا يسرع في كلامه ولا يرفع صوته بلا حاجة.

١١-يستحسن أن تكون الخطبة ارتجالاً لا في ورقة مكتوبة وأن تكون معانيها حاضرة في ذهنه، أي: أعدها من قبل"[3].

٤-المحاضرة:

"والغالب في المحاضرة أنها تعالج موضوعًا معينًا باستقصاء وإحاطة وذكر الأدلة والبراهين، وذكر ما قيل حول الموضوع، والصواب من هذه الأقوال، والمحاضرة الناجحة

---

(١) البقرة: ١٩٧.

(٢) الزمر: ٥٣.

(٣) أصول الدعوة: ص(٤٥٦-٤٥٨) باختصار.

مـــا كانـــت تهدف إلى هدف معين ومحدد وتجلي هذا الهدف وتبينه البيان الشافي المقنع. ويجب على المحاضر أن يكون دقيقًا في كلامه لا يلقي القول جزافًا ولا يكثر من العبارات العاطفية، لأن مجالها الأصلي الخطبة وليس المحاضرة، وأن يشرك السامعين معه في الوصول إلى ما يريده بأن يبين مقدمات النتيجة التي وصل إليها في بحثه فإذا ما استطاع إقناعهم بها كـــان وصولهم إلى النتيجة ميسورًا. وعلى المحاضر أن يقيم المقدمات لما يريد الوصول إليه علـــى مـــسائل واضحة جلية مشهورة وأن يتجنب المسائل الدقيقة والمشتبهة والتي تقبل الأخـــذ والرد، أو التي هي في نفسها تحتاج إلى إثبات، ومن هذه المسائل ما تعورف على تسميته بالمعاني الفلسفية، فإذا أراد المحاضر أن يعرض بعض الحقائق الدينية وأصول العقيدة الإسلامية مثل البعث بعد الموت فيكفيه أن يلفت الأنظار إلى ما نشاهده من موت وبعث في عـــالم الحيوان والنبات وأن يضرب الأمثلة على ذلك لتقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان. وهذا النهج ورد في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَمِـــنْ آيَاتِـــهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْـــيَاهَا لَمُحْيِـــي الْمَوْتَـــى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، فالحياة بعد الموت أثر مشاهد محـــسوس، أرض ميتة لا نبت فيها ولا حياة ينزل الله عليها المطر فتهيج ويخرج منها نبات حي بألوانه المختلفة وطعومه المتنوعة، أن الله الذي أحيا هذه الأرض هو الذي يحيي الموتى بعـــد أن خلقهم من ماء مهين من نطفة نعرف ونراها، فإن الإعادة كما هو معلوم أسهل من الابتداء قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُـــلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[2]. هذا وعلى الداعي في محاضرته أن لا يكون جافًا بل عليه أن يضفي على محاضرته شيئًا من التحريك العاطفي الـــوجداني بمـــا يذكـــره مـــن حقائق الإسلام ومعاني العقيدة الإسلامية. وهذا التحريك

---

(١) فصلت: ٣٩.

(٢) يس: ٧٨-٨٩.

الوجداني يقوم على أساس إثارة ما في النفوس من معاني الإيمان"[1].

وفرق البعض بين الخطبة والمحاضرة بفروق ظاهرة مثل:

أ)يغلب على المحاضرة صبغة تقرير الحقائق، وتثبيت المعاني. أما الخطبة فيغلب عليها صبغة إثارة العواطف والمشاعر والوعظ.

ب)عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والأصول والأحكام.. أما عناصر الخطبة فأشبه بالخواطر العارضة والمعاني الطارئة.

ج)تحتاج عناصر المحاضرة إلى الشرح والاستشهاد... أما الخطبة، فشأنها الاسترسال مع ما يحضر من الخواطر والمعاني.

وأرى –شخصيًا– أن تكون الخطبة مرتجلة: بل أرى أن تكون دروسك ومحاضراتك كلها مرتجلة... أما محاضر الورقة، وخطيب الورقة فلا شأن لنا به، إذ لا حاجة بالنهضات إليه.

نعم قد يحتاج المرء إلى تحضير كلامه في الورق، إذا كان المقام يقتضي تحديد معاني الألفاظ، وتبين مرامي العبارات، كهؤلاء السياسين المسئولين، أو المفاوضين الذين يضطرون إلىتضمين العبارات وتحميل الألفاظ معاني وإشارات لا يستطيع الارتجال أن يفي بحقها... فلنسم أمثال هذه الكلمات "بيانًا" فإذا كان لابد من تسميتها خطبًا، فهي ليس من النوع المنهض الذي نريده.

ونعني بالارتجال، ارتجال الألفاظ فقط، لا ارتجال المعاني والعناصر، إذ لابد للخطيب الذي يحترم نفسه ويقدر واجبه، أن يعرف ما سيقول... لابد أن يعد لموقفه مادته من الأفكار والخواطرا لمناسبة، وأن يهيئها في نفسه، وأن يجيلها في ذهنه أكثر من مرة.

وهذا الارتجال المحضر هو ارتجال التركيز، والبناء، والثبوت والدوام... فإذا وقف الداعية ليتكلم وقف وهو رابط الجأش، ثابت النظرات، مالك لزمام نفسه وزمام موضوعه، مستندًا إلى ما أعد من ذخيرة، فإذا فتح له في موقفه عن جديد من الخواطر

---

(١) السابق: ص(٤٥٩-٤٦٠).

والمعاني، فيها ونعمت، وإلا فحسبه أنه ينفق مما لديه.

وهناك ارتجال غير محضر، وهو في الغالب، يعبر عن صدى الحوادث في نفسه؛ أو هو استجابة لحادث، أو رؤية، أو سماع أثار مشاعره، فلا يزال يرتجل، ويسترسل مع الدواعي الطارئة والحوافز العارضة، حتى تنحل عقده النفسية، ويشعر أن قد هدأت ثوائره، فينتهي عند ذلك ارتجاله.

وهذا النوع لإثارة السامعين إثارة وقتية، أو توجيههم إلى وجهة أو عمل مطلوب لساعته.. أما أنه للتركيز، والإنشاء والثبوت فلا.

وهذا الارتجال الذي يقوم على حركة الوجدان، لا يؤدي مهمة إلا إذا كان صاحبه يتمتع بموهبة أصيلة، وتجارب سابقة، درسها وفكر فيها، فيرتكز عليها كأنها نقط محضرة، وبدون هذا يكون الكلام غالبًا غير مرتب، وقد يمل لتفاهته وكثرة اضطرابه.

٥-الدرس:

قد لا يفرق كثيرًا بين الدرس والمحاضرة، ولكن من المصنفين في مناهج الدعوة من فرق بينهما فيرى البهي الخولي[١]: "أنه جرى عرف الوعاظ والدعاة -غالبًا- على أن يكون موضوع الدرس آية من كتاب الله -عز وجل، أو حديثًا من سنة رسول الله ﷺ.

وفي رأيي أن الدرس أشق من المحاضرة، أو بعبارة أحكم، الدرس أحوج إلى دقة الداعية وحساسيته من المحاضرة.. فالمحاضر يحصر همه في إقناع الجمهور بموضوع معين، ولا يعنيه من الآية أو الحديث إلا وجه واحد من جوه الدلالة، هو الوجه الذي يتصل بغرضه... أما المدرس، فالآية تفرض عليه الدقة وطول التأمل، والوقوف عند كل كلمة، بل عند بعض الحروف أحيانًا، وفي كل وقفة من هذه إشارات ومعارف وعلوم إلهية تلتمع أنوارها في صدر الباحث، فإذا به ينشرح ويتسع، ويفرح بفضل الله.

ومن هنا أحب أن أنبه إلى أن الدرس يجب أن يكون أحفل بالرقائق، التي تحرك القلب،

---

(١) انظر: البهي الخولي: "تذكرة الدعاة"، دار البشير ط١ ص(٣١٧).

وتخاطب الوجدان.. فإذا أفصحت لك الآية بين كلماتها، وشفت لك عما وراء سطورها. فاستخرج ما تشاء من المعاني، ثم رتبه واربط بين بعضه وبعض، ثم وسع دائرة الحديث بما يتصل بالمعنى من آيات الكتاب وسنة رسول الله وصحابته، وأخبار الناس قديمًا وحديثًا، وصل ذلك -ما أمكن- بحوادث الحياة وواقعها العلمي.

ودرس الحديث كدرس الآية في كل ما ذكر، وعندي أن الدرس أكثر فائدة من المحاضرة... فالدرس ميسور لك في كل وقت فما عليك إلا أن تجلس في ناديك أو مسجدك لتلقي درسك على من يحضر من خلق الله، وهذا لا يكون في المحاضرة.

ذلك إلى أن قلة عدد من يحضر الدرس -عادة- تمكن الدرس، من التأثير برقائقه في قلوب مستمعيه، ومن إنشاء صلات روحية، تعارفية عملية، بينه وبينهم، فيكونون معه غالبًا على ما يريد... أما جمهور المحاضر فقد جاء غالبًا "ليسمع".. ويقضي وقتًا ما.. فإذا استولى المحاضر على ألبابهم وإعجابهم، كان أثره "وقتيًا" لدى الأكثرين وما أقل من يقع في يدك من مستعمي المحاضرة، ليكون جنديًا من جنود فكرتك"[1].

٦-الندوة:

الندوة أعم من المحاضرة، حيث يكون في الندوة أكثر من محاضر، وبذلك يكون هناك ثراء في الموضوع؛ حيث يلمس كل واحد منهم الموضوع من زاوية معينة، فتكامل الرؤية بكثرة الطرح والمعالجة، هذا إلى جانب اتساع نطاق المناقشة والحوار بين جاب الحضور، ولا يخفى أهمية التركيز على طرح الموضوعات الحية التي تشغل بال الناس، وخصوصًا الشباب الذين يحتاجون من الدعاة بذل المجهود، حتى لا تنحرف مفاهيمهم.

٧-المؤتمر:

تكون المؤتمرات تحت رعاية الدول، وتكون الموضوعات المطروحة فيها على درجة عالية من الأهمية، وتتسم المؤتمرات كذلك بأنها تستمر أكثر من يوم، مع وجود وفرة في الحضور، كذلك تكون فعاليات المؤتمر على درجة عالية من النشاط؛ حيث تكثر ورش

---

(١) تذكرة الدعاة: (٣١٧-٣١٨).

العمل التي تعالج فيها كثير من القضايا المطروحة للنقاش، وتكون المؤتمرات على مستوى الصفوة من العلماء والدعاة الذين يتلاقون تحت مظلة المؤتمر فيحصل التلاقح الفكري، والنشار في القضايا المختلفة، ومحاولة رأب الصدع وتوحيد العمل الدعوي.

وفي استمرارية المؤتمرات أهمية عظيمة؛ حيث يخرج كل مؤتمر بتوصيات، وهذه التوصيات يجب أن تكون محل التنفيذ، فإذا لم تتم الاستمرارية فقد تضيع هذه التوصيات، وفي الاستمرارية يكون التواصل بين العلماء كما ذكرنا سابقًا.

وإذا كنا بصدد الحديث عن التطوير، فينبغي أن ترتبط هذه الأنواع (الخطبة – المحاضرة – الدرس .. إلخ) بواقع المجتمع وقضاياه المعاصرة، بالإضافة إلى القضايا الأساسية كقضية الإيمان والتوحيد والإسلام وتزكية النفوس والعبادة والمعاملات والأخلاق والآداب.

ينبغي أن تلم الخطبة بقضايا الأمة وواقعها، وتقدم للناس في ذلك الرأي السديد من الوجهة الحكيمة التي تنطلق من واقع الغيرة على الدين، والنظر في العواقب وتقدر المصالح والمفاسد.

كذلك ينبغي أن تركز موضوعات المحاضرات حول قضايا الأمة وواقعها والتحديات التي تواجهها في الداخل والخارج.

كذلك ينبغي أن يشير الدرس من قريب أو من بعيد إلى ما يتعلق بواقع الناس، بحيث تضرب الأمثلة من الواقع الملموس لا من الماضي المفقود، أو من الخيال المحلق في الفضاء، أو من المثالية الأفلاطونية البعيدة عن أرض الواقع.

ثانيًا: الوسائل الأدبية:

ونعني هنا تلك الوسائل التي تعتمد على وسائل التأثير البياني والأدبي المعروفة لدى دارس الأدب والبيان، وسوف نقف عندها وقفة متأنية عند الحديث عن الوسائل الأسلوبية من حيث التأثير البياني.

والمقصود من الحديث هنا هو لفت الأنظار إلى أهمية هذه الأشكال، وضرورة النظر في مناسبة إحداها لموقف دعوي معين وإمكانية تطوير هذه الوسائل.

فبالنسبة لاختيار إحدى هذه الوسائل ينبغي المواءمة بين طبيعة الموضوع والمناسبة وحجم المعالجة وبين الشكل الأدبي المختار، فقد يريد الأديب مجرد لفت أنظار الأمة لأمر ما ويثير حميتها تجاهه فهنا تأتي القصيدة الشعرية على سبيل المثال، وقد تسع المعالجة أكثر من ذلك بحيث يحتاج إلى تفصيل فكرته وإيضاحها واللجوء إلى وسائل الإقناع العقلي، فهنا تتعين المقالة سواء كانت بالأسلوب الأدبي التحليلي أو الأسلوب العلمي البحت أو العلمي المتأدب كما يسميه البعض، وقد يريد الأديب أن يعالج القضية بطريقة أدبية رمزية مع إيجاز العرض وسرعته بغية سرعة وصول الرسالة للقارئ وسهولة انتشارها فتتعين لذلك القصة القصيرة، وقد يريد الأديب التعبير بطريقة رمزية يغمر فيها الرمز والمغزى ضمن حبكة فنية ونسيج فني يطول من خلال الشخوص والحوار والزمان والمكان وتطور الحدث وبنائه؛ بحيث يخفي مقصده بعض الشيء ولا يفطن له إلا الأريب، وبحيث يصعب محاسبته عليه، أو بحيث يأخذ القارئ بعيدًا عن رتابة السرد التقريري المباشر فهنا تتعين الرواية أو القصة الطويلة.

تطوير هذه الأشكال والإفادة منها في الدعوة:

والحق أن الحديث عن تطوير هذه الأشكال مرهون بتطورها الطبيعي في عالم الأدب، فعلى الداعي الذي يستخدم أداة من هذه الأدوات أن يراقب حركة تطورها في الواقع الفني، بحيث لا يعبر بطريقة متخلفة عن واقعه تجعل الناس ينصرفون عن تذوق أدبه، أو يختار له مدرسة أدبية لا يزال لها روادها وقراؤها ومعجبوها ويتبعها في كتابته وأسلوبه الأدبي، ما لم تكن هذه المدرسة ذات تأثير فكري معارض ومعاند لحقائق الدين وعقائده الثابتة مثل المدارس الحداثية الراهنة.

وإن كان لا مانع أن يفيد الأديب من جميع الاتجاهات مع تميزه بأفكاره ومضامينه الدينية الدعوية الملتزمة، خاصة إذا كان ثمة اتجاه حديث له أنصار وأتباع كثيرون أو يراد التأثير فيهم بأدب إسلامي صادق.

هذا كله مع الالتزام بالمبادئ الإسلامية التي سبق إيضاحها وبيانها في الحديث عن المبادئ الإسلامية الأدبية في ضوء الكتاب الكريم والسنة النبوية.

سادسًا- الوسائل الأسلوبية:

وتنقسم هذه الوسائل من حيث نوعية التأثير على المتلقي إلى:

١-وسائل التأثير العقلي.

٢-وسائل التأثير الوجداني.

٣، ٤-وسائل التأثير البياني.

وقد سبق الحديث عن هذه الوسائل[1] من قبل، ونحتاج أن نركز هنا على كيفية تطوير تلك الوسائل بحيث تكون أكثر مناسبة لمعطيات هذا العصر وتحدياته.

وإذا كنا قد أفضنا شيئًا ما في بيان وسائل التأثير العقلي على العموم وهي:

أ-مخاطبة العقل بالتفكير المنطقي السليم.

ب-استخدام البديهيات العقلية المسلمة.

ج-التسلح بثقافة العصر لإحداث نوع من التقارب الفكري بين الداعي والمدعوين.

وينبغي أن نعلم هنا أولا أن لكل عصر طبيعته في التفكير، فعلى سبيل المثال حاول المعتزلة في العصر العباسي فرض الأساليب المنطقية اليونانية في التفكير وصبغ العقل العربي بصبغة الفلسفة اليونانية والطريقة الكلامية.

وللأسف الشديد ظل هذا المنهج في التفكير هو السائد والمسيطر على العقلية العربية المفكرة والمبدعة في كثير من العلوم؛ كعلم المنطق، وعلم الكلام والجدل، وعلم النحو العربي، وعلوم البلاغة والنقد الأدبي، وعلم أصول الفقه والفقه، والعقيدة الأشعرية وغيرها من العلوم العربية والإسلامية إلى فترة قريبة، ولا زالت تلك الكتب التي صنفت على هذا النهج تدرس إلى الآن في كثير من مدارسنا ومعاهدنا لاسيما في الأزهر الشريف في مصر؛ حيث كان للأزهر أثر كبير في الحفاظ على تلك المناهج باعتبارها تراثًا لا يجوز تعديله أو تغييره أو تخطيه بشكل من الأشكال.

---

(١)انظر الفصل الخاص بمعالم المنهج الدعوي في ضوء الكتاب الكريم والسنة النبوية.

ويعجب المرء حينما ينظر في المناهج التعليمية الأزهرية فيجد أن الكتب المقررة على الطلاب في المدارس الثانوية الأزهرية والإعدادية -أيضًا إلى عهد قريب- هي هي الكتب نفسها، التي كانت سائدة في القرنين السابع والثامن الهجري وما قبلهما أو ما بعدهما قليلا، سواء في العقيدة أو الفقه أو التفسير والحديث واللغة والنحو والبلاغة...إلخ.

وهنا يدل إلى أي مدى سيطر هذا المنهج والطريقة المنطقية اليونانية على طريقة التفكير لدى العرب والمسلمين إلى بدايات العصر الحديث، ولا يزال تأثير ذلك إلى اليوم.

والذي يعنينا من ذلك كله أنه كانت هناك فترة تغلب فيها الطريقة المنطقية بما تتسم به من تقرير المقدمات والنتائج واستخدام الأقيسة المنطقية الأرسطية فيما لا حاجة إليه من بديهيات العقول، مع جفاف الأسلوب وتعقيده، وغياب الروح الأدبية، والمغالاة في التقعيد والتنظير.

أقول: إذا كان هذا هو الأسلوب الذي كان سائدًا في كثير من عصور الجمود والتقليد والتأخر والتخلف لدى المسلمين، فينبغي ألا تكون هناك عودة لمثل هذا الأسلوب في الخطاب الدعوي اليوم.

بل ينبغي على الدعاة أن يعرفوا طبيعة هذا العصر، وطبيعة المنهج الغالب عليه في التفكير مع مراعاة خصوصية كل بيئة، فإذا استثنينا البيئات الخاصة كالقرى مثلا، فإن طريقة التفكير السائدة هي الطريقة العلمية المتأثرة بالمنهج العلمي التجريبي في العصر الحديث، والتي تعلي من شأن المادة وتركز على الظواهر والوقائع دون الغيبيات.

ليس معنى ذلك أن يتم إلغاء الحديث عن الغيبيات مثلاً فهذا أصل من الأصول ملتصقة بحقيقة هذا الدين، ولكن المقصود هو الإفادة من هذا المنهج العلمي التجريبي والإفادة من حقائقه في إثبات حقائق التوحيد، ودلائل القدرة والحكمة والعلم الإلهي في الكون[1].

---

(١) انظر على سبيل المثال طريقة الشيخ عبدالمجيد الزنداني في توظيفه الحقائق العلمية للتدليل على الغيبيات وخاصة الصفات الإلهية.

إن الداعـــي المعاصـــر ينبغي أن يتسلح بقدر كاف من معرفة علوم العصر، ولابد أن يعمـــل على اكتساب العقلية العلمية لا لتحكيمها في حقائق الإيمان وغيبياته بل لكي يقنع بهـــا المدعـــو ويـــدلل له على أن حقائق الدين لا تتنافى ولا تتعارض مع الحقائق العلمية الكونية، بل إن الحقائق العلمية الكونية هي من أعظم الأدلة على إثبات تلك الحقائق.

وقـــد أرشدنا القرآن العظيم إلى ذلك في مواضع عديدة فعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَفِـــي أَنْفُـــسِكُمْ أَفَـــلا تُبْصِرُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُـــسِهِمْ حَتَّـــى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2]، وقـــوله تعـــالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ﴾[3]...إلخ الآيـــات الكثيرة الواردة في الدعوة إلى التأمل في صفحة الكون والغوص فيه لمعرفة أسراره ودقائقه للتوصل بذلك إلى ذلك التوافق العجيب بين دلالة تلك الآيات الكونية مع الآيات السمعية التي جاء بها النبي ﷺ في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن ثم يمكن أن نوجز سمات التفكير السائد الآن والذي يجب على العلماء أن يقتربوا منه في حديثهم مع الناس لاسيما الطبقة المثقفة منهم:

١-غلبة العقلية العلمية التجريبية.

٢-التماس الأدلة في الواقع.

٣-اعـــتماد الطـــريقة الرياضية في التفكير (١+١)=٢، والنفور من طريقة الفلاسفة القائمة على الظن والتخمين والافتراضات العقلية.

٤-الميل إلى السرعة والإيجاز.

ومـــع هذا نقول إن هذا لا يعني أننا نطالب الدعاة لكي يكونوا عصريين بالجنوح نحو الماديـــة البحتة في التفكير وإلغاء الجانب الوجداني والبياني، ولكننا ندعو إلى الاهتمام أكثر

---

(١) الذاريات:٢١.

(٢) فصلت:٥٣.

(٣) يونس:١٠١.

بجانب التفكير العقلاني العلمي الرياضي والبعد عن الطريقة المنطقية اليونانية القديمة أو الحجج الكلامية وغيرها من سخافات العقول كما يبدو لكثير من الناس في الوقت الراهن، مع التأكيد على أن التأثر الوجداني في فطرة مستقرة في النفوس لا تزول ما دامت الأنفاس في الأجساد، ولذلك ينبغي ألا يهملها الدعاة.

غير أننا نقرر كذلك أن من الناس من هم أميل إلى الطريقة العقلية العلمية، ومنهم من هم أميل إلى الخطاب القلبي الوجداني، ومنهم من هو أكثر انفعالاً للخطاب الأدبي البياني.

ولذلك ينبغي على الداعي أن يتقن هذه الوسائل جميعًا ويعلم متى يركز في خطابه على واحد منها بحسب حالة المدعو وعقليته وثقافته وطريقة تفكيره وحالته النفسية وغير ذلك.

ونذكر هنا بأهم وسائل التأثير الوجداني والبياني التي سبق الحديث عنها فنقول:

وسائل التأثير الوجداني:

أ-إيقاظ الضمائر بإرجاعها إلى الله تعالى وتذكيرها بالرجوع إليه.

ب-استخدام وسائل الترغيب ببيان الثواب العاجل والآجل.

ج-استخدام وسائل الترهيب ببيان العقاب العاجل والآجل.

د-دراسة نفسية المدعو ومعرفة أقرب المداخل إليها.

-وسائل التأثير البياني:

أ-اختيار الشكل الأدبي المناسب للمقام.

ب-اختيار المعجم اللغوي المناسب لثقافة المخاطب.

ج-الموازنة بين الأساليب اللغوية وحال المخاطبين.

د-حسن التصوير باستيحاء الصور من بيئة المدعو.

ويجب أن نزيد هنا الأمر إيضاحًا فيما يتعلق بمسألة التطوير من المهم جدًّا ونحن نتحدث عن التأثير الوجداني أن نؤكد على ضرورة مشاركة الداعي للأمة في أحزانها وأفراحها فلا يليق به أن تمر بالأمة نكبة عامة أو تنزل بها مصيبة شديدة -(الذي يجري في

العراق وفلسطين على سبيل المثال ويكون في بعض الأيام أشد من بعضها الآخر)- ثم نجد هذا الداعي أو الخطيب ضاربًا في حذور الماضي السحيق معتزلا واقعه وكأنه لا يعيش فيه يحدث الناس عن أمور يصلح أن يتحدث فيها كل يوم، ويترك ما يحسن الحديث فيه اليوم.

ولا نريد أن يفهم أن المقصود من كلامنا هذا إلهاب الحماسة وإشعالها دون جدوى أو أن يضرب الداعي دائمًا على أوتار الأحزان والأسقام، أو أن يركب الموجة كما يقولون بل المقصود أن يكون الداعي واعيا حصيفا ذكيا لماحا يستثمر الحدث لصالح دعوته، ويخفف عن الأمة آلامها فيخرجهم من ضيق العسر إلى أمل اليسر في فرج قريب، ويخرجهم من آلام الأحزان إلى همة الإحسان، فعلى سبيل المثال إن حدث زلزال ببلد الداعي مثلا عليه أن يعظ الناس ويذكرهم بأن هذا إنذار من الله تعالى وتحذير للعصاة فعليهم أن يسارعوا بالتوبة وينيبوا قبل فوات الأوان، وأنهم إذا ما تابوا وأنابوا كشف الله تعالى عن الأمة ما هم فيه من الغمة.

ثم يبين أن من هلكوا شهداء قد طهرهم الله تعالى وقبلهم في عليين.

وأن من أصيبوا يريد الله أن يمحصهم وأن يكفر سيآتهم ويتوب عليهم.

ثم يعلق قلوبهم بيسر وفرج قريب ويذكرهم بقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1].

وإذا كان في الأمة احتفال بيوم نصر ونحوه ذكرهم بأن هذا النصر كان بحسن التوكل على الله تعالى واللجوء إليه وإن هذا النصر يحتاج إلى الشكر، وأن الله تعالى يعد على الشكر بالمزيد فيقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وهكذا يكون الداعي مع الأمة في أفراحها وأحزانها فيجد لدعوته آذانًا صاغية، وقلوبًا مقبلة.

وأما بالنسبة لوسائل التأثير البياني: فيجب التأكيد ونحن بصدد الحديث عن التطوير على التنبيه لأمر هام وهو تطور اللغة، فاللغة في تطور دائم، فلو تصورنا شخصًا بعث فينا

---

(١) الشرح:٥-٦.

مـــن مائـــة عام لصعب أو استحال تواصله معنا، ولأغلق عليه وعلينا كثيرًا من المعاني مع وحدة اللغة بيننا وبينه.

وذلـــك لمـــا يجد في الواقع من محدثات ومخترعات وأحداث وتغير وتطور في مختلف مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية...إلخ.

لـــذا ينبغي على الداعي ألا يتحدث مع الناس بلغة العصر الجاهلي مثلا فلو أن واحدًا من عامة الناس سمع أبياتًا لامرئ القيس ولنفترض أنها مطلع معلقته الشهيرة:

قفـــا نـــبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بـــسقط اللـــوى بين الدخول فحومل

فتوضـــح فالمقـــراة لم يعـــف رسمها ... لمـــا نـــسجتها مـــن جـــنوب وشمأل

تـــرى بعـــر الآرام في عرصـــاتها ... وقـــيعانها كأنـــــه حـــب فُلفُـــلِ

وقـــوفا بهـــا صـــحبي علـــى مطيّهم ... يقولـــون لا تهلـــك أســـى وتجمـــل

أقـــول لو أن أحد العامة سمع هذه الأبيات لكاد ينكر أنها من العربية، ولما استطاع أن يفهم كثيرًا من معانيها، وإن فهم شيئًا فلن يتعدى فهمه ظاهر اللفظ دون باطن المعنى.

وذلـــك لأمـــور كثيرة غير صعوبة ألفاظها ترجع إلى بعد العهد واختلاف الظروف والأحوال.

فالبيـــئة العـــربية قد تنوسيت معالمها القديمة وأين ما يذكر من تلك الأماكن (سقط اللوى- الدخول- حومل- توضح- المقراة).

وأين عادة الوقوف على الديار، والبكاء على الأطلال لفراق الأحبة وما سبب ذلك؟ ولماذا يرحل الأحبة ولماذا يظعنون، وينتقلون من مكان لآخر؟

وما تلك العادة العربية الجاهلية في استيقاف الصحب، وهل كان مع الشاعر صاحبان يناديهما؟

وأيـــن معـــالم هذه البيئة وما ذكر فيها من الآرام والعرصات والقيعان وحب الفلفل والمطي وغير ذلك؟

هـــذه كلـــها أسئلة تقف أمام القارئ حائلا دون فهم تمام المعنى إن هو عرف ظواهر الألفاظ ومعانيها المعجمية الدالة عليها.

لذا نؤكد على ضرورة أن يستخدم الداعي الخطيب أو المحاضر..إلخ لغة الواقع المعاصر بشرط سلامتها من اللحن والخطأ حفاظًا على لغة القرآن، فالجنوح نحو السهولة والتيسير لا يعني الخطأ واللحن والتخفف من القواعد لأن هذا يؤدي إلى إفساد اللغة، ويكفيها ما أصابها من الفساد في واقعنا المعاصر.

ولهذا نحتاج إلى لغة وسط فصيحة ولكنها ليست بعيدة عن البيئة والعصر الذي تستعمل فيه، وذلك حتى لا نفقد التواصل مع الناس.

المراجع(*)

-ابن حجر القطري: الشيخ محمد بن عبدالوهاب- دار الاعتصام- القاهرة.

-ابن كثير: البداية والنهاية.

-ابن كثير: تفسير القرآن العظيم - دار إحياء الكتب العربية- القاهرة.

-أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: الاعتصام- ضبطه وصححه: أحمد عبدالشافي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية-١٤١١هـ-١٩٩١م.

-أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- مطابع علي بن علي- الدوحة- الطبعة العاشرة- ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

-أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية: الاستقامة- تحقيق: د.محمد رشاد سالم- مكتبة السنة- القاهرة- الطبعة الثانية- ١٤٠٩هـ.

-أبو محمد عبدالملك بن هشام: سيرة النبي ﷺ- النور الإسلامية- عين شمس.

-أحمد بن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم- تحقيق: د/عبدالحميد هنداوي- المكتبة العصرية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

أحمد بن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام- جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد ابن قاسم، وابنه محمد- دار الرحمة للنشر والتوزيع- بالقاهرة.

-أحمد بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري- رقم كتبه: محمد عبدالباقي- دار الريان- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

-أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي- مكتبة النهضة المصرية- الطبعة الخامسة عشرة- ١٩٩٩م.

-أكرم ضياء العمري: التراث والمعاصرة- رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية- قطر.

(*) قد ينقل البحث عن مؤلفين لهم انتماءاتهم الدعوية الخاصة فننبه إلى أن الباحث غير مسئول عن شيء مما عليه هؤلاء المؤلفون أكثر مما يعنيه النص المنقول، فالموافقة في شيء لا تعني الموافقة بكل شيء.

-أكـــرم ضـــياء العمـــري: التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام (في ضوء الكتاب والسنة)- مركز بحوث السنة والسيرة.
-الألباني: الفتاوى الإماراتية.
-أنور الجندي: الإسلام والمصطلحات المعاصرة- دار الهداية- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٩٩٧م.
-أيمـــن أبو شادي: نظرة علمية في أهل التبليغ والدعوة- أجياد، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـــ-١٩٩٨م.
-بكر بن عبدالله أبو زيد: حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية- دار ابن الجوزي- المملكة العربية السعودية.
-بهاء شاهين: شبكة الإنترنت.
-البهي الخولي: تذكرة الدعاة- دار البشير- الطبعة الأولى.
-توفيق يوسف الواعي: النساء الداعيات- دار الوفاء للطباعة والنشر.
-تيسير محجوب الفتياني: مقومات رجل الإعلام الإسلامي- دار عمار للنشر والتوزيع.
-جـــلال العـــالم: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام وأبيدوا أهله- مكتبة التابعين- القاهرة.
-الجويني- مختصر غياث الأمم- تحقيق د.مصطفى حلمي، د.فؤاد عبدالمنعم.
-حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين.
-حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام الشهيد- دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة- ١٤١٢هـــ-١٩٩٢م.
-حسن عيسى عبدالظاهر: فصول في الدعوة والثقافة الإسلامية- دار القلم- الكويت.
-حـــسين جابـــر: الطـــريق إلى جماعة المسلمين، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـــ-١٩٨٨م.
-حفـــصة أحمد حسن: أصول تربية المرأة المسلمة المعاصرة- مؤســـة الرسالة- الطبعة الأولى.

-حمد حسن رقيط: فقه التعامل مع الناس- دار ابن حزم.
-خالــد بن عبدالرحمن: وجوب الدعوة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ومنهاج جماعة التبليغ في ذلك، دار ثابت.
-الخليل بن أحمد: العين- تحقيق: د/ عبدالحميد هنداوي- دار الكتب العلمية- بيروت.
-خليل صابات: الصحافة.
-خولة درويش: مجالات المرأة الدعوية- دار المحمدي.
-رءوف شــلبي: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي (مناهجها وغاياتها)- دار القلم- الكويت.
-رضــا بن أحمد صمدي: ٣٠طريقة لخدمة الدين- دار الوطن- مصر- الطبعة الأولى. وطبعة أخرى: دار المؤيد- الرياض، ودار الفهد بجدة- ٢٠٠١م.
-رفاعــي ســرور: بيت الدعوة دراسة احتماعية من واقع التحرك الإسلامي- مكتبة الحرمين- طبعة رابعة.
-رفاعي سرور: حكمة الدعوة- مكتبة الحرمين- طبعة ثالثة.
-ســعد الدين السيد صالح: الفرق والجماعات الإسلامية المعاصرة وجذورها التاريخية، دار أحد، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
-سعيد عبدالعظيم: هيا بنا نؤمن ساعة- دار الإيمان- الإسكندرية.
-ســفر بــن عبدالرحمن الحوالي: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة- مطابع أم القرى- الطبعة الأولى- ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
-ســليم الهلالي: الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، دار البصيرة، الإسكندرية.
-السيد سابق: فقه السنة- الفتح للإعلام العربي- القاهرة- ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
-شــرف الــدين الحــسين بن عبدالله بن محمد الطيبي: شرح الطيبــي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن- تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي- مكتبة نزار الباز- مكة المكرمة- الطبعة الأولى- ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

-شريف اللبان: تكنولوجيا الاتصال.

-الشوكاني: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد.

-صالح العبود: عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي- رسالة دكتوراه.

-صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢.

-صلاح الصاوي: الوجيز في فقه الإمامة العظمى.

-صلاح الصاوي: مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي- الآفاق الدولية للإعلام.

-صلاح صاوي: جماعة المسلمين مفهومها وكيفية لزومها.

-عبدالحميد الغزالي: حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة- دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة- ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

-عبدالحميد هنداوي: المختصر الصحيح لتفسير القرآن العظيم (لابن كثير) - دار المدى- القاهرة - الطبعة الأولى- ١٤٢٣هـ-٢٠٠٠م.

-عبدالحميد هنداوي: دارسات حول الجماعة والجماعات- مكتبة التابعين- القاهرة- الطبعة الثانية- ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

-عبدالرحمن البدّ: مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم (أو التحمل والأداء)- دار اليقين للنشر والتوزيع.

-عبدالرزاق الصنعاني: المصنف - المكتب الإسلامي بيروت- الطبعة الثانية.

-عبدالعزيز بن باز من محاضرة له بعنوان: "محمد بن عبدالوهاب دعوته وسيرته"، الدار السعودية للنشر.

-عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة- دار الوفاء- المنصورة- ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

-عبدالكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية- مؤسسة الرسالة.

-عبدالمجيد الزنداني - البيان بين أصل الصعود وخطر التفكك - مجلة إسلامية- مكاتب المنتدى الإسلامي.

-عبدالوهاب عبدالعاطي عبدالله: مناهج أولي العزم من الرسل في تبليغ الدعوة على ضوء ما جاء في القرآن الكريم- دار الطباعة المحمدية بالأزهر- ط١- ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
-عصام مرعي: القول البليغ في نصح جماعة التبليغ- دار أهل السنة- توزيع المكتبة الإسلامية.
-علاء بكر: مذاهب فكرية في الميزان- دار العقيدة- الإسكندرية.
-علي الحمادي: لا تكن كصاحب الجُبَّاعة (خمس وعشرون قاعدة في فنون التعامل مع الآخرين)- دار ابن حزم.
-علي بن إبراهيم النملة: تأملات في طريق الدعوة (جولات في الزمان والمكان والتحديات)- مكتبة العبيكان.
-علي بن عمر بن أحمد بادحدح: مقومات الداعية الناجح- دار الأندلس الخضراء- جدة.
-علي جريشة: الاتجاهات الفكرية المعاصرة- دار الوفاء- المنصورة- الطبعة الثالثة- ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
-عمر عبدالعزيز قريشي: شبهات التفكير- مكتبة التربية الإسلامية- القاهرة- ط١- ١٤١١هـ.
-عوض بن محمد القرني: حتى لا تكون كلا... طريقك إلى التفوق والنجاح- دار الأندلس الخضراء.
-فاروق حسين: الإنترنت.
-فتحي يكن، رامز طنبور: العولمة ومستقبل العالم الإسلامي- مؤسسة الرسالة.
-فوزية العشماوي: الحوار بين الحضارات والخصوصيات الثقافية، جريدة الأهرام، العدد (٤١٩٣٦)، ١٣ رجب ١٤٢٢ هـ سبتمبر ٢٠٠١.
-مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة.
-مجدي عبدالمجيد الصافوري: سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية، دار الصحوة للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

-محمد إسماعيل المقدم: عودة الحجاب- دار العقيدة- الإسكندرية- الطبعة الرابعة.
-محمد الخضر حسين: وسائل الإصلاح- دار الإصلاح- السعودية- الدمام.
-محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف: عجز الثقات- دار الأندلس الخضراء.
-محمد بن صالح العثيمين: رسالة إلى الدعاة.
-محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي: البحر المحيط- دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد والشيخ علي محمد وآخران- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
-محمد بهاء الدين: المستشرقون والحديث النبوي، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
-محمد بيومي: أهل السنة والجماعة بين التجمع الحزبي والعمل الجماعي- دار الإيمان.
-محمد خليفة التونسي (ترجمة): الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون- مكتبة دار التراث- القاهرة.
-محمد سيد أحمد المسير: الحوار بين الجماعات الإسلامية- دار الطباعة المحمدية.
-محمد شوقي زكي: الإخوان المسلمون والمجتمع المصري- دار الأنصار- القاهرة- الطبعة الثانية- ١٤٠١هـ-١٩٨٠م.
-محمد عبدالقادر أحمد: هموم إسلامية في نظام عالمي جديد- مكتبة النهضة المصرية.
-محمد قطب: المسلمون والعولمة- دار الشروق.
-محمد قطب: مناهج التربية الإسلامية- دار الشروق.
-محمد قطب:مذاهب فكرية معاصرة- دار الشروق- القاهرة- الطبعة الثامنة- ١٤١٤ هـ-١٩٩٣م.
-محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الخامسة- ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
-محمد يوسف الكاندهلوي: حياة الصحابة- دار المعرفة- بيروت- لبنان.
-محمود عبد الرءوف: مقدمة في علم الإعلام والاتصال بالناس.

-محمـــود عبدالحكـــيم عـــثمان: جهـــود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي- مكتبة المعارف- الرياض- ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
-مـــروان الكحـــك: الأســـرة المسلمة أمام الفيديو والتليفزيون- دار الكلمة الطيبة- القاهرة- الطبعة الثالثة- ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
-مصطفى سبيتي: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي.
-ناصر العمر: البث المباشر.
-النووي: شرح مسلم- تحقيق: عبدالله أحمد أبي زينة- دار الشعب- القاهرة.
-وحـــيد الدين خان: المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية- ترجمة السيد رئيس أحمد الندوي- دار الصحوة ودار الوفاء- ١٩٩٤م.
-وليد فتح الله مصطفى بركات: دور الراديو في معالجة القضايا والمشكلات السلوكية في المجتمع المصري- رسالة ماجستير.
-يوســـف القرضاوي: الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط- دار التوزيع والنشر الإسلامية.
-يوســـف القرضـــاوي: الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، دار الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
-يوسف القرضاوي: الحل الإسلامي (فريضة وضرورة)- مؤسسة الرسالة.
-يوســـف القرضاوي: بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين- مؤسسة الرسالة.
-يوسف القرضاوي: تيسير الفقه للمسلم المعاصر- مكتبة وهبة.
-يوسف القرضاوي: فتاوى معاصرة.

الفهرس

هذا الكتاب

يناقش هذا الكتاب موضوعا" في غاية الأهمية ، وهو منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر ، حيث يقف مؤلفه ليجيب عن هذا التساؤل : هل يحتاج العلماء والدعاة أن يعاودوا النظر في مناهج الدعوة وأساليبها في واقعنا المعاصر بحيث تتواكب مع طبيعة هذا العصر ومقتضياته؟

واذا كان التطور والتطوير أمرا" لابد منه فما حدود هذا التطوير ، وما ضوابطه وما وسائله .. ؟

وهذا يقتضى تأصيل قضية التطور في المنهج والوسائل الدعوية عبر العصور ، والوقوف على مدى التغير الحادث في واقعنا المعاصر ، وكيفية الإفادة من مستجدات العصر في الوسائل والأليات والتقنيات الحديثة، بما يناسب حال المدعوين في واقعنا المعاصر

أما مؤلف هذا الكتاب فهو الكاتب الاسلامى الكبير الأستاذ الدكتور / عبد الحميد هنداوى الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، وله باع طويل في الكتابة في مجال الدعوة الإسلامية، كما أن له العديد من الكتب والبحوث والتحقيقات المختلفة في مجال العلوم اللغوية والشرعية على السواء، كما هو مبين في الكتاب في قائمة كتب المؤلف .

